في غرفة جميلة وحالمة.. تزخر بالألعاب الطفولية وتنطق بالبراءة، تدثرت تلك الطفلة الجميلة ذات الثماني سنين وهي في سريرها تنظر بعينين ناعستين إلى أمها التي تأكدت أن الغطاء يقيها البرد بشكل تام، ثم انحنت على وجنة الطفلة ومنحتها قبلة حانية قبل أن تقول "تصبحين على خير يا طفلتي"

فابتسمت الطفلة هامسة "تصبحين على خير يا أمي"

مسحت الأم على شعرها، ثم غادرت الغرفة بخطوات خافتة وهي تغلق الباب ليعم الغرفة الظلام إلا من نور وردي متماوج من المصباح الصغير عند السرير.. فاستكانت الصغيرة وهي تستسلم للنعاس الذي غزا عينيها وتحتضن أرنباً ورديا يبلغ طولها، وتشاءبت قبل أن تنقلب في سريرها.. وبعد لحظات، انتبهت أن النور الخفيف في الغرفة قد تزايد.. أن نسمة دافئة تهب عليها رغم النافذة المغلقة.. فتحت عينيها لتنظر حولها.. ورغم أن النور الصادر من المصباح كان قربها، إلا أنها رأت نوراً آخر يندلع من وسط الغرفة من الفراغ..

فاعتدلت الفتاة جالسة تنظر لما أمامها بفضول سرعان ما تحول لذعر وهي تنادي بصوت مرتجف "أمي.. أبي.." بدأت تسمع أزيزاً قوياً مصدره ذلك النور الذي تزايد مع اللفحات الحارة التي هبّت في الغرفة.. قبل أن يشع النور بقوة امتزج مع طنين قوي صمّ أذنيها وجعلها تصرخ وهي تغمض عينيها وتسدّ أذنيها بيديها.. دام الصراخ والطنين لثواني قليلة قبل أن يسود الغرفة صمت وسكون تام وقد اختفى كل ما كان فيها..

الطنين .. والنور .. والفتاة ..

العائدة من أنكاريا

بقلم: خيال

« مقـــدمـــــة »

النور.. النور المبهر الحارق..

نور يعشي البصر وله تسيل الدموع محاولة تخفيف أثر الحرقة التي أصابت العين المتألمة..

أم أنها دموع الصدمة؟..

دموع السعادة؟؟..

نظر حوله بعينين ترمشان بألم، وتناسى الألم والحرقة وهو يمسح الدموع المنهمرة ويتطلع حوله للمنظر الغريب.. لكن صدمته لم تكن لغرابة المنظر حوله وهو يتأمل يده التي كان يمسح دموعه بها.. نظر لها مطولاً بقلب خافق، وأدارها وهو يثني أصابعه بدهشة وارتجافة..

ثم وجد نفسه يقفز على قدميه بخفة لم يعهدها في نفسه، ودار حول نفسه متأملاً ما حوله بصدمة متزايدة قبل أن تتسلل ابتسامة لشفتيه اللتين لم تعرفا سوى التهجم منذ زمن طال..

إنها معجزة..

لقد عادت له الحياة من جديد..

يا لها من صدمة..

يا له من شعور..

يبدو أن حظه الحسن لم يتخلّ عنه بعد..

صحيح أنه في موقف غريب قد يثير استنكار ورعب أي شخص آخر..

وصحيح أن هناك مئات الأسئلة التي بحاجة لمن يجيب عليها..

لكنه لم يعبأ بكل هذا..

لقد ولِدَ من جديد..

كيف للحياة أن تسوء بعد كل هذا؟؟..

****

الفصل الأول « ليت ذلك كان حلماً.. »

في غرفة جميلة وحالمة.. تزخر بالألعاب الطفولية وتنطق بالبراءة، تدثرت تلك الطفلة الجميلة ذات الثماني سنين وهي في سريرها تنظر بعينين ناعستين إلى أمها التي تأكدت أن الغطاء يقيها البرد بشكل تام، ثم انحنت على وجنة الطفلة ومنحتها قبلة حانية قبل أن تقول "تصبحين على خير يا طفلتي"

رفعت الطفلة ذراعيها لتتعلق برقبة أمها وهي تمنحها قبلة بدورها قبل أن تغمغم "أين أبي؟ لم أره اليوم"

قالت الأم وهي تعيدها للسرير "سيكون أول من ترينه غداً يا صغيرتي.. نامي لكيلا تستيقظي متعبة صباح الغد"

فابتسمت الطفلة هامسة "تصبحين على خير يا أمي"

مسحت الأم على شعرها وهي تتأمل ملامحها الجميلة.. كانت الطفلة ذات وجه دائري أبيض بخدين متوردين وغمازتين واضحتين وسطهما، عيناها سوداوان لامعتان وفمها يحمل ابتسامة جميلة.. ويتوج كل هذا شعر أسود يصل لكتفيها بنعومة.. ابتسمت الأم للطفلة ثم غادرت بخطوات خافتة وهي تغلق الباب خلفها ليعمّ الظلام الغرفة إلا من نور وردي متماوج من المصباح الصغير عند السرير.. فاستكانت الصغيرة وهي تستسلم للنعاس الذي غزا عينيها وتحتضن أرنباً ورديا يبزّها طولاً، وتثاءبت قبل أن تنقلب في سريرها.. وبعد لحظات، انتبهت أن النور الخفيف في الغرفة قد تزايد، وأن نسمة دافئة تهب عليها رغم النافذة المغلقة.. ففتحت عينيها لتنظر حولها.. ورغم أن النور الصادر من المصباح كان قرب سريرها، إلا أنها رأت نوراً آخر يندلع من وسط الغرفة من الفراغ.. فاعتدلت الفتاة جالسة تنظر لما أمامها بفضول سرعان ما تحول لذعر وهي تنادي بصوت مرتجف "أمي.. أبي.."

بدأت تسمع أزيزاً قوياً مصدره ذلك النور الذي تزايد مع اللفحات الحارة التي هبّت في الغرفة.. قبل أن يشع النور بقوة امتزج مع طنين قوي صمّ أذنيها وجعلها تصرخ وهي تغمض عينيها وتسدّ أذنيها بيديها.. دام الصراخ والطنين لثواني قليلة قبل أن يسود الغرفة صمت وسكون تام وقد اختفى كل ما كان فيها..

الطنين.. والنور.. والفتاة..

****

ارتجفت يد الأم التي تحمل كوباً من القهوة بشكل واضح وهي تسمع الطنين الخفيف يتعالى في الشقة الهادئة.. بدا الصوت خافتاً نوعاً ما بشكل كافٍ ليسبب توترها وهي تحاول معرفة مصدره.. لكن لما تعالى صياح ابنتها المذعور من

خلف باب الغرفة المغلق، أسقطت الأم الكوب أرضاً وهي تنهض بقلب مرتجف وتركض نحو الغرفة.. لاحظت النور الخافت الذي تسلل من تحت الباب، مما زاد وجيب قلبها وهي تهمس "يا إلهي.. ما الذي يجري؟"

فتحت الباب بشيء من العنف ودلفت الغرفة بقلب واجف.. لكن قلبها توقف عن وجيبه للحظة وهوى بانتفاضة وهي ترى الغرفة المظلمة، إلا من نور المصباح الجانبي، خالية من أي شيء.. لم يكن هناك أي نور كالذي رأته يتسلل من تحت الباب.. ولم يكن هناك أي طنين أو صوت غريب.. ولم يكن هناك أي أثر لطفلتها الصغيرة على الفراش الخالي..

انتفضت الأم برعب وهي تهبّ نحو السرير وترمي الغطاء بعيداً.. كانت لا تزال تأمل أن الطفلة مختبئة تحت الغطاء المكوّم جانباً لمفاجأتها.. لكن السرير الخالي بدد آمالها وجعل الانتفاضة في جسدها أقوى وهي تصيح "ريم.. أين أنت؟"

تفحصت الغرفة بسرعة.. بحثت أسفل السرير.. تفحصت الخزانة وما خلف الملابس فيها.. بحثت خلف الستائر.. ولما عجزت عن العثور على ابنتها، خرجت من الغرفة لتبحث عنها في أرجاء الشقة رغم أن باب الغرفة لم يُفتح قط.. لكن إيهام نفسها أن الفتاة قد غادرت الغرفة في غفلة منها كان أفضل من الاستسلام للذعر الذي يتسلل إلى عقلها بإصرار..

لكن بعد دقائق معدودة، كانت الأم تعود لغرفة الفتاة وهي تصيح "ريم.. لو كانت هذه مزحة منك فمن الأفضل أن تتوقفي الآن.."

لم يجاوبها إلا الصمت المطبق، فصاحت بحرقة "ريـــــــــــم.."

****

عندما عاد الوعي للفتاة، وشعرت بالأرض الترابية من تحتها، نهضت جالسة بأسرع ما تستطيع وعيناها تتسعان.. كان المنظر من حولها مظلماً شيئاً ما لشحّة النور بعد أن غابت الشمس خلف سحب كثيفة.. وهذا زاد ذعرها وهي تدير البصر في الأشجار المتفرقة من حولها والأرض الترابية من تحتها والسماء الرمادية الغائمة من فوقها.. تسارعت أنفاسها وهي تنظر حولها بذعر متزايد محاولة معرفة كيفية وصولها لهذا المكان.. كل ما رأته وهي تهمّ بالنوم في غرفتها الآمنة هو بعض النور والطنين المزعج.. فما الذي جرى؟؟ ما الذي جرى؟؟..

نهضت وجسدها يئن ألماً لسبب غير مفهوم، ودارت حول نفسها باحثة بعينيها على مد البصر، دون أن تعثر لأثر من أبويها أو ما يدل على قرب مدينتها من هذا الموقع.. ازداد قلقها وذعرها مع مرور الدقائق، ثم سارت بخطوات متعثرة نحو أحد الاتجاهات وهي تتلفت حولها، قبل أن تستجمع شجاعتها وتصيح بصوت مرتجف "أمـــــــي.. أين أنت؟"

لم تسمع صوتاً رداً على ندائها، فعادت تصيح بصوت أعلى "أبـــــــــــي.. أين ذهبت؟ لم تركتني هنا؟.. أمـــــــــــي.. أبـــــــــــي.. أين أنتما؟"

سمعت صوتاً خافتاً من موقع قريب جفلت له، فدارت حول نفسها بسرعة وقلق وبصرها ينتقل من موقع لآخر بحثاً عن مصدر الصوت.. ولوهلة، لم ترَ الفتاة شيئاً غريباً حولها.. لكن بعد نظرة أخرى، لاحظت أن بعض جذوع الأشجار الطويلة تتحرك بهدوء حركة خافتة.. اتسعت عيناها بدهشة واستنكار، عندما لاحظت أن ما بدا لها كأشجار كان في الواقع أجساداً طويلة طويلة، يتجاوز طولها ارتفاع الشخص العادي حتى تكاد توازي الأشجار طولاً.. وبنحولها الشديد مقارنة بطولها، ومع الظلال المتماوجة على أجسادها بحيث لم تبدُ الملامح لعيني الفتاة واضحة، فإن الذعر استبدّ بالفتاة التي شهقت بارتجافة واضحة وهي تتراجع بضع خطوات.. لكن الأجساد ظلت هادئة في خطواتها وهي تتقدم من الفتاة في إصرار واضح..

فتحت الفتاة فمها لتصرخ برعب واضح وهي ترى الأجساد تقترب منها ورؤوسها تعانق أطراف السماء، كما بدا لها بعينها الطفولية.. لكن حنجرتها أطلقت حشرجة خفيفة شبه صامتة، بينما ارتجفت ساقاها وهي عاجزة عن الاستدارة والابتعاد عن موكب الرعب القادم.. كانت الأجساد المتحركة تتكاثر من حولها، تتزايد فيزيد عددها عما تقدر الفتاة على عدّه.. ورغم هدوء خطواتها إلا أن طول سيقانها يجعلها تتقدم بسرعة أكبر مما تقدر الفتاة على تخطّيه.. لذلك، لم تجد الفتاة إلا أن تركع أرضاً وهي تدفن وجهها بين ركبتيها وتغمض عينيها بقوة محيطة رأسها بذراعيها.. تزايدت نبضات قلبها بشدة ورعب وهي تشعر بالخطوات الخافتة، رغم ضخامة الأجساد، تقترب منها وتحيط بها.. ظلت الفتاة على وضعها فترة طويلة دون أن تشعر أن شيئاً ما قد لمسها.. بدأت الخطوات تتجاوزها وتخفت رويداً رويداً حتى عاد السكون للمكان من حولها، عندها تجرأت الفتاة على أن تفتح عينيها وهي تنظر حولها فلا ترى إلا الأشجار الساكنة الثابتة منذ الأزل.. شعرت الفتاة بجسدها يرتجف وهي تنظر حولها بذعر واضح ملاحظة اختفاء تلك الأجساد الضخمة التي لا يمكن للعين أن تغفلها.. فأين اختفت بهذه السرعة؟.. وجدت الفتاة نفسها تستدير راكضة في الاتجاه المعاكس للذي ذهبت فيه الأجساد وهي تحاول تمالك رجفة شفتيها ودموعها التي تعلقت بأهدابها عصيّة على النزول.. وكأن الاستسلام للبكاء الذي غصّ به حلقها سيؤدي بها لانهيار لا تقدر عليه في تلك اللحظة..

ركضت وركضت دون توقف وهي تهمس "لابد أنه حلم.. لابد أنه كابوس.. متى سأستيقظ؟ متى؟.."

****

فُتح باب الشقة بعنف ودلف منه رجل في أوسط عمره يبدو القلق واضحاً على ملامحه والصدمة جليّة في عينيه.. فرمى ما بيده جانباً وهرع نحو الأم التي انطوت على نفسها على أحد الكراسي هاتفاً "ما الذي يجري يا سلمى؟ أين ابنتي؟"

قالت سلمى ودموعها تسيل على خديها دون أن ترفع وجهها نحوه "لقد اختفت.. بحثت عنها في أرجاء الشقة دون أن

أعثر لها على أثر.. اعثر عليها يا إبراهيم.. أرجوك"

قال إبراهيم بحيرة وتوتر شديدين "كيف يمكن أن يكون ذلك؟ هل أنت متأكدة؟"

هبّت سلمى واقفة وقالت بارتجافة "متأكدة؟.. أهذا سؤال تسألني إياه؟"

وأخفت وجهها خلف يديها وهي تقول باكية "لو لم أكن متأكدة، أكنت ستراني منهارة بهذا الشكل؟"

لم يعلق إبراهيم وهو يهرع نحو غرفة الطفلة ومئات الاحتمالات تدور في ذهنه.. ولم يكن الاختطاف أقلّ هذه الاحتمالات فظاعة.. ولم يكد يصل لباب الغرفة المفتوح على مصراعيه حتى وقف بحركة حادة وهو يحدق في الغرفة بصمت.. ثم التفت خلفه قائلاً بحيرة "لكنها هنا.."

انتفضت سلمى بدهشة وإبراهيم يضيف "هي في فراشها كالعادة.. أكانت هذه تهيؤات أم ماذا؟"

هبّت سلمى نحو الغرفة بلهفة، وعلى ضوء النور القادم من الباب رأت الطفلة نائمة في جانب الفراش بينما الغطاء المتكوم يحتل الجانب الآخر.. فهرعت إليها وأدارتها نحوها لتراها نائمة بكل وداعة.. عندها احتضنتها بقوة وهي تجهش بالبكاء بانفعال عارم بينما زفر إبراهيم بشيء من الحدة وهو يقول "لقد أفزعتِني بحديثك عن اختفاء ريم المفاجئ.. لكن الحمدلله لم يحدث شيء مما خشيت منه.."

واقترب من الاثنتين متلمساً شعر الطفلة بحنان مغمغماً "لا داعي لكل هذا البكاء والفزع.. لابد أنها اختبأت تحت السرير محاولة إثارة ذعرك، وقد أفلحت في ذلك حقاً.."

لم تجبه سلمى وهي مستمرة بالبكاء، بينما صمت إبراهيم وهو يتأمل الشحوب الواضح على وجه الطفلة، لكنه عزا الأمر لشحّة الضوء في الغرفة، عندما علا صوت سلمى بارتجافة واضحة وهي تقول "إبراهيم.. إنها لا تستيقظ.."

نظر إبراهيم لوجه ابنته النائم بوداعة، بينما سلمى تضمها لصدرها بقوة وهي تقول بصوت متوسل "إنها لا تفتح عينيها.. ما الذي جرى لابنتي؟ أجبني.."

ركع إبراهيم قرب الطفلة وتفحصها محاولاً إيقاظها.. لكن رغم أنها تتنفس بهدوء، ورغم انتظام ضربات قلبها، إلا أن عينيها بقيتا مغلقتين ووعيها غائباً بشكل غريب.. فعدّل إبراهيم عويناته الطبية بتوتر وهو يقول "ما الذي جرى لها قبل نومها؟ هل تناولت شيئاً ما؟"

قالت سلمى بانهيار "لا.. لقد تناولت عشاءها المعتاد وأوت لفراشها دون أن يبدو عليها أي تغيرّ.. ما الذي جرى لها؟"

نهض إبراهيم واقفاً وقال مقطباً "ربما علينا أن نطمئن عليها أكثر.. حالتها هذه غير مطمئنة أبداً.."

وأضاء نور الغرفة مضيفاً "بدّلي ملابس نومها لنأخذها للمستشفى.."

قاطعته شهقة من سلمى، فاستدار إليها بدهشة ليراها تحدق في الطفلة بصدمة ظاهرة.. اقترب منها متسائلاً "ما الأمر؟"

لم تحوّل سلمى بصرها عن الطفلة قائلة بصوت مهتز "إبراهيم.. أهذه..... أهذه ابنتي؟"

رفع إبراهيم حاجبيه بدهشة مستنكرة، ولما نظر للطفلة على نور الغرفة أدرك ما تعنيه على الفور.. كانت الطفلة كما عهدها دائماً، بملامحها المألوفة والمحببة له.. لكن ما لم يكن مألوفاً هو ذلك الرداء الذي ترتديه، والمكون من قميص طويل يصل حتى أسفل ركبتيها من قماش لم يتعرف عليه، بلون أبيض وقد بَلِيَ لكثرة الاستخدام.. وما أدهشه أكثر رؤية شعرها الناعم اللامع عادة، وقد بدا خشن المظهر مبعثراً.. ووجهها المشرق عادة بدا شاحباً ومتعباً بهالات سوداء تحت عينيها وعظام خديها بارزة بشكل واضح..

ظل إبراهيم يتطلع للطفلة بحيرة، ثم قال "ما الذي جرى لها؟"

قالت سلمى وهي تنظر له بعينين متسعتين "هذه لا تبدو كابنتي ريم.. تبدو.. تبدو كفتاة أخرى تماماً.."

غالب إبراهيم حيرته وقال باستنكار "ألأنها تبدو بهذه الحالة الغريبة تنكرينها؟.. ألا تعرفين ملامح ابنتك؟.. كفّي عن البكاء واستبدلي ملابسها.. سآخذها للمستشفى حالاً.."

وأسرع يغادر الغرفة، بينما ضمّت سلمى الطفلة أكثر وهي تهمس باكية "ما الذي جرى لك يا صغيرتي؟ ماذا حلّ بك يا بسمتي ونور حياتي؟.. أجيبيني أرجوك.."

****

بعد ركض مستمر لوقت طويل، وقفت الفتاة مستندة على ركبتيها بيديها وهي تلهث بشدة وقلبها يدق بقوة وتسارع.. رغم الوقت الذي قضته في الهرب، إلا أن المناظر من حولها لم تتغير البتة، فلازالت الأشجار المتفرقة في كل مكان، ولازالت المساحات العشبية على مد البصر.. والأسوأ من ذلك كله، أنها لم تستيقظ من النوم قط..

نظرت الفتاة لقدميها الحافيتين اللتين عفّرهما التراب، وثوب نومها الذي تغير لونه، وأزاحت شعرها المبعثر للوراء وهي تهمس بصوت مرتجف "متى سينتهي هذا الحلم البغيض؟ متى سأغادر هذا المكان المخيف؟"

مسحت دموعاً كادت تهطل على خديها بيد ترتجف، ثم جرّت قدميها لتسير من جديد وهي تتلفت حولها بارتباك وتوتر متزايد.. بحثت ببصرها عن أي بشري قربها، أو أي لمحة من حياة قد تجيب الأسئلة التي تعتمل في عقلها دون توقف.. وبينما هي غارقة في توترها وقلقها، شعرت بشيء ناعم رطب يلمس ساقها بخفة.. انتفضت وهي تلتفت بحدة، لترى ذلك الحيوان الصغير الذي يشبه الذئب بملامحه الحادة وفرائه الرمادي، إنما بجسد أصغر يقارب الثعلب حجماً، يلمس ساقها بأنفه ويتشممها بصمت.. شهقت الفتاة وهي تتراجع بفزع، عندها رأت الذئب الصغير يكشف عن أنيابه ويزمجر بشيء من العدائية.. فصرخت الفتاة بشدة واستدارت راكضة بذعر شديد وهي تسمع الزمجرة تتعالى من خلفها..

ركضت بأسرع ما تستطيع وهي لا تجرؤ على الالتفات خلفاً خشية رؤية الذئب يلاحقها، ولم تتوقف حتى تعثرت ببعض

الأحجار التي اعترضت طريقها وتدحرجت شيئاً ما على منحدر صغير قبل أن تستقر أرضاً على بطنها وهي تلهث بشدة.. لكن مع الزمجرة التي تعالت مرة أخرى حاولت النهوض بسرعة، لكن ذراعيها خانتاها وهي بالكاد ترفع رأسها.. التفتت خلفها لترى الذئب الصغير يتقدم منها مُبرزاً أنيابه، وقبل أن تشهق فزعة وجسدها لا يكاد يطاوعها للهرب، سمعت خطوات تقترب منها وصوتاً يقول "عجباً.. ما الذي فعلتِهِ بنفسك يا فتاة؟"

استدارت نحو الصوت بعينين متسعتين وهي ترى فتىً بجسد طويل، مقارنة بها، وبوجه نحيف على شيء من السمرة، وشعر بني قصير وعينان عسليتان تأملتاها بتعجب.. استدارت الفتاة خلفها بتوجس لترى الذئب الصغير قد وقف في موقعه مزمجراً.. فأسرع الفتى يحمل حصاة من الأرض ويرميها عليه قائلاً "ابتعد أيها الأحمق.. لن تجد ما تأكله هنا.."

قفز الذئب خلفاً لتفادي الحصاة، ثم سرعان ما استدار مبتعداً دون اعتراض.. بينما نظر الفتى للفتاة وهو يسأل "من أنت يا فتاة؟ ومن أين أتيت؟"

ظلت تنظر له بصمت وإن بدأت دموعها تسيل على وجنتيها بعد أن عجزت عن إيقافها، قبل أن تخفي وجهها بين ذراعيها وتبكي دون أن تردّ على أسئلته.. ظل ذلك الفتى ينظر لها بتعجب وحيرة، ثم جثا قربها وتساءل " هل أنت مصابة؟"

هزت رأسها نفياً بسرعة وهي تبكي بازدياد، فازدادت حيرته وهو يسألها "إذن ما بك؟ أأنت تائهة؟"

أخيراً تمكنت من أن تقول بصوت متقطع "لا أعرف.. لا أعرف ما الذي جاء بي هنا.. ولا أعرف أين اختفى الجميع.. ولا أعرف كيف يمكنني أن أستيقظ من هذا الحلم المخيف.. أنا خائفة"

فقال بتعجب "حلم؟"

لم تعلق وهي تبكي بلا انقطاع.. بينما وقف الفتى ينظر لها بحيرة، وتلفت حوله بحثاً عن أثر لأي شخص آخر قبل أن يعود إليها ببصره متسائلاً من جديد "إذاً ألا تعرفين أين هي قريتك؟"

رفعت رأسها وتطلعت لوجهه القريب بدهشة، ثم غمغمت "قرية؟ لست أعيش في قرية.."

كان دور الفتى ليرفع حاجبيه بدهشة، ثم قال لها "ليس هذا هو المهم الآن.. لنغادر هذا المكان، فلا يجب أن نبقى به طويلاً.. ليس هذا الذئب بآخر متاعبنا.."

نظرت له بقلق وهي تتساءل "كان ذلك الذئب ينوي التهامي.. أليس كذلك؟"

قال لها الفتى بجدية "ليس كبيراً كفاية ليلتهمك.. لكنه لم يكن ليغادر قبل أن يظفر بساق أو ذراع منك.."

ارتجفت الفتاة بفزع ظاهر وهي تعتدل جالسة، فضحك الفتى قائلاً " هل أفزعك هذا؟.. ألم تعلمي حقاً أن تلك الحيوانات لا تأكل إلا الفئران؟ من أين أنت؟!.."

نظرت له بدهشة وإن ظلت صامتة دون أن تعلق.. فسمعت الفتى يسألها "ألن تخبريني ما هو اسمك؟"

عاد تفكيرها للفتى الراكع قريباً يتأملها بابتسامة، فقالت بخفوت "ريم.."

اتسعت ابتسامة الفتى وهو ينهض ويجذبها من يدها لتنهض معه قائلاً "حسناً يا ريم.. يحسن بنا أن نذهب.. هل ستأتين معي للقرية؟.."

نظرت له بتوتر وهي تغمغم "القرية؟"

نظر لها بتشجيع مجيباً "أجل.. ستحبينها.. إنها قرية صغيرة وبها أناس طيبون.."

استسلمت له ريم بصمت وهو يجذب يدها بيده ويسير نحو أحد الاتجاهات بصمت.. فمسحت دموعها بيدها الأخرى وهي تتبعه دون اعتراض بعد أن زال خوفها وغمرها دفء من تلك اليد التي تمسك بيدها، وبعد أن منحتها ابتسامته وهو يلتفت إليها أثناء سيرهما شعوراً بالأمان وهي تبادله الابتسام تلقائياً.. لكن لما ضغط على يدها بشيء من القوة مشجعاً وهو يتحدث بلا انقطاع بما لم تستوعبه، غمرها شيء من العجب الممزوج بالقلق.. رغم أنها حاولت تكذيب مشاعرها منذ استيقاظها، لكن ما تشعر به وما يحسّه جسدها مع مرور الدقائق قد أشعل في نفسها قلقاً لا حدود له.. لم تكن هذه اليد التي تمسك يدها بقوة تبدو لها كمجرد حلم.. ولم تكن الآلام المنتشرة في ساقيها بسبب الخدوش التي أصابتها تبدو مجرد تهيؤات.. كل شيء بدا لها حقيقياً أكثر مما قد تتمنى..

فمتى ستستيقظ يا ترى؟؟..

****

ضمّت سلمى ابنتها بقوة إلى صدرها وهي تطيل النظر لوجهها باستمرار.. كانت الفتاة تبدو نائمة بعمق وكأنها لا تشكو من شيء، لكن محاولات الأبوين الدؤوبة لإيقاظها كانت تبوء بالفشل دائماً، بالإضافة لحرارة جسدها المنخفضة بشكل مريب.. سمعت إبراهيم يقول بتوتر حيث جلس قربها في سيارة الأجرة "لا تقلقي، كل شيء سيكون على ما يرام.. ربما كان هذا زكاماً.."

نظرت له سلمى قائلة بصوت مرتجف "زكام؟.. وهل كل ما رأيناه هو بسبب زكام؟ سقوطها في شبه غيبوبة.. وحرارة جسدها المنخفضة.."

ثم أضافت وقد تزايد استنكارها "وماذا عن الملابس الغريبة التي وجدناها عليها؟.. ماذا عن الهالات تحت عينيها؟ ماذا عن هزالها الشديد؟.."

قال إبراهيم بتوتر "ربما هذا راجع لمرضها.. لكنها ستغدو بخير بإذن الله تعالى مع بعض العلاج.."

قالت سلمى بحدة "لا.. هذا لا يحدث في لحظات قصيرة.. لقد نامت ابنتي بأتم صحة وعافية.. لكن هذه....."

ونظرت للفتاة الراقدة على ذراعيها بتردد كبير قبل أن تغمغم بصوت ينتفض "هذه لا تبدو لي كأنها ابنتي.."

نظر لها إبراهيم باستنكار وقال "لا داعي لهذا الجنون يا سلمى.. ستتأكدين من الأمر بعد أن يراها الطبيب.."

غمغمت سلمى بغير اقتناع "أتظن أن هذا حقاً بسبب المرض؟"

قال إبراهيم متنهداً وهو يتأمل الأنوار التي تتراكض نحو الخلف "أليس ذلك أفضل من أفكار ستؤدي بنا للجنون؟"

سمع سلمى تتنفس بعمق محاولة تهدئة انفعالاتها.. لكنه لم يحوّل بصره عن النافذة مراقباً الأنوار الراكضة بصمت تام.. رغم استنكاره لكل ما سمعه ورآه في هذه الليلة، والذي يثبت أن شيئاً ما قد حدث يفوق قدرتهما على الفهم، إلا أن عقله يقاوم بإصرار متشبثاً بما يعرفه.. كل شيء على ما يرام.. هذا مجرد زكام عابر سيزول مع بعض العناية.. مجرد زكام بكل تأكيد..

****

بعد سير طويل وسط تلك السهول العشبية، توقف الفتى فجأة وقال "يحسن بنا أن نقف هنا ونرتاح قليلاً.."

سألته ريم بقلق "هل قريتك بعيدة؟"

أجاب الفتى "لا، ليست بعيدة.. لكنني أنتظر شخصاً من قريتي سيأتي بعد قليل.."

رأته يختار بقعة قرب إحدى الأشجار، وجلس تحتها بينما وقفت ريم جانباً بصمت قلق.. رأته يستخرج من جيبه خنجراً حاداً بدا ضخماً في يده.. فنظرت له ريم بفزع بينما قال الفتى مبتسماً "اجلسي لترتاحي قليلاً.. ربما يطول انتظارنا.."

سألته مشيرة نحو الخنجر بذعر "ولمَ هذا الخنجر؟"

قال بجدية "هذا للدفاع عن أنفسنا.. إن رأينا حيواناً صغيراً سأتولى أمره بنفسي فلا تقلقي.."

ولوّح بالخنجر مؤكداً على كلامه، ثم أضاف "وإن رأينا حيواناً كبيراً، فيحسن بنا ألا نتواجه معه.. سنتسلق هذه الشجرة العالية ونلوذ بها حتى ييأس الحيوان ويتركنا.. اتفقنا؟"

قالت ريم بقلق "نتسلق؟.."

أجاب الفتى "أجل.. ويجب أن تفعلي ذلك بسرعة.. ولا تنسي أن تتشبثي بالشجرة جيداً، فأي لطمة من الحيوان لجذعها قد تسقطك لقوة الضربة.."

فقالت ريم بقلق أكبر "لكنني لا أعرف كيف أفعل ذلك.."

نظر لها الفتى باستنكار، ثم تساءل مقطباً "أأنت جادة؟ ما من شخص في هذه الأنحاء لا يعرف كيف يتسلق الأشجار.. من أين أنت حقاً؟.."

خفضت ريم وجهها بصمت وضيق، فتدارك الفتى أمره وقال مبتسماً "لا تقلقي.. سنحاول تدبر أمورنا.."

ثم أضاف مغمغماً لنفسه "أو أن هذا ما أرجوه.."

جلست ريم وهي تريح رأسها على ذراعيها المعقودتين على ركبتيها.. ظلّ عقلها يلحّ ويصرّ أنها بكامل وعيها وأنها لم تنم قط لتحلم مثل هذا الحلم.. لكن قلبها كان ينتفض رعباً وينفي الأمر باستمرار.. رغم كل الدلائل.. رغم كل ما تشعر به.. لكنه يصرّ على أنها تحلم.. حلم عميق وطويل.. كابوس مزعج.. لكنه مجرد حلم ستستيقظ منه لتجد نفسها في أحضان والديها..

ومع الصراع الذي يتناهبها، بدأ النوم يتسلل لعينيها بغفلة منها حتى غرقت في نوم أقرب لغيبوبة وسط صمت المكان التام..

لا تعلم كم طال بها الوقت وهي نائمة ، لكن ريم انتبهت من نومها على أصوات خافتة تتردد قريباً.. رفعت رأسها ملاحظة اختفاء الفتى الذي كان يجلس قريباً منها.. تلفتت حولها بشيء من القلق لتراه على شيء من المبعدة يجثو قرب عدة صخور شكلت له حاجزاً يختبئ خلفه.. وقربه رأت رجلاً أكبر عمراً بكثير وهو يتجادل مع الفتى بشيء من الحدة إنما بصوت خافت..

تساءلت ريم في عقلها عن هوية ذلك الشخص الذي انضمّ إليهما أثناء نومها.. أهو من أهل القرية التي ينتمي لها الفتى؟.. بقيت في موقعها تستمع لما يقال دون أي حركة.. فسمعت الفتى يقول بصوت جاد غابت ابتسامته "لمَ لا نفعل ذلك؟ هذه فرصة لن تتكرر كثيراً.."

غمغم الرجل بشيء من الاعتراض "لا تزال صغيرة.."

اندفع الفتى يقول "ولذلك يجب ألا نتأخر.. سيكون لحمها أطرى وألذ.. أليس كذلك؟ ثم إنها قد تهرب إن تركناها مدة أطول.."

صمت الرجل مفكراً للحظة فأضاف الفتى "أنا من عثر عليها، لذلك لي الحق بصيدها.. أليس كذلك؟ ما كان عليّ أن أنتظر قدومك.."

اقشعرّ بدن ريم وهي تستمع لحديثهما دون أن يغيب عنها مغزاه.. أهم ينتوون أكلها؟.. لا.. مستحيل.. هذا حلم.. مجرد حلم.. لكن من قال إن الأحلام ليست قاسية بهذه الطريقة المفزعة؟..

سمعت الرجل في تلك اللحظة يتساءل "ما اسمها؟"

أجاب الفتى "اسمها ريم.. ولا أعلم من أين أتت، فهي نفسها لا تعرف"

تراجعت ريم بخفة من موقعها بعد أن اكتفت بما سمعته، وتسللت محاولة الهرب دون إصدار صوت.. لم تكن ترغب بالبقاء ومعرفة ما يقصده الفتى بقوله ذاك.. عليها الهرب.. إلى أين؟.. لا تعلم.. لا تعلم ولا تريد أن تنتظر لتعلم.. داست

أثناء تراجعها ببعض الأفرع اليابسة التي انكسرت تحت ثقلها، فتوقف الحوار بين الفتى والرجل على الفور وهما يلتفتان نحوها.. عندها أطلقت ريم ساقيها للريح وسلكت طريقها بين الأشجار بسرعة غير مبالية بما تدوسه أو يجرح ساقيها أو قدمها الحافية.. سمعت صوتاً خلفها يقترب بسرعة مما زاد ذعرها، وقبل أن تلتفت وجدت من يجذب ذراعها ويوقفها بقوة شهقت لها وهي تنظر خلفها.. فرأت الفتى يمسك بها وهو يقول بدهشة "ما الذي جرى لك؟ مم تهربين؟"

حاولت جذب ذراعها بقوة وهي تصيح "اتركني.. لا أريد البقاء هنا، ولا أريد الذهاب معك.. اتركني"

لكنه لم يطلقها ودهشته تتزايد قائلاً "ما بك؟ ما الذي أفزعك هكذا؟"

قالت له بغضب وهي تحاول الإفلات "ما الذي تنتوون فعله بي؟ لقد سمعتك وذلك الرجل تتحدثان.. كنتما تخططان لقتلي و... و....."

بدا أن الفتى قد فهم ما تقوله فضحك بشدة قبل أن يقول "هل سمعت كل هذا؟.. حسناً.. لا يجب أن تهربي رغم ذلك.. هيا بنا، سنعود للقرية بعد قليل.."

حاولت ريم مقاومته، لكن الفتى جذبها معه عائداً لموقعهما السابق، فوجدت ريم نفسها تركله في ساقه بقوة جعلته يركع بألم ويفلتها، عندها استغلت الفرصة لتستدير محاولة الهرب.. قفز الفتى نحوها محاولاً الإمساك بها، لكنها قفزت بدورها في خطوات واسعة حتى وجدت نفسها تخطو خطوة في الفراغ قبل أن يتدحرج جسدها في ذلك المنحدر الصخري الذي ظهر أمامها فجأة.. لم تتمكن ريم من إيقاف اندفاعها وهي تغمض عينيها بقوة حتى وجدت صخرة ترتطم برأسها بقوة وتفقدها الوعي على الفور..

وسرعان ما لحق بها الفتى عبر المنحدر، فركع قربها قائلاً "يا لك من حمقاء.. أين يمكنك الهرب في هذه السهول؟"

تفحص رأسها لمعرفة إن كانت إصابتها شديدة، ثم أسرع يرفعها ويضعها على ظهره محيطاً عنقه بذراعيها، وركض بها عائداً من حيث أتى مخلفاً خلفه الصمت التام في هذه البقعة النائية...

****

"ماذا قلت؟"

ارتجفت يدا سلمى بشكل ملحوظ، فضمّت قبضتيها بشدة لتتمالك الرجفة فيهما وهي تتطلع لإبراهيم الذي قال زافراً "يقول الطبيب إن مؤشراتها الحيوية متدنية بشكل ملحوظ دون سبب ظاهر.. سيُجرون عليها مزيداً من التحاليل والأشعة للتأكد مما أصابها.. ويطلب منا التحليّ بالصبر، فربما يطول بقاؤها في المستشفى.."

قبضت سلمى على ملابسه وهي تهزه صائحة "فسرّ لي ما يجري.. ما الذي أصاب ابنتي يا إبراهيم؟"

قطب إبراهيم قائلاً بضيق "لا أعلم ما يجري حقاً يا سلمى.. فلننتظر نتيجة الفحوصات التي أجروها عليها، فأنا مثلك لا أفهم ما حلّ بريم.. لندعو الله تعالى أن تستيقظ وتعود لنا كما كانت.."

انهارت يدا سلمى قرب جسدها وهي تقف صامتة ودموعها تترقرق في عينيها، فربت إبراهيم على كتفها بلطف قائلاً "لا تخشي شيئاً.. سترين ضحكة ابنتنا قريباً بإذن الله تعالى.."

تهاوت سلمى على أقرب كرسي واضعة رأسه على يديها، بينما ظل إبراهيم واقفاً وهو يتنهد مغمغماً "أرجو ذلك.."

قالت سلمى بصوت مرتجف "اليوم لم يختلف عن أي يوم آخر.. تناولت ريم عشاءها بعد أن أنهت واجباتها المدرسية.. ثم أوت إلى فراشها بعد إلحاح كبير كعادتها.. لم أغب عنها دقائق معدودة حتى سمعت ذلك الصوت.."

نظر لها إبراهيم بتعجب متسائلاً "صوت؟"

هزت رأسها بتوتر وهي تجيب "أجل.. صوت غريب.. أشبه بطنين جهاز معطل.. راعني أن مصدر ذلك الصوت هو غرفة ريم، لذلك هرعت إليها وأنا أسمع صياحها المذعور مما زاد رعبي.. ولما فتحت باب الغرفة فوجئت بها خالية.. لم أتصل بك إلا بعد أن تأكدت أنها ليست موجودة في الشقة كلها.. لذلك كانت صدمتي أكبر عندما أخبرتني أنها نائمة في سريرها.. فأين اختفت في تلك الفترة؟ وما الذي حدث لها حقاً؟.. يكاد عقلي ينفجر.."

فقال إبراهيم "ليس هذا هو المهم الآن.. المهم أن نعرف ما جرى لها ونطمئن أنها بخير.. وعندما تستيقظ سنعرف منها ما جرى لها بالضبط.."

أخفت سلمى وجهها بين يديها وهي تتمتم بأسى "أتمنى أن تعود لنا حقاً.. لماذا يراودني شعور أنها لن تعود؟"

قطب إبراهيم وقال بشيء من الحدة "كفي عن هذا التشاؤم.."

صمتت سلمى وإن ظل عقلها يدير تلك الفكرة مراراً وتكراراً.. ماذا لو بقيت ريم على حالها هذا؟.. ماذا لو لم تعُدْ إليهم أبداً؟ هل ستطيق ذلك؟ ما الذي يمكنها فعله حقاً لابنتها الوحيدة؟.....

****

نهضت ريم من غيبوبتها بشهقة عالية وهي تعتدل جالسة في موضعها وتتلفت حولها بذعر.. كانت مستلقية على فراش بسيط من الخشب القاسي، عليه حشية رقيقة بائسة الحال، وفوق رأسها سقف خشبي على ارتفاع متدنٍ.. تأملت أرجاء المنزل الحجري البسيط والذي يخلو من أي أشكال للرفاهية أو حتى ما يزيل العتمة فيه بخلاف مصباح زيتي قديم وضع جانباً.. وفي جوانب المنزل تكوّمت بضع صناديق خشبية وكثير من المعدات والأدوات التي لا تعرف ماهيتها أو عملها..

تلمست ريم رأسها وهي تشعر بألم وكدمة في جانبه، ثم تلفتت بحيرة وقلق محاولة تذكر ما جرى لها قبل فقدانها

الوعي.. حاولت جاهدة أن تتذكر، عندما رأت باب المنزل الخشبي يفتح ليدلف منه رجل متوسط العمر بوجه متعب وشعر أسود فيه شعيرات بيضاء متفرقة.. له لحية خفيفة، ويرتدي عوينات ذو عدسات دائرية كسر طرف إحداها، ومن خلفها تبدو عيناه هادئتان وغامضتان نوعاً ما بالنسبة لها..

عندما رأته، لم تملك ريم نفسها أن قفزت واقفة بتوجس ظاهر لتجد أن الدوار قد داهمها بقوة حتى تكوّمت أرضاً بتعب.. فسارع الرجل إليها وعاونها على الوقوف قائلاً بقلق "أأنت بخير؟ ما كان عليك أن تقفي بهذا الانفعال وأنت بهذه الحالة"

نظرت له بتوجس وهي تحاول إبعاده هامسة بذعر "من أنت؟ ما الذي تريده مني؟"

ابتسم الرجل مظهراً لطفه لإبعاد قلقها وقال "أنا سليم.. لا تخافي يا ابنتي، فلا أنوي إيذاءك البتة"

كان لمناداتها بلقب (ابنتي) أثر السحر في تهدئتها وإزالة ذعرها منه.. ودون أن تنتبه، وجدت عيناها تغرورقان بالدموع التي سرعان ما سالت على وجنتيها وهي تخفض بصرها.. فبعد كل ما رأته في الساعات الماضية، لم تتوقع أن تجد شخصاً يعاملها بلطف ولا ينتوي إيذاءها.. قال سليم بقلق وهو يمسك يديها بحنو "ما الأمر يا صغيرتي؟ أأنت خائفة؟"

هزت رأسها إيجاباً وجسدها ينتفض بشكل ملحوظ.. فربت سليم على رأسها وهو يقول محاولاً تهدئتها "لا تبكِ.. لم يعد هناك ما يخيف.. أنت في أمان الآن.."

لم تعلق ريم بكلمة وهي تحاول مسح دموعها بيد ترتجف، واستسلمت لسليم وهو يحملها بخفة ويعيدها للسرير وإن أبقاها جالسة عليه، وشرع يتفحص رأسها للاطمئنان عليها وهي تتفحص ملامحه بدورها.. رغم صغر سنها، رأت في ملامحه طيبة ظاهرة أزالت خوفها منه.. لكن عيناه.... فقط عيناه تثيران قلقها نوعاً ما، ولا تدرك سبباً لهذا..

انتبهت له وهو يسألها "قيل لي أن اسمك ريم.. أليس كذلك؟ من أين أنت؟"

فسألته بدورها بشيء من القلق "كيف وصلتُ إلى هذا المكان؟.. أهو ذلك الفتى الأسمر من أحضرني؟"

أجاب سليم "أتقصدين سهم؟.. بلى، هو من أحضرك.. وقال إنك لا تعرفين من أين أتيت.. فهل هذا صحيح؟"

تراجعت ريم في السرير بتوتر وهي تقول مقطبة "ذاك الفتى الذي كان ينوي أكلي؟ أأنت مثله أيضاً؟"

نظر لها سليم بصمت مدهوش، بينما تعالت ضحكة عالية من خلفه والفتى يظهر قرب الباب قائلاً "أمازلتِ مصرّة على هذه النكتة؟.."

نظرت له عابسة بينما أضاف الفتى "أهذا ما أجده جزاء إنقاذي حياتك؟.. لقد سقطتِ وأصبت رأسك.. ولولا وجودي قريباً لربما نزفتِ حتى الموت.."

انتفضت ريم بشيء من الفزع، فقال لها سليم مطمئناً "لا تخافي، لم تصابي بأي جروح من تلك الضربة.. إنه يبالغ.."

ثم التفت للفتى المبتسم وتساءل "ما الأمر يا سهم؟ ما الذي قلته للفتاة وأفزعتها منك؟"

هز الفتى الذي يدعى سهم كتفيه بلا مبالاة قائلاً "لم أقل شيئاً.. تلك الحمقاء سمعت حديثي مع أسعد حول الظبية الصغيرة التي كنا ننوي اصطيادها، وظنّت أنني أتحدث عنها.."

ورفع يده حاملاً شيئاً ما، ولما دققت ريم البصر فيما يحمله رأت ظبية صغيرة بنية اللون وقد أمسكها من قدميها الدقيقتين.. بينما انثنت رقبتها بشكل غريب والدماء تقطر أرضاً.. بدا الرعب في عيني ريم للمنظر وهي تتراجع خلفاً حتى سقطت من الجهة الأخرى للسرير وشهقتها العالية تصل لسمع الفتى.. فأطلق ضحكة عالية لمرأى ذعرها بينما نظر سليم للدماء التي لطخت أرضية منزله وقال بحنق "اخرج بها خارجاً يا سهم.. تعلم أني لا أحب منظر تلك الحيوانات المقتولة.."

قال سهم بابتسامة جانبية "لكنك تحب أكلها بكل تأكيد.."

صاح سليم بحنق "سهم.. اخرج الآن.."

عاد سهم يهز كتفيه ويغادر، بينما التفت سليم للفتاة التي ربضت خلف السرير تنظر للدماء برعب.. فقال لها زافراً "لابد أن هذا الفتى العنيف قد أحضر طريدته ليتفاخر بصيده.. فلا تفزعي هكذا.."

تساءلت ريم بصوت مرتجف "لِمَ يتسلىّ فتىً بعمره بقتل الحيوانات؟.. هذا مفزعٌ جداً"

نظر لها سليم وهو يقول "الفتيان في عمره يبدؤون بتعلم الصيد ليقدروا على إعاشة أهليهم دون الحاجة لأحد.. لكن ليس هذا هو المهم.. أخبريني، من أين أنت حقاً؟"

نهضت ريم من موقعها وقالت "لا أعلم.. لقد كنت أتهيأ للنوم في منزلي، وسمعت صوتاً مزعجاً ونوراً في غرفتي قبل أن أجد نفسي هنا.. ولا أعلم كيف وصلت لهذا المكان.."

ونظرت إليه مضيفة "ألا تعلم ما الذي جاء بي من بيتي؟ هل يبعد كثيراً عن هذا المكان؟"

لاحظت أنه لم يُجِب أسئلتها وهو ينظر لها بإلحاح وتمعن لفترة طالت، فقالت وقد توجست للأمر "هل تستطيع إعادتي لمنزلي؟"

ابتسم سليم ابتسامة صغيرة وهو يقول "لا تقلقي.. لم أنت مستعجلة هكذا؟"

بدأت الدموع تتدافع من عينيها وهي تقول بيأس "يجب أن أعود للبيت.. يجب أن أعود قبل أن يقلق والداي.. يجب أن أعود.."

وأجهشت بالبكاء وهي تخفض رأسها بيأس.. فاقترب منها سليم وربت على رأسها قائلاً برفق "لا داعي للبكاء يا صغيرتي.. سأعيدك لوالديك بالتأكيد.. فقط كفي عن البكاء وثقي بي.."

ثم أضاف وهو يغادر "حاولي ألا تغادري المنزل، فأنت متعبة بعد كل ما جرى وبحاجة للراحة.."

أغلق الباب خلفه تاركاً ريم وحيدة في المنزل المعتم.. مسحت ريم دموعها بيد ترتجف وهي تحاول تمالك فزعها من كل ما يجري حولها.. لا تدري ما عليها فعله، ولا تدري ما الذي سيعيدها للأمان الذي يوفره لها بيتها.. لكن على الأقل،

وجودها في قرية مثل هذه مع آخرين يطمئنها أكثر من البقاء في تلك الغابة حيث الحيوانات والكائنات الغريبة التي تثير فزعها أكثر..

أما سليم، فبعد أن غادر منزله نظر حوله للقرية متوسطة الحجم التي يحتل منزله موقعاً متوسطاً فيها.. ودار ببصره في الطريق الذي يقطعها نصفين متجهاً للجانب المرتفع من القرية والذي يقود لجبل قريب.. ولما اطمأن أن الموقع حوله قد خلا من أي شخص، سار عبر الطريق باتجاه الجبل وهو يمد يده اليسرى نحو سوار جلدي يحيط برسغه الأيمن.. فضغط على جزء بارز بمنتهى الصغر في جانب السوار، ثم أعاد كم قميصه ليغطي السوار رافعاً يده قرب وجهه، وانتظر لثوانٍ بصمت قبل أن يقول بصوت خافت "إنها هنا...."

جاوبه الصمت لوقت طال، قبل أن يسمع صوتاً متذبذباً من السوار يقول بشيء من التوتر "أأنت متأكد؟ ليس المجال مجال ظنون.."

قال سليم بثقة "بل هي.. أنا أعرفها تمام المعرفة.. أم أنك نسيت؟.."

فقال الصوت الآخر "إذن اتخذ إجراءاتك بسرعة.. الوقت يداهمنا.."

أجابه سليم بالموافقة، ثم عاد يضغط على الجزء البارز من جديد منهياً المحادثة دون أن يضيف كلمة أخرى.. وتنهد وهو يجدّ السير نحو سفح الجبل بصمت وتوتر لم يملكه..

****

الفصل الثاني « ثورة ليست كأي ثورة أخرى.. »

ظلت ريم تدير بصرها في أرجاء منزل سليم المتواضع بصمت تام.. لم يعُد الأمر يبدو لها حلماً بأي حال من الأحوال.. لا يمكن لحلم أن يكون بهذا الوضوح وهذه الغرابة.. لكنها كفّت عن البكاء على أمل أن يتمكن ذلك الرجل من إعادتها.. لا تدري لمَ وثقت بكلماته، لكنها تحاول أن تتشبث بأي وسيلة لتعود.. لابد أن تعود..

بعد وقت رأته ريم طويلاً دون أن تغادر المنزل منطوية في جانب المكان بصمت، سمعت صوتاً يسألها "ألا زلتِ خائفة؟"

قفزت في موقعها وقد فاجأها الصوت من خلفها، لترى سهم يطل عليها من نافذة في الجدار بعد أن أزاح السِتر الذي يغطيها، فقالت مقطبة "ما الذي تبغيه مني؟"

قال باهتمام "من أين أنت حقاً؟ من الشمال؟ من الجنوب؟ من خلف الغابات الشرقية؟ أم من....."

قالت مشيحة بوجهها "لست مجبرة على إجابة أسئلتك.."

فسمعته يقول "ما الذي كنت ستفعلينه لو أننا ننوي التهامك حقاً؟"

نظرت له بتوجس محاولة فهم مغزى سؤاله، فرأت ابتسامة ماكرة على شفتيه غاظتها، فعادت تشيح بوجهها دون أن تجيبه..

ولم يكد سهم يفتح فمه بتعليق آخر عندما تعالى صوت دويّ عالٍ في المكان.. جفلت ريم لقوة الصوت، والتفتت لسهم بحثاً عن تفسير يطمئنها.. فرأته يرفع حاجبيه بصدمة قبل أن يعقدهما بحنق قائلاً "اللعنة.. ما هذا التوقيت السيئ؟"

واندفع مغادراً الموقع متجاهلاً وجود ريم.. توترت ريم أكثر والقلق يتزايد في صدرها مع رد فعل سهم للصوت، ثم قفزت من سريرها واندفعت مغادرة المكان أملاً في اللحاق بسهم قبل أن يبتعد.. وفور أن خرجت من الباب، وقفت بدهشة تتأمل الموقع الذي وجدت نفسها فيه..

كان المنزل يقع في جانب قرية صغيرة، ولم تكن كلها مكونة من منازل حجرية كالذي كانت فيه.. كان منزل سليم مصنوع من أحجار متراصة بحجم متوسط، به نافذة وحيدة عليها ستار قماشي وباب متوسط الارتفاع، ويغطي سطحه ألواح خشبية رصّت ببعضها البعض بحبال قوية.. وقربه، رأت ريم عدداً من الأكواخ الخشبية والمنازل الحجرية متفاوتة الأحجام والأشكال، متشابهة في البساطة ووضاعة الشكل.. بينما على شيء من المبعدة انتصب جبل متوسط العلو أسود اللون كئيب المنظر.. أدارت ريم بصرها بقلق فلاحظت بعض رجال ونساء القرية يتدافعون في القرية، منهم من يسرع للأكواخ والمنازل البسيطة مختبئاً، ومنهم من يتجه نحو جانب القرية حيث تعالى الصوت مجدداً.. كان الجميع متشاركون في البشرة السمراء والملابس البسيطة القطنية بألوان ترابية تتخللها أحزمة جلدية للرجال وقماشية بنقوش زاهية الألوان للنساء..

غالبت ريم الفزع الذي تشعر به وهي تستدير راكضة نحو جهة الصوت الذي تكرر بين فينة وأخرى.. شيء ما جعلها تسعى لرؤية ما يجري، فلم تكن لتستسلم للراحة وهي لا تدري ما يحدث حولها في هذا المكان الغريب..

رأت عدداً من الرجال يتدافعون حولها وكل منهم متسلح بأدوات بدائية كالمطارق والفؤوس الحديدية وبعض الرماح، بينما اندفعت النسوة لحمل أطفالهن والاختباء في المنازل القريبة.. ركضت ريم خلف من مر بها من الرجال والفتية، حتى وجدت من يرتطم بها بقوة كادت تسقطها أرضاً.. تمالكت ريم نفسها بالكاد وهي تنظر لذلك الشخص بعينين متسعتين، فرأت امرأة متوسطة العمر تحمل طفلاً لا يتجاوز السنتين.. نظرت لها المرأة بمزيج من الدهشة والتوتر، بينما تمالكت ريم نفسها وهي تعاود الركض نحو الصوت الذي تزايد بشدة.. لكنها وجدت يد المرأة تقبض ذراعها بقوة وهي تقول بتوتر "إلى أين يا فتاة؟ يحسن بك الاختباء قبل أن تثور الأمور.."

ظلت ريم قلقة مترددة بين الاستجابة للمرأة وبين تفحص ما يجري وتهدئة مخاوفها بنفسها، فجذبتها المرأة خلفها وهي تقول "اختبئي بسرعة.. يمكنك اللجوء لمنزلي في الوقت الحالي.."

لكن ريم جذبت ذراعها من قبضة المرأة وانطلقت دون أن تستجيب لصياح المرأة من خلفها.. كان الطريق يقطع المنازل البائسة التي تهدم بعضها ولم يعد يبدو كمأوىً صالح للبشر، وبعد مسافة متوسطة وقد خلا الموقع حولها من النساء والأطفال، رأت جمعاً من الرجال يقفون قرب آخر منزل وأمامهم سور من جذوع الأشجار التي تم ربطها بإحكام بحبال غليظة وتثبيتها بعدد من الأكياس القماشية المليئة بالرمل خلفها..

اندفعت ريم في موقع خالٍ من الرجال قرب السور، وبجهد استطاعت أن تطل عبره لترى سبب تلك الأصوات المزعجة التي تعالت أكثر حتى أشعرت ريم برجفة في ضلوعها لشدته.. وخلف السور، رأت عدداً من الكرات الضخمة المكسوة فروا تتقدم من السور فترتطم به بقوة مصدرة ذلك الدوي العالي.. بعد أن دققت ريم النظر، وجدت أن تلك الكرات ماهي إلا دببة ضخمة الحجم بيضاء الفرو بعنق طويل.. كانت تلك الدببة تشبة الدببة القطبية التي رأتها يوماً في كتابها المدرسي، لكن كثافة فروها وطوله جعلت معالمها مخفيّة وتبدو أقرب لكرات بلا ملامح..

شعرت ريم بمن يجذبها من ذراعها ويهتف بها "ما الذي تفعلينه هنا؟ اختبئي مع بقية النسوة.."

نظرت ريم لسهم الذي كان يمسك بيده قوساً وسهاماً، وبدت الجدية على وجهه غريبة عليه بعد أن كانت ابتسامة ساخرة لا تغادر شفتيه.. تراجعت ريم خطوات وهي تهمس بارتجافة "ما الذي يجري هنا؟"

قال لها عاقداً حاجبيه بجدية أكبر من عمره "اذهبي ولا تبقي هنا، فالموقع خطر ولا يناسب الفتيات.. هذا ليس أول هجوم تتعرض له القرية من تلك الحيوانات.."

ظل القلق ظاهراً على وجهها وهي تقلب بصرها بين السور الخشبي الذي يهتز من قوة الضربات، وبين القرية خلفهم والتي بدت شبه خالية من أي بشر.. أيمكن لهذا السور الهزيل وتلك المنازل المتهدمة أن تحمي أصحابها من هذا

الهجوم؟..

لاحظ سهم القلق على وجهها، فقال لها بشيء من الثقة "لا تقلقي.. الرجال قادرون على حمايتكن من هذا الهجوم.. ثقي بنا وأسرعي بالمغادرة"

بدا لعينيها فخوراً بوجوده مع بقية الرجال، وهو كما تظن لا يكبرها إلا بعامين أو ثلاثة.. وبدت ثقته مبالغاً فيها مع التوتر والعصبية التي لاحت في وجوه الرجال من حولها.. تعالى صوت أشد من جانب السور أجفلت له ريم، بينما ازدادت التقطيبة على وجه سهم وهو يصيح بها "غادري.."

واستدار منضماً للرجال قرب السور، حيث كان بعضهم يصدّ من يقترب من تلك الحيوانات بما يملكونه من سهام ورماح.. لكن الهجوم الذي تزايدت حدته كان أقوى من أن يتم صدّه بأدوات مثل تلك.. لكن ريم لم تقف أكثر من ذلك لتراقب ما يجري، بل عملت بنصيحة سهم واستدارت عائدة للقرية الصغيرة ركضاً.. دارت ببصرها بحثاً عن منزل سليم الذي لا تذكر موقعه بالتحديد، فهي لم تُلقِ للطريق بالاً عندما سارت فيه سابقاً..

في تلك اللحظة، وهي تقف بحيرة وسط القرية الخالية، رأت سليم يخرج من أحد المنازل حاملاً شيئاً في يده.. ولما رآها هتف بها "اختبئي في المنزل حتى ينتهي الهجوم.. أسرعي.."

رأت في يده قطعة صغيرة غريبة الشكل، ولكن الأغرب كونها قطعة معدنية كالقطع التي رأتها في أحد الأجهزة المفككة القديمة في بيتها.. والأغرب من ذلك وجودها في هذه القرية البدائية الخالية من أبسط مظاهر التكنولوجيا.. ولما رأت سليم يغادر في الاتجاه المعاكس للهجوم الذي ازداد ضراوة، وجدت نفسها تتبعه بشيء من الفضول والتعجب وبصمت.. رأته يتجاوز العديد من المنازل دون أن يلتفت خلفه، واتجه لجانب من القرية يرتفع عندها جبل متوسط الحجم مشكلاً ستاراً وحاجزاً من أي هجوم مفاجئ، بينما يحيط السور الخشبي بما تبقى من القرية لينتهي عند سفح الجبل..

ظلت ريم تسير خلف سليم الذي انشغل بوجهته عن ملاحظتها، حتى رأته يتقدم من كوخ صغير خشبي بلا نوافذ وله باب واحد بقفل قديم.. اقترب سليم من الكوخ مسرعاً وفتح القفل بمفتاح استخرجه من جيبه، ثم دلف الكوخ مواربا الباب خلفه.. وقفت ريم بحيرة تنظر حولها ملاحظة أن بقية منازل القرية كانت بعيدة عن هذا الموقع، والهجوم الذي لا يزال مستمراً يقع في الجانب البعيد من القرية.. فما الذي جاء بسليم لهذا المكان في هذا الوقت بالذات؟..

سمعت في تلك اللحظة صوت أزيز يتعالى من الكوخ بدا غريباً لأذنيها.. فاقتربت من الباب المواربا ونظرت عبره بصمت لا تدري سببه لتراقب ما يفعله سليم.. لم يكن من عادتها التجسس على ما يفعله البالغون، لكن شيئاً ما جعلها لا تفصح عن وجودها في هذا الوقت.. وفي الكوخ الذي كان على شيء من الضيق، مظلماً إلا من نور خفيف يدخل عبر الباب المواربا، رأت ريم سليم يقف في جانب المكان منحنياً على جهاز متوسط الحجم رث المنظر.. كان الأزيز يتصاعد من ذلك الجهاز، وبدأت بعض الأنوار المتفرقة تظهر في لوحة التحكم الخاصة به، بينما انشغل سليم في عمله على جزء مفتوح من هيكل

الجهاز دون أن يلتفت حوله أو ينشغل بالهجوم الذي سيطر على تفكير أهالي القرية كلهم..

ظلت ريم في مكمنها تراقب ما يجري، عندما تعالى صوت يشبه العواء المتألم من الجانب البعيد للقرية.. أصابها الصوت بحيرة وتوجس، فتركت موقعها وأسرعت نحو السور القريب لترتقي أكياس الرمل وتطلّ من فوقه باهتمام.. وفي الجهة البعيدة، حيث كان الهجوم على أشده قبل قليل، رأت ريم بعض تلك الدببة تتراجع بتردد وخوف واضح مطلقة عواءها المتألم، بينما كان أحدها، والذي ارتطم بالسور سابقاً، يرتجف بشدة دون أن يتحرك من موقعه.. دققت ريم البصر بدهشة لما تراه، لتلاحظ في تلك اللحظة بضع أسلاك معدنية تحيط بأسفل السور الخشبي من الجهة الخارجية، وتسير بمحاذاته على امتداده.. بدا لها أن ذلك الدب الذي يرجف بشكل واضح قد تعلّق بالأسلاك المعدنية التي لم تدرك ريم ما عملها..

بدأ أهالي القرية يطلقون صيحات النصر، بينما هدأ الهجوم تماماً والدببة تتراجع بشكل حثيث قبل أن توليّ الأدبار.. ثم بدأت النسوة وبعض الأطفال بالخروج من مخابئهم وقد زال الفزع من وجوههم بشكل ملحوظ.. استدارت ريم متطلعة للكوخ القريب ملاحظة أن سليم لم يغادره بعد.. فعادت أدراجها إليه ونظرت عبر الباب الموارب من جديد لتجد سليم قد أغلق الجزء المفتوح من الجهاز وبدأ في العبث بلوحة التحكم الخاصة به.. ثم غمغم لنفسه وهو يقف متأملاً ما ظهر على الشاشة الصغيرة الملحقة بالجهاز "من حسن الحظ أنني تمكنت من إصلاحه في هذا الوقت.. لكن لست أدري كم سيصمد أكثر مما فعل.."

استدار متناولاً أداة معدنية قريبة، عندما لمح ظل ريم الذي تسلل عبر الباب، فصاح مقطباً "من هناك؟"

توترت ريم بشيء من القلق لما بدا على وجهه، لكن قبل أن تهرب وجدته يفتح الباب متطلعاً إليها بشيء من الدهشة.. ثم زال ما بدا على وجهه وهو يقول بلطف "ما الذي تفعلينه هنا يا ابنتي؟.. أخبرتك أن تختبئي في المنزل.."

قالت ريم بارتباك "كنت أراقب الهجوم من هذا الموقع عندما لاحظت الباب الموارب للكوخ وسمعت الصوت الصادر منه.. لذلك أتيت لاستطلاع الأمر.."

فقال سليم وهو يتجه لصندوق قريب "هذا حظي الحسن بالتأكيد.. فهو سيوفر عليّ إحضارك إلى هنا بنفسي.."

رأته ريم يبحث في الصندوق بصمت، ثم أدارت بصرها في الكوخ الصغير من حولها.. وبعد لحظة صمت سألته بشيء من الفضول "ما هذا الجهاز؟ وكيف يمكنه أن يعمل؟"

غمغم سليم وهو يبحث في صندوق آخر وضع أرضاً "وما العجيب في هذا الجهاز؟"

قالت ريم "هذه القرية بدائية تماماً، فكيف يمكن أن يعمل هذا الجهاز دون كهرباء؟ وما هي وظيفته.."

رأته ينهض حاملاً بيده محقناً زجاجياً ووعاء به سائل أصفر وهو يقول "هذا مولد كهربائي.. وباستخدامه أستطيع صعق الحيوانات التي تحاول الهجوم على القرية فتضطر للتراجع.."

رأته يفرغ محتوى الوعاء في المحقن ثم يتقدم منها مغمغماً "لكن ليس هذا هو المهم الآن.."

رغماً عنها، تراجعت ريم خطوة بشيء من التوتر وهي تنظر في عينيه.. غلبها القلق لرؤية المحقن الكبير نوعاً ما، وزاد قلقها نظرات سليم المثبتة على وجهها وهو يقول "والآن، أرجو منك التعاون معي دون مقاومة.. كلما أسرعنا بهذا كلما كان أفضل.."

لا تدري ريم ما الذي جعل قلقها يتحول توجساً وذعراً.. ورغماً عنها، استدارت وركضت هاربة دون أن تلتفت خلفها وسليم يصيح بها "مهلاً.. لماذا تهربين؟.."

لكن تساؤله لم يجعلها أكثر اطمئناناً.. إنها تهرب من شيء لا تدركه حقاً، لكنها تخشاه دون شك.. لهجته.. ونظراته المبهمة.. كل هذا جعلها تتوجس وتفر هاربة.. رغم أنها لم تفهم ما يريده منها.. ورغم أنها لم تدرك ما الذي ينتوي فعله بها.. لكن ليس هذا هو المهم الآن..

****

جلس سليم في جانب منزله وهو عاقدٌ ذراعيه على صدره يتلفت في الموقع حوله هازاً ساقه بشكل لا إرادي.. كان الهجوم قد توقف وسكن الموقع من أصوات الدببة الثائرة، بينما بدأت النسوة والأطفال بالخروج للاطمئنان على ما يجري.. وفي الآن ذاته بدأ الرجال يعودون من عند الأسوار ليطمئنوا على من تركوهم خلفهم.. ظل سليم يراقب ما يجري حوله صامتاً، مكتفياً بهز رأسه للوجوه المبتسمة التي كانت تلهج بالشكر والثناء كلما رأته..

ظل يبحث بين الوجوه حتى رأى أحد الرجال يتقدم منه قائلاً "ما الذي أخّرك يا سليم هذه المرة؟ كادت تلك الدببة أن تحدث خراباً بالغاً بالسور، ولو حدث ذلك لن تكون خسائرنا في بضع أخشاب تتحطم فقط.."

غمغم سليم وهو لا يكف عن التلفت "لم يكن الأمر بهذه السهولة هذه المرة.."

فقال الرجل وهو يقف قريباً من سليم مستنداً إلى فأس كبير يحمله في يده "لا بأس.. الحمدلله أن الأمر لم يتجاوز ذلك.. شكراً لك على مساعدتك لنا في كل مرة.."

قال سليم "هذه قريتي كما هي قريتكم يا أسعد.. لذلك يسوؤني أن يصيبها أي ضرر.. فلا داعي لشكري في كل مرة.."

غمغم أسعد "لكن ما تفعله أنت يفوق ما يفعله أي من الرجال هنا.. ولا يستطيع أحد لومك لو قررت مغادرة القرية، فلا عائلة لك فيها.. أنت لازلت وحيداً كما جئتنا أول مرة منذ ثماني سنوات.."

لم يعلق سليم وأسعد يضيف "لكن ما لم تخبرنا به قبلاً هو موطنك الأصلي.. من أين أتيت حقاً وما الذي دعاك للاستقرار في هذه القرية؟.. هل أنت هارب من الغرباء كما يشاع عنك؟.."

غمغم سليم بصوت بادي الضيق "أهذا وقت مناسب لإشباع فضولك يا أسعد؟"

ابتسم أسعد معلقاً "هذا لأنك ترفض الإجابة عن هذا السؤال بالذات منذ ثماني سنوات.."

لم يجبه سليم من جديد وهو مستمر بالتلفّت حوله باحثاً عن وجه ريم بين الوجوه التي تمر به، فتساءل أسعد مقطباً بعدما لاحظ شروده "ما الأمر؟ أتبحث عن شخص ما؟"

انتبه سليم لوضوح حركاته، فقال وهو ينظر لأسعد القريب "لا.. أنا أطمئن على أهل القرية.. الحمدلله أن الأمر مرّ على ما يرام.."

بعد حوار قصير، غادر أسعد تاركاً سليم يزفر وهو يتلفت حوله من جديد.. ثم تمتم بصوت خافت "أين أنت يا فتاة؟ الوقت يمرّ وسيفوت الأوان بسبب حماقتك هذه.. كوني مطيعة وعودي إليّ.."

لكن ريم غابت عن عينيه لفترة طالت وأقلقته أكثر.. فزفر وهو يسلك طريقه بين منازل القرية المتهدمة بصمت وعقله في عالم آخر تماماً..

****

ركض سهم خلف أحد الرجال الذي كان ممسكاً برمح طويل يكاد يتجاوز طول جسده، بجسد ذو عضلات بارزة وسمرة واضحة.. عيناه السوداوان حادتان وله لحية كثة، وعلى ذراعه المكشوف أثر واضح لجرح سببته مخالب حيوانٍ ضارٍ.. صاح به سهم وهو يلاحق خطواته السريعة "ما الذي سنفعله الآن؟ لقد توقف الهجوم وفرّت الحيوانات الباقية بهدوء.."

لم يجبه الرجل وهو يسير قرب السور المحيط بالقرية ويتفحصه عن كثب ملقياً بنظرة فوقه بين فينة وأخرى، فقال سهم بحنق "يعقوب، أتتجاهلني؟"

غمغم يعقوب "ألا ترى أني مشغول الآن؟"

قال سهم محتداً "لكنني هنا لأعاونك.. فهل تستهين بي؟"

زفر يعقوب وهو مدرك أن الجدال مع سهم لا ينتهي أبداً، ثم أشار برمحه لما أمامه قائلاً "اركض بشكل محاذٍ للسور وتأكد أن الهجوم لم يتسبب بضرر لأي جزء منه.. وإن رأيت شيئاً كهذا، تأكد ألا خطر علينا من الحيوانات قربه قبل أن تعود إليّ وتخبرني بما رأيته.."

بدت الحماسة في عيني سهم وهو يقول "حسناً.. اعتمد عليّ.."

وركض حاملاً قوسه وسهامه بخفة محاذياً السور والجدية بادية على وجهه، فابتسم يعقوب بجانب فمه وهو يغمغم "لِمَ كل هذه العجلة لتصبح رجلاً وتتحمل أعباءهم؟.. يا لحمقك يا سهم.."

سمع صوتاً خافتاً قرب أحد المنازل، فتوقف متلفتاً حوله بحثاً عن مصدر الصوت.. رغم أن السور قربه كان سليماً لم يصبه

ضرر، إلا أن خشيته ازدادت من تمكن أحد تلك الحيوانات من التسلل للقرية والإضرار بأهلها.. اقترب من بعض المنازل القريبة منصتاً للصوت الذي بدا كأنين خافت، ولما دار خلف أحد الجدران رأى ذلك الجسد المكوّم أرضاً في جانب المكان والأنين يصدر منه.. فهبّ يعقوب لما بدا له كفتاة منطوية على نفسها قائلاً بقلق "أأنت بخير؟"

رفعت الفتاة رأسها بحدة ونظرت له بعينين متسعتين.. فأدرك يعقوب أنها تلك الفتاة التي عثر عليها سهم على مبعدة من القرية.. عاود سؤاله وهو يلاحظ أنها تخلو من أي جراح ظاهرة "ما الذي جرى لك؟ هل هاجمك أحد تلك الحيوانات؟.."

خفضت ريم رأسها وهي تهزه نفياً بقوة، فتنهد يعقوب براحة وقال "إذن ما الأمر؟ هل سقطت وآذيت نفسك؟"

هزت رأسها نفياً من جديد ثم غمغمت بصوت مرتجف "أنا خائفة.. أريد العودة للبيت.."

نظر لها يعقوب بحيرة وهو لا يعرف ما يمكنه فعله لها، عندما سمع الخطوات الراكضة تقترب منهما قبل أن يظهر سهم وهو يهتف "لقد تتبعت السور حتى نهايته عند سفح الجبل.. كل شيء على ما يرام هناك.."

توقف فجأة مع مرأى ريم التي خفضت رأسها بصمت، بينما قال يعقوب لسهم "أحسنت صنعاً.. سأكمل أنا من هنا، فخذ أنت الفتاة إلى منزل سليم حتى....."

فوجئا بها تهتف بفزع "لا.. لا أريد الذهاب إليه.."

نظرا لها بتعجب، فخفضت بصرها وقالت باضطراب "اتركاني هنا.. سأعود بمفردي.. لا أريد الذهاب الآن.."

لم يعلق يعقوب وهو ينهض بصمت لإكمال مهمته، بينما وقف سهم قرب ريم بحيرة لرؤية الفزع في عينيها، ثم تساءل "هل أفزعك هذا الهجوم؟"

هزت رأسها نفياً وهي ملتزمة بالصمت، فقال لها "إن لم تكوني ترغبين بالعودة لمنزل سليم، فما رأيك بالذهاب لمنزلي؟ أنا أعيش مع أمي.. وهي سترحب بك قطعاً.."

نظرت له ريم بتردد، ولما رأت ابتسامته المشجعة نهضت بصمت وتبعته عدة خطوات قبل أن تقف وتقول "أرجوك.. لا تخبر سليم أنني في منزلك.."

التفت سهم إليها بتعجب أكبر متسائلاً "ما الأمر؟ هل ضايقك سليم بشيء ما؟"

هزت ريم رأسها نفياً وقالت برجاء أكبر "أرجوك.. إنه يخيفني، ولا أريد رؤيته الآن.."

رفع سهم حاجبيه وهو يتأمل ملامحها بصمت، قبل أن يستدير قائلاً "لا تقلقي.. لن أفعل ذلك.."

تبعته ريم بعد تردد وهي تفكر فيما عليه فعله لو لحق بها سليم، بينما غمغم سهم بابتسامة جانبية "سليم مخيف؟.. هذا أمر مضحك كثيراً.."

****

في فجر اليوم التالي، والفجر لم يعلن عن نفسه إلا بزقزقة بعض العصافير التي اتخذت من شجرة قريبة مأوىً لها، نهضت ريم جالسة في سريرها وتأملت المنزل من حولها.. كان منزل سهم بسيط الحال عبارة عن غرفة واحدة واسعة، تم تجهيز جانب منها لتكون مطبخاً صغيراً يكفيهما كأسرة مكونة من شخصين، وفي الجانب الآخر بضع كراسٍ خشبية، وفي هذا الجانب سريران لا يقلان قسوة عن السرير الذي نامت عليه في منزل سليم.. عندما تذكرت سليم عاودها قلقها السابق.. لكن ما تعجبت له أنه لم يأت للبحث عنها منذ هربت منه.. أكان خوفها منه لا معنى له؟..

تلفتت ريم حولها فرأت أم سهم تنام على السرير الآخر، بينما فرش سهم فراشه أرضاً ونام عليه دون اعتراض بعد أن استولت ريم على سريره.. بدا لها سهم نائماً بعمق، لذلك كانت مفاجأتها كبيرة عندما رأته ينهض جالساً فجأة يتلفت حوله، ثم يقفز بسرعة على قدميه.. أسرع يغسل وجهه من إناء فخاري قريب ثم يرتدي حذاءه ومعطفاً من الفرو اتقاء للبرد الذي تزايد في بداية النهار.. فسألته ريم بقلق "ما الذي جرى؟"

قال سهم بعجلة "سأذهب لمعاونة الرجال على تدعيم السور وتقويته.. لقد وعدت يعقوب بذلك.."

بقيت ريم تراقبه بتعجب حتى غادر دون أن يلتفت خلفه، فظلت ريم جالسة في السرير مطرقة تفكر في ما عليها فعله.. لقد مرّ يوم كامل منذ فارقت أهلها، ولم تتمكن حتى الآن من العودة إليهم أو معرفة السبب الذي جاء بها إلى هنا.. هل سيطول بقاؤها هنا؟.. متى ستعود؟.. لقد بدأت تسأم كل ما تجده هنا وبدأ قلقها يزداد من عدم تمكنها من العودة..

سمعت أم سهم تسألها برفق "أأنت بخير يا ابنتي؟"

غمغمت ريم وهي تنظر إليها "أجل.. أنا بخير.."

فقالت الأم وهي تنهض وتقترب منها "لقد كنتِ بحال سيئة البارحة.. هل أفزعك الهجوم؟"

هزت ريم رأسها نفياً، فعلقت الأم قائلة "نحن نواجه مثل هذا الهجوم بين وقت وآخر، لذلك الأمر ليس غريباً علينا.. لكن الحال تحسّن كثيراً منذ قدوم سليم، فهو قد ساعدنا بشكل لم نتصوره.."

تساءلت ريم "أليس سليم من سكان القرية؟"

هزت الأم رأسها مجيبة "لا.. لم نره قبل أن يظهر عند أسوار القرية قبل ثماني سنوات.. لكن يتردد أنه من أولئك....."

صمتت الأم قليلاً بشيء من التردد قبل أن تضيف "وربما كان هارباً، لذلك يتحاشى الحديث عن سبب قدومه بأي شكل كان.."

نظرت لها ريم باهتمام وتساءلت "أولئك؟ من تعنين؟.."

قالت الأم "الغرباء.. لم أرَ أحداً منهم حقيقة وليست لسكان القرى علاقة بهم إلا ببضع أخبار متفرقة نسمعها عنهم.. لكن بعد ما فعله سليم معنا منذ مجيئه فإن أحداً لم يهتم بكونه هارباً حقاً من الغرباء أم لا.."

ثم أضافت وهي تشرع في حمل فراش سهم الملقى أرضاً "وبوجوده، استطعنا ردع الهجوم علينا بوسيلة كالسحر.. أصبحت الحيوانات تتفادى الهجوم على القرية، وأصبح رجال القرية يثقون به وبقراراته.."

قالت ريم "أتقصدين بالوسيلة السحرية ذلك الجهاز الذي يستخدمه؟ من أين حصل عليه؟"

وقفت المرأة تفكر بحيرة، ثم قالت "عمّ تتحدثين؟ جهاز؟.. ما هو ذلك الجهاز؟"

صمتت ريم والحيرة تنتقل إليها، بينما أضافت المرأة "كل ما أعرفه أنه يختص لنفسه بكوخ أصرّ أن يكون بعيداً عن القرية.. لا أعرف ما يضع فيه عادة، لكن سهم استطاع أن يلمح ما بداخل الكوخ.. ووصفه بأنه صندوق حديدي كبير.. هذا هو كل ما نعرفه، فسليم يرفض الحديث عن هذا الأمر بإصرار.."

قالت ريم بتعجب "لماذا؟"

ابتسمت المرأة معلقة "وما المهم؟ المهم أن حياتنا قد أصبحت أكثر يسراً والخسائر أقل بسبب هجوم الحيوانات الضارية.."

ثم أضافت بصوت متعجب "لكن الغريب أن الهجمات التي كادت تتوقف منذ وقت طويل قد بدأت تتزايد في هذين اليومين.."

ونظرت إلى ريم مكملة "وهي قد ازدادت مع ظهورك في هذه البقعة.."

تمالك ريم القلق لهذا الخاطر وهي تقول "ما معنى هذا؟"

تداركت المرأة نفسها وهي تبتسم قائلة "لا يهم هذا الآن.. هيا لنعدّ الفطور.. لابد أنك جائعة.."

لم تعلق ريم وقلقها يتضاءل مع الجوع الذي أفصح عن نفسه بقوة هذا الصباح.. فهي لم تذق لقمة منذ يوم كامل، بعد أن عافت نفسها الطعام في الليلة السابقة.. والآن، يكاد جوعها أن يأكلها هي نفسها لشدته..

****

عندما حدث الهجوم التالي، لم تكن القرية قد تعافت بعد من الهجوم الذي حدث قبلها بيوم واحد.. بعد أن تجاوز النهار منتصفه، وبعد أن مالت الشمس عن كبد السماء وبدأت رحلتها المتعجلة نحو الغروب، فوجئ القرويون بخوارٍ عالٍ مع عودة الدويّ الذي يثير الفزع لشدّته.. تراكض الرجال نحو أسوار القرية، بينما بدأت النسوة بجمع الأطفال والهروب من طرقات القرية بشكل بدا مألوفاً لريم التي غادرت منزل سهم للمرة الأولى منذ التجائها إليه مستطلعة ما يجري.. سمعت صياح أم سهم التي قالت من خلف باب المنزل "عودي يا فتاتي.. لا تبقي خارجاً فمن الخطر الخروج في هذه الظروف.."

قالت ريم وهي تتلفت حولها "ألن يصدّ الرجال الهجوم كما حدث البارحة؟ ما الهدف من الاختباء إذاً؟"

قالت الأم بتوتر "هذا تصرفٌ احتياطي نفعله كما كنا نفعل دائماً في السابق.. رغم أن سليم يصدّ هجوم الحيوانات عادة، لكننا اعتدنا على ما نفعله.. هذا أأمن لنا.."

صمتت ريم وهي تلاحظ أن أحد الرجال اندفع قريباً منها صائحاً "سليـــم.. أين أنت؟"

واقتحم منزل سليم الذي كان على شيء من المقربة مضيفاً بصوت عالٍ "الهجوم أقوى مما حدث البارحة.. إنه قطيع من البقر الوحشي هذه المرة، ولست أدري ما الذي استثارها بهذا الشكل.. تصرّف بسرعة يا رجل.."

ثم رأت الرجل يندفع مغادراً كما جاء دون أن يلتفت لأحد، بينما خرج سليم بعده بقليل وهو يرتدي عويناته بعجلة.. توترت ريم وهي تكاد تفرّ إلى منزل سهم الواقع خلفها.. كانت لا تزال قلقة من رؤية سليم لها وما قد يفعله بعدما حدث البارحة.. لكنه رآها قبل أن تفعل، وسرعان ما وجدته قربها بخطوتين واسعتين وهو يقبض على معصمها قائلاً بابتسامة متوترة "مرحباً.. أين اختفيتِ منذ البارحة يا فتاة؟"

حاولت ريم تحرير معصمها وقلقها يزداد، لكنه جذبها معه وهو يقول "لن تهربي هذه المرة.. ستأتين معي حتى ينتهي هذا الهجوم.."

ثبتت ريم قدميها في الأرض وهي تهتف "اتركني.."

فنظر لها سليم بشيء من التقطيب قائلاً "ما بالك؟ أنا لن أؤذيك بتاتاً.. صدقيني.."

ثم جذبها بيسر دون أن تتمكن من الإفلات منه وهو يتخذ طريقه عبر القرية نحو الجبل القريب والكوخ المنفرد الرابض تحته.. وسرعان ما وجدته يفتح الكوخ ويُدخلها معه مغلقاً الباب خلفه، وقفت ريم بتوتر بعد أن أطلق يدها وقالت بتوسل "ماذا تريد مني؟ اتركني أذهب.. أنا لم أفعل شيئاً.."

رأته يقفل باب الكوخ بالمفتاح ليتأكد أنها لن تفرّ مجدداً، ثم عاد للجهاز يعبث بأزراره وهو يقول "أظننت أنني قد أجهل مكانك في هذه القرية الصغيرة؟.. لقد آثرت تركك البارحة لئلا أثير تساؤلات القرويين.. لكن لا يمكنك أن تختبئي عني طويلاً"

قالت ريم بقلق "لماذا؟ ما الذي تريده مني؟"

لم يجبها سليم وهي ترى شاشة الجهاز تضيء بعد أن قام بتشغيله ويبدأ الجهاز بإصدار ذلك الأزيز المتعالي.. وبعد أن فرغ من عمله ومن التأكد أن الجهاز يؤدي المطلوب منه دون مشاكل، التفت سليم إليها مبتسماً ابتسامة لم تبعث الراحة في نفسها.. فقالت بعد تردد "أهذا الجهاز هو ما يطلق عليه القرويين سحراً؟"

أجاب سليم وهو يعبث في محتويات صندوق موضوع في جانب المكان "أجل.. إنهم قرويون جاهلون، لم يروا أي لمحة من التكنولوجيا، لذلك يبهرهم كل ما أفعله ولو كان صغيراً.. ولذلك هم متشبثون بي كثيراً.."

وجدته يمسك ذراعها بقوة بيد، ورأت ريم في يده الأخرى المحقن بائس الحال ذاته بالمادة الصفراء الغريبة.. فقالت بخوف

وهي تحاول الابتعاد عنه "ما الذي ستفعله بي؟.. اتركني.."

قال سليم وهو يقرّب المحقن من ذراعها "كما قلت لك... هو مجرد تصحيح للأمور.."

شعرت بوخز الإبرة في ذراعها، فازداد ذعرها وهي تركله بأقوى ما تستطيع.. ثم هجمت على يده الممسكة بالمحقن وعضّتها بقوة بحيث أفلت سليم المحقن وهو يحاول إبعادها ويقول غاضباً "كفّي عن هذا يا فتاة.."

لكنها نزعت المحقن الذي لم يفرغ تماماً من ذراعها ورمته بعيداً بقوة حتى ارتطم بالجدار وانكسر ساكباً محتوياته عليه.. ثم استغلت انشغال سليم بأمر المحقن لتركله من جديد على ركبته بقوة وتجذب ذراعها من يده.. لم يكن حجم الكوخ ليسمح لها بالهرب منه فهو لا يحوي نوافذ أو أبواب إلا بابه الوحيد.. وقد اعترض سليم طريقها للباب بجسده، فهربت ريم للجانب البعيد من الكوخ تنظر لسليم الذي التفت إليها بوجه غاضب قائلاً "كفي عن المقاومة يا فتاة.."

تلفتت حولها بحثاً عن سبيل لشغله بحيث تتمكن من الهرب، فرأت قربها صندوقاً معدنياً يحوي بعض الأدوات التي يستخدمها سليم في عمله.. عندها حملته رغم ثقله وألقته بأقوى ما تستطيع نحو الجهاز القريب منها بينما هتف سليم "لا.. لا تفعلي هذا.."

لكن الصندوق ارتطم بشاشة الجهاز وحطمها بقوة وأزيزه يتحشرج بشكل متسارع قبل أن يهمد تماماً وخيط من الدخان يتصاعد منه..

هبّ سليم نحو الجهاز ووجهه يفضح قلقه الشديد قائلاً "لا.. ليس الآن.. ليس في هذا الوقت.."

لكن ريم لم تقف لترى ما سيفعله بل هرعت نحو الباب، حيث ترك سليم المفتاح في قفله، وفتحته بسرعة لتوليّ هاربة دون أن تلتفت خلفها.. نظرت لذراعها من تحت كم ثوبها القصير ملاحظة نقطة دم تسيل منه حيث كان المحقن، وهمست لنفسها بخوف "ما الذي كان يريده مني ذلك المجنون؟.. يا إلهي.. أرجو ألا يلحق بي.."

نظرت خلفها لتتأكد أنه لم يلحق بها فعلاً، ثم اتخذت طريقها بين منازل القرية عازمة على الهرب من سليم وعدم العودة إليه مرة أخرى.. لكن تهرب إلى أين؟.. هل يمكنها أن تثق بأي أحد من أهل القرية؟.. هل يمكنها حتى أن تثق بسهم؟.. قد يكونون متعاونين مع سليم ويعيدوها إليه قسراً.. فهل تهرب من القرية كلها وهي لا تعرف أين يمكنها الذهاب؟..

لاحظت أن الهجوم الذي تواجهه القرية قد غدا أسوأ وأشد ضراوة حتى علا صوت دويّ عالٍ ارتجف له جسدها.. نظرت من موقعها المرتفع للقرية المنخفضة أمامها دون أن تتمكن من رؤية ما يحدث قرب السور، لكن عندما بدأت تسمع أصوات صياح في جانب القرية وصراخ بعض النسوة المذعور، انتابها القلق مما يجري هذه المرة.. توقفت ريم عن الركض وهي ترى نسوة مع أطفالهن يتراكضن في المكان باحثات عن موقع يختبئن فيه والذعر واضح في الوجوه، ثم لاحظت تلك الأجسام السوداء الضخمة التي تجوب طرقات القرية عدواً مثيرة سحب الغبار خلفها.. بدأت تلك الأجسام تقتحم المنازل وتهدم الأكواخ الخشبية مطلقة خواراً يصمّ الأذن، ولما دققت ريم البصر تمكنت من رؤية ذلك القطيع من البقر الوحشي

الذي يجوب القرية ثائراً وقرونه الحادة تزيل كل ما يعترض طريقها..

ظلت ريم متجمدة في موقعها وهي لا تعلم ما الذي عليها فعله.. إنها ترى المنازل تتحطم أمامها، وترى رجالاً ونساءً أكبر منها سناً وأضخم منها جسداً يفرّون من أمام تلك الوحوش بلا حيلة.. فما الذي يمكنها أن تفعله؟ وإلى أين تفر والسور يحيط بالقرية مانعاً هروبهم كما يمنع المهاجمين عنهم؟.. التفتت خلفها بشيء من القلق، وفكرت بالعودة للكوخ الوحيد البعيد عن القرية، أو الالتجاء للجبل العالي الذي سيمنع البقر الوحشي من الوصول إليها، لكن قاطعها صوت خوار شعرت به قريباً أكثر من السابق.. استدارت ريم لترى في منتصف ذلك الطريق الذي يقطع القرية أحد تلك الوحوش الضخمة يقف مواجهاً إياها وخواره يتردد بعصبية وشراسة..

وقفت ريم في موقعها برعب وهي ترى الوحش الضخم يرفس بقدمه الأرض ثم يركل الأرض راكضاً نحوها بسرعة هائلة.. بدا ذلك الوحش عازماً على الإطاحة بها بقرونه الحادة، أو على الأقل الارتطام بها ودهسها تحت أقدامه، ولم يجعلها هذا أكثر راحة.. وقبل أن يصل إليها، سمعت ريم صياح سهم الحانق وهو يقول "ريم.. ابتعدي.."

لكن الرعب جمّد ساقيها لثوانٍ كانت كافية لترى الوجه الغاضب للحيوان بشكل واضح وعيناه السوداوان الملتمعتان غضباً لسبب لا تعرفه.. سقط قلب ريم عند قدميها وهي متجمدة بلا حراك، عندما رأت رمحاً يشق طريقه بلمحة خاطفة حتى انغرز في عنق الوحش الذي أطلق خواراً متألماً بصوت أعلى والدماء تلطخ شعره البني.. ورغم ذلك، لم يخفف سرعته وهو يدير رأسه بألم ظاهر، وقبل أن يضرب ريم بقرونه الحادة وجدت ريم من يرتطم بها ويقذفها جانباً بقوة لتسقط أرضاً بعيداً عن موقعها السابق..

شهقت ريم بألم لسقوطها العنيف قبل أن تعتدل وتنظر لما حلّ لها بعينين متسعتين.. رأت سهم الذي ارتطم بها وأبعدها عن طريق الوحش يقفز واقفاً قربها، ورأت الحيوان الصريع قد وقع بدوره في الموقع الذي كانت تحتله منذ ثوانٍ والدماء تسيل من عنقه بغزارة.. ثم رأت يعقوب يسرع لاستعادة رمحه من جسد الحيوان صائحاً بسهم "ابتعدا عن القرية الآن.. اختبئا بعيداً حتى ينتهي الهجوم.."

قال سهم بحدة "لكنني أريد أن أبقى مع الرجال وأقاتل.."

صاح يعقوب "ألا يهمك ما سيحدث لها؟"

قطب سهم وهو ينظر لريم التي وقفت ترتجف خوفاً، ثم قال بحنق "تباً.. لنذهب.."

وجذبها من يدها راكضاً بين بعض المنازل المتهدمة، محاولاً تفادي المواجهة مع تلك الحيوانات الثائرة.. وقد مرا بعدد منها صريعاً بعد أن قضى عليها رجال القرية بما يملكونه من أسلحة بدائية.. أما ما بقي من ذلك القطيع، فهو يمرح في جنبات القرية مطيحاً بكل ما ومن يمر به..

وجدت ريم سهم يخفيها خلف أحد الجدران المتهدمة ويراقب الوضع حولهما للحظات قائلاً "ما الذي جرى؟.. لقد

استطاع سليم إيقاف الهجوم بشكل فاعل، لكن هذا لم يدم طويلاً.. فوجئنا بتصاعد الدخان من حول السور، وسرعان ما عاود القطيع هجومه دون خوف متسبباً بتهدم جزء منه.."

تذكرت ريم الجهاز الذي قامت بتحطيمه، وأثار هذا رعدة في جسدها.. السبب الوحيد الذي دعاها لما فعلته هو إبعاد سليم عنها وإيجاد فرصة للهرب منه، لكن لم يدرْ في ذهنها أن تحطيم الجهاز سيتسبب في نجاح الهجوم على القرية وتحطيم أسوارها.. شعرت ريم بسوء بالغ وهي تسمع الصياح المذعور من حولها وصراخ الرجال الغاضب وهم يحاولون ردع هذا الهجوم قبل أن يتسبب بإصابات بين القرويين.. ولما التفت سهم إلى ريم ملاحظاً صمتها رأى دموعاً تترقرق في عينيها قبل أن تهمس بندم "أنا آسفة.. كل هذا بسببي.. لكني لم أقصد ذلك بتاتاً.."

قطب سهم وهو يقول "ما الذي تهذين به؟.. لا يمكن أن تكوني أنت سبب ما جرى.."

لكنها خفضت وجهها وهي تقول بصوت مرتجف "بل أنا السبب.. لكن ذلك المجنون هو من دفعني لفعل ما فعلته.. إنه مجنون تماماً.."

سمعا صوت تحطم منزل قريب والحجارة تتساقط بقوة وسط صياح القرويين، فنهض سهم وهو يجذب ريم قائلاً "لنفرّ الآن حتى يهدأ الهجوم.."

وجذبها معاوداً الركض محاذياً السور الذي امتد طويلاً أمامهما، حتى رأيا فجوة في السور سبّبها ذلك القطيع الهائج والأخشاب متناثرة في الموقع كله.. فأسرع سهم يتسلل عبر الفجوة متلفتاً حوله بقلق حتى اطمأن أن الموقع حولهما قد خلا من أي حيوان ثائر، ثم جذب ريم خلفه قائلاً "جيد.. لنهرب مادامت الفرصة مواتية.."

وغادر القرية دون أن يلتفت خلفه، بينما ألقت ريم نظرة على القرية التي غطتها سحب الغبار، ثم قالت بشيء من القلق "ماذا عن أمك؟ أهي بخير؟"

قال سهم "لا تقلقي.. أنا متأكد أنها بخير.. إنها امرأة قوية.."

لم تعلق ريم وقلقها لم يهدأ مع كلماته الواثقة.. وعاد الندم يغزوها مع مرأى الدمار الذي حلّ بالقرية.. لكن كيف يمكنها الاعتذار لكل ما فعلته؟.. ثم إنها كانت تحاول حماية نفسها، أليس كذلك؟..

تباً لذلك الرجل.. إنه مجنون..

وكل ما جرى بسببه هو..

لا يمكنها أن تسامحه على ما فعله أبداً..

****

الفصل الثالث « نور وظلام.. وما بينهما.. »

بعد أن أفلحت ريم في الهرب من سليم، لم يُمضِ سليم في الكوخ أكثر من دقائق معدودة أدرك بعدها أن الجهاز قد تعطل بشكل كليّ، ولن يتمكن من إصلاحه قبل مرور ساعة على الأقل.. كما أن الأصوات الصادرة عن القرية قد أثارت قلقه فخرج من الكوخ ليستطلع الأمر.. وفي الخارج، لاحظ على الفور المعمعة التي حدثت في القرية الهادئة عادة بعد أن استطاع ذلك القطيع الهائج اقتحام الأسوار.. وقف سليم ينظر لما يجري بشحوب بعد أن أدرك أن الجهاز المحطم هو سبب فشل القرويين في دفع الهجوم بعيداً، وراقب اقتحام الحيوانات الهائجة المنازل الهشة والمتهدمة أساساً وهي تقوم بهدم ما تبقى من جدرانها وخوارها يصمّ الآذان.. ظل سليم يراقب ما يجري بعجز عندما رأى أحد تلك الحيوانات يتجه نحو بيته الذي يبدو واضحاً من موقعه، فاتسعت عيناه بذعر وهو يصيح "لا.. ليس منزلي.."

وركض نحو المنزل غير عابئ بمن يمر به من القرويين الهاربين من الهجوم الشرس، لكن استوقفه أحد الرجال وهو يصيح به "إلى أين؟ اهرب إلى الجبل القريب فالموقع هناك أكثر أماناً من القرية"

قال سليم بحدة وهو يحاول الإفلات "اتركني.. يجب أن أستخرج ذلك الصندوق من المنزل قبل أن تهدمه تلك الحيوانات.."

صاح الرجل "أيها المجنون.. وما الفائدة؟..ستدوسك الحيوانات الثائرة تحت أقدامها حتى الموت.."

ودفعه بقوة بعيداً مضيفاً بحنق "لا تزِد أعباءنا يا سليم.."

لم يقاومه سليم وهو يقف مراقباً جدران منزله تتهدم وتنهار، والسقف الخشبي يسقط بدويّ عالٍ مثيراً سحابة من الغبار حوله.. جزّ سليم أسنانه بحنق وهو يراقب ما يجري وغضب يتنامى في صدره.. ثم استدار نحو الجبل القريب مغمغماً "اللعنة.. أشك أن تكون هذه آخر متاعبي.."

****

بعد خروجهما من القرية بوقت قصير، شعرت ريم بإنهاك شديد أعجزها عن الركض، فصاحت بسهم الذي يجرها معه دون أن يتخلى عن يدها "لِمَ علينا الركض لكل هذه المسافة؟ لقد ابتعدنا عن القرية كثيراً"

قال سهم "لا أريد البقاء في هذه المساحات المكشوفة، فقد نواجه حيوانات أخرى ونحن وحيدين.. أريد الالتجاء لتلك الغابة القريبة فهي أأمن لنا حتى نطمئن أن القرية قد تخلصت من الحيوانات الشرسة"

رأت ريم أمامهما غابة كثيفة ذات أشجار قصيرة نوعاً ما وإن كانت كثيفة الورق.. وللغرابة كانت أوراقها كلها ذات لون برتقالي متدرج بين فاتح وغامق، فبدت ملتهبة مع ضوء الشمس الغاربة، أم أنها كانت ملتهبة حقاً؟.. تساءلت ريم بقلق "ما بالها تلك الغابة؟.. أهي تحترق؟"

ابتسم سهم شيئاً ما وقال "لا.. إنها تبدو كذلك فقط.. سترين ما أعني عندما تغيب الشمس تماماً.."

لم تعلق ريم وهما يقتربان من الغابة والشمس تسابقهما لمغيبها، ولم يكادا يصلان لأطرافها والسماء قد أظلمت حتى فهمت ريم ما يعنيه سهم بقوله.. فمع تزايد الظلمة من حولهما، بدأت أوراق تلك الأشجار تضيء من تلقاء نفسها وكأنها متوهجة بنور خفيف.. وإن جمعنا تلك الأشجار زمرة واحدة في غابة كبيرة، بدت تلك الغابة كلها كأنها مشتعلة بنيران مضيئة دون أن تنبعث منها أي حرارة مؤذية.. وقفت ريم تتأمل الغابة بانبهار خالطه شيء من الخوف قبل أن تلتفت لسهم الذي يراقب انفعالاتها باستمتاع.. فسألته "ما بال تلك الأشجار الغريبة؟"

قال سهم "هذه الغابة المضيئة.. أشجارها تضيء من تلقاء نفسها ليلاً، ورغم غرابة منظرها فهي غير مؤذية بتاتاً"

فقالت ريم "وماذا عن الحيوانات التي تسكن هذه الغابة؟"

أجاب سهم "الحيوانات بحاجة للظلام ليلاً.. أليس كذلك؟.. وبسبب طبيعة هذه الغابة فإن أنواعاً نادرة من الحيوانات فقط تعيش فيها، بينما تتجنبها الحيوانات الأخرى في الليل لسبب أو لآخر.."

وسار بين أشجار الغابة دون تردد، فتبعته ريم بصمت وهي تتأمل الأشجار من حولها.. بدت لها الأوراق المضيئة القريبة منها مذهلة بلونها البرتقالي وهي تلقي بضوئها على جذع الشجرة وعلى الأرض من تحتها.. ومع النسيم الخفيف الذي هبّ مع حلول الظلام، كانت الأضواء والظلال تتماوج بهدوء مع حركة الأوراق الخفيفة معطية المكان لمحة جميلة بهرت ريم التي وقفت في موقعها تتأمل المكان بصمت.. فوقف سهم بدوره قائلاً "سنبقى هنا لساعة أو يزيد.. ثم سأعود للقرية لأطمئن على حالها قبل أن أعود إليك.."

انتبهت ريم من سرحانها على قوله فالتفتت إليه متسائلة بقلق "ستتركني هنا وحيدة؟"

قال سهم وهو يجلس تحت إحدى الأشجار "لا تخافي، لا أظنك بخطر هنا في هذا الوقت.. يمكنك تسلق إحدى الأشجار لتطمئني أكثر.."

دمدمت ريم "أخبرتك أنني لا أُحْسِن تسلق الأشجار.."

وجلست مستندة إلى إحدى الأشجار بعد كل المجهود الذي بذلته، قبل أن تلتفت إلى سهم مغمغمة "أتظن أن أهل القرية بخير؟"

قال سهم "أرجو ذلك.. نحن لم نواجه هجوماً مباشراً من الحيوانات منذ زمن طويل، فقد كفانا الله تعالى شرّها.. لكن لست أدري ما الذي استجدّ هذه الأيام.."

خفضت ريم بصرها وهي تغمغم "كل هذا بسببي.. لقد حطمت الجهاز دون أن أدري أن هذه ستكون النتيجة.."

نظر لها سهم بحيرة متسائلاً "جهاز؟ عمّ تتحدثين؟"

نظرت له ريم قائلة "الجهاز.. ذلك الذي في كوخ سليم المنعزل عند سفح الجبل.. ألم تره؟"

قال سهم بحيرة "لا.. سليم يمنع أي شخص من دخول ذلك الكوخ بإصرار.."

قالت ريم بتعجب "لماذا؟"

فقال سهم بنفاذ صبر "لست أدري.. لا نعلم ما يمارسه في ذلك الكوخ، وقد حاولت مرة التلصص عليه لرؤية ما يفعله.. لكن كل ما رأيته هو صندوق معدني كبير.."

قالت ريم مقطبة "هذا الصندوق المعدني هو الجهاز الذي حدثتك عنه.. قال لي إنه يصعق الحيوانات بالكهرباء.."

اعتدل سهم في جلسته قائلاً باهتمام "هل سمح لك بدخول الكوخ؟"

هزت رأسها إيجاباً، وإن كان الأمر إجباراً أكثر من أن يكون سماحاً لها بالدخول.. فقال سهم بغيظ "ذلك المأفون.. لقد طلبت منه مرات ومرات أن يسمح لي بالدخول، لكنه يرفض في كل مرة.. كيف يسمح لك أنت بعد يوم واحد فقط من مجيئك للقرية؟.. هذا غير عادل بالمرة.."

قاطعهما صوت عواء تعالى على مبعدة منهما، فتحفز سهم في جلسته بينما قفزت ريم واقفة بخوف.. ولما نظرت إلى سهم رأته يقف بدوره قائلاً "ربما من الأفضل لنا تسلق هذه الشجرة لبعض الوقت.. لا أريد مواجهة أي حيوانٍ ضارٍ ونحن بعيدَيْن عن القرية.."

ظهر القلق واضحاً على وجه ريم، فسارع ليقول "لا تخافي.. سأعينك على التسلق.. ليس الأمر صعباً كما تظنين.."

نظر حوله باحثاً بين الأشجار، ثم اختار الأطول في البقعة وشرع يتسلقها بخفة.. وقفت ريم أسفل الشجرة تراقبه وتتلفت حولها بحثاً عن مصدر العواء الذي تردد من جديد.. ثم رأت سهم يمد يده إليها بعد أن أمسك بفرع منخفض من فروع الشجرة قائلاً "حاولي أن تثبّتي قدميك على الشجرة ما استطعت.. وسأعينك حتى تصلي لهذا الفرع.."

ترددت ريم قليلاً، ثم خلعت حذاءيها لتتمكن من استخدام قدميها بشكل أفضل، وتمسكت بجزء بارز من الشجرة محاولة رفع جسدها عن الأرض بشيء من المشقة.. لم يكن الأمر سهلاً كما صوّره لها سهم، فكادت تيأس وتنزلق عدة مرات.. لكن خوفها من البقاء وحيدة في الأسفل، وخشيتها من سخرية سهم جعلتها تدفع نفسها دفعاً حتى استطاعت أن تمد يدها اليمنى وتمسك بيد سهم بقوة.. حاول سهم جذبها للأعلى وهو يغمغم "قليلاً بعد.."

رفعت ريم بصرها إليه لتجده مقطباً وقد احمرّ وجهه بشدة وهو يحاول رفعها، فأدركت أنها أثقل من أن يستطيع رفعها بسهولة.. أصابها توتر لذلك الخاطر وهي تلقي بنظرة قلقة للأرض عندما زلّت قدمها فجأة وهوّت بقوة للأسفل.. لم يتمكن سهم من التشبث بها بيد واحدة ويده الأخرى تمسك بالفرع القريب، فسقطت ريم وهي تشهق وتكوّمت أرضاً

بألم.. هبط سهم بسرعة وقلق خلفها وهو يهتف "أأنت بخير؟"

جلست ريم في موقعها بألم ثم قالت بحنق "أخبرتك أن الأمر صعب عليّ.."

شعرت برأسها ينبض بشيء من الألم وهي تحاول تمالك نفسها والوقوف.. ولما نظرت لسهم الصامت وجدته ينظر لها بدهشة وذهول واضحين، فقالت مقطبة "ما الأمر؟"

لكن لم يتعدّ جواب سهم اتساع عينيه أكثر بصمت تام.. فرفعت ريم يدها لتمسح بعض التراب عن وجهها تلقائياً عندما تجمدت يدها في الهواء وهي تنظر لها بدهشة لا تقل عن دهشة سهم.. رأت أن يدها قد غدت شفافة نوعاً ما بحيث لم يكن عسيراً رؤية ما خلفها.. ظلت ريم تنظر ليديها الاثنتين بدهشة وصمت محاولة التأكد أن هذا ليس بتأثير من الضوء الذي تلقيه الأشجار القريبة.. لكن لم يكن هذا التأثير يتعداها هي بينما قال سهم بصوت مصدوم "ما الذي جرى لك؟ أأنت بخير؟"

لم تجبه ريم وهي تنظر لقدميها بعد أن تخلّت عن الحذاء المصنوع من الجلد الذي منحتها إياه أم سهم، ولم يكن ما تراه يختلف بحال.. حتى ملابسها وما تراه من شعرها قد بدأ يكتسي بتلك الشفافية ذاتها، مما زاد من قلقها وهي تنظر لسهم المصدوم وتتساءل بصوت مرتجف "ما الذي يجري لي؟ أنا لا أعلم ما هذا.."

اقترب منها سهم بعد تردد، وأمسك إحدى يديها يتفحصها ويتأملها عن كثب.. ولما عجز عن إيجاد تفسير جذبها خلفه بسرعة وقال "لنعُد للقرية.. لابد أن نجد تفسيراً عند سليم.."

شهقت ريم هامسة بذعر "سليم؟.. لا..."

نظر لها سهم مقطباً وتساءل "ماذا جرى لك؟ أتخشين سليم؟"

ارتبكت ريم للحظة، ثم تساءلت محاولة تجاوز الأمر "وماذا عن الهجوم؟"

قال سهم بعجلة "لابد أنه انقضى.. لنذهب.."

تبعته والقلق يعتريها لهذا الذي تمرّ به.. ما معناه؟ ولماذا يحدث لها هذا الآن؟ بل لِمَ هي بالذات؟.. كل ما حولها بقي على حاله.. وسهم قربها يمسك يدها دون أن يحدث له أي شيء.. شعرت برجفة تعتري جسدها وهي تتذكر المحقن الذي أفرغه سليم في ذراعها.. أهذا له صلة بما يجرى لها؟..

التفت إليها سهم وقد لاحظ رجفة يدها، فقال وقد ظنها رجفة ذعر "لا تخافي.. سليم لديه تفسير لما يحدث لك دون شك.. سليم يعرف الكثير مما نجهله هنا.."

عاد لها قلقها من مواجهة سليم بعد أن هربت منه وتسببت في تحطيم جهازه.. ألن يكون غاضباً؟.. لكنها لم تعترض بكلمة وقلقها مما يجري لها يفوق خشيتها من سليم..

****

وقف يعقوب يلهث بتعب قرب جثة إحدى تلك الأبقار الوحشية التي افترشت الطريق الذي يقطع القرية نصفين.. ثم نظر حوله ملاحظاً الصمت التام الذي عمّ القرية قبل أن يصيح "هل الجميع بخير؟"

اقترب منه أسعد بخطوات متعبة وقال "لا إصابات خطيرة بين الرجال.. والنساء والأطفال قد لجؤوا للجبل القريب بنجاح تام.. لكن القرية لم تعد صالحة لسكنى البشر.."

بدأ الرجال يتقدمون من مختلف بقاع القرية والتعب بادٍ على الوجوه الملطخة بدماء القطيع الهائج.. فقال يعقوب وهو يجلس جانباً "ليذهب أحدكم إلى الجبل القريب ويبلغ الجميع بأن القرية قد غدت آمنة.."

انطلق أحد الفتيان لتنفيذ أمره بينما قال أسعد "ماذا لو تعرضنا لهجوم جديد؟"

قال يعقوب "ندعو الله ألا يحدث ذلك.. فما عادت لدينا القدرة على صدّ هجوم مثل هذا.. وسور القرية قد تحطم تماماً.."

فقال أسعد "لا أدري ما الذي يجبرنا على البقاء هنا.. القرية قد تهدمت تماماً، وإعادة إعمارها لن يتطلب مجهوداً أقل من بناء قرية جديدة في موقع أكثر أمناً.."

نظر له يعقوب بصمت وتفكير.. ثم قال "لنرجئ هذا الحديث الآن حتى يتمالك الرجال أنفسهم وينالوا قسطاً من الراحة.. علينا ترك بعض الرجال لمراقبة الوضع خارج القرية ولنتفادى أي هجوم مفاجئ.."

هز أسعد رأسه إيجاباً، ثم انطلق لتنفيذ ذلك.. بينما نهض يعقوب زافراً وقال لمن حوله "أحسنتم صنعاً يا رجال.. خذوا قسطاً من الراحة، لكن كونوا حذرين.. قد يفاجئنا هجوم آخر في أي لحظة.."

تفرق الرجال بصمت وتعب بينما استدار يعقوب متجهاً إلى سفح الجبل بحثاً عن سليم..

في تلك الأثناء، كان سليم مع القرويين العائدين للقرية المتهدمة بعد أن جاءت أخبار بانتهاء الهجوم.. ظل يسير بصمت وأفكاره تدور بعيداً وهو يتلفت ملاحظاً الدمار الشديد الذي حلّ بالقرية.. سمع شهقات بعض النساء المرتاعة وبكاء الأطفال من حوله بينما عقله سارح عن كل ذلك.. وبعد أن توغلوا بين المنازل المتهدمة والتي لم يبقَ لها أثر يذكر، سمع الجمع صياح أم سهم وهي تقول "أين ابني؟.. أين سهم؟.. ألم يكن معكم؟.. أخبروني أرجوكم.."

نظر لها بعض القرويين بمزيج الحيرة والشفقة، بينما تلفتت الأم بذعر واضح وهي تنادي سهم بأعلى ما تملك.. وقبل أن تنهار وقلقها يتضاعف مع اختفاء الفتى، رأت يعقوب الذي جاء من جانب القرية وهو يقول لها "اهدئي يا أم سهم.. لقد غادر سهم ليختبئ بعيداً عن القرية مع الفتاة الغريبة.. سيعود بعد وقت قصير ولاشك.."

كادت أم سهم تسقط أرضاً بعد أن تخاذلت ساقاها، ثم غمغمت وهي تضع يدها على صدرها "الحمدلله.. ظننت أنه قضى نحبه تحت أقدام تلك الأبقار أو تحت حجارة أحد المنازل.."

ربتت إحدى القرويات على كتفها مهدئة وهي تقول "الحمدلله.. لا تتعدى خسائرنا المنازل والمتاع.. أما أهل القرية فبخير عدا عن بعض الإصابات.."

تمتمت أم سهم تحمد الله على ذلك وهي تستدير وتعود لموقع منزلها، بينما التفت يعقوب إلى سليم قائلاً "ما الذي جرى يا سليم؟.. كيف تمكن القطيع من تحطيم السور؟"

قال سليم زافراً "كل الأمور كانت على ما يرام.. لكن حدث حادث أفسد كل شيء.. ولم أستطع إصلاح الأمر في الوقت المناسب.. آسف على ما جرى للقرية"

قال يعقوب "ليس الموضع موضع أسف.. فأنا أعلم أنك تبذل جهدك دون تقاعس في كل مرة.."

غمغم سليم "لكن أشعر أنني خذلتكم هذه المرة.. لقد تعطل جهازي تماماً ولن يتم إصلاحه في وقت قصير.."

ثم أكمل سيره بخطوات متسارعة نحو منزله الذي لم يبقَ منه إلا ركام حجارة.. عليه التحرك الآن، فليس لديه إلا القليل من الوقت لإنقاذ ما يمكن إنقاذه قبل أن يفوت الأوان.. ولم يكن يملك الوقت الكافي للقلق لأمر الجهاز..

****

لم يكن سهم وريم قد غادرا الغابة المضيئة عندما سمع سهم تلك الزمجرة تتردد قريباً منهما.. فوقف فجأة يتلفت حوله بتوتر كبير، ووقفت ريم بدورها وذعرها الدائم من هذا العالم يعود إليها.. ومع الضوء الذي تلقيه الأشجار من حولهما، رأى سهم أحد تلك الذئاب صغيرة الحجم يظهر من خلف شجرة قريبة، قبل أن يتبعه عدد من الذئاب لا يقل عن عشرة.. توتر سهم بشدة وهو يستخرج الخنجر من جيبه ويقف بتحفز، بينما تمسكت ريم بذراعه وهي تهمس بقلق "ما الأمر؟ ألم تقل لي أن تلك الذئاب لا تأكل إلا الفئران؟"

قال سهم بصوت خافت مقطباً "بلى.. لكن ثورة الحيوانات غير المفهومة تكسر كل القواعد.. ورائحة المكان كله تنذرني بخطر.. ربما قررت تلك الذئاب أن تجرب طعم البشر أخيراً.."

ثم تلفت حوله بحثاً عن الذئب الذي يحتمل أن يبدأ بالهجوم مضيفاً "عندما يبدأ الهجوم، اهربي لأقرب شجرة وتسلقيها بسرعة.. ستكونين بمأمن في الأعلى.."

همست ريم بيأس "مرة أخرى؟.."

قال سهم بشيء من العصبية "افعلي ذلك فحياتك معلقة به.. سألحق بك بعد أن تتمكني من تسلق الشجرة.."

همّت ريم بالاعتراض من جديد، عندما تعالت زمجرة عالية من أكبر ذئب في المجموعة، والذي لا يتعدى حجمه حجم أي ثعلب صغير الجسد، فاستدار إليه سهم ليجد الذئب يقفز عليه بشراسة.. صرخت ريم بفزع بينما تفادى سهم الهجمة

بصعوبة وهو يقذف يده بقوة بالخنجر أملاً في إصابة الذئب المهاجم.. لكنه لم يفلح إلا في إصابته إصابة خفيفة في ساقه أسقطته جانباً قبل أن يقف مجدداً وهو يزمجر بغضب أشد، بينما قفز اثنان آخران على سهم الذي تدحرج أرضاً نحو بقعة خالية قبل أن يقفز واقفاً وفي يده فرع خشبي طويل.. كسر سهم الفرع من منتصفه بقدمه بقوة، وقبض على أكثر الجزئين حدة مغمغماً "الخنجر لا يكفي وحده.. فهل سيكفيني هذا السلاح المرتجل؟.."

نظر لريم فرآها في موقعها تراقب ما يجري بفزغ، فصاح بها سهم "اهربي.."

لم تجد بداً من تنفيذ هذا الأمر، فاستدارت نحو أقرب الأشجار بغية الهروب إليها عندما فوجئت بالظلام يشتدّ فجأة وبشكل متسارع حتى أعمي عينيها تماماً.. شهقت ريم بفزع وهي تتلفت حولها ملاحظة السواد التام في جميع الجهات، بينما لا تزال أصوات الذئاب المهاجمة تتردد في أذنيها.. فصاحت ريم بفزع "سهم.. أين أنت؟.. ما هذا الظلام؟.."

صاح بها سهم وهو يطوّح الفرع نحو ذئب قريب "عمّ تتحدثين؟.. اهربي بسرعة"

فقالت ريم بفزع أكبر "الظلام يحيط بي ولا أرى شيئاً أمامي.. أخبرني ما الذي يجري لي؟"

ألقى عليها سهم نظرة سريعة ليجدها تقف وحيدة تدور ببصرها فيما حولها بصدمة وذعر.. لكن بدا له واضحاً أنها لا ترى شيئاً حقاً وهي ترفع يديها أمامها وتدور حول نفسها تناديه بشكل متكرر.. طوّح سهم الخنجر في يده تجاه ذئب آخر من تلك الذئاب ورماه بعيداً قبل أن يستدير محاولاً العودة إلى موقع ريم، والتي للدهشة لم تُثرِ اهتمام أي من الذئاب المحيطة بهما وهي تتجاهلها وتركز هجومها على سهم لتشغله بشكل تام.. بقيت ريم في موقعها وذعرها يتزايد مع مرور الوقت وتضاؤل مجال رؤيتها مع الظلام الذي حلّ عليها.. كانت متأكدة أنهم لا يزالون في وسط الغابة المضيئة.. فما سبب هذا الظلام؟ أله علاقة بالتغيرات التي تحدث لجسدها؟.. رباه.. ليتها تعرف الجواب..

لاحظت في ذلك الوقت أن سمعها قد بدأ يخفت بدوره، فلا تسمع إلا زمجرات خافتة تتردد من حولها، وصياح سهم المتعالي بدأ يبدو كصدىً يتردد من بعيد.. ظلت ريم واقفة في موقعها بقلب خافق بانتظار أن تنكشف لها الأمور.. هل هي أزمة عابرة؟.. هل ستعود كما كانت؟.. رغم أنها بغضت هذا العالم منذ مجيئها إليه، إلا أنها الآن تودّ لو بقيت فيه كما كانت في اليوم الماضي.. على الأقل لم تكن تواجه هذا الخوف غير المفهوم والذي لا تعرف كيف تتخلص منه..

وقبل أن يغيب سمْعُها تماماً، لاحظت أن الزمجرة قد توقفت، ثم انتبهت ليدين تقبضان على ذراعيها بقوة وصوت سهم القريب يناديها بإلحاح.. لكنها شعرت أنه أصبح في عالمٍ بعيدٍ بعيد.. عالمٍ لم تعد تنتمي إليه.. ولم تعد تدري أين موقعها حقاً في هذه الدنيا..

****

انحنى سليم على ركام الأحجار التي كانت تشكل منزله سابقاً وانشغل بنقل الأحجار ورميها جانباً دون توقف، بينما قال أحد الرجال الذي وقف قريباً حاملاً مصباحاً زيتياً ينير به البقعة "ما الداعي للعجلة؟.. يمكنك البحث عما تريده في الصباح.. وسيكون الأمر أسهل مع نور الشمس.."

دمدم سليم "وما أدراني أننا لن نتعرض لهجوم آخر من تلك الحيوانات؟.."

قال الرجل متلفتاً حوله "هذا صحيح.. أصبح الهجوم متكرراً أكثر مما عهدناه.. أله علاقة بظهور تلك الفتاة؟"

لم يعلق سليم وهو مستمر بعمله، فأضاف الرجل "ألم يحدث الأمر ذاته قبل وقت قصير من قدومك لهذه القرية منذ ثماني سنوات؟.."

توقف سليم ونظر للرجل بتوتر، ثم قال "ما الذي يجعلك تظن أن هذين الأمرين متشابهين؟"

قال الرجل بابتسامة صغيرة "أليس كذلك؟.. ما تفسيرك للأمر إذاً؟.."

لم يجب سليم وهو يخلع عويناته التي بدأت تنزلق عن أنفه مع المجهود الذي يبذله والعرق يغمر وجهه، ثم عاد لعمله بصمت تاركاً الرجل يتأمله للحظات.. وبعد دقائق تخلىّ الرجل عن المصباح ووضعه جانباً على صخرة عالية وهو يقول "سأذهب الآن.. لديّ الكثير مما عليّ فعله.. لو أنك تصبر حتى الصباح فيمكنني عندها أن أعاونك.."

غمغم سليم بكلمات شكر مبهمة، بينما تركه الرجل بصمت وسليم يعود لعمله دون تباطؤ.. أخذ يبحث بهمّة وقلقه يتزايد مع كل دقيقة تمضي، ولم يوقفه إلا اهتزاز خافت في ذراعه الأيمن منبعه ذلك السوار في رسغه.. انتفض سليم وهو ينظر للسوار الذي استمر بالاهتزاز بشكل متقطع لوقت طال.. سال العرق البارد على صدغه وهو يتمتم لنفسه "ما الذي سأفعله الآن؟.. لقد أضعت الكثير من الوقت بلا معنى.."

سمع صوت يعقوب من خلفه يتساءل "ما الأمر يا سليم؟ أأنت تحدث نفسك؟"

انتبه إليه سليم وهو يخفي السوار بكم قميصه متمتماً "لا شيء.. أنا قلق فقط لكل هذا الدمار الذي حدث.."

فقال يعقوب "لم يكن من الهينّ تفادي ذلك.. أتريد مساعدة فيما تفعله؟"

مسح سليم وجهه بكم ذراعه مغمغماً "لا.. شكراً لك.."

وقف يعقوب صامتاً يتأمل ما يفعله سليم الذي عاد لبحثه المستميت.. ثم قال "سليم.. لقد اتخذ جميع الرجال في القرية أمراً.. ورأيت أنني يجب أن أبلغك به الآن.."

نظر له سليم بتوتر، فأكمل يعقوب "لقد قررنا الرحيل عن هذا المكان.."

ارتفع حاجبا سليم بدهشة ويعقوب يضيف "لم تعد القرية صالحة لسكنى البشر.. والموقع كله خطر علينا ولا سبب يدعونا للتشبث به.. سنرحل غداً صباحاً بإذن الله.."

فقال سليم بتوتر "إلى أين؟.. هل الموقع بعيد عن هنا؟"

أجاب يعقوب "نوعاً ما.. سنرحل لما خلف الغابة المضيئة.. هناك لا تكثر قطعان الحيوانات كما هو الحال هنا، والموقع أكثر أمناً لنا مع الجبال المحيطة به.."

فقال سليم بقلق أكبر "هذا بعيد جداً.."

فعلق يعقوب قائلاً "هذا هو الغرض منه.. أليس كذلك؟"

أطرق سليم يتأمل حجارة منزله للحظات، ثم عاود عمله قائلاً "أنا لن أرحل.."

نظر له يعقوب بغير تصديق للحظة، ثم قال "ماذا تعني؟.."

قال سليم بحزم "لن أغادر هذا الموقع.. سأبقى هنا، حتى لو اضطررت للبقاء فيه وحيداً.."

فقال يعقوب بضيق "لماذا؟.. لا أفهم حتى الآن سبب تشبثك بهذا المكان.. لقد حاولنا الرحيل عن هذا الموقع عدة مرات، لكنك في كل مرة تصرّ على البقاء هنا.. ما الذي تجنيه من كل ما تفعله؟"

لم يجبه سليم وهو مستمر بعمله، فزفر يعقوب للحظات، قبل أن يستدير مغادراً بصمت.. فوقف سليم ينظر له وهو مغادر، وتأمل القرية من حوله وهو يمسح العرق عن وجهه، قبل أن يعود لعمله متمتماً "لا أدري متى سأتمكن من الرحيل دون قلق.. أتمنى أن أنتهي من أمر ريم خلال وقت قصير، عندها لن يكون عندي ما يربطني بهذا المكان.."

****

عندما تراءى نور خفيف لعيني ريم بعد مدة قضتها في الظلام، ركزت بصرها عليه محاولة استشفاف ما حولها.. كانت لا تزال تشعر بيدي سهم تمسكان بذراعيها بإصرار، لكنها لم تستطع رؤيته أو سماع صوته.. وبعد هنيهة اتسعت بقعة النور لتشمل الموقع حولها بشكل باهت بالكاد تستطيع تحديده.. لكنها تعرفت الموقع على الفور.. لم تكن وسط تلك الغابة العجيبة، ولم يكن سهم قربها.. لكن ما رأته بعث في جسدها رجفة وملأ قلبها بشيء من اللهفة لم تتوقعها.. كانت الجدران الوردية تحيط بها من كل جانب.. السرير الخشبي ذو الغطاء الوردي قريب منها، وفوقه دمية بحجم طفلة لأرنب وردي، وصندوق الألعاب الأحب إلى قلبها في زاوية الغرفة ينتظر بسكون..

تلفتت حولها بقلب ملهوف، ولاحظت مع تزايد بقعة النور ذلك الشخص الذي جلس في جانب الغرفة على كرسي خشبي مطرق الوجه بصمت.. ازدادت لهفتها مع تعرفها على ملامح أبيها رغم الظلام ورغم الكآبة البادية عليه.. فهمست لنفسها "لابد أنه ينتظرني.. لابد أنه كان يبحث عني منذ اختفائي.."

حاولت أن تخطو خطوة دون أن تفلح بذلك، فتحت فمها لتناديه دون أن تخرج من حلقها إلا حشرجة مكتومة.. ورغم ذلك، رأت رأسه يرتفع بحدة وهو ينظر حوله في الغرفة الساكنة.. نظرت له ريم بلهفة متزايدة وهي تحاول مناداته من

جديد، لكنها عجزت عن ذلك مرة أخرى.. رأت الوجه الحبيب ينظر للغرفة الساكنة بصمت قبل أن يثبت بصره على موقعها عاقداً حاجبيه وكأنه يحاول التثبت مما يراه.. رفعت ريم يداً نحوه، فلاحظت على الفور شفافية يدها الكبيرة بحيث ترى معالمها بالكاد.. كان جسدها كله شفافاً ولم يكتسب ماديته بعد.. عادت ببصرها لأبيها وهي تصرخ في عقلها دون صوت "أنا هنا يا أبي.. لقد عدت إليك.. عدت إليكم أخيراً.."

رأت حاجبيه يرتفعان بعد أن أدرك وجودها، فعاودت محاولة التحرك والحديث لتصدر منها حشرجة ليست بأعلى من سابقتها.. ومع اتساع عينيه، بدا لها للحظة أن نظرته تحمل نوعاً من الفزع صدمت له.. رأت أباها يقفز واقفاً ينظر إليها بصدمة مذعورة، قبل أن يهمس "ريم؟.."

هزت رأسها بلهفة، لكنه حوّل بصره بعيداً وهو يضع يداً على جبهته قائلاً "لا.. لابد أنني بدأت أهذي لكثرة التفكير.. سأصاب بالجنون"

حاولت ريم أن تصرخ وتدفع يدي سهم التي لا تزال تشعر بها، وتشعر أنها تقيدانها لذلك المكان.. وبصعوبة بالغة قدّمت رجلاً واحدة نحو أبيها وحشرجتها تتحول لكلام شبه مبهم وهي تقول "أبي.. أنا ريم.. أنا....."

فوجئا بالباب يفتح بعنف ليدلف منه نور غمر الغرفة، ومن الباب ظهرت الأم وهي تصيح بانهيار "إبراهيم.. ابنتي... ابنتي....."

انتفض الأب متجاهلاً ريم الواقفة وسط الغرفة واندفع نحو سلمى التي انهارت أرضاً، فركع قربها وهزها من كتفيها صائحاً "ما بها ريم؟ هل اتصل بك أحد من المستشفى؟"

رفعت إليه وجهاً غارقاً في الدموع وهي تصيح باكية "إنهم يطلبوننا حالاً.. قالوا إن حالها يتردّى دون سبب مفهوم.. ابنتي تموت يا إبراهيم.. تموت.."

وغرقت في بكاء حاد بينما صدمت ريم لما تسمعه، وحاولت الكلام من جديد بصوت أعلى قائلة "أمي.. أنا هنا.. لن أموت يا أمي.. لقد عدت إليكما.."

لكن أحدهما لم يسمع ما تقوله والأب يُنهض الأم قائلاً بعصبية "لا داعي لهذا التشاؤم.. ستغدو بخير بإذن الله.. لنذهب.."

صاحت ريم محاولة استيقافه "أبـــــي.."

رأته يقف فجأة مسنداً الأم، والتفت إليها بنظرة صامتة طويلة غمرها تردد وحيرة ظاهرين، فقالت ريم بصوت متحشرج وعينين دامعتين "لا ترحل يا أبي.. لا تدعني أعود.. أنا ريم.. خذني يا أبي أرجوك.."

خرج صوتها ضعيفاً حتى شكّت أن يكون قد سمعها.. ثم رأته يغمض عينيه وكأنه يطرد ما يظنه هلاوساً، قبل أن يستدير معيناً الأم على السير وهو يقول بعجلة "لنذهب بسرعة.. عندما ترينها ستطمئنين أنها بخير ولم يصبها مكروه.."

لم تتوقف الأم عن النشيج والأب يوارب الباب خلفه، بينما صرخت ريم بحرقة "أبي.. لا ترحل أرجوك.. أمي.. لا تتركاني.. لا

أريد العودة لذلك المكان.. لا أريد.."

سالت دموعها غزيرة على خديها وهي تشعر بقبضة سهم تهزها بقوة.. وبدأت ملامح غرفتها المألوفة تغيب في الظلام قبل أن تظهر الغابة المضيئة من حولها.. وظهرت لها ملامح سهم المذعورة وصوته يبدو واضحاً وهو يصيح "ريم.. أأنت بخير؟ ما الذي جرى لك؟"

شعرت ريم أن جسدها يستجيب لها أخيراً، بعد أن كان ثقيلاً وكأنه ربط بسلاسل حديدية غليظة.. وبدا أن صوتها قد عاد لها وهي تهمس بارتجافة "لماذا؟.. لماذا أعدتني لهذا المكان؟"

نظر لها سهم بحيرة قائلاً "ماذا تعنين؟"

فصرخت وهي تضربه بقبضتيها على صدره بعنف "أنت السبب.. لو لم تتمسك بي لتمكنت من العودة إلى بيتي.. لو تركتني لرآني أبي، ولرأتني أمي.. كانا سيسعدان برؤيتي، ولن يتخليا عني أبداً.. لكنك أفسدت كل ذلك.. لماذا؟.. لماذا؟"

وانهارت أرضاً باكية وهي تدفن رأسها بين ذراعيها وتكرر بحرقة "لماذا عدت؟ لماذا عدت؟؟.."

****

الفصل الرابع « هذا العالـم وذاك »

نظر سليم لوجه ريم المنطوية على نفسها بصمت حيث جلست في جانب بقايا منزله المتهدم.. كانت جامدة الملامح رغم خطوط الدموع الظاهرة على وجهها، بعدما عادت مع سهم بعد انتهاء هجوم الحيوانات ورحيلها.. لم يبدُ على ريم أي ممانعة وسهم يعيدها لسليم، وهو أمر استغربه سليم كثيراً بعدما حدث بينهما في المرة الأخيرة..

بعد لحظة صمت قال سليم لسهم "لم أفهم.. هلا أخبرتني بتفاصيل ذلك من جديد؟"

زفر سهم الذي جلس جانباً بشيء من الضيق وقال "وما أدراني ما الذي جرى حقاً؟ اسألها هي.."

نظر سليم لريم المطرقة، ثم وضع يداً على كتفها قائلاً برفق "ريم.. ألن تحدثيني بما جرى؟"

لطمت ريم يده بعيداً وقالت بحدة "ما الذي تريده مني؟ لماذا لا تتركوني أعود لبيتي؟ أنا لا أريد البقاء هنا.."

فقال سليم "لكن لسنا نحن من يعيق عودتك لبيتك.. ألا تفهمين ذلك؟"

اغرورقت عيناها بالدموع وهي تقول بصوت حاد "لكنني عدت إليه.. لقد رأيت بيتي ورأيت أبي وأمي.. ولو لم يمسكني سهم لرحلت من هذا المكان في تلك اللحظة.. لكن....."

ظل سليم يستمع إليها باهتمام، بينما قاطعها سهم بحنق "أنت تهذين.. أكل هذا الغضب بسبب خيالاتك؟"

نظرت له باستنكار وصاحت "كيف تجرؤ على تكذيبي؟ لقد رأيت كل شيء.. ورآني أبي أيضاً.."

قال سهم محنقاً "أنت لم تغادري الغابة بتاتاً في تلك اللحظات.. لقد كنتِ موجودة معي طوال الوقت، ولم يكن طويلاً حقاً.. ألا يسمى ما مررتِ به خيالات؟"

نظرت له بصدمة ممزوجة بغضب شديد، ثم بدأت دموعها تنحدر على خديها وهي تقول بصوت مرتجف "لم تكن خيالات.. لقد رآني أبي وحدثني.. أتظنني مجنونة؟.. لا أريد البقاء هنا.. أريد العودة.. أريد الرحيل من هذا المكان المخيف"

وعادت للبكاء بمرارة وسليم يربت على كتفها، بينما قال سهم بصوت عالٍ لتسمعه بوضوح "أنت لا تفعلين شيئاً سوى البكاء والنحيب.. يا لك من طفلة.."

وغادر بشيء من الحنق بينما نظر سليم للفتاة الباكية قائلاً بلطف "لا تحزني يا فتاتي.. أعدك أن أحاول إعادتك لبيتك بأسرع ما أستطيع.. لكن الأمر يتطلب بعض الصبر.."

نظرت له ريم بدهشة ثم قالت واللهفة تغزو صوتها "هل ستفعل ذلك حقاً؟ متى؟ وكيف؟.."

ابتسم سليم وهو يمسح دموعها قائلاً "لا أعلم بعد.. لكن أرجو أن يحدث ذلك الليلة أو غداً على أبعد تقدير.."

خفضت ريم وجهها بصمت للحظات، ثم قالت "ألست غاضباً لتحطيمي ذلك الجهاز؟"

قال سليم متلفتاً حوله "ما جرى قد جرى.. ما الذي سيفيدني به الغضب؟.."

عادت ريم تقول بصوت نادم "لكن الدمار الذي حلّ بالقرية كان بسببي.. لكني لم أقصد أن أفعل كل هذا.."

ابتسم سليم وهو يربت على كتفها معلقاً "لا تفكري بالأمر كثيراً.. هذا ليس أول هجوم أو دمار تتعرض له القرية.. ولا ذنب لك فيما حصل.."

خفضت ريم بصرها بحزن، بينما أضاف سليم "المهم الآن أن تعدي بمعاونتي متى ما طلبتها منك يا ريم.. وأن تكفي عن البكاء بلا سبب.. اتفقنا؟"

نظرت له ريم محاولة استشفاف جديته في إعادتها لوالديها، ثم قالت باستسلام "أعدك بذلك.."

اتسعت ابتسامة سليم وهو يربت على رأسها قائلاً "إذن خذي قسطاً من الراحة الآن حتى أستدعيك.."

أمسكت ريم بكمّ قميصه وهي تتساءل بلهفة "هل ستنجح حقاً في إعادتي؟"

قال سليم محاولاً طمأنتها "أرجو ذلك.. فلا تقلقي قبل أن نجرب الأمر.."

وساعدها لتقف قائلاً "هيا.. اذهبي لمنزل الخالة أم سهم.. لابد أنها قلقة عليك.."

غادرت ريم الموقع بعد تردد قصير، وسارت نحو منزل سهم مطرقة بشيء من الكآبة لم تستطع التخلص منها..

****

عندما طلعت شمس اليوم التالي، لم يكن سليم قد غادر موقعه بعد وهو يجلس على إحدى الحجارة التي شكّلت منزله سابقاً مطرق الرأس بصمت تام.. وبعد أن بدأت الحركة الخافتة لأهل القرية مع بدء النهار، سمع سليم صوتاً قريباً يقول "أأنت نائم؟.. هذا وضع غريب وغير مريح للنوم لو أردت رأيي.."

رفع سليم وجهه ليرى يعقوب يقف قرب حطام منزله.. ورغم التعب البادي على وجهه فقد كان مبتسماً وهو يتأمل ملامح سليم المرهقة.. فغمغم سليم "لم أستطع النوم بعد كل ما جرى.."

غمغم يعقوب وهو يتأمل ملامح القرية المتهدمة من حوله "ومن يمكنه لومك على ذلك؟.."

زفر سليم بتعب وهو لا يكاد يقدر على النهوض من موقعه.. ثم تساءل "متى قررتم الرحيل؟.. يحسن بكم أن تبدؤوا بترحيل أهل القرية قبل أن يحدث هجـــــ....."

قاطعه يعقوب قائلاً "لن نرحل.."

نظر له سليم للحظات بعدم فهم، ثم قال "ماذا تعني؟ ألم تقل البارحة أنكم عزمتم على....."

قاطعه يعقوب مجدداً وهو يقول "لكننا غيرّنا رأينا.. سنبقى هنا ما دمتَ باقياً.."

رفع سليم حاجبيه بدهشة ظاهرة، بينما أضاف يعقوب "اجتمعت مع عدد من رجال ونساء القرية.. وعندما أبلغتهم بقرارك البقاء وعدم الرحيل معنا، فإن الأغلبية قد وافقت على البقاء معك.. لذلك، سنبقى في هذه القرية حتى تقرر أنت الرحيل معنا.."

خفض سليم وجهه بصمت قبل أن يغمغم بصوت بادي الانفعال "لماذا؟ أليس الموقع هذا خطِرٌ عليكم؟ فلماذا تفعلون ذلك لأجلي؟"

ابتسم يعقوب مجيباً "لأنك فرد من قريتنا، ولا يمكننا التخلي عنك بتاتاً.. أليس كذلك؟"

علق سليم باعتراض "لكن المخاطرة بقرية كاملة لأجل فرد واحد هو جنون.."

فقال يعقوب "لسنا ناكرين للجميل، ولا ننسى ما فعلته لهذه القرية منذ مجيئك.."

زفر سليم وهو يتأمل جوانب القرية، بينما قال يعقوب محاولاً تهوين الأمر "سننشغل بضع أسابيع في إصلاح ما تحطم في القرية وبناء منازل جديدة، لكن الأمر لن يكون صعباً.."

التفت إليه سليم قائلاً بحزم "قبل ذلك، عليكم إحاطة القرية بسور جديد.. وهذه المرة، من الأفضل إنشاء سور حجري بدلاً من ذلك السور الخشبي الهزيل.."

هز يعقوب رأسه موافقاً وهو يقول "لن يكون الأمر صعباً مع وجود ذلك الجبل القريب.. وبعد أن ننتهي من بناء السور لن يطول الوقت قبل أن يعود لك منزلك بأفضل مما كان.."

غمغم سليم ممتناً "شكراً لك يا يعقوب.."

ابتسم يعقوب معلقاً "ليس قراري وحدي لتشكرني.. وكما أخبرتك ما نفعله هو ردٌ للجميل ليس إلا.."

وغادر وهو يقول "خذ قسطاً من الراحة يا رجل.. تبدو بحالٍ يرثى لها.."

لم يعلق سليم ويعقوب يبتعد ليبدأ مع البقية في بناء سور جديد حول القرية.. ثم نهض سليم بتعب وتثاقل وهو يدفع نفسه دفعاً لإزاحة بعض الحجارة واستخراج ما دُفن تحتها من أشيائه.. كان عملاً مملاً والتعب قد بلغ بسليم مبلغه، لكن القلق والتوتر الذي يسري في جسده لم يكن ليجعله يهنأ بنوم مريح.. ومجرد التفكير بتلك الذبذبة التي قد تسري في ذراعه الأيمن في أي لحظة يثير توجسه وتوتره الشديد.. العد التنازلي قد بدأ منذ قدوم تلك الفتاة، وما عاد بالإمكان الحصول على أي وقت إضافي..

****

كان منزل سهم من المنازل القليلة التي صمدت أمام الهجوم الذي حدث على القرية.. وقد قضت ريم ليلتها واليوم الذي

يليها في كآبة واضحة وتعاسة بادية للأعين.. بينما قام أسعد بتوصية من يعقوب مع رجلين آخرين بمعاونة سليم على إزالة حطام منزله السابق واستخراج ما رُدِم تحتها.. وبينما تكوّمت الصناديق الخشبية والأغراض المختلفة التي تم استخراجها من الأنقاض جانباً وقد غطاها الغبار، فإن الرجال قد انهمكوا في إزاحة الحجارة وما بقي من السقف الخشبي جانباً للتهيئة لبناء منزل جديد.. أما سليم، فقد انشغل بصناديقه الموضوعة جانباً يفتش فيها بشكل حثيث حتى سمع صوتاً يقول بشيء من السخرية "ألا يفترض بك أن تعاون الرجال لبناء منزلك؟.."

نظر سليم خلفه ليرى سهم يقف قريباً وينظر له بتعجب ممزوج بالسخرية.. فغمغم سليم بشيء من التوتر "أين الفتاة؟"

رفع سهم حاجبيه بدهشة، ثم قال "ريم؟ إنها في المنزل.. لِمَ تسأل؟"

لم يعلق سليم وهو يعود لعمله.. لا يدري لمَ خالجه خاطر أن تكون ريم قد هربت في هذه الأوقات.. بعد لحظة صمت وجد سهم يركع قربه يراقب ما يفعله وهو يقول "لطالما شعرت أنك كسول ومتقاعس لا تشارك الرجال أعمالهم ولا تشاركهم الصيد.. ألست رجلاً؟"

وجد سهم من يضربه بقبضة يده على رأسه ضربة مؤلمة، وسمع أسعد يقول بحنق "ألم أخبرك أن تكف عن السخرية؟"

صاح سهم بحدة "لماذا تضربني؟.. هذا مؤلم.."

فقال أسعد "ألست رجلاً؟.. الرجل لا يتذمر من الألم ولا يضيّع وقته بمراقبة الآخرين.."

فقفز سهم واقفاً وصاح بحنق "أنا رجل بالطبع.."

وأسرع يغادر بخطوات حادة، بينما قال سليم لأسعد "أنت ويعقوب تعبثان بمشاعر الفتى كثيراً.."

فقال أسعد ضاحكاً "لأنه من المضحك رؤية تشبثه برجولته في هذا العمر.. أليس لي الحق بهذه المتعة الصغيرة؟.."

ثم نظر لسليم الذي لم يتخلّ عن صناديقه معلقاً "هل وجدت ما كنت تبحث عنه؟.."

غمغم سليم "ليس بعد.. أصبحت شبه واثق أنني قد فقدته في الحطام للأبد.."

فقال أسعد "أليس موجوداً في ذلك الكوخ عند الجبل؟.. ربما ليس في المنزل بتاتاً.."

قال سليم زافراً "لا.. بل هي هنا.. لكني لا أذكر أين وضعتها..."

لم يجد أسعد بداً من معاونته فيما يفعله رغم عدم إدراكه لأهميته.. لقد اعتادوا من سليم على الغموض وعدم الإسهاب في الحديث، لذلك لا يتعب أحد نفسه في الإلحاح بأي سؤال يريد جوابه.. ما لم يتحدث سليم بنفسه، فمن المستحيل استخلاص أي أمر منه.. بعد دقائق طويلة من البحث المستمر، صاح أسعد "هناك شيء ما تحت هذا الحجر.."

أسرع إليه سليم بلهفة بينما أزاح أسعد حجراً كبيراً بشيء من العناء ليظهر من تحته صندوق خشبي متوسط الحجم مغلق بإحكام.. اندفع سليم نحو الصندوق فور ابتعاد أسعد وفتحه بلهفة ليجد فيه عدداً من الأوعية الزجاجية متوسطة الحجم تحوي ذلك السائل الأصفر بكميات متفاوتة.. لكن ما صدم سليم كان رؤية أغلب تلك الأوعية وقد كسرت أطرافها

وتناثرت أجزاؤها في الصندوق، بينما انسكب ما فيها متخللاً خشب الصندوق لتشربه الأرض تحته بنهم.. ولم يبق من تلك الأوعية إلا عدد محدود جداً بكمية بسيطة..

زفر سليم وهو يتفحص الصندوق، بينما تساءل أسعد "أهذا ما كنت تبحث عنه؟"

هز سليم رأسه إيجاباً وهو يقول "أجل.. شكراً لك لمعاونتي.."

فابتسم أسعد وهو ينهض معلقاً "يا لغرابة ما تهتم به.."

ظل سليم يتفحص محتويات الصندوق بكثب، ثم رفع أحد الأوعية ونظر للسائل فيها وهو يفكر بعمق بما سيجري منذ الآن، بينما ظل أسعد يراقب ملامحه محاولاً استخلاص أي شيء منه.. لكنه وجد سليم يقف فجأة وهو يقول "أين ريم؟"

غمغم أسعد مشيراً خلفه "إنها في منزل سهم.."

لكن سليم كان قد غادر دون أن يستمع إليه، فأدرك يعقوب أنه لم يكن بحاجة لهذا الجواب حقاً.. استدار أسعد بدوره نحو الرجال الذين انشغلوا بجانب المنزل، وقال لهم "اعملوا بهمّة يا رجال.. ما يزال أمامنا الكثير لنفعله قبل أن تعود القرية لما كانت عليه.."

****

عندما تعالت الطرقات الحادة على باب منزل سهم، أسرعت الأم تفتح الباب بقلق ليواجهها سليم بنظراته المتوترة والعرق يسيل غزيراً على وجهه المغبر، فقالت الأم بقلق "هل كل شيء على ما يرام؟"

ابتسم سليم بتوتر قائلاً "لا تقلقي يا أم سهم.. لقد أتيت لرؤية ريم.."

سمحت له أم سهم بدخول المنزل وناولته إناءً به بعض الماء ليغسل وجهه.. فقال سليم بعد أن أزال الغبار عن وجهه "أريد استعارة منزلك لبعض الوقت يا أم سهم، هذا إن لم تمانعي طبعاً.. منزلي قد تهدّم بشكل تام كما تعلمين.."

نظرت أم سهم لريم الصامتة خلفها والتي كانت تنظر لسليم بقلق ظاهر، وقالت "لماذا؟ ما الذي سيحدث لها؟.."

قال سليم "لا تقلقي.. لا أريد إلا معاونة ريم.. فلا تحملي هماً.."

اقتربت أم سهم من ريم وربتت على كتفها متسائلة "هل ستكونين بخير يا صغيرتي؟"

هزت ريم رأسها بتوتر وهي صامتة.. عندها قالت أم سهم "لا بأس.. سأكون قريبة إن احتجتم إليّ.."

شكرها سليم وهي تغادر المنزل بصمت.. وبعد أن غادرت، استخرج من جيبه محقناً مشابهاً لذاك الذي كسرته ريم، واستخرج وعاءً زجاجياً يحوي تلك المادة الصفراء.. ظلت ريم تراقبه وهو يملأ المحقن بالمادة، ثم غمغمت بقلق "أهذا الدواء هو ما أعادني لبيتي في المرة الماضية؟"

قال سليم وهو يتفحص المحقن "أجل.. لست أضمنه بشكل تام، لذلك لا أملك إلا التمنّي.."

ثم اقترب منها مضيفاً "لحسن الحظ أنك لم تجابهي أية أعراض جانبية له.. والآن... سنبدأ التجربة بشكل رسمي، وأتمنى أن تكون أفضل من تجربتك الأولى.."

ظلت ريم تراقبه بقلق متزايد وهو يكشف أعلى ذراعها، ثم غمغم وهو يدفع بالمحقن ليخترق جلدها "اعذريني فلا أملك هنا أي وسائل للتعقيم.. لكن ليست هذه بأسوأ مخاوفنا الآن.."

أغمضت ريم عينيها بقوة متحملة الألم بصمت، وشعرت بشيء من الحرقة في عروقها حيث سرى الدواء.. ولما ابتعد سليم عنها فتحت عينيها ونظرت لذراعها، قبل أن تعود ببصرها لسليم بقلق أكبر وهي تقول "لكن كيف يمكن لسائل مثل هذا أن يعيدني لأبي وأمي؟.. بل كيف أتيتُ إلى هنا؟.. ألا يجب أن نستخدم مركبة أو ما شابه للعودة؟"

ابتسم سليم وهو يعدل عويناته قائلاً "يا صغيرتي.. أبواك ليسا في موقع قريب حتى نعود إليهما بالمركبات.. بل ليسا في هذا العالم كله.."

اتسعت عينا ريم وهي تحاول استيعاب ما قاله، ثم قالت بصدمة "أنت تكذب عليّ.. ماذا تعني بأنهما ليسا في هذا العالم؟!.. هل..... هل ماتا؟"

ثم نظرت للمحقن الفارغ برعب وهي تصيح "وهل ستقتلني أنا أيضاً؟"

فاجأتها ضحكة أطلقها سليم قبل أن يقترب منها مربتاً على رأسها وهو يقول "لا يا عزيزتي.. اعذريني فلم أتمكن من صياغة جملتي بشكل صحيح فأثرت فزعك.."

لاحظ انكماشها منه، فجلس قريباً وأمسك يديها بيديه وهو يواجه عينيها بعينيه ويقول مطمئناً إياها "لا يا عزيزتي.. هما ليسا ميتين، ولن تموتي أنت أيضاً الآن.."

فغمغمت بقلق "إذن، أين هما؟"

قال سليم متنهداً "من الصعوبة بمكان شرح الأمر بما يناسب استيعابك.. ولكن....."

تلفت حوله بحثاً عما يعينه على الشرح، حتى عثر على منديل موضوع على طاولة جانبية.. فحمله وقرّبه من ريم قائلاً "افترضي أنك وأمك وأبيك قد عشتم في عالم يقع على هذا الجانب من المنديل.. عالم كامل كما كنت تعرفينه ببحاره وأنهاره ومدنه وجباله.. بقمره وشمسه وكل الكواكب التي درستِ عنها في المدرسة ولابد.. حسناً، هناك عالم مشابه لعالمك هذا، لكنه يقع في الجانب الآخر من المنديل.. عالم كامل أيضاً يتشابه مع عالمك في أشياء كثيرة ويختلف عنه في أشياء أخرى.. العالمين كلاهما متواجدان على هذا المنديل، لكن لا يرى أحدهما الآخر ولا يصل أحدهما للآخر.."

كانت ريم تستمع له باهتمام متزايد محاولة استيعاب ما يقوله، فيما أضاف سليم "ما حدث لك هو أنك انتقلت من ذاك الجانب للجانب الآخر من المنديل بمعجزة، وعبر فتحة في هذا المنديل.. والآن، هذا السائل سيتيح لك أن تعثري على تلك

الفتحة مجدداً وتعودي لعالمك.. هل فهمتِ الأمر؟"

نظرت له ريم بغير اقتناع، فقال سليم مبتسماً "هذه تسمى العوالم الموازية يا عزيزتي.. جميع العوالم فيها متشابهة وبدايتها واحدة، لكنها تبدأ في الاختلاف عند نقاط معينة، فيكون الناتج مشابهاً للأصل ومختلفاً عنه في الآن ذاته.."

فنظرت ريم لذراعها قائلة "والآن بعد أن حقنتني بهذا السائل، ما الذي سيحدث لي؟"

أجاب سليم وهو يجلس جانباً "لا شيء.. لا نملك إلا الانتظار.. فلا أعلم بالضبط متى سيبدأ السائل في التأثير على جسدك.."

سمعا صوت سهم يقول "ألم يبدأ كل شيء بعد رحيلنا عن القرية بساعة على الأقل؟"

التفتا ليريا سهم يقف قرب النافذة المفتوحة يراقب ما يجري باهتمام، فقطب سليم قائلاً "ما الذي جاء بك؟"

قال سهم بابتسامة "هذا منزلي.."

فقال سليم بضيق "أعلم ذلك طبعاً.. لقد طلبت من أمك أن أستخدم المنزل دون مقاطعة حتى أنتهي.. ألم تخبرك بذلك؟"

قطب سهم مصطنعاً الغضب وقال "أتطردني من منزلي يا سليم؟"

ثم سرعان ما رآه سليم يدخل من الباب دون اعتبار لأي قول وهو يسأله باهتما م "أهذا الدواء هو ما سيعيد ريم لموطنها؟ كيف يمكن أن يحدث ذلك؟ وأين هو موطنها هذا؟"

قال سليم بضجر "سهم.. اخرج الآن قبل أن أغضب.."

لكن سهم لم يعبأ به وهو يطرح أسئلته العديدة، بينما بدأت ريم تلاحظ خفوت أصواتهما بشكل كبير وكأن أذنيها مغمورتان بالماء.. بدت الأصوات عائمة لا معنى لما تقوله، وبدأت الموجودات حولها تموج بشكل واضح.. رفعت ريم يدها المرتجفة أمام وجهها تتأملها، ثم قالت بصوت مرتجف "سليـــم....."

التفت إليها سليم وسهم في الآن ذاته، ثم اقترب منها سليم باهتمام وهو يغمغم بشيء ما.. لكن ريم لم تسمع ما يقوله والنور يتضاءل بشكل سريع ليغرق المنزل وما فيه في ظلام شديد سرعان ما أصبح حالك السواد.. ظلت ريم متجمدة في موقعها وشي ء من الذعر يغزوها.. ولكن رغم قلقها، فإن شيئاً من اللهفة كانت تغمرها بانتظار ما ستراه بعد قليل.. بانتظار انتهاء هذا الكابوس الذي طال حتى كادت تيأس من التخلص منه..

وعندما ظهرت غرفتها الوردية الهادئة من جديد، خفق قلب ريم وهي تقلب بصرها بين الغرفة المظلمة وجسدها الذي بدا شفافاً.. غاب العالم الذي كانت فيه تماماً، ولم تشعر بأي شيء يصلها به مما طمأنها وهي تحاول الحركة من جديد دون نجاح يذكر.. وعندما فتح باب الغرفة مرة أخرى، بهدوء أكثر، التفتت إليه ريم بلهفة لترى أمها تقف عند مدخل الغرفة بصمت.. كانت شاحبة الوجه، ترتدي رداءً أسود اللون، وبيدها منديل لا تفتأ تمسح به عينيها وهي تدير بصرها في الغرفة.. لم يبدُ أنها لاحظت وجود ريم، فحاولت ريم أن تجذب انتباهها بالحديث دون أن يصدر من حلقها أي صوت..

رأت أمها تنهار أرضاً بعد لحظة وتبدأ في البكاء بشيء من الهستيرية، عندها صاحت ريم وقد أجزعها منظر أمها الباكي.. حاولت أن تناديها بلهفة، لكن لم تسمع إلا حشرجة خافتة تصدر من حلقها.. حاولت ريم بجدية أكبر وهي تنظر لقدميها الساكنتين بغيظ، وأخيراً بعد عناء كبير استطاعت أن تقول بصوت مبحوح "أمي.. أنا هنا.."

انتفضت الأم لما وصلها الصوت متلفتة حولها، ولما انتبهت لجسد ريم شبه الشفاف وسط الغرفة ارتجف جسدها بوضوح وهي تشهق واضعة يدها على فمها.. تلألأ وجه ريم بسعادة عندما لاحظت أن أمها تستطيع رؤيتها، وقالت بجهد كبير "أمي.. لقد عدت إليكم أخيراً.. لقد عدت....."

قاطعتها صرخة الأم الحادة وهي تقفز واقفة، فظلت ريم تنظر إليها بدهشة وقد شعرت أن لسانها احتبس في حلقها.. وخلال ثوانٍ، كان الأب يقتحم الغرفة صائحاً "ما الذي جاء بك لهذه الغرفة يا سلمى؟"

تمسكت به سلمى وهي تغمض عينيها وخطين من الدموع يسيلان على وجهها الذي ازداد شحوباً، بينما قال الأب بشيء من الضيق "ما الذي تطمحين للوصول إليه بإيلام نفسك بهذا الطريقة؟ أخبرتك أن تُبقي هذه الغرفة مغلقة على الدوام.."

رفعت الأم إصبعاً مرتجفاً نحو ريم دون أن تنبس بكلمة، بينما ظلت ريم واقفة تنظر إليهما بدهشة.. ولما التفت الأب نحوها ارتجف جسده بشكل واضح وعيناه تتسعان بصدمة.. حاولت ريم الحديث من جديد قائلة "أبي.. لقد....."

لكن الأب أشاح ببصره بعيداً وهو يحيط كتفي زوجته قائلاً بصوت أجش "هذه مجرد هلاوس بسبب انفعالاتك الزائدة.. أنت تعلمين تمام العلم أن ريم قد ماتت.. فلا داعي لنبش الحزن بهذه الطريقة.."

اتسعت عينا ريم بفزع وهي تراهما يغادران الغرفة والأم تجهش بالبكاء من جديد، ثم صاحت ريم بأعلى ما تستطيع قائلة "أبي.. أمي.. لا ترحلا.. لا تتركاني مرة أخرى.. لقد عدت إليكما.. أنا لم أمت.. أنا ريم.."

شعرت أن انفعالها قد جعل كلماتها غير مفهومة وإن حاولت جهدها أن تنطقها بشكل صحيح.. لكن الأب جذب باب الغرفة بيده بهدوء قبل أن يتردد لثانية ملقياً نظرة عليها منحتها شيئاً من الأمل وهي تصيح بحرقة "أبـــــــــي.."

لكن صدمها رؤية الباب يغلق تماماً في وجهها ليحلّ الظلام في الغرفة.. فشعرت ريم بقلبها يغوص في صدرها وهي تتلفت حولها في الغرفة التي بدأت معالمها تغيب عن ناظريها.. ولما رأت وجه سليم يبدو من الظلام حولها وهو قريب منها ينظر إليها بقلق وفضول، وجدت وعيها يتسرّب منها لتسقط أرضاً مغمىً عليها دون أن تفلح بقول كلمة واحدة تعبر بها عن صدمتها العنيفة بما جرى..

****

عندما عاد الوعي لريم، وبدأت الموجودات تتضح حولها، لاحظت ملامح منزل سهم التي لا يمكن إخطاؤها وهي مستلقية

على أحد الأسرة فيه.. ورأت وجهاً قريباً ينظر إليها بقلق عارم قبل أن يعلو صوت سهم الذي صاح "سليم.. لقد استيقظت ريم أخيراً.."

ظلت ريم صامتة لا تتحرك وهي ترى سهم الذي قال "هل اكتفيتِ من النوم؟.. لم أكن أظنك ضعيفة الجسد لتفقدي الوعي بتلك الطريقة.."

رغم السخرية الظاهرة في صوته، إلا أن ملامحه نطقت بالقلق لرؤية التعب في وجهها، وإن ظل يكابر ويطلق تعليقاته الهازئة حتى اقترب سليم وطرده خارجاً ليتخلص من إزعاجه.. مط سهم شفتيه وهو يغادر، وإن بدا ظله واضحاً قرب الباب المفتوح وكأنه فضّل الاطمئنان عليها دون أن يفقد كبرياءه.. أما سليم فقد نظر لوجه الفتاة المتعب وقال بقلق واضح "هل أنت بخير؟ لقد قلقت عليك بعد كل ما جرى.."

ظلت ريم صامتة وهي تحاول تذكر كل ثانية مرت بها وهي هناك.. تحاول تبيّن ما الخطأ الذي فعلته، وما الذي جعل والديها ينبذانها بهذا الشكل.. ما الذي فعلته حقاً؟..

أعاد سليم تساؤله عليها، لكنها لم تجبه وهي تشيح بوجهها دون تعليق.. رغم الصدمة التي لم تغادرها، إلا أنها لم تجد دموعاً لتذرفها حزناً لما جرى.. سمعت سليم يقول محاولاً طمأنتها "أتريدين المحاولة مرة أخرى؟.. خذي قسطاً من الراحة وسنحاول من جديد.. قد تنجحين هذه المرة.."

لكنها قالت بشيء من الحدة "لا أريد.."

نظر لها سليم بدهشة بينما أضافت ريم بصوت يحمل ارتجافة حاولت تمالكها "لا أريد العودة.. لا أريد شيئاً بتاتاً.."

واستدارت جانباً وهي تغطي وجهها بيديها قائلة بارتجافة أكبر "اتركني وشأني.."

وقف سليم بحيرة ينظر لجسدها المرتجف رغم أنها لم تكن تبكي بتاتاً، لدهشته العميقة.. ثم تنهد وهو يغادر المنزل تاركاً إياها تتمالك نفسها وتهدأ من الانفعال الذي بدا عليها.. ولما غادر المنزل وقف قرب الباب وقال "ألم أطردك سابقاً؟ ما الذي أبقاك هنا؟"

لم يلتفت سهم إليه حيث وقف مستنداً إلى جدار المنزل، وإنما تساءل "أتظنها لن تحاول العودة مجدداً؟"

غمغم سليم "ربما هي حزينة لشيء رأته هناك، أو لفشل التجربة من جديد.. لابد أنها ستحاول العودة لبيتها في وقت آخر.. ولا نعلم متى ستنجح في ذلك.."

صمت سهم للحظات، قبل أن يستدير مغادراً وهو يقول بلا مبالاة ظاهرة "عليها أن تكفّ عن شغلنا بمحاولاتها هذه.. ما السيئ في بقائها في هذه القرية؟"

فقال سليم بابتسامة "ومن شَغَلَك أنت بأمر ريم؟.. ابتعد واترك الفتاة فهي ليست بحاجة لمن يستهزئ بها الآن.."

صاح سهم بحنق "أتكرهني يا سليم؟ لماذا تصرّ على طردي دائماً من كل أمر أيها العجوز؟.."

واستدار راكضاً بشيء من الحدة، بينما التفت سليم للباب الموارب متطلعاً لريم الساكنة.. ثم زفر وغمغم مديراً بصره في القرية النشطة من حوله "يبدو أن أيامك ستطول هنا يا ريم.. ليتك رحلت ما دامت الفرصة مواتية لك.. ليتك رحلت....."

****

مع قرب مغيب الشمس، كانت القرية شبه خالية بعد أن أوى الرجال والنساء للمنازل القليلة التي صمدت أمام الهجوم الأخير.. فبعد نهار كامل من العمل المتواصل بدون راحة، كان التعب قد بلغ بالجميع مبلغه فاستسلموا للراحة بشكل أبكر من المعتاد وخلت القرية من أي صوت أو حركة مع نهاية اليوم..

وفي الموقع الذي احتله منزل سليم، كان الأخير لا يزال في مكانه وحيداً يفتش في أغراضه يتفحص ما كُسرِ وما فُقِد وما بقي سليماً.. كانت السماء البرتقالية تنير عتمة المكان بشكل طفيف بحيث تكفيه عن استخدام المصابيح ذات النور الضعيف عادة.. وبعد وقت طويل قضاه وحيداً، سمع سليم تلك الخطوات المترددة الخافتة تقترب منه.. استدار متطلعاً خلفه بتعجب ليرى ظل جسد ريم الضئيل يرتمي قربه، بينما وقفت هي قرب باب منزله خافضة وجهها وعيناها حمراوان من أثر البكاء.. فغمغم سليم بلطف "ما الأمر يا ابنتي؟.. هل أنت بخير؟"

هزت ريم رأسها نفياً بقوة، وخفضت وجهها أكثر وهي تقول "لماذا حدث لي كل ذلك؟.. هل..... هل يكرهني أبي وأمي؟.. ألهذا السبب جئت لهذا المكان؟"

نظر لها سليم بإشفاق وهي تضيف بصوت متهدج "ألهذا السبب أصابتهما عودتي إليهما بالذعر؟ .. ما الذي فعلته ليكرهاني؟"

اقترب منها سليم وضمّها لصدره قائلاً "يا طفلتي العزيزة.. لا يمكن لأبويك أن يكرها طفلة رقيقة مثلك.."

قالت ريم بصوت باكٍ "لكني سمعت أمي تقول إني في المستشفى.. وأنني قد متّ.. لماذا ظنّا أنني متّ وأنا أقف أمامهما؟.. أنا لا أفهم شيئاً.."

أبعدها سليم على طول ذراعيه وهو يتأمل وجهها باهتمام، ثم ركع قربها متسائلاً "هل قالا ذلك؟.. أخبريني بما قالاه بالضبط عندما رأياك.."

نظرت له ريم بحيرة، ثم أخبرته بما جرى لها في المحاولتين اللتين أخذتاها لعالمها بشكل جزئي.. ولما فرغت نظرت لوجه سليم لتجد التماعة أسى في عينيه.. وجدته يغمض عينيه بقوة محاولاً السيطرة على انفعالاته قبل أن يتدارك نفسه قائلاً "لا بأس.. كل الأمور ستكون على ما يرام.."

قالت ريم بصوت مرتجف "ما الذي سأفعله الآن؟.. مادمت لست قادرة على العودة، ومادام أبواي لا يرغبان بعودتي

إليهما.. فما الذي سيحدث لي الآن؟"

نظر لها سليم بصمت لفترة طالت، ثم تنهد وهو يقف ويقول "ليس أمامك إلا أن تعاودي التجربة من جديد.. هذا هو الحل الوحيد.."

غمغمت ريم بقلق "أتظن أن لذلك أي فائدة؟"

فتح سليم فمه ليجيب، عندما فوجئت به ريم ينتفض في موقعه وهو يرفع يده اليمنى لينظر لها بقلق وارتباك.. فلاحظت ريم عندها ذلك السوار الجلدي المحيط برسغه والذي بدا له كسوار ساعة عادية لا يلفت النظر.. ظل سليم ينظر ليده للحظات طالت وهي تشعر بارتباكه وضيقه يتضاعف، ثم رفع بصره إليها أخيراً ونظر لها بنظرة لم تعجبها وهو يقول "انتظريني هنا يا ريم.. سأعود لك حالاً.."

لم تعلق ريم وهي تراه يقودها لجانب منزله الخالي من كل شيء ويجلسها على أحد صناديقه الخشبية، ثم غادر بصمت تاركاً إياها تنظر له بحيرة وقلق كعادتها.. ولم يكد يغادر المنزل ويبتعد في طريقه نحو كوخه الخشبي البعيد، حتى شعر سليم مجدداً بتلك الاهتزازات الخفيفة في ساعده الأيمن منبعها ذلك السوار حول رسغه.. فنظر سليم للسوار مجدداً بارتباك وضيق وهو يهمس لنفسه "هل أستطيع تجاهل الأمر أكثر من ذلك؟.. أخشى أنني لو فعلت ستجابه القرية كلها عواقب ذلك.. تباً.. لماذا لم يصبروا قليلاً بعد؟.."

وأسرع بخطواته نحو الكوخ الخشبي وقلقه يتزايد مع كل خطوة يخطوها..

أما ريم، فقد ظلت مطرقة بصمت في منزل سليم بانتظار عودته وهي تحاول ألا تعاود البكاء الذي لم تكد تكفّ عنه منذ جاءت لهذا العالم.. وبعد وقت قصير سمعت الخطوات تعود مجدداً، فنظرت لموضع فتحة الباب الخالية لترى جسداً قصيراً مقارنة بسليم يدلف عبر الفتحة.. ثم سمعت صوت سهم يقول "توقعت أن أجدك هنا.. لِمَ غادرت المنزل في هذا الوقت يا ريم؟"

خفضت ريم بصرها وهي تلتزم الصمت وتفرك يديها بتوتر.. فقال سهم وهو يقف قربها "هل جئت إلى سليم ليعيدك إلى بيتك مرة أخرى؟.. متى ستيأسين من ذلك؟.. لو كانت عودتك هينة لحدث ذلك منذ وقت طويل.."

ظلت ريم تنظر له وملامح اليأس تظهر في عينيها، وبدأت الدموع تترقرق فيهما.. فقال سهم بضيق "هل ستبكين مجدداً؟"

لكن ريم خفضت بصرها وهي تمسح عينيها بظاهر يديها وتعضّ شفتها السفلى التي ارتجفت بقوة دون أن تسمح لنفسها بالبكاء.. ثم قالت بصوت مرتجف "ولماذا أبكي؟.. من سيهتم ببكائي أو سيحزن لي؟.. أنا لن أبكي بتاتاً.."

نظر لها سهم وقد أشفق عليها لمحاولاتها الكفّ عن البكاء، ثم قال وهو يحكّ رأسه "لم أعنِ ذلك حقاً.. الجميع هنا يهتمون بك.. وبكاؤك يحزنهم طبعاً.. لكن لماذا أنت حزينة دائماً؟ أتكرهين البقاء في هذه القرية لهذه الدرجة؟"

لم تعلق ريم وهي تمسح عينيها من جديد، فقال سهم محاولاً جذب اهتمامها "لا تحزني.. غداً سأعلمك تسلق الأشجار

حتى تصبحي أكثر مهارة مني.. ألن يسعدك ذلك؟"

غمغمت ريم بحزن "لكنني أريد أبي.."

فقطب سهم معلقاً "وماذا في ذلك؟ أنا لا أب لي أيضاً، فقد توفي قبل ولادتي بزمن.. ليس الأمر بذلك السوء.."

خفضت ريم رأسها أكثر وهي تقول بصوت متهدج "لكن لك أم تحبك... وأنا لا أم لي.."

فهبّ سهم قائلاً "ستكون أمي هي أمك.. فهي تحبك كثيراً.. ألا تحبينها أنت كذلك؟.."

لكن ريم وضعت رأسها على ذراعيها المعقودتين على ركبتيها وهي تبكي بدون صوت خشية من سخرية سهم، فتنهد سهم وهو يضع يده على رأسها قائلاً برفق "كفى بكاءً يا ريم.. لن تكون أيامك هنا سيئة.. ستحبين القرية كثيراً صدقيني.."

فقالت باكية "أنا أخشى هذا المكان.."

عندها هتف سهم "أنا سأكون معك دائماً.. وسأحميك من أي شيء.. ثقي بي.."

لكنها هزت رأسها بقوة وهي مستمرة بالنحيب، بينما سمع سهم صوت سليم القريب يقول "اتركها الآن يا سهم.. ستغدو أفضل حالاً غداً بإذن الله.."

نظر سهم لسليم الذي دخل المنزل بهدوء، ثم نظر لريم المنطوية على نفسها.. فمد يده يمسك يدها وهو يقول "هيا يا ريم.. يجب أن نعود للمنزل.. أمي تنتظرك بقلق.."

لكنها هزت رأسها من جديد بقوة وهي تجذب يدها من يده برفض، بينما قال سليم "دعها هنا الليلة يا سهم.. سأعتني بها فلا تقلق عليها.."

ظل سهم واقفاً بتردد حتى أجبره سليم على الرحيل.. فغادر بغير اقتناع تاركاً سليم يقف وسط المنزل يزفر بتوتر، قبل أن يقترب من ريم مربتاً على كتفها قائلاً "لا تقلقي يا ابنتي.. لا تغرقي في هذا الحزن فستنسين كل هذا قريباً.."

نظرت له ريم بعين دامعة.. لكن رغم لطف حديثه، إلا أنه لم يكن يبتسم أو يُظهر لطفاً على وجهه.. بدا بلا انفعال وهو يمد يده إليها بحبة دواء بيضاء ويقول "تناولي هذه.. ستكونين أفضل حالاً بعدها.."

غمغمت ريم بقلق "لا أريد.."

لكنه ألحّ قائلاً "بل يجب أن تفعلي.. هذا الدواء مفيد لجسدك بعد كل ما حدث.. أطيعيني وتناوليها الآن.."

تناولت ريم الدواء بعد تردد، فقرّب منها سليم كوب ماء وهو يقول "كل شيء سيصبح على ما يرام يا فتاتي.. لا تقلقي.. كل الأمور ستكون على خير ما يرام.."

****

ارتفع القمر المضيء عالياً في السماء وهالة فضية تحيط به، لكن هالته لم تتمكن من التغطية على مئات وآلاف النجوم المضيئة التي توزعت حوله وزادت المنظر جمالاً بشكل يبهر الناظر إليه.. وفي المساحات العشبية الشاسعة المحيطة بالقرية، حيث الأشجار المتفرقة تبدو كأشباح سوداء وحيث الأعشاب على مد البصر اكتست بلون فضي لامع من نور القمر، ظهر ظل أسود متوسط الطول يتقدم بثبات وسط الموقع الخالي.. وعلى ضوء القمر، بدا وجه سليم واضحاً وهو يسير بثبات إنما بخطوات متثاقلة حاملاً على كتفه جسد ريم الصغير والتي استغرقت في نوم عميق لم توقضها منه حركة سليم المستمرة.. وبعد سير لوقت طويل، توقف سليم قرب صخرة متوسطة الحجم وتلفت حوله للحظات، قبل أن ينزل ريم من على كتفه برفق.. ظلت ريم نائمة تتنفس بعمق وهدوء، بينما جلس سليم على الصخرة القريبة وأبقى ريم جالسة على ساقه وهو يسند رأسها لصدره ويمسك كتفيها بيده..

التزم سليم بالصمت التام وهو يتلفت حوله مترقباً أمراً ما، ويلقي بنظرة بين لحظة وأخرى على ريم النائمة قبل أن يزفر بضيق شديد.. ثم همس محدثاً نفسه "أرجو ألا أندم على ما أفعله.. ما كان يجب أن نصل لهذا....."

وبعد انتظار طال لنصف ساعة على الأقل، دون أن تستيقظ ريم بفعل المخدر الذي تناولته سابقاً بإلحاح من سليم، رأى سليم جسماً يتقدم منه بسرعة كبيرة متشحاً بالسواد التام والغبار يتطاير خلفه رغم أنه كان يرتفع عن الأرض مسافة متر أو مترين على الأقل.. وقف سليم متوتراً وهو يحمل ريم بذراعيه وقد تضاعف قلقه مئات المرات.. ولما وصل ذلك الجسم بسرعته الرهيبة وقف على بعد أمتار من سليم وقوفاً حاداً وسحابة الغبار تتبعه حتى غطّت البقعة لثوانٍ معدودة.. سعل سليم بحدة للغبار الذي ثار بوجهه مدارياً وجه ريم في قميصه وهو ينظر للمركبة التي هبطت بهدوء حتى استقرت أرضاً دون أن يبدو فيها أية أنوار واضحة.. كانت تلك المركبة دائرية الشكل من معدن أسود غير لامع، بذراعين جانبيين أشبه بجناحين صغيران يساهمان في موازنة المركبة، وبسقف مكشوف.. وفي المركبة، بدت ثلاثة أجساد لم يفلح نور القمر في إظهار ملامحها، ولم يلبث أحد تلك الأجساد أن هبط أرضاً واقترب بهدوء من سليم الذي ظل واقفاً في موقعه بصمت.. تأمل سليم الرجل الطويل الذي يرتدي معطفاً يغطي جسده كاملاً ويصل للأرض بلون أسود فاحم تغزوه بعض المنمنمات الدقيقة بلون ذهبي.. أما الرجل فأبيض اللون شاحب الوجه بشعر أسود يصل حتى كتفيه سرحه للوراء بإحكام، عيناه سوداوان باردتان لا يبدو فيهما أي انفعال، أنفه حاد وفمه رفيعٌ بادي القسوة.. ومن حلقه صدر صوت مبحوح لا يتناسب مع طوله الذي يفوق سليم بمراحل وهو يقول "إذن.. أهذه هي؟.."

مد الرجل الطويل يده نحو ريم، لكن سليم تشبث بها وابتعد خطوة وهو يقول "أرجوك.. ليس الآن.. اصبر قليلاً بعد"

قطب الرجل حاجبيه وهو يقول "ماذا تعني؟"

صمت سليم للحظات بالعاً ريقه، ثم اندفع يقول "إنها في حالة نفسية سيئة، واستيقاظها بين غرباء سيزيدها سوءاً ويصيبها بذعر شديد.. اتركها معي حتى أمهد للأمر"

فقال الرجل بهدوء وهو يمد يده من جديد "محال.. سأعيدها معي إلى....."

لكن سليم ازداد تشبثاً بها وهو يتراجع خطوة أخرى.. فبدا الاستنكار للحظة على وجه الرجل، قبل أن يرفع يده بهدوء.. وبإشارة صغيرة وجد سليم الشخصين الآخرين يهبطان من المركبة بسرعة.. وارتفعت في وجهه أسلحة تشبه البنادق العادية أثارت رجفة في جسد سليم.. بينما قال الرجل الطويل "أنت تثير حيرتي يا سليم.. ما الذي ستجنيه من هذا؟"

توتر سليم دون أن يتخلى عن الفتاة وهو يقول "كل ما عنيته أنني لا أريد إفزاع الفتاة.. أخذها الآن ليس في مصلحتها أو مصلحتكم.."

تنهد الرجل وهو يرمق سليم ببرود، ثم غمغم "أنت تخيّب ظني يا سليم.."

ازداد توتر سليم وأحد الرجلين يقترب منه فيجذب الفتاة الغافية دون أن يملك سليم الاعتراض.. ظل سليم يقلب بصره بين الرجل الطويل وبين الآخر الذي حمل ريم نحو المركبة.. ثم قال "كما قلتَ أنت، لا مصلحة لي من كل هذا إلا أن أحتفظ بموقعي هنا.. فما الذي سأجنيه من استبقائها؟.. أنا فقط أخشى عليها.."

فوجئ بضربة قوية من سلاح الرجل الآخر تصيبه في وجهه فتلقيه أرضاً بعنف والرجل يقول "لا تتدخل يا هذا.."

رفع سليم بصره محتملاً الألم الشديد في فكه ليرى الرجل الطويل يستدير عائداً للمركبة بدوره بصمت، فحاول سليم النهوض وهو يقول "مهلاً.. لماذا لا تستمع إليّ؟"

لكن ضربة أخرى من الرجل القريب أطاحته أرضاً من جديد قبل أن يبتعد الرجل نحو المركبة تاركاً سليم ملقىً أرضاً ودوار عنيف يعصف برأسه.. نظر سليم بعسر للمركبة التي بدأت في التحرك فور استقرار الرجل الأخير عليها، فارتفعت قليلاً ثم استدارت وانطلقت بسرعة وصمت كما جاءت وسحابة الغبار التي أطلقتها خلفها تغمر سليم من جديد.. سعل سليم بقوة وعيناه تدمعان وهو يدفن وجهه في كم قميصه.. ولما انحسر الغبار من حوله حاول النهوض بشيء من العسر.. لا يدري أكان الدوار الذي يزداد بحدة شديدة في رأسه هو السبب، أم كونه لم يحضَ بنوم أو راحة طوال اليومين السابقين، لكنه سرعان ما وجد رأسه يسقط أرضاً ووعيه ينسحب منه بسرعة وهو يرمق الأشجار القريبة من خلف الغشاوة التي غطت عينيه.. ولم يلبث أن سقط في غيبوبة شديدة وسط تلك البقعة الصامتة والنسيم يهز أشجارها السامقة بينما الأعشاب تموج بكل هدوء ونعومة..

****

الفصل الخامس « ذلك العالم المبهر.. »

عندما فتحت ريم عينيها، شعرت بضيق طفيف في تنفسها وكأن رئتيها تجذبان الهواء عنوة.. تلفتت حولها وسط الظلمة الطفيفة التي يزيل شيئاً منها النور الهادئ المتسلل من بين الستائر الحريرية في جانب المكان.. رمشت ريم بعينيها وهي تلاحظ بالنور الخفيف تفاصيل المكان الذي كانت فيه.. ثم اتسعت عيناها شيئاً ما وهي تعتدل بشيء من العسر جالسة في السرير الذي وجدت نفسها فيه.. فبعد ذلك المنزل الحجري البدائي الذي يملكه سليم، بسقفه الخشبي الذي تشعر أنه سيسقط في أي لحظة، وجدرانه الحجرية القاسية، وزواياه الملأى بالصناديق المغبرّة، الآن ترى من حولها غرفة واسعة هادئة على شيء من البرودة.. جدرانها الإسمنتية مصبوغة بلون أرجواني هادئ، وفي جانب المكان رأت نافذة واسعة عليها ستائر حريرية طويلة ذات لون ذهبي يتلألأ النور عبره.. أثاث الغرفة من حولها عصري الطراز، وإن كان غريباً لعينيها، متناسق الألوان.. والسرير الذي رقدت عليه ناعم الملمس لينّ الفراش ذو تطريزات منمنمة بأشكال زهور وفروع أشجار تتسلل في زواياه..

كانت متأكدة أنها ليست في تلك القرية خشنة القلب والقالب.. لكن في الآن ذاته ساورها شعور أنها لم تعد لعالمها قط.. لا يبدو لها هذا المكان مألوفاً بتاتاً، وهو يثير توجساً في نفسها لسبب لا تدريه.. حاولت ريم النهوض من موقعها وهي تشعر برجفة في أطرافها دون أن تدرك ما الذي يجعل جسدها متهاوياً ضعيفاً بهذا الشكل.. ثم أدركت أنها ترتدي زياً غريباً يتكون من قميص حريري طويل بلون عاجي يصل لقدميها عوضاً عن ملابسها المهترئة السابقة.. حاولت أن تتذكر ما جرى لها قبل أن تستيقظ، لكن كل ما تذكرته هو الدواء الذي تناولته من سليم بإلحاح منه.. بعدها بقيت لحظات معدودة منطوية على نفسها في جانب منزله المتهدم تراقب ما يفعله سليم، ملاحظة في الآن ذاته أنه بدا متوتراً متوجساً يراقب يده اليمنى ذات السوار بين لحظة وأخرى.. بعدها شعرت بتثاقل في جفنيها، فأغلقتهما لثوانٍ وفتحتهما لتجد نفسها في هذا المكان الغريب..

سمعت في تلك اللحظة صوتاً خلفها، فالتفتت لترى باباً واسعاً مزخرفاً بنقوش عديدة مذهبة قد فتح بصوت عالٍ ليبدو من خلفه رجل استنكرته ريم للوهلة الأولى.. كان الرجل طويل الجسد بشكل واضح وإن كان على شيء من النحافة، أبيض البشرة بشكل بدا معها شاحباً، شعره أسود يصل لكتفيه وقد سرحه للوراء بإحكام.. أما عيناه فسوداوان ببرود واضح.. وعندما فتح فمه لدى رؤيتها مستيقظة، صدر من حلقه صوت مبحوح أشعر ريم بالتوجس أكثر من السابق وهو يقول "وأخيراً.. خِلتك لن تستيقظي بتاتاً.."

رأته يتقدم منها بهدوء واثق، بينما التمعت عيناه بشيء من الشغف وهو يتفحص ملامحها بتدقيق.. ارتابت ريم لنظراته

وهي تنكمش هامسة "من أنت؟ أين أنا؟.. أين سليم؟"

ابتسم الرجل قائلاً "السؤال الأول إجابته طويلة جداً.. السؤال الثاني إجابته أنك في ما يطلقون عليها مدينة الغرباء.. أو ما نسميها نحن أنكاريا.. السؤال الثالث إجابته بسيطة جداً.. لا شأن لك به.. انسيه تماماً فلن تريه مرة أخرى كما أتمنى"

انكمشت ريم أكثر وهي تقول بصوت مرتجف "ماذا تعني؟"

جلس الرجل على طرف السرير الذي كانت عليه وهو يقول مبتسماً "لا يهم هذا الآن.. كل ما يهم هو السؤال الأول.. وبعيداً عن التطويل، أتريدين حقاً معرفة من أنا؟"

لكن ريم أدارت بصرها بعيداً وهي تقول بصوت مرتجف "بل أريد الرحيل.. أعدني إلى القرية.."

ضحك الرجل ضحكة قصيرة ثم قال "محال يا فتاة.. حتى لو غادرتِ القصر، فلن تستطيعي الخروج من أنكاريا.. بل من يريد الخروج منها وكل أولئك البدائيين يتمنون السكنى فيها؟.."

مد يده ليمسك يدها، لكن ريم قفزت واقفة وهي تبتعد عن مجاله ونظراتها تكتسي بخوف واضح.. ثم قالت بصوت مهتز "من أنت؟.."

ابتسم الرجل ابتسامة واسعة وهو يتأمل ملامح الخوف على وجهها، ثم قال بنبرة لطيفة "أنا أبوك يا فتاتي...."

****

تأوه سليم بألم وهو يحرك رأسه بشكل طفيف شاعراً بصداع يدوي في جنبات عقله مما أجبره على عدم القيام بحركة سريعة قد تزيده سوءاً.. شعر بوعيه يعود رويداً رويداً لكنه لم يجرؤ على فتح عينيه لئلا يثير الألم في رأسه أكثر، بل بقي في موقعه دون حراك مهدئاً أنفاسه وهو يشعر بنور الشمس الحارق يتخلل بشرته ويلفح رأسه.. وبعد فترة قصيرة بقاها سليم دون حراك، فتح عينيه وهو يستند على ذراعيه محاولاً الجلوس وهو يتمتم "تباً لهم.. ما الداعي لكل ذلك العنف؟"

شعر في تلك اللحظة بظل يسقط على جسده والمساحة المحيطة به حاجباً نور الشمس القوي، فاتسعت عينا سليم بشيء من الصدمة لحجم الظل الذي سقط عليه، ثم رفع رأسه بسرعة ينظر لما حوله.. لم يكن من الصعب ملاحظة ذلك الجسد الضخم الذي قبع قريباً منه وقد انحنى نحوه بفضول ظاهر.. ظل سليم ينظر مبهوتاً لذلك الجسد الطويل جداً الذي يبزّ الأشجار طولاً، والذي يبدو ناحلاً بشدة مقارنة بطوله.. كان الكائن ذا جسد أسود اللون بحيث لا تبدو فيه أي ملامح عدا عن عينان واسعتان بيضاوان بالكامل، وخلاف ذلك لا يملك أي تفاصيل واضحة عدا عن ذراعيه الناحلتين وساقيه الطويلتين اللتين انثنتا أمامه وهو خافض رأسه نحو سليم.. تجمد سليم وهو يحدق في العينين الواسعتين وهو يشعر بهما كالمغناطيس الذي يجبره على عدم تحويل بصره بعيداً.. كان قلبه يرتجف من الخوف، لكن جسده تجمد بشكل تام

وقطرات العرق تسيل على صدغه وهو ملتزم بالصمت بشكل كامل..

يذكر سليم أنه رأى تلك الأشياء لبرهة قصيرة في هذا المكان من قبل، لكنها كانت تسير كجماعات دون توقف لتختفي عند الأفق دون أن يعلم أحد أين تذهب ومن أين تأتي.. لكن، أكانت تلك الكائنات تحمل اهتماماً نحو البشر؟.. لا تبدو له كآكلة للحوم فلا يعلم منذ متى كان ذلك الكائن قابعاً قربه في غيبوبته التي استمرت لليلة كاملة ونصف هذا اليوم.. ولا يعلم بالسبب الذي جعله ينفصل عن رفاقه ويبقى في هذه المنطقة الخالية طوال ذلك الوقت..

سمع سليم في تلك اللحظة زمجرة غاضبة، فارتجف جسده وهو يلتفت بحثاً عن مصدر الصوت .. وفي الجانب البعيد، استطاع أن يرى أسداً فاحم اللون يجلس قرب شجرة مستظلاً بظلها وهو مثبت بصره تجاه سليم.. وقربه رأى سليم ثلاث لبؤات يقفن متحفزات دون أن يغفل عن هدفهن الواضح.. رأى سليم حركة اللبؤات العصبية بينما تعالت زمجرة الأسد الحانقة مرة أخرى، مما جعل سليم يقف على قدميه رغم تعبه وهو يهمس "رباه.. يبدو أنني وجبة غدائهم لهذا اليوم.. فكيف أهرب منهم الآن؟"

رأى ذلك الكائن يلتفت خلفه ينظر للحيوانات المفترسة، ثم يعود بعينيه لسليم وهو يخفض رأسه من جديد.. ومن حلقه صدر صوت هادئ أشبه باهتزازات تصدر من ناي في بئر سحيق.. رفع سليم وجهه من جديد ينظر للكائن بتعجب ودهشة.. شعر أن الكائن يطمئنه ويزيل مخاوفه، وبنظرة نحو الأسد المزمجر واللبؤات المتوترات لاحظ سليم أنهم رغم تحفزهم لم يجرؤوا على الاقتراب منه أكثر من ذلك.. أكان ذلك الكائن قربه يحميه من تلك الحيوانات المفترسة؟..

سمع في تلك اللحظة صوتاً من خلفه يصيح "إنه هنا...."

التفت سليم ليجد يعقوب وعدداً من رجال القرية بأسلحتهم يقتربون منه بسرعة، فرفع الكائن رأسه نحو الصوت بدوره.. وعندما تعالى صوت الرجال من جديد ينادونه، لاحظ سليم على الفور أن الكائن أصدر صوتاً مزعجاً يبدو كخرخشة حشرة عملاقة.. أشعر الصوت سليم بالتوتر فالتفت نحو الرجال الذين بدؤوا بالصياح على الكائن متحفزين بما يملكونه من أسلحة.. عندها تعالى الصوت من الكائن أكثر، فهبّ سليم نحو الرجال هاتفاً "مهلاً.. قفوا ولا تصدروا أي صوتٍ عالٍ.."

نظر له الرجال بتعجب بينما بقي الجميع على تحفزهم.. فاقترب منهم سليم قائلاً "يبدو أن الأصوات تزعج ذلك الكائن.. أخشى أن يثور في وجوهنا، ولن يكون ذلك شيئاً محبباً.."

غمغم أسعد وهو متشبث بقوسه "أتقصد الفانوم؟ من الغريب رؤية أحدهم منفصلاً عن مجموعته.. ما الذي يفعله هنا؟"

هبّ يعقوب قائلاً "بل ما الذي تفعله أنت هنا يا سليم؟ لقد فوجئنا باختفائك من القرية هذا الصباح.. وتلك الفتاة قد اختفت أيضاً.. فما الذي جاء بك لهذه البقعة الآن؟"

وتلفت حوله مضيفاً "وأين الفتاة؟"

فقال سليم بتوتر "قبل كل ذلك، يحسن بنا أن نغادر هذه البقعة مادام ذلك الكائن هنا.. يبدو أن عدداً من أكلة لحوم البشر على أهبة الاستعداد لتناول الغداء.."

لم يعترض البقية وهم يرون تحفز تلك الحيوانات المفترسة، فبدأ الرجال بالانسحاب نحو القرية يتبعهم سليم الذي التفت نحو الكائن قبل أن يغادر ملاحظاً أن الهدوء قد عاد إليه بعد أن خفتت الأصوات.. فابتسم سليم بتوتر وهو يهمس "شكراً لك.. يبدو أنك قد أنقذت حياتي.."

عاد ذلك الصوت الشبيه بالناي يصدر من حلق الكائن، بينما استدار سليم تابعاً بقية الرجال وهم عائدين للقرية قبل أن يتحمس ذلك الأسد للهجوم من جديد..

****

ظلت ريم تنظر لوجه الرجل المبتسم بعد قوله الأخير وهي مبهوتة لفترة طالت، فقال لها "ألا تصدقين ذلك؟"

عندها صاحت بصوت عالٍ "طبعاً لا أصدقك.. أنت كاذب.."

لم يظهر أي ضيق على وجه الرجل وهو يقف قائلاً "ما الذي يدعوك لتكذيبي؟"

قالت بغضب "أنت لست أبي.. أبي ينتظرني مع أمي في منزلي، وسأعود لهما مهما حاولتم منعي.."

ضحك الرجل للحظة قبل أن يتقدم منها قائلاً "أتعنين ذلك الرجل الذي رعاك بدلاً مني طوال تلك السنين؟.. هذا لا يثبت بتاتاً أنك ابنته البيولوجية.."

نظرت له ريم بحيرة، ثم تمتمت "ماذا تعني؟ إنه أبي.. أليس كذلك؟"

فقال الرجل "بل هو مجرد رجل غريب ربّاك بانتظار عودتك إليّ، ولو أنهما لا يدركان ذلك حقاً.."

ظلت ريم تنظر إليه بحيرة وهي غير قادرة على استيعاب ما يقوله، بينما تقدم منها الرجل أكثر وأمسك يديها عنوة وهو يضغط عليها بشدة رغم محاولتها الإفلات منه.. ظل يتأمل ملامحها بشغف، ثم قال لها بصوت منفعل "لو تعلمين كم انتظرتك.. كم تمنيت عودتك إليّ.. واجهت العالم كله لأجلك، ولأجنبك مصيراً قاسياً محتوماً.."

جذبت ريم يديها بقوة وتراجعت حتى التصقت بالجدار، فتغيرّ وجه الرجل وهو يقول "أتكرهينني يا سانا؟.."

نظرت له ريم مقطبة وهي تقول "من؟.."

ابتسم الرجل شيئاً ما وهو يقول "سانا.. هذا هو اسمك الذي اخترته لك قبل ولادتك....."

قاطعته ريم بحدة "أنا ريم.. ولا أعلم من هي سانا هذه.. أمي هي من أطلق عليّ هذا الاسم.. فكفّ عن هذه الأكاذيب.."

تنهد الرجل وهو يتأملها بصمت، بينما بقيت ريم مقطبة وهي تشعر بدوار خفيف بعد تلك الغيبوبة، وزاد دوارها التفكير فيما قاله هذا الرجل.. لا يمكن أن يكون ما يقوله صحيحاً.. إنه يكذب عليها، هذا شيء مؤكد..

سمعا طرقاً على الباب قبل أن يفتح بشكل بسيط ويدخل منه شاب في أوائل العشرين من عمره، بجسد طويل ممشوق على شيء من النحافة، وعينان زرقاوان وشعر أشقر بشيء من الطول سرحه بدوره للوراء، مهندم الشكل، شاحب البشرة بشكل مشابه للرجل الطويل.. وقد ارتدى رداء بسيطاً من بنطال وقميص بسيطين يختلفان عن ثياب الرجل المطرزة ذات الألوان البارزة.. وفور دخوله، قال بصوت هادئ "سيدي.. إن مجلس الحكماء يطلبك حالاً.."

عادت الابتسامة لوجه الرجل وهو يلتفت للشاب قائلاً "تيمار.. اقترب يا فتى.. آن الأوان لتلتقي سانا، فلطالما تمنيتَ ذلك.. أليس كذلك؟"

لم يجد الشاب بداً من إطاعة الرجل وهو يقترب بخطوات هادئة حتى وقف خلف الرجل الطويل مباشرة.. فالتفت إليه الرجل وأشار لريم قائلاً "إذن.. ما رأيك بسانا يا تيمار؟.. فتاة جميلة، أليس كذلك؟"

نقلت ريم بصرها بينهما بتوتر وهي منكمشة في موقعها، عندما التفت إليها الرجل مضيفاً "سانا.. هذا هو تيمار.. أخوك الأكبر.. لقد قضى السنوات الماضية معي في شوق كبير ولهفة للقائك.. وها قد تحققت أمنياتنا أخيراً.."

غمغمت ريم بحنق "اسمي ريم.."

ولما التفتت للشاب، لاحظت على الفور في عينيه الزرقاوين المقطبتين حنقاً شديداً لم يفتها وهو يقول بهدوء شابه عدم اهتمام "سيدي.. المجلس ينتظرك فلا يجب أن تتأخر عليه.."

عندها قال الرجل لريم "لا تغادري هذا المكان حالياً.. مازلتِ غير متأقلمة مع وضعك هنا.. لكن لن يطول الوقت قبل أن تتمكني من الحركة بحرية في جنتنا أنكاريا.."

ثم استدار واضعاً ذراعه على كتف الشاب وقاده للخارج قائلاً "علينا الاحتفال بهذه المناسبة.. أليس كذلك يا تيمار؟.. لقد عادت الصغيرة إلينا بعد انتظار طال.. وهذا يدعو لاحتفال كبير.."

وافقه الشاب بهدوء وهما يغادران الغرفة مغلقين الباب خلفهما.. وفور اختفائهما من المكان ركضت ريم نحو الباب وحاولت فتحه عازمة على الهرب في أي اتجاه ممكن.. لكنها فوجئت بالباب مغلقاً بإحكام أجبرها على الاستسلام بعد أن هزت مقبضه بقوة لم يُجْدِ معها نفعاً.. عندها تراجعت نحو النافذة محاولة فتحها لتجد أنها مغلقة بدورها.. فركلت ريم الحائط القريب بغيظ وهي تصيح "أخرجوني من هنا.. أريد العودة للقرية.. لا أريد البقاء هنا.."

لكن جاوبها الصمت المطلق، فتهاوت أرضاً وهي تتلفت في الغرفة من حولها بقلق وتوجس واضح وقد عجزت عن معرفة ما عليها فعله في هذا المكان.. فبعد أن كانت تتمنى العودة لوالديها ولبيتها الآمن، أصبحت الآن تتمنى العودة للقرية على الأقل.. فرغم رفاهية المكان الذي هي فيه، لكنها تشعر بخوف لا حدود له ممن حولها وتودّ لو تفرّ بلا عودة.. لكن

ما الذي يمكنها فعله حقاً؟..

****

تجاوز سليم أسوار القرية المتهدمة مع بقية الرجال وهو يزفر بضيق واضح.. فقال له يعقوب الذي يسير قريباً منه "ألن تخبرنا بما جرى حقاً البارحة؟ ما الذي دفعك للخروج خارج القرية وحيداً؟ ألا تخشى من هجوم الحيوانات الضارية عليك وأنت بعيد عن القرية؟"

قال سليم "وكيف لا أخشى ذلك؟ لكن ما حدث لم يكن بحسباني بتاتاً.."

سأله يعقوب باهتمام "وما الذي حدث؟"

لم يجبه سليم وهو يقف في سيره بعد أن رأى سهم يعترض طريقه وينظر له بحدة وغضب واضحين.. فقال سليم "ما الأمر يا فتى؟"

قال سهم بحدة "أين هي؟"

نظر له سليم رافعاً حاجبيه بينما قال سهم بحدة أكبر "أين ريم؟ ماذا فعلت بها أيها المأفون؟"

علق سليم بابتسامة جانبية "أهذه وسيلة مناسبة لمخاطبة من هم أكبر منك سناً؟"

صاح سهم بغضب "لقد إئتمنتك عليها، فما الذي فعلته بها؟.."

صمت سليم والنظرات من الرجال القريبين تتعلق به، ثم قال "لقد اختطفها الغرباء مني.."

تبادل الجميع النظرات المصعوقة، ثم صاح سهم "أنت كاذب.. ما الذي يبغيه الغرباء من فتاة غريبة؟ نحن لم نرهم هنا منذ سنين، فما الذي سيأتي بهم الآن؟"

تنهد سليم بضيق بينما علق يعقوب "هذا صحيح.. ما الذي سيدفع الغرباء لاختطاف فتاة صغيرة؟"

قال سليم بضيق "أتعني أني كاذب؟"

قال يعقوب "لا.. لكن كلامك غير مقنع بتاتاً"

صمت سليم للحظة وهو يفرك رأسه الذي لم يبرح يؤلمه، ثم قال متنهداً "حسناً.. هناك الكثير مما يجب أن تعرفوه.. لنجلس في منزلي ولنتحدث في الأمر.."

وأكمل سيره ماراً بسهم الذي ظل يحدق فيه بغضب، فربت سليم على رأسه بخفة وهو يغمغم "ستعرف كل شيء قريباً.. فلا تكرهني يا فتى.."

لم يعلق سهم بكلمة بل استدار وركض مبتعداً بحنق واضح، بينما قال يعقوب "تصرفاتك غريبة وتثير الحيرة منذ ظهرت

تلك الفتاة.. فما سرّك؟.. ومن هي هذه الفتاة حقاً؟"

غمغم سليم "لا تقلق.. ستعرف كل شيء يا يعقوب.."

وتقدم جمع الرجال نحو الخرائب التي كانت تشكل منزله في وقت قريب، بينما خلايا عقله تتسابق بحثاً عن مخرج لكل هذا الذي يمر به.. فما الذي سيتقبله رجال القرية منه يا ترى؟..

وبعد أن اجتمع الكل وسط أطلال منزل سليم، جلس الأخير في جانب المكان على إحدى الحجارة وهو يزفر للحظة قبل أن يقول "لابد أنكم متعجبون لسعي الغرباء خلف ريم.. لكن في الحقيقة، ريم من الغرباء في الأساس.."

علا صوت سهم من خلف أحد الجدران المتهدمة وهو يصيح "أنت كاذب.."

لم يعلق أحد على قوله بينما قال أسعد الذي جلس قريباً "وكيف تعرف أنت ذلك؟ ألك صلة بالغرباء حقاً؟"

خفض سليم رأسه قليلاً ثم قال "أجل.. وجودي هنا له صلة بالغرباء.."

فقال أسعد بحدة "كنت أعلم ذلك.."

بدا التوتر على أغلب الرجال، فسارع سليم يقول "ليس الأمر كما تظنون.. لست متعاوناً معهم، بل كل ما جاء بي إلى هنا هو لانتظار ريم وإعادتها للغرباء فور عثوري عليها.."

قال أسعد بحنق "بأي منطق تريد منا تصديقك؟"

لكن يعقوب أشار له ليهدأ وهو يقول لسليم "اشرح لنا الأمر كاملاً يا سليم.. أنت تعلم أن أهل القرى ليسوا على وفاق مع الغرباء، وهناك تاريخ طويل من العداء بيننا.. فلماذا أخفيت الأمر عنا؟"

قال سليم "لهذا السبب بالذات.. لو أخبرتكم منذ البدء أنني مرسل من الغرباء، فستقومون بطردي أو على أسوأ تقدير قتلي انتقاماً لكل ما جرى بينكم وبين الغرباء.. لذلك لم أستطع إخباركم بالأمر.."

فقال يعقوب "وما الذي يبغيه الغرباء من ريم؟.. بل كيف تعرف أن ريم ستأتي لهذه القرية بالذات؟"

عدّل سليم عويناته وهو يدير بصره جانباً "أخبرتكم أن ريم من الغرباء، لذلك هم يريدون إعادتها إليهم.. أما كيف يعرف الغرباء أنها ستصل لهذه القرية، فهذا ما لا أعلم عنه شيئاً.. لقد أمروني بالبقاء في هذا الموقع حتى أعثر عليها وأعيدها إليهم.."

فقال أسعد مضيقاً عينيه "من أنت حقاً يا سليم؟.."

نظر له سليم بصمت لثوانٍ قبل أن يقول "أنا مجرد رجل عادي شاء لي القدر أن أسقط في يد الغرباء.. لم يكن من السهل مراقبة هذا الموقع من قبل الغرباء أنفسهم بسبب تلك العداوة المتأصلة بينكم وبينهم.. لذلك فضّلوا استخدامي لكيلا أثير ريبتكم طوال تلك السنين، والمقابل كان استرداد حريتي.. وهم من زودوني بهذا الجهاز الذي ساعد على حماية القرية من هجوم الحيوانات.."

ظل يعقوب ينظر له بصمت حتى أنهى سليم حديثه، وبعد لحظة تفكير قال يعقوب "هناك ما لا يُقنع في حديثك كله.." ونهض واقفاً فتبعه بقية الرجال، عندها قال سليم "ما هدفي من الكذب عليكم الآن؟.. لقد عشت بينكم كواحد منكم طوال تلك السنين، فلماذا لا يمكنكم تصديقي الآن؟"

قال يعقوب بشيء من الحدة "أخبرني أنت، ما الذي يجعلنا نصدقك الآن؟.. لقد عشت بيننا دون أن نسيء معاملتك أو نعاملك كغريب لسنين، وبعد هذا تخبرنا بكل بساطة أنك كنت تكذب علينا؟.. تعاملنا كحمقى وتطلب منا تصديقك الآن؟.. هذا سخف.."

وغادر بخطوات حادة، وسرعان ما تفرق بقية الرجال من حول سليم الذي جلس في موقعه خافضاً رأسه دون أن يتحدث.. ثم زفر بشيء من التوتر وهو يتأمل الموقع الخالي من حوله قبل أن يتمتم لنفسه "لا بأس.. لم يكن هذا بسوء ما توقعته.. بقي الآن أمر ريم.."

نظر للسوار الجلدي في يده، لكنه تردد في ضغط الجزء البارز فيه للحظات طالت، قبل أن يزفر من جديد ويرفع بصره يتأمل السماء الصافية بصمت محاولاً عدم التفكير فيما عليه فعله الآن بعد أن قارب انتظاره الطويل على الانتهاء.. ولا يبدو أنها ستكون نهاية سعيدة بأي حال..

****

قضت ريم وقتاً طويلاً منكمشة على نفسها في تلك الغرفة الواسعة دون أن ترى أي شخص في المكان.. وبعد أن أصابها التعب، غرقت في نوم متقطع وهي منطوية على نفسها في جانب الغرفة بعد أن سحبت غطاءً من فوق السرير تدثرت به من البرودة المتزايدة في المكان.. لا تدري كم دام بها النوم، لكنها استيقظت فجأة على صوت الباب الذي فتح بهدوء.. ورغم خفوت الصوت، فإنها استيقظت على الفور ولكن بقيت منكمشة في موقعها تراقب ما يجري حولها.. سمعت الخطوات تسرع نحو منتصف الغرفة، قبل أن تتوقف فجأة ويعلو صوت تنهيدة واضحة وذلك الرجل الذي يدّعي أنه أباها يقول "لقد أفزعتني يا فتاتي.. خلتك تمكنت من الهرب، رغم أن ذلك مستحيل فعلياً.."

لم تعلق ريم وهي منطوية دون أن تتحرك من موقعها.. ثم رأت الرجل الطويل يقترب منها بهدوء فيجثو قربها وهو يقول بابتسامة "ما بالك؟ ألم يكن السرير مريحاً كفاية؟"

فقالت ريم بغضب "أريد العودة لأبي وأمي.. أو أعدني للقرية وسليم سيعيدني لأبي.. لا أريد البقاء هنا.."

فعقد الرجل حاجبيه وهو يغمغم "ألا يعجبك ما ترينه هنا؟.. لا ألومك على هذا، لكن لا يمكنني إخراجك من الغرفة قبل الاطمئنان أنك في أمان تام.. لكن عندما يتاح لك الخروج للمدينة، صدقيني لن تفكري ولو للحظة في مغادرتها.."

عادت ريم تقول دون يأس "أريد العودة لسليم.."

قال الرجل بابتسامة "لماذا؟.. سليم بنفسه قد أحضرك إليّ، وإن ذهبتِ إليه فسيعيدك إليّ.. فبم سيفيدك هذا؟.."

نظرت له ريم بصدمة ظاهرة، بينما نهض الرجل واقفاً والتفت خلفه قائلاً "ألن تقضِ بعض الوقت مع أختك حتى تتأقلم مع وضعها هنا؟.. ربما كنتُ أثير فزعها، لكن شاباً لطيفاً مثلك لابد سيزيل الجليد بينها وبيننا.."

سمعت ريم من خلفه صوت ذلك الشاب يقول "كما تريد يا سيدي.."

استدار الرجل مبتعداً ليجلس في جانب المكان على كرسي مذهب فخم المنظر، وفي الآن ذاته رأت ريم بضع خادمات برداء أسود متشابه يتقدمن وسط الغرفة حاملات أنواعاً عديدة من الأطعمة سارعن لصفّها على طاولة قريبة من ذلك الرجل.. بدأت رائحة الطعام التي يسيل لها اللعاب تغزو الغرفة كلها، بينما تقدم المدعو تيمار من ريم وهي تتوتر بانتظار ما سيفعله.. فوجدته يمسك يديها ويجذبها لتقف، حاولت ريم مقاومته وجذب يدها من يده شاعرة بملمس يديه كالثلج على بشرتها.. وزادها توتراً رؤية نظراته الجامدة التي تحدق بها وملامحه التي تنطق ببغض شديد لها.. سمعته يقول لها بصوت حيادي تماماً "عزيزتي سانا.. لا يجب أن تتصرفي بهذه الطريقة، فهذا يحزن أبانا بشكل كبير.. هيا معي.."

قالت ريم بصوت متحشرج وهي تجذب يديها "أنا ريم.."

نظر لها تيمار وهو يقول "ريم؟ أتفضلين ذلك الاسم الرخيص على اسم سانا الجميل؟!.. يبدو أن تأقلمك سيطول هنا.."

فعلق الرجل من خلفه "لا بأس يا تيمار.. يبدو أن العالم الذي كانت فيه لا يزال في بداية تطوره.. لم يصلوا للرُقي الذي نعيش فيه، لذلك ليس مستغرباً تمسكهم بتلك الأسماء والعادات البالية التي نبذناها منذ قرون.."

جذب تيمار ريم عنوة وأجلسها على كرسي قريب من ذاك الذي جلس عليه الرجل، وبينهما طاولة حافلة بأشكال وأنواع عديدة من الطعام.. بقيت ريم في موقعها خافضة وجهها والدموع تترقرق في عينيها، وشعرت بأصابع الشاب الذي وقف خلفها وأبقى يديه على كتفيها وكأنها أسياخ حادة تخترق جلدها.. لكن لم تكن تملك الجرأة على التذمر والاعتراض وهي تعض شفتها السفلى محاولة احتمال الألم بشيء من الخوف.. بعد لحظة صمت سادت المكان، قال لها الرجل "لا تترددي يا فتاتي.. كلي ما راق لك من الطعام.. لا داعي للخجل.."

لكن ريم هزت رأسها نفياً بقوة وصمت دون أن ترفع بصرها، عندها انحنى الرجل نحوها وهو يسألها باهتمام "أخبريني.. ما الذي أخبرك به سليم عندما كنت في القرية؟.. أخشى أن يكون قد ملأ رأسك بالأكاذيب وهذا ما يسبب خوفك منا.."

هزت ريم رأسها مرة أخرى بالنفي بقوة دون أن تجيب، فعلق تيمار "لماذا تهتم بأمر ذلك التافه يا سيدي؟.. الغرض من وجوده قد انتهى، فلا تشغل بالك به بتاتاً"

قال الرجل بصوت صارم "أنت صغير السن يا تيمار، ولا تدرك كيف تجري الأمور.. لكن لا يمكن أن يخفى عليّ شيء من أمره.. سينال عقابه لو علمت أنه قد حاول مخالفتي فيما أمرته به.."

شعرت ريم بازدياد ضغط أصابع الشاب على كتفيها، فأطلقت آهة ألم قبل أن تبدأ دموعها بالانهمار وهي تنكمش على نفسها باكية.. إنهما يفزعانها.. هل أصبحت وحيدة بعد أن تركها سليم؟.. أين سهم الذي وعدها بأنه لن يتخلى عنها؟.. لا تكاد تصدق أنهما نبذاها بهذه الصورة..

ومع بكائها تخلى الشاب عنها بينما قال الرجل مربتاً على رأسها "ما بالك يا فتاتي؟.. لماذا أنت حزينة وخائفة منذ فتحت عينيك هذا الصباح؟"

همست ريم من بين نشيجها "أريد أن أعود.. أريد أن أعود.."

صمت الرجل وهو يراقب ملامح الخوف والحزن في وجهها، ثم نهض قائلاً "يبدو أن علينا الاستعجال في موضوع التأكد من سلامتك.. لا يمكن لك أن تشعري بالراحة بيننا وأنت حبيسة هذه الجدران.. تيمار، أبلغ المسؤول عن هذا الأمر أنني سأحضر سانا بعد قليل.."

هز الشاب رأسه موافقاً قبل أن يخرج بخطوات سريعة، بينما ربّت الرجل على رأس ريم وهو يقول "لا بأس يا فتاتي.. سيزول خوفك هذا قريباً جداً، وستجدين أنك أسعد فتاة على وجه الأرض.."

لكن كل ما شعرت به ريم في تلك اللحظة هو التعاسة الشديدة والخوف غير المتعقل..

****

"استمع لما سأقوله يا يعقوب.. إنه مهم حقاً.."

لم يعلق يعقوب وهو يعمل بهمّة مع الرجال لإنشاء سور حجري حول القرية.. بينما وقف سليم خلفه بتوتر ملاحظاً التجاهل الذي عمّ الجميع من حوله.. لكن سليم كان مدركاً أن المفتاح الوحيد لهذه القرية هو في يعقوب، فلو غفر له ما سبق فستعود القرية لمعاملته كواحد منها كما في السابق.. فرغم صغر سنه النسبي، وهو الذي لم يتعدّ الثلاثين، إلا أن يعقوب قد حظي بثقة سكان القرية كلهم كبيرهم وصغيرهم.. وغدا يتصرف ككبير القرية يأمر وينهى دون أن يتخلى عن بساطته وعفويته في التعامل مع الآخرين..

عاد سليم يقول ليعقوب دون يأس "لا داعي لكل هذا العناد.. لو شئتم عقابي فيمكنكم ذلك بكل سهولة.."

التفت إليه يعقوب وقد فاض صبره وقال بحدة "عناد؟.. هل تريد منا تقبل كل الأكاذيب التي سقيتنا إياها طوال تلك السنين دون عقل؟.. ما الذي تريده منا بعد؟"

فأسرع سليم يقول "إنقاذ ريم.. هذا هو ما أطلبه منك.."

نظر له يعقوب باستنكار، قبل أن يدمدم "أنت مجنون.."

وأدار له ظهره عائداً لعمله بينما ألحّ سليم قائلاً "يبدو جنوناً، لكن هذا هو ما يجب علينا فعله.. ريم من الغرباء حقاً، لكنها عاشت حياتها في مكان آخر تحت كنف أبوين يحبانها ويجزعان لما قد يجري لها.. من المحزن أن نراقب الغرباء وهم يختطفونها من هذين الأبوين دون جريرة ويفجعانهما فيها.. أليس كذلك؟"

فقال يعقوب بحدة "إذن ليذهبا هما ويستعيداها من الغرباء.. ما شأننا نحن؟"

فقال سليم باعتراض "لكن ريم كانت في رعايتنا، وأخذها الغرباء منا.. نحن مسؤولون عنها.."

علق يعقوب "تقصد أنك أنت مسؤول عما حدث لها.. أما نحن فلا علاقة لنا بها ولا بالغرباء بتاتاً.. هي منهم في الأساس، لذلك لا يهمنا أمرها.."

ظل سليم ينظر ليعقوب بصمت وأفكار عدة تدور في رأسه، ثم قال بعد برهة "وماذا عني أنا؟.. هل ستطردني من القرية بعد كل ذلك؟"

زفر يعقوب لإفراغ ضيقه، ثم قال مشيحاً بوجهه "لسنا بتلك الحقارة.. يمكنك أن تبقى أو ترحل كما يحلو لك.."

واستدار عائداً لعمله تاركاً سليم يقف بحيرة للحظات دون أن يملك ما يقوله.. وأخيراً استدار مبتعداً بصمت عبر الطريق الذي يقطع القرية نصفين حتى وصل لمنزله المتهدم والذي توقف الرجال عن إعادة بنائه.. زفر سليم وهو يجلس جانباً ناظراً للسماء الصافية بصمت وقد غمرته حيرة مما يجب عليه فعله.. هل يتخلى عن كل شيء ويعيش حياته كما كان يرجو؟.. لا شيء يجبره على البقاء في هذه القرية الصغيرة، ولا يظن أن بقاءه فيها سيكون محبباً لأهلها بعد كل ما جرى..

سمع سليم في تلك اللحظة من يقول له "هل ستكتفي بالصمت بدون أن تتصرف؟"

خفض سليم بصره ليحدق في سهم الذي وقف وسط منزله وهو عاقد حاجبيه يراقب سليم بدوره.. فابتسم سليم ابتسامة صغيرة وقال "وما الذي يمكنني فعله؟.. لا يمكنني أن أذهب لمدينة الغرباء وحيداً لأنقذ ريم.. فما الذي تتوقعه مني؟"

فقال سهم بحدة "هذا ما لا أفهمه.. مادمت تعلم أنك لن تستطيع اللحاق بها، لماذا سلمتها للغرباء بكل بساطة؟.. كيف تتخلى عنها بهذه السهولة؟.. ظننتك مهتماً بسلامتها.."

قال سليم "هناك الكثير من الأشياء التي لن تفهمها يا سهم.. فلا داعي لكل هذا الغضب.."

احتد سهم لقوله وهو يصيح "إذن أفهِمني.. ما الذي فعلته ريم لتعاقبها بهذه الطريقة؟.. ما الذي يريده أولئك منها؟"

علق سليم قائلاً "ما الذي يهمك أنت من الأمر؟.. لمْ تقضِ ريم معنا أكثر من يومين.. فلماذا تلحّ عليّ لاستعادتها؟.."

قطب سهم وهو يقول "أليس ذلك طبيعياً؟.. لا نعلم ما الذي سيفعلونه بها هناك.. يجب أن نعيدها للقرية قبل أن يفوت الأوان.."

ثم أضاف بشيء من الحنق "لماذا تبدو لي متقاعساً عن استعادتها؟"

زفر سليم وهو يقول "لا تكن لحوحاً يا فتى.."

فصاح سهم "إن لم تستعدها، فلن أغفر لك بتاتاً.."

واستدار مغادراً بغضب قبل أن يلتفت من جديد قائلاً بحنق "يحْسن بك أن تجد طريقة لإعادتها بأسرع ما يمكن.."

وركض مغادراً الموقع بينما هزّ سليم رأسه مغمغماً "وهل أقدر على ذلك وحدي؟.."

****

تلك الليلة، بعد وقت طويل قضاه سليم مسهداً يفكر في أمر ريم، تمكن أخيراً من أن يغرق في نوم متعب وسط الكوخ الذي بقي على حاله لحسن حظه.. كان المكان ضيقاً وقد استهلك الجهاز أغلب الموقع، بينما تكوّم سليم في جانب الكوخ متدثراً بغطاء استخرجه من حطام منزله من ضمن الأشياء التي عثر عليها.. كانت رائحة الغبار تكاد تخنقه، لكنه لم يعترض وهو يستسلم للنوم والصمت المحيط به يتشارك مع الظلام في خلق جو ملائم لنوم عميق..

وفي الجانب البعيد للقرية، حيث السور غير المكتمل والذي بذل القرويون جهداً كبيراً لرفع بعض أجزائه، لم تكن الأمور هادئة كما يفترض بها عادة.. لكن لأن كوخ سليم بعيد عن ذلك الجانب، وبعيد عن القرية عموماً، فلم يكن من الممكن أن يعكر أي صوت على سليم نومه.. ورغم أن العديد من الأصوات قد اندلعت من جنبات القرية ومن منازلها التي نجت من الدمار، ورغم أن الخطوات الراكضة قد تعالت على ذلك الطريق الذي يقطع القرية لنصفين، إلا أن سليم بقي غافلاً عن هذا كله..

لكن لم يَطُل الوقت قبل أن تصل تلك الخطوات إلى الكوخ البعيد عن القرية.. عندها نهض سليم مفزوعاً على صوت ضربة قوية أصابت باب الكوخ تحطم على إثرها وأجزاء من الخشب تتناثر في المكان.. ولدى رؤيته أولئك الرجال ذوي الزيّ الموحد الذي دلفوا عبر الباب المفتوح، قفز سليم واقفاً برعب متزايد وهو يراهم يحيطون به بإحكام قبل أن ينفرج الحشد متيحاً لرجل بينهم أن يتقدم من سليم ويواجهه بصمت.. بلع سليم ريقه بصعوبة وهو يحدق في الرجل الطويل ذو الوجه الشاحب والعينان الباردتان اللتان اكتستا شيئاً من الغضب لم يسبق له رؤيته فيهما.. ثم نطق الرجل بصوته المبحوح قائلاً "ما الذي فعلته بالفتاة؟.."

ارتبك سليم لذلك السؤال وهو يبحث عن عويناته في جيب قميصه، لكن الرجل جذبه من ياقة قميصه وهزه بقوة وهو يصيح "ما الذي فعلته بالفتاة أيها الوغد؟.. أجبني.."

رغماً عنه، بان شبح ابتسامة على شفتي سليم وهو يتساءل بهدوء "ما الذي جرى لريم؟.."

****

الفصل السادس « أنكاريا.. »

مالت الشمس نحو مغيبها بهدوء وقد اكتست السماء بألوانها الزاهية التي تضفي على كل شيء جمالاً خلاباً.. وسقط نور الشمس الذي مال للون البرتقالي على البيوت والبنايات السامقة، صابغاً كل شيء بدفئه قبل أن تستسلم المدينة لبرد الليل القاسي..

في ذلك الوقت، سارت ريم وقد بان الكدر على وجهها قرب ذلك الرجل الطويل الذي عرفت أن اسمه تولاد.. سار تولاد قربها واضعاً يده على كتفها وقادها معه عبر ممرات ذلك القصر الذي استيقظت لتجد نفسها فيه.. كانت الممرات ذاتها تبدو واسعة بهيجة المنظر مع تلك اللوحات الفنية المعلقة على جداره، بينما احتلت النوافذ الجدار الآخر كله مانحة الموقع نوراً قوياً ومنظراً يبهج الناظر إليه.. كانت الممرات طويلة جداً وقد قطعتها ريم وهي تلقي بنظراتها خارجاً محاولة معرفة موقع القصر من القرية التي تم أخذها منها عنوة.. لكن بعد عدة خطوات فإنها نسيت نفسها وهي تتأمل المناظر التي تبدو لها من النوافذ.. في البدء رأت حديقة واسعة خضراء بالكثير من الأشجار وشجيرات الورد الزاهية.. ورأت بعض تلك الشجيرات مثمرة بعدد متنوع من الثمار، ورغم أنها تعرفت بعضها إلا أنها تعجبت للبعض الآخر فلم يكن يشبه ما تعرفه سابقاً..

وبعد تلك الحديقة، استطاعت ريم أن ترى جانباً من المدينة القريبة من القصر فلم تملك أن تقف فجأة تتأمل المنظر أمامها بدهشة.. عندها ابتسم تولاد وهو يقف قريباً قائلاً "هل أعجبتك أنكاريا؟.. إنها مدينة رائعة.."

لم تعلق ريم بكلمة رغم أنها وافقته على ما يقول.. فأمامها، اصطفت المنازل الملونة بألوان زاهية وتصاميم متناسقة يقطعها طريق حجري مرصوف يمر بين المنازل نازلاً لمسافة طويلة.. وعلى جانبي الطريق زرعت شجيرات ورود متنوعة الألوان يغلب عليها اللون الأبيض، وبعض الأشجار التي ألقت ظلالها على المنازل القريبة بحيث أعطتها تبايناً جميلاً بين ظلها وضوء الشمس المتوهج.. ومن خلف تلك المنازل، بدت مدينة كاملة تحتل مساحة شاسعة، يحيطها سورٌ عالٍ ذي أبراج موزعة عليه وتعلوه رايات ترفرف بهدوء.. بينما تبدو قمم الجبال في الأفق البعيد واضحة وإن بدأ الضباب يغطي أجزاء منها مع اقتراب الليل.. بدا المنظر متناسقاً جميلاً يحمل طابعاً شرقياً محبباً وبدت المدينة أجمل باهتمام سكانها بزراعة الأشجار في كل موقع ممكن..

بعد فترة من الوقت، جذبها تولاد ليكملا السير حتى نهاية الممر قبل أن يستديرا ويدلفا قاعة على شيء من الاتساع، وقد ازدانت جوانبها بعدد كبير من اللوحات ذات الأطر المذهبة والتماثيل مختلفة الأحجام والألوان تزيّن جوانبها لتبدو أقرب لمتحف صغير تم الاعتناء به باهتمام بالغ.. وبعد أن عبرا تلك القاعة وسارا في ممرات أخرى في قلب القصر، وصلا لباب

مذهب كبير قادهما لجانب آخر من تلك الحديقة المحيطة بالقصر .. ولم يكن ذلك الجانب يختلف عما رأته ريم في ازدهاره بمختلف أنواع الشجيرات المزهرة والمتناسقة.. شعرت ريم ببرودة كبيرة في المكان بعد أن غادرت دفء القصر، فعلق تولاد وهو يرى ارتجافها بشكل بسيط "هل فاجأتك برودة المكان؟ هذا ليس غريباً بالنسبة لارتفاع موقع المدينة وقرب حلول الظلام.. فأنكاريا مقامة على هضبة عالية وسط سلسلة جبلية.. لكن لا تقلقي، سيعتاد جسدك على هذه البرودة مع الوقت.."

صمتت ريم وهي تتلفت حولها بينما جذبها تولاد خلفه عبر الطريق الحجري الذي يقطع الحديقة حتى رأت مبنىً جانبياً عادي المظهر مقارنة بالقصر .. كان المبنى ذو طابقين، بعدد من النوافذ والأبواب التي تخلو من أي زخرفة بينما على النوافذ قضبان حديدية تمنع المتسلل إليها..

كانت طرقات المبنى الداخلية بسيطة جامدة بلون أبيض بدا كئيباً وبدون أي نوع من الحياة فيه، عدا عن الأشخاص الذين مرت بهم ريم وهم يحدقون بها باهتمام واضح انزعجت له.. بعد سير قصير، وجدت ريم نفسها في غرفة متوسطة الاتساع خالية إلا من مكتب صغير وكراسٍ خشبية متفرقة.. وخلف المكتب ارتكز رجل واقفاً فور دخولهما وهو يهرع إلى تولاد ويحييه قائلاً "كنت أنتظرك يا سيدي.. مرحباً بقدومك.."

جلس تولاد على أحد الكراسي وأجلس ريم قريبة منه وهو يقول للرجل "هل أبلغك تيمار؟"

قال الرجل بلهفة "أجل.. وكل شيء جاهز كما طلبت.."

ثم نظر إلى ريم مضيفاً "أهذه هي؟"

وضع تولاد يده على كتف ريم بشيء من الفخر وهو يقول "أجل هي.. أليست فتاة جميلة؟"

ظل الرجل يحدق بها باهتمام بالغ أشعر ريم أنها كحيوان في قفص.. ثم سمعت الرجل يقول "من كان يظن أن تلك الخطة ستنجح بالفعل؟.. الآن صرنا متأكدين أننا أمام فتح علمي جديد.."

ورفع بصره لتولاد قائلاً "وفقاً لما قاله الطبيب، من المفترض أن تكون الفتاة على فراش الموت، أليس كذلك؟"

ارتجفت ريم نوعاً ما لذكر الموت وهي لا تفهم ما يقصدانه، فقطب تولاد لذلك وهو يقول للرجل "ألا تستطيع أن تختار ألفاظك بشكل أفضل؟ .. ها قد أحضرتها لك.. أريد أن تجري جميع فحوصاتك المطلوبة.. طبيب القصر سيأتي حالاً للمشاركة في ذلك والتأكد أن سانا بأتم عافية.. وبعدها، ستعود سانا رسمياً لأنكاريا.."

ابتسم الرجل بحماس قائلاً "بالطبع... كل شيء جاهز وسنبدأ حالاً دون إبطاء.."

لم تفهم ريم كلمة مما قالاه، ولم تفهم ما الذي ينتوون فعله بها.. لكنها لم تملك التذمر بعد أن تجاهل الجميع بكاءها وذعرها السابق وأجبروها على إطاعة أوامرهم.. لذلك، التزمت الصمت وهم يقتادونها لإحدى الغرف حيث استقبلها رجلان بالإضافة للأول الذي ينادونه بالرئيس.. لم يغادر تولاد موقعه قربها وهو يراقب ما يفعلونه، من فحوصات بأجهزة

غريبة وأخذهم لعينات من دمها ومدّ بعض التوصيلات إليها من جهاز قريب..

ولما جاء من يدعونه بالطبيب، عاد لإجراء فحوصاته الخاصة وريم ما بين تعجب واستنكار لكل ما يفعلونه بها.. وأخيراً، قام الطبيب باستخراج محقن كبير الحجم نوعاً من حقيبة خاصة وفيه مادة شفافة.. فحقنها في ذراع ريم وهو يغمغم "لا تخافي يا صغيرة.. لن يؤلمك هذا كثيراً.."

لكن الأمر كان مؤلماً حقاً، ربما بسبب الفزع الذي اعترى ريم لرؤية حجم المحقن الكبير نوعاً ما.. لكنها لم تتذمر كعادتها خشية أن ينتهرها أحدهم.. وبعد أن أفرغ المحقن تماماً، ساعدها لتقف وهو يقول لتولاد "سآخذها لجهاز التصوير بالموجات المغناطيسية، لكن لن يمكنك الدخول معها يا سيدي.."

هز تولاد رأسه موافقاً، ثم التفت لريم قائلاً "سأكون في الغرفة المجاورة يا ابنتي.. فلا تخافي.."

وكأن هذا كفيل بجعل الذعر والتوجس يزولان من صدرها تماماً..!!.. لكنها لم تجرؤ على التعليق وهم يأخذونها لغرفة أخرى أكثر اتساعاً وليس فيها إلا جهاز وحيد كقبة من معدن لامع فضي اللون.. وبعد عدد من الإجراءات، وجدت ريم أنها مستلقية على سريرٍ قاسٍ بعد أن نزعت حذائيها وارتدت رداءً خاصاً بلون أبيض.. نظرت ريم للأضواء التي في السقف والطبيب يتأكد من إعدادات الجهاز، وشعرت أن النور القوي يعشي عينيها ويرغمها على إغلاقهما.. شعرت بشيء من الدوار يدير عقلها وصداع شديد جعلها لا ترغب بفتح عينيها.. سمعت صوت الطبيب قريباً منها يتساءل "ما الأمر؟.. أأنت خائفة؟"

تمتمت ريم وهي لا تكاد تفتح عينيها "لا أدري.. أشعر بالنعاس.."

قال لها الطبيب مقطباً "هذا غريب.. ما علاقة النعاس بما نفعله؟.."

لم تجبه ريم ورأسها يتهاوى جانباً بصمت، فهبّ الطبيب إليها يتفحصها ويضرب خدها برفق وهو يناديها بتكرار.. بينما اندفع تولاد للغرفة قادماً من الغرفة الجانبية حيث كان يراقب ما يجري وهو يتساءل بقلق "ما الذي جرى؟"

التفت الطبيب إليه بارتباك قائلاً "لا أعلم يا سيدي.. لقد حقنتها بمادة خاصة لإتمام التصوير بالموجات المغناطيسية قبل قليل، وتأهبت لوضعها في جهاز الفحص.. لكنها قالت إنها تشعر بالنعاس، ثم غرقت في النوم فجأة دون سبب مفهوم.."

هرع تولاد إلى ريم الغافية وحاول إيقاظها، بينما وقف الطبيب خلفه معلقاً "لم يكن من المفترض أن يحدث شيء من هذا.."

نظر له تولاد مقطباً "إنها لا تستيقظ.."

أزاحه الطبيب وعاد يحاول إيقاظ ريم وتفحصها، بينما وقف تولاد ينظر له بقلق بالغ.. لكن لم تمضِ لحظات حتى قال الطبيب "سيدي.. انظر لهذا.."

اقترب تولاد ليرى الطبيب قد رفع كم الرداء الذي ترتديه ريم حتى أعلى الذراع.. وتحت الرداء، بدت آثار ضربة حقنة

واضحة وقد التهب ما حولها بشكل طفيف.. ظل تولاد يرمق ذراع ريم بينما قال الطبيب وهو يتفحص المنطقة "يبدو أنها قد حقنت بمادة ما.. يبدو الموضع ملتهباً بسبب تلوث المنطقة، لكن علاج هذا بسيط جداً.."

ونظر لتولاد متسائلاً "هل قمتم بحنقها بمادة ما دون أن أعلم؟.."

بدأت فكرة صغيرة تلحّ على تولاد وهو ينظر لريم التي بدت في عالم آخر، ثم استدار مغادراً الغرفة وهو يصيح "أين كابو؟ ليحضر لي حالاً.."

ولم تمض لحظات حتى كان رئيس جنود القصر المدعو كابو يحني رأسه أمام تولاد قائلاً "هل طلبتني يا سيدي؟"

قال تولاد مقطباً بشدة "جهز فرقة من الجنود.. سنذهب حالاً في مهمة سريعة.. هناك وغد عليّ أن أجبره على الحديث لأرى ما فعل بابنتي.."

تساءل كابو "أمرك يا سيدي.. لكن ماذا عن المجلس؟"

قال تولاد بحدة "المجلس لن يعترض على شيء.. أنسيت أنني رئيس ذلك المجلس؟.. هيا، جهز رجالك وسننطلق خلال دقائق.."

انحنى كابو قبل أن يستدير لإطاعة أمره، بينما دمدم تولاد وهو يقطب بشدة "اللعنة عليك يا سليم.. يبدو أنني استهنت بك كثيراً مما منحك الجرأة لعصيان أوامري.."

ثم استدار بدوره وغادر المبنى بخطوات سريعة وصدره يغلي بشدة ويكاد ينفجر لشدة غضبه..

****

عندما هجم جنود أنكاريا على القرية الغافية بعد منتصف الليل بقليل، شعر القرويون أنهم أخذوا غيلة وهم يستيقظون على أصوات طلقات سلاح أثارت الرعب في قلوبهم.. تدافع الرجال منهم خارج البيوت حاملين أسلحتهم البدائية، ليفاجؤوا بجماعة من الغرباء يحتلون طرقات القرية ويشهرون الأسلحة في وجوه الجميع.. ورغم أن بعض الرجال قد تشجع وهجم على من كان قريباً من الغرباء، إلا أن تباين التسليح بين الطرفين كان كفيلاً بإنهاء ذلك الصراع في دقائق معدودة..

بعد أن هدأ كل شيء، وقد أجبر الرجال على الركوع جانباً بعد أن تم تجريدهم من أسلحتهم بينما لاذت النسوة والأطفال بالمنازل بقلق، سار تولاد وسط القرية التي لم يطأها سابقاً في حياته وهو يتلفت حوله مقطباً.. ساءه معرفة أن ريم قد قضت أياماً في هذه القرية البائسة، وساءه أكثر أن بؤس حالها لم يردع سليم وغيره من رجالها على الوقوف في وجهه وفي وجه أنكاريا العظيمة..

وقف تولاد على مقربة من الرجال وقال بلهجة آمرة "أين سليم؟"

نظر الرجال إليه وفي نظراتهم غضب مشتعل، لكن تولاد لم يقلق لهذا بطبيعة الحال وهو يقول محاولاً عدم التخلي عن هدوئه "لا أحب تكرار سؤالي أكثر من مرة.. أترون أنكم قادرون على حمايته بقواكم الهزيلة؟"

لم ينبس أي الرجال بكلمة، بينما سمع تولاد خطوات راكضة من خلفه قبل أن يأتيه صوت أحد جنوده قائلاً "سيدي.. لقد عثرنا عليه.. إنه في كوخ متطرف من هذه الخرائب.."

لم يتمهل تولاد لحظة واحدة وهو يستدير تابعاً الجندي الذي تقدمه عبر الطريق الحجري وبين المنازل المتهدمة حتى أعلى موقع في القرية حيث انتصب كوخ وحيد فيها.. وبضربة قوية، كان باب الكوخ يتهشم والجنود يتدافعون في قلبه قبل أن يفسحوا الطريق لتولاد.. فمضى تولاد بينهم حتى وقف أمام سليم الذي بدا مرتعباً وهو يرى عيني تولاد الغاضبتين.. ولما ابتسم سليم استجابة لسؤال تولاد وهو يقول بهدوء "ما الذي جرى لريم؟.."

عندها لم يملك تولاد نفسه وهو يصيب بقبضته وجه سليم ويرميه خلفاً بقوة.. تأوه سليم بشيء من الألم وجسده يرتطم بالجهاز المعدني القريب، بينما سارع أحد الجنود لإنهاضه بقوة وإعادته ليواجه تولاد الذي قال بغضب شديد "أيها الوغد.. هل خططت لكل هذا؟ ما هدفك من الإضرار بفتاة بريئة لا ذنب لها؟ إنها في غيبوبة تامة، فما الذي فعلته بها؟.."

قال سليم هازاً كتفيه "لست وغداً كما يحلو لك وصفي.. ولا أنوي الإضرار بريم بتاتاً.."

هدر تولاد صائحاً "اسمها سانا.."

لكن سليم تجاهله وهو يتناول عويناته التي سقطت أرضاً ويمسحها بكم قميصه مضيفاً "هناك حلّ بسيط لا أظنه عسير عليك.. ولو كنت تحب ريم حقاً، فلن ترفض القيام به بتاتاً.."

قطب تولاد قائلاً "ما هو؟ تحدث بسرعة.."

ارتدى سليم عويناته وهو يجيب بهدوء "أن تعيدها لذلك العالم.. هذا سيشفيها من أي شيء أصابها.. أليس كذلك؟"

صاح تولاد بغضب "محال.. لم أنتظرها سبع سنوات لأعيدها هناك بكل بساطة.."

فقال سليم "إذن هل ستبقيها على حالها؟.. هل يمكنك أن تجني عليها بهذا الشكل وأنت مستريح الضمير؟"

قبض تولاد على ياقة قميصه وهو يهزه قائلاً بثورة "لذلك أتيت للنيل منك.. ستأتي معي، وستعيد لسانا وعيها بأي شكل كان.. وإن لم تقدر على ذلك، قتلتك شرّ قتلة.."

وأطلقه بدفعة قوية قبل أن يستدير وهو يقول لمن حوله "أحضروه ولنعد لأنكاريا.. الوقت يداهمنا.."

وغادر بخطوات سريعة حازمة، بينما جذب الجنود سليم عنوة من ياقة قميصه وجرجروه حتى المركبات الأربع التي ربضت خارج سور القرية.. ألقى سليم نظرة سريعة على أهل القرية الذين التزموا بالصمت، ثم عاد ببصره للمركبة السوداء التي تقترب منه.. ما يهمه أن أهل القرية بخير، فليست له طاقة لتحمل ذنبهم لو أصيب أحدهم بمكروه.. أما ريم، فذلك شأن آخر بكل تأكيد..

****

شعر سليم، وهو ينظر لريم الغائبة عن الوعي في جناحها الواسع، بشيء من الندم.. كانت شاحبة، متعبة، وبحالٍ يرثى لها.. وقد وقف الطبيب قريباً منها يجري لها فحصاً ببعض أجهزته، بينما وقف تولاد أمام سليم وقال بحزم "والآن، ألن تفصح لي عما فعلته بسانا في الوقت الذي قضته معك؟"

قال سليم متظاهراً بالحيرة "لم أفعل لها شيئاً.. ما الذي يؤكد أنني أنا السبب؟.. ظننت أن هذا كان بسبب نقلتها عبر العوالم الموازية.. ربما لم يتحمل جسدها ذلك فانهار أخيراً.."

ثم أضاف بهدوء "ربما يحسن بكم فعلاً إعادتها لعالمها.."

صاح تولاد بحنق "هذا هو عالمها.. أتظنني أحمقاً؟"

وسار لريم بخطوات حانقة فكشف ذراعها مشيراً لموضع الحقن الملتهب وقال "ما معنى هذا؟.. لقد حقنت منذ وقت قصير، لكن لم يحدث هذا وهي في أنكاريا.. فمَن مِن البدائيين يملك ما يحقنها به؟.."

قال سليم قالباً كفّيه "وما أدراني؟"

عاد تولاد لسليم وهو يقول بغضب "بل أنت تعلم.. أنت الوحيد الذي يملك قسطاً كافياً من التعليم بين البدائيين، لكن بِمَ حقنتها؟.. أي سموم سمّمت جسدها به؟"

قال سليم مقطباً "أظننتني قد أؤذي فتاة صغيرة؟.. لستُ الوغد هنا.."

قال تولاد بحدة "ماذا تعني؟"

فقال سليم بحدة مماثلة "أنت من جرؤ على أذية فتاة صغيرة لم تكد تبلغ عدة سنوات.. أنت من تعامل معها بحقارة فقط لأنها ليست ابنتك.. أنت من جنيت عليها وعلى والديها لتحصل على ما تبتغيه وتُرضي نفسك.."

صاح تولاد بغضب "لا يحق لك قول ذلك.."

فاعتدل سليم قائلاً بصرامة "بل سأقوله وأكرره مراراً.. ألا تعلم ما الذي جرى لتلك الفتاة؟.. أم أن ذلك لا يهمك بأي حال؟"

استدار تولاد وابتعد خطوات وهو يقول بحدة "لا أريد أن أسمع تخاريفك أيها الوغد.."

فصاح سليم قبل أن يغادر "لكنها قد ماتت بسببك أنت.."

توقف تولاد عن السير والتفت ينظر لسليم بنظرات حارقة، فأضاف سليم بحزم "لقد ماتت بعد وصولها لذلك العالم بوقت قصير.. وقد يكون هذا حال ريم لو لم تُعِدْها قبل فوات الأوان.."

عاد تولاد لسليم بخطوتين واسعتين وقبض على مجمع ثيابه وهو يرفعه بخفة هامساً بصوت مرعب "اسمعني.. سانا يجب أن تستعيد وعيها في هذا العالم، وأنت ستخبرني بكل ما تعرفه وما فعلته الآن وفي هذه اللحظة.. وإلا عقابك سيكون شديداً.."

ظل سليم يحدق في عيني تولاد الغاضبتين بتحدّ دون أن يذعره غضب تولاد وتهديده.. ثم وجد تولاد يدفعه وهو يستدير عائداً لريم تاركاً سليم يفكر فيما قاله.. لكن سليم لم يكن ينتوي التراجع مهما كانت العواقب.. كان مصراً على إعادة ريم، ولم يزده تهديد تولاد إلا إصراراً..

شعر سليم بشخص يقف خلفه ونظرات حادة تكاد تحرق مؤخرة رأسه، فالتفت لتصطدم عيناه بعيني تيمار الباردتين اللتين لا توحيان بأي انفعال إلا نادراً.. أدار سليم وجهه جانباً وهو يتفادى النظر في وجه تيمار، بينما التفت تولاد إليه من جديد وهو يقول "أنت مصرّ على الصمت.. أليس كذلك؟"

قال سليم بحزم "بل مصرّ على أن إعادة ريم هو القرار الأفضل.."

عندها صاح تولاد "كابو....."

ولكن سليم كان قد قرر أنه لن يتزحزح عن قوله مهما كانت العواقب..

****

فتح باب إحدى الغرف في مبنى الجنود الملحق بقصر تولاد، ووجد سليم من يدفعه بقوة ليدخل تلك الغرفة حتى كاد يسقط على وجهه.. استدار خلفه بصمت ليرى كابو ينظر إليه بدوره بشيء من الحدة.. ثم قال له "ألن توفّر علينا وعليك هذا العناء؟.. أحقاً يسعدك رؤية تلك الطفلة تعاني دون أن تتدخل لإنهاء معاناتها؟"

استخرج سليم عويناته من جيبه وارتداها بصمت، فنظر كابو للجنديين خلفه للحظات، ثم قال قبل أن يستدير "فليكن في علمك أن ما شهدته اليوم لن يكون أقسى ما ستناله هنا.."

ثم غادر مغلقاً الباب خلفه بصوتٍ عالٍ.. فوقف سليم ينظر للغرفة الصغيرة ذات السرير الوحيد فيها والنافذة المحصنة، قبل أن يغمغم "لم يخلُ هذا القصر من سجن فيه، يبدو أنك ذو شأن أكبر مما توقعتُ يا تولاد.."

مسح وجهه بقميصه ملاحظاً الدماء التي صبغت القميص الأبيض بعدها، ثم تلمّس كدمة ظاهرة فوق حاجبه الأيسر تثير الألم في وجهه مع ملمس أصابعه.. جلس على السرير زافراً وهو يقول لنفسه "هل ستكون ريم حقاً بخير؟.. أرجو ألا يكون تولاد بالعناد الذي أظنّه عليه ويرفض إعادتها لعالمها.. عندها، يعلم الله ما سيحدث لهذه الطفلة.."

استلقى في سريره محاولاً الحصول على قسط من الراحة قبل أن يتم استجوابه من جديد، بعد أن قضى معظم ساعات

ذلك النهار والليلة التي تسبقه مستيقظاً.. وبعد عدة دقائق قضاها في صمت شبه تام، استغرق في نوم متقطع ينقضي مع كل صوت أو حركة خارج غرفته، فيهب سليم بشيء من القلق بانتظار رؤية أحد الجنود، وعندما يطمئن أنهم لم يأتوا طلباً له يعاود النوم بتعب.. وبعد عدة ساعات، والليل يكاد ينقضي، سمع سليم صوت خطوات تقترب من الباب بهدوء.. فاعتدل جالساً بشيء من التوتر بانتظار رؤية كابو أو أحد الجنود، ولن يعني هذا إلا مزيداً من الألم والتعذيب لوقت سيطول.. لكن عوضاً عن ذلك، سمع الخطوات تقف قرب الباب بصمت للحظات، ثم دار المفتاح في قفله وفتحت فرجة بسيطة من الباب.. ومن تلك الفرجة، رأى سليم شيئاً ما يقذف عبرها ليسقط أرضاً بصوتٍ واضح وسط الهدوء التام.. ثم سارعت الخطوات مغادرة دون أن يتحدث صاحبها بكلمة تاركاً الباب مفتوحاً دون أن يقفله من جديد..

نهض سليم بسرعة واتجه لما سقط أرضاً، فوجد مفتاحاً صغيراً أسود اللون أدرك ماهيته على الفور، ووجد ورقة صغيرة مربوطة عليه.. فكّها سليم بسرعة فوجد عليها رسمٌ ارتجالي لممرات المبنى والحديقة والطريق الأسلم للهروب عبرها.. فابتسم سليم معلقاً "يا لك من رجل قليل الكلمات والأفعال.. أما أمكنك تسهيل الأمر أكثر عليّ؟"

نهض شاداً عزمه واقترب من الباب لينظر عبره بحذر.. كان الوقت قد قارب الفجر، وهو الوقت الذي تلين فيه الحراسة نوعاً ما في مثل هذه القصور ويهدأ الجنود عادة.. وكما توقع، كان الممر خالياً، فأسرع سليم عبره متخفياً في المواقع المظلمة منه بحذر ما استطاع ذلك.. قادته الأسهم في الرسم الارتجالي عبر الممرات وعبر باب خلفي للمبنى الذي هو فيه.. وبنظرة سريعة، تأكد أن الموقع حوله خالٍ من الجنود، ويطلّ على الجزء الخلفي المظلم من الحديقة..

شدّ سليم عزمه وهو يركض بخفة نحو أقرب جزء من جدار الحديقة، وهناك استخدم شجرة من أشجار الحديقة المثمرة في التسلق والاقتراب عبر أحد فروعها من السور العالي الذي يتجاوز ارتفاعه أربعة أمتار.. ولما وصل أعلى السور، ربض في موقعه ينظر لما حوله، عندها استطاع أن يرى في الطريق الضيق القريب من السور إحدى مركبات الجنود رابضة بصمت.. قبل أن يشرع بالهبوط، سمع صيحة عالية من جانب الحديقة.. التفت سليم بقلق ليجد أحد الجنود قد لمحه فاقترب منه راكضاً وهو يرفع سلاحه ويصيح منادياً بقية الجنود.. عندها أسرع سليم بتهور يدلّي جسده من السور متشبثاً بأعلاه، ثم قفز متجاوزاً المسافة الباقية ليسقط أرضاً بشيء من الألم.. نهض واقفاً بسرعة وقفز على المركبة وهو يتلفت حوله بتوتر ملاحظاً أن أصوات الجنود تقترب منه بسرعة.. استخرج من جيبه ذلك الفتاح الأسود، ودفعه في الفتحة المخصصة له في لوحة التحكم ليدير المركبة.. كانت لديه فكرة بسيطة عن التحكم بالمركبة كما رأى الجنود يفعلون عدة مرات في رحلاته من وإلى القرية، لكن هذا لم يخفف توتره وقلقه الشديد..

أصدرت المركبة صوتاً خفيفاً وهي تبدأ العمل، فتهيأ للتحرك بها بعيداً عن القصر وقبل أن يصل إليه الجنود عندما فوجئ بتلك اليد التي أمسكت برأسه ودفعته بقوة ليرتطم بلوحة التحكم.. شعر سليم بألم شديد من الضربة واليد تثبّته في موضعه بينما اليد الأخرى تلوي ذراعه اليمنى خلف ظهره.. نظر سليم للجندي الذي قفز خلفه في المركبة دون أن ينتبه

له، وسمعه يقول "أيها الأحمق.. أظننت هربك سيكون بهذه السهولة؟"

لم يعلق سليم وهو يرى الجندي يتناول قيداً حديدياً بينما تعالى صوت جنود آخرين من جانب القصر.. عندها اندفع سليم بقوة نحو الجندي فضرب فك الجندي برأسه بقوة قبل أن يدفعه بكتفه محاولاً إبعاده عن المركبة ليتسنى له الفرار قبل وصول بقية الجنود.. لكن الجندي الذي تراجع خطوة لم يسقط من المركبة وهو يتشبث بالكرسي القريب، أما سليم فقد قفز نحو لوحة التحكم وارتفع بالمركبة بقوة وبزاوية حادة بحيث أجبرت الجندي على السقوط دون أن يتمكن من التشبث بموقعه..

حاول بقية الجنود إيقاف المركبة أو إصابة سليم بأسلحتهم، لكن الأخير انخفض في المركبة متفادياً الطلقات وهو يقود المركبة.. فمالت المركبة بشدة وهو عاجز عن التحكم بها، حتى كادت تصطدم بجدار القصر قبل أن تميل نحو بعض الجنود الذين ارتموا جانباً.. وأخيراً، عندما تمكن سليم من السيطرة على المركبة بشكل تام، قادها بأقصى سرعة يمكنه بلوغها عبر الحيّ الراقي الذي يقع فيه قصر تولاد..

لم تكن مطاردة الجنود له ستتوقف عندها، لكنه لم يقلق كثيراً وهو يستخرج الورقة من جيبه ويقلبها متأملاً الخارطة الصغيرة التي رسمت على ظهرها.. كانت الخارطة ترسم له طريقاً محدداً عبر الحي وإلى أحد أبواب سور أنكاريا الأقل حجماً وحراسة.. وبالفعل، بعد سير قصير، وجد نفسه أمام باب متوسط الحجم بلا زخرفة تقريباً عكس الأبواب الأخرى.. خمّن سليم أن ذلك الباب يستخدم استخداماً ثانوياً لذلك يخلو من البهرجة والحراسة المشددة على الأبواب الأخرى.. ولما اقترب من الباب رآه مشرعاً ولا يقف قربه إلا جنديان أوليا الموقع ظهريهما وهما يتحدثان بخفوت..

كانت تلك مغامرة غير محسوبة بالنسبة لسليم الذي لم يعتد القيام بمثل هذا الهروب، لكنه لم يتردد وهو يزيد سرعة المركبة محاولاً تخطي الباب قبل تدخل الجنود ومنعه من الهرب.. لكن، لتعجبه، فإن الجنديين ألقيا عليه نظرة سريعة عند مروره دون أن تبدو عليهما المفاجأة.. ولم يكد سليم يتجاوز الباب حتى سمعه يغلق بصوت مكتوم ليغرق الطريق الذي يقطعه بالصمت التام.. ظل سليم يتأمل الباب خلفه باستغراب، ثم استدار ناظراً للأمام وهو يجزم في دخيلته أن هذين الجنديين كانا متواطئين معه.. وربما كان ذلك الشخص هو من بعثهما، فهو الوحيد الذي يقدر على ذلك..

لم يصدق سليم أن الهروب كان ناجحاً بهذه السهولة، لكنه اكتفى بزفرة قلقة وهو يستمر بالسير بالسرعة ذاتها وسط الطريق الذي يقطع السلسلة الجبلية هابطاً من الهضبة التي أقيمت عليها أنكاريا ومتجهاً نحو السهول الشاسعة..

****

"لقد هرب.."

نظر تولاد بصدمة لتيمار الذي أضاف "لا نعلم كيف حصل هذا، لكن سليم قد نجح في الفرار من سجنه....."

صاح تولاد بغضب "كيف حدث ذلك؟.. هل تسلل من النافذة المحصنة؟"

قال تيمار "لا يا سيدي.. لقد عثرنا على باب الزنزانة مفتوحاً ويبدو أنه تسلل قبل الفجر بقليل.. لا يمكننا لوم الجنود على هربه، فلا يتوقع أحد أن شخصاً كسليم يمكن أن يفرّ من سجنه بهذه البساطة.."

فقال تولاد بحدة "أرسل فرقة من الجنود تبحث عنه في الأحياء القريبة.. لا يمكن له أن يبتعد كثيراً عن القصر.."

تنحنح تيمار قبل أن يقول "في الواقع....."

زمجر تولاد بحدة "ماذا بعد؟"

قال تيمار بقلق خشية غضبة أبيه العارمة "لقد سرق سليم أحد مركبات القصر أيضاً.. ولأنها تابعة لك يا سيدي، لم يعترض أحد طريقها حتى تمكن من مغادرة أنكاريا بها.."

لكن تولاد لم يثرُ بشدة كما توقع تيمار وعيناه تتسعان بصدمة ظاهرة، فأضاف تيمار "في هذه اللحظة، لم يعد سليم في أنكاريا كلها.. وأغلب الظن أنه في طريقه عائداً لتلك القرية"

لم يعلق تولاد وهو يدور في الغرفة بخطوات حادة وغضب ظاهر، بينما تيمار يقول "ما الذي سنفعله الآن يا سيدي؟.. لا تزال سانا في غيبوبتها.. وقد اختفى ذلك الغريب.. فما الذي سنفعله بشأن ذلك؟"

لم يجب تولاد وهو مستمر بالدوران بوجه مقطب بشدة وعقل غارق في التفكير.. فعاد تيمار يسأله "سيدي.. ما هي أوامرك؟"

التفت تولاد إليه فجأة وهو يقول "هل علمت بما أخبرني به الطبيب بعد فحص سانا؟"

تبدّت نظرة متسائلة على وجه تيمار، فقال تولاد "بعد أخذ عينة من دماء سانا، وجد الطبيب فيها بقايا آثار من المادة الوسيطة، وهي المادة التي طوّرها علماء المختبر لإعداد الجسد البشري للنقل بين العوالم الموازية.. وبدونها لا يمكن إتمام ذلك الانتقال.."

تساءل تيمار بحيرة "وما معنى هذا؟"

قال تولاد "لم يقم أحد في أنكاريا بحقن سانا بتلك المادة منذ قدومها إلى هنا.. فلماذا يحوي جسدها شيئاً من تلك المادة في هذا الوقت بالذات؟"

ظل تيمار يستمع بصمت وحيرة وتولاد يضيف بحزم "لقد قام أحدهم بحقنها بتلك المادة بشكل متكرر في فترة قريبة.. وهذا الشخص لا يعلم مخاطر استخدامها ولا عواقبها.. بينما علماؤنا لا يحقنون الشخص المراد إخضاعه للتجربة إلا مرة واحدة.."

غمغم تيمار "مازلت غير مستوعبٍ لما تقصده يا سيدي.."

فقال تولاد بانفعال "ألم تفهم بعد؟.. من قام باستخدام تلك المادة هو سليم.. هو الوحيد الذي لا خبرة له بالموضوع.. ربما كان يأمل أن تكون تلك المادة كافية لإعادة سانا لعالمها.."

علق تيمار قائلاً "هذا ليس بأمر مستغرب.. لكنه هارب الآن، فما الذي ستفيدنا به هذه المعلومة؟"

أجاب تولاد "من أين يتأتى لشخص مثل سليم الحصول على تلك المادة؟.. إنه مراقب أغلب الأوقات، وقد تم تفتيشه بعناية في كل مرة دخل وخرج فيها من أنكاريا.. فكيف حصل على شيء مهم كهذا لا يصل إليه إلا نفر قليل؟"

ثم أضاف وهو يعود للدوران في الغرفة "ثم هناك موضوع هربه من سجنه عبر الباب المفتوح.. لا تقل لي إن الجنود قد نسوا إغلاق الباب بإحكام.. ثم من أين يتأتى له الحصول على مركبة من مركبات القصر بهذه البساطة؟"

وإزاء نظرات تيمار المندهشة قال تولاد بحاجبين معقودين "هناك خائن.. خائن تعاون مع سليم وزوّده بالمادة.. والآن سهّل له أمر الهرب من القصر ومن أنكاريا كلها.. هذا هو التفسير الوحيد والحلقة المفقودة في هذا اللغز.."

اتسعت عينا تيمار بدهشة عنيفة قبل أن يتساءل بقلق "خائن؟.. كيف يمكن ذلك؟.. ومن له مصلحة بمساعدة هذا الرجل الغريب عن أنكاريا؟"

قال تولاد "هذا ما يجب أن يجيب عنه ذلك الخائن بنفسه.. وحالاً.."

غمغم تيمار بقلق واضح "أتعني....؟"

أجاب تولاد بتقطيبة شديدة "أجل.. أنا أعلم من هو ذلك الخائن بالتحديد.. فلا يمكن أن يكون إلا هو.."

****

الفصل السابع « انكسار تلك الهامة.. »

دام سير سليم عبر تلك السلسلة الجبلية أمداً طويلاً أشعره ألا نهاية له.. كانت الشمس قد أشرقت وارتفعت في السماء، بينما توتره يزداد مع كل لحظة تمرّ وهو ينظر خلفه بين لحظة وأخرى متوقعاً رؤية المركبات تطير بسرعتها الفائقة لاحقة بمركبته، وعندها لن تكون الغلبة له بتاتاً.. لذلك عندما تبدّت له السهول الشاسعة من بعد تلك السلسلة الجبلية حيث تقع أنكاريا، بدت الراحة واضحة على وجه سليم وهو يغمغم "قليلاً بعد.. وأتخلص من هذا الكابوس.."

لكنه كان يعلم أن وصوله للقرية لم تكن نهاية المطاردة.. القرية كلها قد تتعرض لنقمة تولاد، والغرباء لهم تاريخ في الظلم والتجبرّ على القرى البدائية كما يعرف سليم.. فهل سيقبل أهل القرية بالرحيل معه؟.. وحتى لو فكر بالهرب وحيداً، لم يكن ذلك يعني خلاص القرية منه ومن المصائب التي تلاحقه..

لكن راحته لفراره لم تدم طويلاً وهو يسمع صوتاً مدوياً خلفه، ولما التفت للصوت رأى مركبة أخرى من مركبات الغرباء تسير بسرعة فائقة خلفه، وهي تقترب منه بشكل حثيث.. كانت مهارة الجنود في قيادة المركبة أفضل من سليم بكل تأكيد، لذلك بات القبض عليه أمراً مفروغاً منه..

دمدم سليم بحنق وهو يحاول زيادة سرعة مركبته، عندما فوجئ بالصوت العالي يتكرر مرة أخرى ليتناثر الرمل والصخور في موقع قريب من المركبة.. مال سليم بالمركبة جانباً والصوت يتكرر من جديد ليصيب شجرة أمام سليم ويفجّر فرعاً من أفرعها فتهاوى أرضاً حتى كاد يسقط على المركبة التي مرّت بالكاد من تحته.. نظر سليم خلفه بقلق ليرى المركبة تتقدم منه بإصرار وعليها أحد الجنود قد وقف ممسكاً بسلاح كبير نوعاً ما ومثبتاً ذراعه بيده الأخرى..

عاد سليم يناور وهو حائر فيما عليه فعله في هذه السهول الشاسعة التي لا مخبأ فيها ولا وسيلة للخلاص من مطارديه.. وبينما هو في حيرته، أصابت إحدى الطلقات جانب مركبته فارتجّت بقوة وهي تدور حول نفسها بسرعة شديدة.. ثم تهاوت أرضاً بذات السرعة حتى ارتطمت بالأرض الرملية وزحفت فيها لمسافة طويلة قبل أن تنقلب أخيراً وتركد وسط سحابة من الغبار والرمل الثائر..

بعد أن هدأ كل شيء، نهض سليم بمجهود وهو يسعل دون أن يتمكن من رؤية شيء بسبب الرمل الذي غطى وجهه وذراته قد تسللت لعينيه التي ذرفت الدموع بحرقة.. حاول سليم الخروج وهو يشعر بآلام شديدة في جسده بحيث عجز عن معرفة إن كان مصاباً في أي جزء من جسده أم لا.. ولم يلبث أن شعر بيدين تجذبانه بقوة من تحت المركبة المنقلبة لتوقفاه قربها دون أن تتخلى عنه.. حاول سليم مسح عينيه من الغبار ومن الدموع، لكن يدي الجندي كانت تقبضان على ذراعيه وتلويانها خلف ظهره بحيث عجز عن الحركة..

بعد لحظة، شعر سليم بمن يقيد يديه خلف ظهره بقيد حديدي بينما أحد الجنود يقول لآخر "أبلغ سيدي بأننا قبضنا عليه.. سنعود لأنكاريا بعد أن نجتمع بالفرقة الأخرى.."

بعد أن زالت حرقة عينيه شيئاً ما، تلفت سليم حوله ليجد عدداً من الجنود لا يزيد على خمسة من حوله وأحدهم يجري اتصاله بتولاد.. ولم تلبث مركبة أخرى أن توقفت قربهم وهبط منها أربع جنود آخرين ليكتمل العدد تسع جنود يحيطون به وحده.. غدا من المستحيل على سليم الفرار من كل هذه المجموعة، لكنه لم ييأس وهو مدرك أن عودته لأنكاريا ولتولاد في هذا الوقت بالذات ستكون عواقبه وخيمة..

وقف سليم بصمت وهو يرى أحد الجنود، وهو القائد كما بدا له، يلقي بأوامره لمن حوله.. حاول سليم في تلك الأثناء التخلص من القيد في يديه بغفلة من الجنود دون أن يفلح بذلك، فكيف له التخلص من قيد حديدي دون العثور على مفاتيحه؟.. ظل يراقب الجنود وعقله يحاول العثور على مخرج لما يمرّ به، عندما قاطعه هتاف أحد الجنود بصوت متوتر "انظروا هناك.."

استدارت الرؤوس فوراً تتبعها الأيدي المتحفزة بأسلحتها، واستدار سليم بدوره مقطباً ليرى تلك الأجساد الطويلة التي تعانق رؤوسها عنان السماء.. بدأ الجنود بالتراجع وهم مذهولون يراقبون هذا القطيع من الأجساد الضخمة والذي سار نحوهم بخطوات لا تكاد تُسمع، بينما اتسعت عينا سليم وعقله يبحث عن طريقة لاستغلال ما يراه للهرب من هذا المصير.. أيمكن أن تكون هذه فرصته الذهبية؟.. سمع أحد الجنود يقول بتوتر وهو يرفع سلاحه "ما هذا بحق السماء؟.. عمالقة؟"

أدرك سليم أنهم يرون الفانوم للمرة الأولى، بينما قال آخر بقلق شديد "أتظن أنهم آكلوا لحوم؟ هل ينتوون افتراسنا؟"

قال قائدهم وهو يراقب القطيع "لا يبدو هذا حالهم.. بعضهم يبتعد عنا بصمت، كما أنني لا أشعر بأي نية للقتل في عيونهم"

علق آخر بعصبية "حقا؟ لقد أراحني هذا بالفعل.. أتظن أننا سنكون أفضل حالاً بالاعتماد على الحدس وحده؟"

ورفع سلاحه قائلاً "أرى أن نطلق عليهم النار مادمنا على مسافة كافية منهم لاتقاء شرهم"

قال القائد بحسم "لا تفعل.. قد يثير هذا غضبهم.."

قال سليم وهو يتراجع خطوة "بل يجب أن تطلق النار.. افعلوا هذا قبل فوات الأوان.."

نظر له الجنود بتوتر ظاهر بينما قال القائد مقطباً "قلت لكم لا تطلقوا النار يا رجال.. ابقوا هادئين حتى تمر الأجساد وتبتعد عنا.."

رأى رسلم بعض الجنود يبادلونه النظر بتوتر شديد وقلق أشد، فقال بإصرار "بل أطلقوا النار.. أولئك الضخام مفترسون، سيتقدمون منكم بكل هدوء وثقة، ثم يبدؤون انقضاضهم عليكم ولن يتركوا منكم شخصاً حياً أبداً"

توترت الأصابع على الأسلحة، بينما أضاف سليم بلهجة أظهرت الرعب في صوته "أنتم لم تروا ما حلّ بجماعة من الرجال الأشداء ممن حاولوا تجاهلهم.. لقد تم تقطيعهم إرباً، وغرقت الأرض بدمائهم في ثواني معدودة"

قال القائد بحدة وهو يوجه كلامه إليه "اصمت وإلا لكمتك على وجهك"

لم ينظر له سليم وهو يوجه كلامه للآخرين "لو رأيتم أشلاءهم وما تبقى منهم....."

اقترب منه القائد بخطوة واسعة وقبض على فكه بقوة آلمته وهو يقول من بين أسنانه بغضب "اخرس.."

لم يجرؤ سليم على قول المزيد مع الألم المتصاعد من أصابع القائد الصلبة، بينما اقتربت الأجساد السوداء منهم كثيراً حتى ألقت بظلالها عليهم بشكل تام.. عندها لم يتمالك أحد الجنود خوفه وهو يقول بصوت مرتجف "تباً لهذا.. لن أبيع حياتي عبثاً.."

نظر له القائد بحدة وقال "كفى...."

لكن الجندي كان الأسبق وهو يصوب سلاحه على أقرب الأجساد منه ويطلق طلقة من سلاحه في الموضع الذي ظنه قلبه.. تعالى دويّ الرصاصة واضحاً وعالياً في الموقع الهادئ، وتجمدت الأجساد الضخمة بينما تعالى صوت مرتفع كالعواء من الجسد المصاب والذي مال قليلاً للوراء.. ورغم أن وجوه تلك الأجساد مظلمة بلا ملامح نوعاً ما، إلا أن تلك الأجساد التفتت نحو مصدر الصوت بأعينها البيضاء الواسعة وبعضها يصدر خرخشة عجيبة بحلقة.. ورغم أنها ظلت على هدوئها، إلا أن التوتر قد بلغ مبلغه بالجنود مما دفع العديد منهم لإطلاق بعض الطلقات المتفرقة على الأجساد القريبة رغم صياح القائد المعترض.. ولم ينتبه أحدهم لابتسامة سليم الخفيفة بعد أن أدار له القائد ظهره وسليم يتراجع خطوتين ثم ثلاثاً بخفة وهدوء..

وفي لحظات تعالى العواء من عدد من الأجساد، وتزايدت تلك الخرخشة الغريبة بشكل مزعج، ثم تحركت الأجساد بسرعة خاطفة لم يدركها بصر أغلب الجنود وأجسادهم تتطاير في الهواء في ثواني معدودة.. وقف القائد وسطهم متسع العينين وهو يرى حركة الأجساد الخاطفة والتي ينتج عنها تطاير جنوده جانباً والأيدي الضخمة تتخطفهم بسرعة .. ولم تسلم المركبات القريبة والأيدي الضخمة تضربها فتلقيها جانباً على بعد عدة أمتار بكل خفة.. ولم يلبث الدخان أن تصاعد من إحداها بينما انغمر رأس الثانية في التراب بشكل كامل.. ووسط الصراخ المتألم للرجال، والأجساد التي سقطت تتلوّى ألماً في عدد من الأماكن، كان سليم قد انخفض بجسده بصمت وهو يغطي رأسه بذراعيه ويراقب ما يجري.. ثم بخطوات خافتة استدار وحاول الهرب وسط انشغال الجنود بمعركتهم مع الفانوم، الذين عرف سليم عنهم كرههم للأصوات العالية مما يدفعهم لمهاجمة من يثير فزعهم.. كل ما يأمله ألا يكون بين الجنود أي إصابات مميتة، فليس هذا ما سعى إليه.. سمع في تلك اللحظة القائد يصيح به بغضب "قف مكانك.."

نظر خلفه بقلق دون أن يتوقف عن الركض.. كان القائد يقف وحيداً في الساحة بعد أن سقط أغلب رجاله وهرب

الباقون، لذلك لم يتوقف سليم وهو يأمل أن يتمكن من الهرب قبل أن يلحق به.. لكن القائد، وقد رأى عزم سليم على الهرب، رفع سلاحه نحوه وهو يصيح "قلت لك قف مكانك.."

توتر سليم مع مرأى السلاح، عندما رأى تلك اليد الضخمة تضرب القائد بحركة خاطفة فتلقيه جانباً وهو يطلق صياحاً متألماً.. عندها استدار سليم مبتعداً دون لحظة انتظار وهو يغمغم بابتسامة "مرة أخرى شكراً لك أيها الكائن الغريب.."

بقيت لديه مشكلة القيد الذي يقيد يديه.. ولا يملك ترف العودة للأجساد الساقطة وتفتيشها لئلا يهجم عليه أحد الجنود ممن فروا من الموقع.. عليه الآن أن يعود للقرية، وبعدها يطلب من أحدهم خلع القيد من يديه بأي طريقة.. هذا لو تمكن من العودة للقرية بسلام ودون مفاجآت أخرى..

لكن لم يطُل به التمنى وهو يرى جماعة من رجال القرية قادمين نحوه بعد أن اجتاز مسافة لا بأس بها من موقع المعركة.. فركض سليم إليهم وهو يتساءل بشيء من التعجب "ما الذي جاء بكم لهذه البقعة الآن؟"

اقترب منه يعقوب قائلاً "لقد سمعنا تلك الأصوات الغريبة وسمعنا صياح الفانوم، وهو شيء نادر في هذا المكان.. فأتينا لاستطلاع الأمر.."

ونظر خلف سليم متسائلاً "ما الذي جرى؟ وكيف استطعت الهرب من مدينة الغرباء؟.."

أجاب سليم بتوتر "سأخبركم، لكن علينا الرحيل بسرعة.. لا يزال بعض الغرباء هنا، وقد يحاولون اللحاق بنا واستعادتي.."

لم يجادله أحد الرجال وهم يستديرون عائدين للقرية.. بينما نظر سليم خلفه ملاحظاً أن تلك الكائنات الضخمة قد هدأت وبدأت سيرها من جديد مخلفة بعض الأجساد المرميّة أرضاً تطلق أنيناً متألماً وسباباً بذيئاً.. ثم عاد سليم للركض مع رجال القرية هرباً من ذلك الموقع قبل أن يعود الوضع للاحتدام مرة أخرى..

****

في فجر ذلك اليوم، تلقى كابو استدعاءً من تولاد فور عودته لمنزله وقبل أن يتمكن من الحصول على بعض الراحة بعد ليلة قضاها مع جنوده بحثاً عن سليم.. فلم يتذمر وهو يسأل الجندي القريب "ما الذي استجدّ الآن؟.. هل وصلت أي معلومات عن ذلك الغريب؟"

قال الجندي وهو يقف بانتباه "لا علم لي يا سيدي.. لقد طلبك سيدي تولاد وهو الآن برفقة سيدي الصغير تيمار.."

لم يعلق كابو وهو يتناول سلاحه القريب فيعلقه في حزامه ويسرع للقصر الذي لم يكن يبعد الكثير عن موقع سكنه..

وخلال دقائق، كان يقف وقفة متحفزة أمام تولاد وهو يقول "أنا رهن إشارتك يا سيدي.. ما الذي تأمرني به؟"

لم يكن من عادة تولاد النظر في وجه كابو بتاتاً، بل كان يلقي أوامره دون أن يدير بصره فيمن حوله.. لكن هذه المرة،

شعر كابو نوعاً ما بالتوتر وهو يرى تولاد يقترب منه ويثبت نظراته الثاقبة على وجهه.. لكن كابو لم يتخلّ عن وقفته الصارمة وهو ينتظر الأوامر التي سيلقيها سيده وتستدعي حضوره في مثل هذا الوقت..

ظل تولاد واقفاً أمام كابو الصامت، قبل أن يسأله بلهجة عادية "أين سليم يا كابو؟"

قال كابو بلهجة عملية "أرسلت فرقتين من الجنود خلفه، وتمكنت إحداهما من القبض عليه فعلاً قبل أن تلتقي بالفرقة الثانية.. لكن الاتصال انقطع بيننا وبينهم بعد أن أبلغوني بذلك.. ومازلنا....."

قاطعه تولاد قائلاً بصرامة "ليس هذا ما أسألك عنه.. أين سليم يا كابو؟"

ازداد توتر كابو وهو يقول "إننا نبذل جهدنا للقبض عليه يا سيدي.."

لكن تولاد مد يده وقبض على كابو من مجمع ثيابه، وبقواه التي لا تشي بها بشرته الشاحبة كان قد هز كابو بقوة وهو يقول "أأنت تسعى للقبض عليه حقاً؟.. أم أنك تُضَلّل الجنود لتمكّنه من الفرار؟"

اتسعت عينا كابو وهو عاجز عن استيعاب ما يقال، بينما قال تولاد بغضب واضح "أظننتني غافلاً عن أمرك لهذه الدرجة؟.. أظننت أنك ستفرّ بفعلتك دون أن تنال العقاب الملائم؟"

بدا شيء من الذعر على وجه كابو وقد استوعب الأمر، وقال بهلع "ماذا تعني يا مولاي؟.. أتظنني....."

قاطعه تولاد بصرامة "أنت خائن.. أجل، هذا ما أظنك عليه يا كابو.."

ودفعه للخلف بقوة فيما الذعر يتزايد في صدر كابو، ثم قال بانفعال "مهلاً يا سيدي.. ما الذي يحملك على الظن أنني قد أخونك لأجل غريب؟.. ما مصلحتي من ذلك؟.."

التفت إليه تولاد قائلاً "هذا ما أريد سؤالك عنه.. ما مصلحتك حقاً من معاونة سليم؟.. أنت الوحيد الذي يمكنه الدخول والخروج من كافة الأقسام في المختبر بحرية.. من يمكنه أن يختلس بضع عبوات من المادة الوسيطة دون أن يكشف أمره؟ من يستطيع معاونة سليم على مغادرة القصر وأنكاريا كلها بسلاسة تامة؟ بحق السماء من يمكنه تزويده بمركبة من مركباتنا دون أن يفتضح أمره؟.. لا تقل لي أن سليم قد فعل كل ذلك دون معاونة من أحد.."

فقال كابو بانفعال "بلى.. هناك خائن ولابد.. هناك من عاون الغريب على تنفيذ كل ذلك.."

ونظر لتولاد قائلاً "لكنه ليس أنا يا سيدي.. ثق بأنني لا يمكن أن أخونك مهما كانت الأسباب.."

نظر له تولاد بغير اقتناع، فهتف كابو بانفعال "امنحني يوماً واحداً فقط، وسأجد الخائن بكل تأكيد.. ثق بأنني سأعثر عليه مهما حاول التخفي أو الهرب.."

قال تولاد بصرامة "وتظنني سأمنحك هذه المهلة لأعينك على الهرب؟"

ونظر خلفه صائحاً "أين بادر؟"

قال كابو بارتباك "ثق بي يا سيدي.. لم أفكر يوماً في خيانتك ولا يمكن أن أفعل.."

فتح الباب في تلك اللحظة ودلف منها مساعد كابو الشاب، فأدى التحية وهو يقول "أنا تحت أمرك يا سيدي.."

فقال تولاد "بادر.. أنا أعيّنك منذ الآن رئساً لجنود القصر.. استلم مهام عملك منذ هذه اللحظة.."

بدت الدهشة جليّة على وجه المساعد الشاب، بينما شحب كابو صائحاً "سيدي.. دعني أثبت لك براءتي.. امنحني يوماً واحداً.. لا بل ساعة واحدة.."

تجاهله تولاد مخاطباً بادر "خذ هذا الخائن وسلّمه لهيئة أمن أنكاريا.. سأحيله للمحاكمة، فإما أن ينال البراءة أو تثبت التهمة عليه.."

رغم دهشة بادر الشديدة، إلا أنه لم يملك إلا تنفيذ الأمر.. فاستدعى جنديين ليسوقا كابو بعيداً، بينما صاح كابو "أنا بريء يا سيدي.. لم لا تصدق ذلك؟"

قال تولاد ببرود "سأبحث فيما جرى بنفسي وأتأكد مما تقوله.. لكن إن ثبتت التهمة عليك، فعقابك لن يكون هيناً يا كابو.."

وجم كابو لذلك وهو يقلب بصره بين وجه تولاد البارد وبين تيمار الذي بدا غير مبالٍ بكل ما يجري.. ثم لم يملك أن يتبع الجنديين بصمت وقد أدرك أن الجدال لم يكن ذا فائدة.. بينما قال تولاد لبادر بحزم "عليك الآن أن تتابع أمر ذلك الهارب.. أريد أن أراه أمامي قبل انقضاء هذا النهار، أتفهم؟"

هز بادر رأسه مجيباً "أنا أتابع ملاحقيه بالفعل، فقد وكّلني كابو بذلك من قبل.."

أشار له تولاد ليغادر، فانحنى بادر قبل أن يستدير ويغادر بصمت.. وبعد مغادرته، تساءل تيمار "ما الذي جعلك تشك بكابو يا سيدي؟.. كان مخلصاً لك طوال سنين عديدة عمل فيها معك.."

أجاب تولاد وهو يجلس "كما قلت، هو الوحيد الذي يملك الصلاحيات لفعل كل ما فعله.. وهو الوحيد الذي يقدر على تشتيت الجنود بحيث يمكّن سليم من الفرار قبل القبض عليه.. بقي أن نجد الدافع الذي يدفعه لخيانة رب عمله وخيانة موطنه لأجل شخص غريب.. وهذا ما يثير حيرتي في كل ما جري..... كيف أقنع سليم ذلك الخائن بالتعاون معه؟.. وكيف يستسلم رجل مثل كابو له؟....."

لم يعلق تيمار وهو واجم يفكر في الأمر، بينما ردد تولاد "لماذا قد يفعل أي شخص ذلك؟"

****

عندما عاد سليم للقرية، انشغل في البدء بإزالة القيد الحديدي في يديه بمعاونة حدّاد القرية، بينما وصل لسمعه لغط أهل القرية بوضوح من قرب باب ورشة الحدّاد.. لكن سليم تجاهل ذلك مؤقتاً وعقله منشغل بمئات الخطط والأفكار

التي تستدعي التنفيذ بسرعة قبل أن يفوت الأوان.. وما إن أنهى الحداد عمله حتى نهض سليم وهو يشكره بعجلة ويخرج باحثاً ببصره عن يعقوب.. ولما رآه يقف في جانب المكان أسرع إليه وجذبه جانباً رغم دهشة يعقوب الظاهرة وفضول بقية أهل القرية.. ولما ابتعدا عن مسامع الآخرين قال سليم "اسمعني يا يعقوب.. هناك طلب أرجو منك تحقيقه بأسر ع وقت ممكن.. قد يكون آخر ما أطلبه منك، وقد يكون أمراً عسيراً، لكن ثق أنني أريد مصلحة أهل القرية جميعاً.."

قال يعقوب رافعاً حاجبيه "ما هذا الأمر العسير؟.. ثم إنك لم تخبرنا بما جرى لك في مدينة الغرباء، وما الذي كان يريده أولئك الغرباء منك؟"

قال سليم مقطباً "تلك حكاية طويلة.."

فقال يعقوب متعجباً "ألم تكن متعاوناً معهم؟.. لم يبدُ تعاملهم معك في اليوم السابق كما قد يعامل المرء حليفاً له.."

قال سليم بضيق "أخبرتك أنني تعاونت معهم رغماً عني.. لم يسعدني ذلك ولكن لم أكن أملك التملّص منه.. والآن، هم على إثري ويريدون القبض عليّ حتى لو عنى ذلك الإضرار بهذه القرية"

عندها قال يعقوب بحنق "هذا ليس مستغرباً منهم.. لكن لماذا عدت للقرية ما دمت تعلم أن ذلك سيعرض أهلها للخطر؟.. كيف يمكنك الآن تجنيب القرية من مآسٍ محتملة إن واجهنا غضبة الغرباء؟.."

قال سليم بتوتر "لن يكون تجنّب ذلك ممكناً حتى لو لم أعد.. سيظن الغرباء أنكم تتسترون عليّ، وقد يكون عقابهم أكبر مما يمكنكم تحمله.."

فقال يعقوب مقطباً "إذن ما الحل الأمثل برأيك؟"

أجاب سليم بسرعة "لنرحل من هنا.. يجب أن تبتعد القرية كلها عن متناول أيديهم قبل أن يحاولوا الوصول إلينا.."

قال يعقوب بشيء من الاستنكار "هذا جنون.. الوقت يداهمنا، ولن يمكننا نقل كل هؤلاء في وقت قصير.."

ألحّ سليم قائلاً "لكن هذا ما يجب أن يكون.. لنبدأ الرحيل حالاً قبل أن يستجمع الغرباء قواهم ويعاودوا الهجوم.."

زفر يعقوب بضيق وهو يتأمل القرويين الذين وقفوا على مبعدة بانتظار ما سينكشف عنه حديثهما، فقال سليم "أعلن بين الأهالي عن قرار الرحيل والذي يجب أن يتمّ خلال الساعات القادمة.. ليحمل كل شخص ما لا يمكن التخلي عنه.. الماء والطعام هو الأهم، أما أي شيء آخر، فيمكن استعادته بعد أن تهدأ ثورة الغرباء ويتراجع وجودهم في هذه السهول.."

غمغم يعقوب "الكلام سهل.."

فقال سليم بإصرار "والتنفيذ لن يكون صعباً لهذه الدرجة.. أرسل عدداً من الرجال لمراقبة الطرق المؤدية للقرية تحسباً لأي هجوم، وامنح أهالي القرية ساعات معدودة للرحيل.. لو أخبرتهم عن هجوم محتمل للغرباء، فإن أغلبهم سيفضّل الرحيل على مواجهة مثل ذلك الهجوم.."

ظل يعقوب صامتاً ينظر حوله والصراع جليّ على وجهه، ثم التفت لسليم قائلاً "ماذا عن الفتاة؟.. ما الذي جرى لها؟"

خفض سليم رأسه مجيباً "إنها في غيبوبة.. لا نعلم متى ستستيقظ، لكن وجودها هناك أفضل لها حتى تستعيد وعيها.."

تساءل يعقوب "أما زلت مصراً على استعادتها؟"

قال سليم "طبعاً.. ماذا ظننت؟"

فقال يعقوب "لست أدري ما الذي رمى بك في هذه الدوامة، لكن أرجو أن يكون قرارك صائباً.."

ثم ابتعد قائلاً "يحسن بك أن تجمع أغراضك بسرعة، فسنرحل خلال ساعتين.."

عدّل سليم عويناته وهو يغمغم "رائع.. أرجو ألا يكون الوقت متأخراً كثيراً عندها.."

واستدار مغادراً نحو منزله ملاحظاً اللغط الذي اندلع وسط القرية بعد أن ألقى يعقوب قراره للجميع.. لكن سليم لم يقف ليسمع ما سيعلق به الأهالي على هذا القرار.. وربما لتجنيب نفسه الاستماع للتعليقات الحانقة التي ستصبّ على رأسه بكل تأكيد..

****

"ماذا تعني بأنكم لا تعرفون أين هو؟"

وقف بادر، رئيس جنود القصر الجديد، أمام تولاد وهو يقول "الجنود يجوبون المواقع المحيطة بالقرية دون أن يعثروا على أي أثر لسليم أو أهل تلك القرية في أي موضع.. لا نعلم متى رحلوا، ولا نعلم في أي اتجاه ذهبوا.. كل ما عثرنا عليه هو تلك الخرائب وقد خلت من أي روح.."

قال تولاد بحدة "ماذا عن تلك الفرقتين اللتين أرسلهم كابو خلف سليم؟"

قال بادر بأسف "عثرنا على المركبتين مدمرتين بشكل تام، بينما الجنود مرتمين أرضاً بين مصاب وفاقد للوعي.."

اتسعت عينا تولاد بدهشة مستنكرة، فشرح بادر الأمر قائلاً "يقول قائد إحدى الفرقتين أن كائنات ضخمة غريبة الشكل قد هاجمتهم، وقد استغل سليم ذلك للهرب.."

فقال تولاد بغيظ "لكن هذا مستحيل.. إنهم لا يملكون أي مركبات ولا يستخدمون أي نوع من الحيوانات للانتقال عليه.. فكيف اختفى سكان القرية بهذه السرعة؟"

ثم التفت لبادر قائلاً بحدة "خذ المزيد من الرجال وابحثوا عنه.. سخّر قواك كلها للبحث عن سليم والعثور عليه في أقرب وقت ممكن.. أريده أمامي بأي شكل كان.."

أحنى الرجل رأسه مطيعاً الأمر وغادر بخطوات سريعة، بينما وضع تولاد يده على جبهته وهو يغمض عينيه بقوة متمتماً

"لماذا حدث هذا؟.. بعد كل ما فعلته، وبعد كل ما ضحّيت به، يخدعني شخص تافه كهذا؟.."

سمع صوت تيمار من خلفه يقول "لا تجعل فكرك ينشغل بذلك التافه عما هو أهم يا سيدي.."

نظر تولاد خلفه عابساً ليجد تيمار يقترب منه مضيفاً "استعادة وعي سانا هو الأهم، أليس كذلك؟"

قال تولاد بصرامة "أتملك حلاً لا أعرفه أنا؟"

قال تيمار "استدعِ أمهر أطباء أنكاريا.. أعلن عن جائزة مالية لمن يعثر على وسيلة لإعادة الوعي لسانا.. صدقني سنجد الحلّ عند من لا نتوقع بتاتاً.."

قال تولاد مشيحاً بوجهه "نحن لسنا في قصة خيالية يا تيمار.. أتظن الأمر هيّناً عليّ؟.. اتركني فلا أملك أي قدرة على الحديث مع أيٍ كان.."

لم يعلق تيمار وهو يرى تولاد يتجه بصمت إلى جناح ريم حيث استلقت على السرير الواسع فيه.. فبدت صغيرة ضئيلة ووجهها الشاحب يبدو متعباً أكثر من العادة.. جلس تولاد قرب السرير وهو يتلمس وجه ريم وشعرها.. ثم خفض رأسه وهو يقبض على يد ريم الصغيرة بين يديه الضخمتين مقارنة بها، وظل صامتاً بعبوس ظاهر.. مما دفع تيمار ليقول بهدوء خشية أن يثير صوته إزعاجاً في الجناح الصامت "لا تقلق يا سيدي.. لن تطول بها الغيبوبة كثيراً.. وستعود بأفضل مما كانت عليه.."

فقال تولاد بشيء من الجفاء "اتركني وحدي معها يا تيمار.."

ظل تيمار واقفاً ينظر له بحيرة وضيق لوقت قصير، قبل أن يستجيب لطلبه ويستدير مغادراً.. وقبل أن يغلق الباب خلفه، سمع همس تولاد بوضوح وهو يقول بصوت متألم "لماذا ترحلين أنت أيضاً يا سانا؟.. لقد انتظرتك سبع سنوات، فكم سنة أخرى تطلبين مني قضاءها في الانتظار من جديد؟.. أرجوك يا سانا.. عودي إليّ.."

عبس تيمار شيئاً ما محاولاً تمالك انفعاله لرؤية الانكسار في انحناءة ظهر أبيه، ولصوته الذي يفيض حزناً.. ثم أدار وجهه بعيداً وغادر مغلقاً الباب خلفه دون أن يلتفت خلفه من جديد..

****

في تلك الليلة، وقف سليم عند أطراف المخيّم المؤقت الذي أقامته القرية في الجانب البعيد من الغابة المضيئة بانتظار إكمال مسيرها في صباح اليوم التالي.. تلفت حوله في النور الهادئ الذي تلقيه أشجار الغابة المضيئة من حول المخيّم والذي أغناهم عن إشعال النيران إلا لطهو الطعام أو الحصول على بعض الدفء.. لكن حتى هذا لم يكونوا بحاجة له، فالسهول والغابة المضيئة دافئين عادة لا يقاسيان برودة شديدة في مثل هذا الوقت من السنة.. ورغم أن هذه لم تكن المرة الأولى

التي يرى فيها سليم الغابة المضيئة وأشجارها الملتهبة عن قرب، إلا أنها أثارت تعجبه وهو يتلمس بعض تلك الأوراق محاولاً معرفة سبب إنارتها ليلاً..

لكن رغم جمال المنظر حوله، إلا أنه سرعان ما تناسى كل هذا وهو يتلفت حوله.. كان القلق لا يزال ينهشه خوفاً من لحاق جنود تولاد به وما قد تتعرض له القرية تبعاً لذلك.. يكفي اضطرار القرية للرحيل من موقعها والتخلي عن مساكنها التي عمّروها منذ وقت قريب هرباً من غضبة تولاد وبسببه هو..

تنهد وهو يتأمل أهل القرية، ولا يزيد تعدادهم عن مائتي شخصٍ وهم يقضون ليلتهم في خيام مرتجلة بعد أن أنهكم السير طوال ذلك اليوم دون راحة.. ثم جلس على صخرة قريبة وهو يراقب ما ظهر من السماء من بين الأشجار غارقاً في أفكاره دون أن يَعِي ما يراه حقاً.. حتى انتبه لجلوس شخص قربه بصمت، فالتفت ليرى سهم يجلس قربه مطرقاً دون أن يتحدث.. ابتسم سليم وهو يربت على كتفه قائلاً "ما بالك مكتئبٌ هكذا يا فتى؟.."

ازداد إطراق سهم وهو يعبث بأصابع يده، قبل أن يقول بخفوت "أشعر أنني خذلتها.."

رفع سليم حاجبيه بتساؤل، فقال سهم "لقد وعدتها أن أحميها.. أخبرتها أنها ستكون بخير في القرية، وأنني سأكون معها دائماً.. لكنني لم أفِ بوعدي لأكثر من يوم واحد.."

غمغم سليم وهو يعود ببصره للسماء "ومن يمكنه لومك يا فتى؟.. لا أظنها أخذت وعدك بجديّة.."

قطب سهم وهو يقول بحزم "لقد وعدتها وعد رجل.."

ابتسم سليم وهو يتأمل ملامح سهم الجادة، ثم ربت على كتفه بقوة قائلاً "لا أشك بذلك بتاتاً.. لكن في الوقت الحالي علينا الانتظار.. سيأتي يوم تفي بوعدك فيه ولاشك.."

نهض سهم ووقف في مواجهة سليم قائلاً بعزيمة واضحة "سأذهب إليها.."

قال سليم مقطباً "ماذا تعني؟.. كيف ستفعل ذلك؟ وحتى لو وصلت إليها، ما الذي ستفعله عندها؟"

أجاب سهم "لا أدري.. عليك أن تفكر بذلك أنت.. لكنني سأذهب إليها ولن أعود إلا معها.."

قلب سليم كفيه معلقاً "إنها في غيبوبة يا فتى.. ألا تدرك معنى ذلك؟"

قال سهم بحزم "لكنها ستستيقظ.. أليس كذلك؟"

صمت سليم وسهم يضيف "أريد أن أكون هناك عندما تفعل ذلك.. حتى أستطيع أن أعيدها دون إبطاء.."

تنهد سليم وهو يراقب العزيمة البادية في عيني سهم الملتمعتين، ثم غمغم "لا تجعل الأمور أكثر صعوبة مما هي عليه الآن.. أنت لازلت صغيراً.."

قطب سهم مزمجراً "لكني رجل.. وأستطيع تدبّر أموري أفضل مما تفعل أنت.."

ثم وضع يده على كتف سليم وهو يقول بحزم "كما أخبرتك، عليك أنت أن تفكر بالطريقة التي أستطيع بها أن أكون

قريباً من ريم.. وإن لم تفعل، فلن أسامحك بعدها بتاتاً.."

عاد سليم ينظر للسماء مفكراً بعمق، فأضاف سهم "أنت من بدأ هذا، وأنت من عليه أن ينهيه.. فلا تتقاعس الآن.."

غمغم سليم "تباً لك ولإلحاحك يا فتى.."

لكن سهم لم يملك إلا أن يبتسم بنصر، وقد أدرك أنه سيحصل على ما يريد بكل تأكيد.. مهما طال به الوقت لتحقيق ذلك..

****

الفصل الثامن « من يعيد لي زمني الضائع؟.. »

في جانب من جوانب قصر تولاد، ظل ذلك الجناح الواسع صامتاً ساكناً كعادته منذ وقت طويل.. ببرودة خفيفة في الجو، ورائحة عطرية جميلة، كان الجناح مرتباً بشكل تام بحيث بدا كأنه يخلو من أي ساكن.. لكن في جانب منه، وعلى السرير الواسع ذو البطائن الحريرية المطرزة، غرقت ريم في غيبوبتها دون أن يوقظها أي صوت أو حركة في المكان..

وعندما فتحت ريم عينيها، كان أول ما شعرت به هو عسر في تنفسها بشكل بسيط وخمول شديد في جسدها.. ظلت في موقعها تحدق بصمت في السقف المزخرف الذي تراه بالكاد وزغللة شديدة في عينيها تجعل الرؤية عسيرة عليها.. شعرت بشيء من الحكة عند فتحتي أنفها، فمدت يدها ببطء وهي تتعجب من التعب الشديد الذي أصابها بحيث كانت أي حركة بسيطة عسيرة عليها بشكل واضح.. ولما لمست أنفها، أدركت وجود أنبوب معلق عند فتحتي أنفها وعبره يخرج هواء بارد تستنشقه ريم ملاحظة رائحة طفيفة فيه تشي بنوع من الدواء يتسلل لأنفها وبالتالي جسدها..

بيد واحدة، انتزعت ريم ذلك الأنبوب وهي تدير بصرها فيما حولها ملاحظة أن معالم المكان من حولها هي ذاتها التي رأتها عند استيقاظها في أنكاريا.. وهذا معناه أنها لا تزال في هذه المدينة.. لماذا بدر لذهنها أن كل ما رأته هو كابوس مزعج؟..

حاولت ريم الجلوس في سريرها، لكن رجفة في ذراعيها أبقتها في موقعها دون حراك وهي ترفع يديها أمام وجهها تتأمل أصابعها المرتجفة.. لماذا تبدو يداها بهذا الحجم الغريب؟.. انتبهت لوجود أنبوب آخر يمتد من باطن ذراعها حتى جهاز غريب وضع قرب سريرها.. وعندما حركت ذراعها شعرت بوخزة ألم في موضع ذلك الأنبوب.. لكن قبل أن تسحبه هو بدوره سمعت باب الغرفة يُفتح بهدوء، ثم تعالت خطوات خافتة تتسلل في الغرفة قبل أن يظهر وجه إحدى الخادمات التي رأتها ريم سابقاً وهي تضع شيئاً على كرسي قريب مدمدمة "ما هذا الحظ الأسود؟.. كلما قررت أنني سأغادر، أجد أنني مجبرة على البقاء لزمن غير معلوم.. سيشيب شعري وأنا أعمل في هذا القصر دون أمل في عالم أفضل.."

لم تعلق ريم وهي تستمع لها ملاحظة أن المرأة لم تنظر نحوها للحظة.. ثم وجدتها تقترب من السرير فتمد يدها تعبث بذلك الجهاز القريب الذي يصدر صوتاً متقطعاً بلا توقف.. وبعد أن أنهت عملها التفتت إلى السرير وهي تقوم بترتيبه وتغطية ما ظهر من ذراعي ريم قبل أن تلتفت لوجهها بنظرة سريعة.. لكن سرعان ما شهقت وهي تعود ببصرها نحو ريم لترى عينيها ترمقانها بصمت.. تراجعت المرأة حتى كادت تنقلب على ظهرها بعد أن ارتطمت بطاولة صغيرة.. ولما تمالكت نفسها عادت للسرير بقفزة واحدة وهي تهتف "هل استيقظت يا آنستي الصغيرة؟.."

حاولت ريم الحديث لتجد أن صوتها قد بحّ فلم يصدر منها أي حرف مسموع.. لكن المرأة لم تنتظرها وهي تركض مغادرة

صائحة "سيدي.. سيدي.. لقد استيقظت.. استيقظت الآنسة الصغيرة.."

لم تجد ريم في نفسها القدرة على الحركة وهي تشعر بوعيها يتهاوى من جديد والنعاس الشديد يسيطر عليها فتغرق في النوم بصمت.. لكن نومها لم يَطُل هذه المرة وهي تشعر بمن يهزها بشيء من العنف.. ففتحت عينيها بضيق لترى الخادمة تنظر لها بلهفة قبل أن تلتفت خلفها قائلة "أرأيت؟.. لقد استيقظت بالفعل.. أنا لا أكذب.."

نظرت ريم خلفها لتجد تولاد يقف مبهوتاً وهو ينظر إليها، ثم بخطوة أزاح الخادمة وتهاوى قرب السرير ممسكاً بيد ريم وهو يهمس بارتجافة "سانا.. عزيزتي....."

رغماً عنها، وبشيء من الضعف، سحبت ريم يدها من يده.. كانت لاتزال تتوجس منه ومن تصرفاته معها.. ورغم كل ادعاءاته، إلا أنه أخضعها لعدد من التجارب وحقنها بمادة غريبة تسببت في فقدان وعيها.. والآن، مع استيقاظها تشعر بوهن غريب وتعب شديد وكأنها لم تنم قط..

سمعت تولاد يهتف للخادمة "استدعي الطبيب.. أريد الاطمئنان على صحة سانا.."

هرعت الخادمة لتنفيذ أمره، بينما عاد تولاد لريم الصامتة، ووجدته ينحني عليها فيحتضنها بقوة وهو يهمس "حمداً لله على سلامتك يا صغيرتي.."

لم تجد ريم في نفسها القوة لدفعه، فقالت بضيق وبصوت مبحوح "ابتعد عني.."

نظر تولاد لوجهها ملاحظاً ملامحها الغاضبة، فقال بقلق "ما الأمر يا سانا؟.. أأنت متعبة؟"

وجدتها ريم فرصة للتخلص منه، فأشاحت بوجهها وهي تغمغم "أجل.. اتركني لأرتاح.. أريد أن أنام.."

فقال تولاد بلهفة "لا بأس يا صغيرتي.. خذي ما تستحقينه من الراحة.. سيأتي الطبيب في وقت لاحق للاطمئنان عليك.. أما الآن....."

تجاهلته ريم وهي تغمض عينيها محاولة إجباره على الرحيل، ولكنها غرقت في النوم بالفعل خلال فترة وجيزة.. نوم عميق ثقيل بلا أحلام..

****

لا تعلم كم طال بها النوم، لكن ريم انتبهت من نومها فجأة على صوت الباب يفتح من جديد، فالتفتت مقطبة متوقعة رؤية وجه تولاد.. لكن عوضاً عن ذلك رأت وجه تيمار الهادئ وهو يقترب منها بصمت.. ظلت ريم تنظر له متوترة وهي تشعر بالدهشة لكونها تخشى وجوده أكثر من تولاد.. ألأنها لاحظت بغضه لها منذ البدء؟.. وبالفعل، كان ينظر لها ببرود شديد مما دفعها لتغمغم بصوت مبحوح "ما الذي تريده؟.."

قال تيمار بهدوء "بناءً على طلب أبي، جئت للاطمئنان عليك.."

قالت بضيق "مادمت تكره ذلك فلماذا تفعله؟"

بدا الامتعاض واضحاً على وجه تيمار وهو يجيب "لأنني مجبر على ذلك.. ألم يدر ذلك بخلدك قط؟"

ثم جلس جانباً وهو يقول "إذن.. ما هو شعورك بعد أن قضيتِ كل تلك المدة في غيبوبة؟.. لابد أنك مصدومة.."

تساءلت ريم بحيرة "لا أعلم.. كم بقيت فاقدة للوعي؟"

نظر لها تيمار وهي تغمغم مضيفة "لم أنتبه للوقت حقيقة.. يوم؟.. أم يومان؟"

بانت ابتسامة جانبية على شفتي تيمار وهو يقول "حقاً؟.. ألم تلاحظي أنك لم تعودي تلك الطفلة التي كُنْتِها؟"

نظرت له بدهشة، فمال تيمار نحوها مضيفاً "لقد أمضيتِ تسع سنوات في غيبوبة تامة كأي أميرة نائمة.. ألم تدركي ذلك بعد؟"

ظلت ريم تنظر له بعينين متسعتين، محاولة تبيّن جديته من هزله.. رغم أن وجهه لا يوحي بهزل بتاتاً، إلا أنها شعرت أنه نوعاً ما يحاول إغاظتها.. لابد أن يكون كذلك.. وإلا كيف لشخص أن ينام تسع سنوات كاملة؟..

وإزاء صمتها التام قال تيمار بابتسامة جانبية "تسع سنوات ضاعت من عمرك سدىً.. لا ألومك على هذا الذهول المتبدّي في ملامحك.."

انتبهت ريم في تلك اللحظة أن ملامح تيمار قد تغيرت قليلاً عما كانت تذكره.. بدا أنه لم يعد ذلك الشاب في العشرين من عمره.. بدا أكبر وأكثر نضجاً من قبل، لكن ظلت عيناه باردتان كعادته دون أن تكتسب أي لمحة تعاطف نحوها.. لكنها نبذت تلك الفكرة بإصرار وهي تقول بصوت مرتجف "أنت تكذب لتغيظني.."

نهض تيمار وهو يقول "حقاً؟"

واقترب منها فأمسك يدها بقوة ورفعها أمام وجهها قائلاً "أمعِني النظر.. أهذه يد فتاة في التاسعة؟.. ألم تلاحظي أي فرق في جسدك الآن عما كان عليه قبل تسع سنين؟.. ما الذي سأستفيده حقاً من إغاظتك؟.."

ثم ترك يدها واستدار مغادراً وهو يغمغم "يبدو أنك لازلت تحتفظين بعقل طفلة.."

خفضت ريم وجهها وهي تنظر ليديها المرتجفتين.. شعرت بضياع تام.. وكأن شخصاً قد انتزع عشرات الأوراق من رواية تاركاً الفصل الأول والفصل الأخير.. هناك الكثير من الأشياء التي لا تعرفها ولا تعرف سببها.. والأسوأ من كل ذلك أن هذه الأشياء تخص جسدها هي.. استلقت في سريرها وهي تشعر بجسدها يئن بإلحاح، لكنها حاولت تجاهل كل ذلك وهي تغطي عينيها بذراعها وتستغرق في صمت تام طوال الوقت الذي تلى خروج تيمار من الجناح.. كان ذهنها فارغاً تماماً.. يحاول إيجاد نقاط اتصال بين الماضي والحاضر.. يسدّ الفراغات الموجودة.. ويحاول مواكبة الحاضر الذي بدا لها مبهماً غريباً بشدة..

بعد بعض الوقت، وجدت الخادمة تعود إليها من جديد بابتسامة متسعة وهي تقول "هيا يا آنستي.. كفاكِ كسلاً.. سيأتي الطبيب بعد قليل ليفحصك.. أما الآن فيجب أن تستبدلي ملابسك وتستحمي.."

لم تعترض ريم بكلمة وهي تنهض جالسة بعسر شديد، وبمعونة من الخادمة.. أنزلت ريم قدميها عن السرير وهي تشعر بهزال شديد.. وسمعت الخادمة تقول لها "لقد أعددت لك حماماً دافئاً ومزجت فيه عدداً من الزيوت العطرية التي ستعيد لك النشاط والحيوية.."

غمغمت ريم وهي تتأمل ما ظهر من قدميها "أريد أن أرى وجهي.."

قالت الخادمة بحماس "حالاً يا آنستي.. انتظريني قليلاً.."

وهرعت لجانب الجناح لتتناول مرآة متوسطة الحجم، بينما تأملت ريم قدميها اللتين بدتا لها ضخمتين جداً.. وعندما رفعت الخادمة المرآة أمام وجهها، تطلعت ريم لملامح وجهها وجسدها التي بدت لها متضخمة مقارنة بما كانت عليه قبل أن تسقط في تلك الغيبوبة.. بدا وجهها أكبر وفقدت ملامحها طفوليتها السابقة، واستطال شعرها وغدا مبعثراً، وبدت بشرتها أكثر شحوباً وتعباً مع دوائر سوداء تحت العينين.. كتفاها عريضان نوعاً مقارنة بما كانا عليه، وجسدها قد تغيرت تفاصيله واكتسب انحناءات أنثوية مقارنة بجسدها النحيل الطفولي السابق.. رغم أن جسدها الآن نحيف وضئيل بشكل بالغ، إلا أن كل ما رأته شعرت به ضخماً بشكل غريب..

تسع سنوات مرت وهي غائبة عن الوعي.. معنى هذا أنها في السابعة عشر من عمرها..

انسابت دموعها وهي تنظر لوجهها الغريب في المرآة.. لقد غادرت عالمها الآمن وأتت لعالم غريب وعند غرباء يدّعون أنهم عائلتها، والآن تغيرّ جسدها وأصبحت في جسد غريب كذلك؟.. لا تعرف لماذا، لكن ذلك زادها حزناً على كل ما جرى لها، وجعلها تبكي بصوت خافت خافضة وجهها بينما الخادمة تسألها بقلق "ما الأمر يا آنستي.. هل تشعرين بأي ألم؟"

لكن ريم لم تجبها وهي تبكي بحزن.. لقد تغيرّ جسدها ولن يعود كالسابق، فهل هذا يدلّها أن عالمها لن يعود كالسابق بتاتاً؟.. أنها لن تلتقي بوالديها بتاتاً؟.. لماذا تشعر بغصّة في حلقها وكآبة بشعة تستعمر صدرها بهذا الشكل المؤلم؟..

****

عندما تعالى ذلك الاهتزاز الخفيف في ياقة قميص سليم، قطب وهو يمد يده فيلمس تلك القطعة المعدنية الصغيرة مصدر تلك الاهتزازات.. كان سليم منذ أمد طويل قد تخلص من ذلك السوار الذي يدلّ الغرباء، وتولاد بالذات، على موقعه.. لكن لم ينسَ أن يحتفظ بالقطعة التي تمكنه من الاتصال بذلك المصدر الموثوق به في أنكاريا.. ولما اندلعت تلك الاهتزازات بعد انقطاع طويل جداً، انتاب سليم توتر شديد لاحظه بعضٌ ممن كان قريباً منه، مما دفع أحدهم ليتساءل "أأنت

بخير؟"

غمغم سليم "لا تقلق.. كل شيء على ما يرام.."

واندفع مغادراً الموقع الذي هم فيه، حتى وصل لتلك البقعة المنعزلة التي أصبحت منزلاً له طوال السنوات الماضية التي تَلَت هروبهم من الغرباء.. وهناك، ضغط على القطعة المعدنية بعد تردد وهو يقول بصوت مبحوح "ما الأمر؟.. مرت مدة طويلة منذ....."

قاطعه الصوت في الجانب الآخر من الاتصال قائلاً "لقد استيقظتْ...."

بهت سليم وهو يقف مشدوهاً، ثم قال بصوت منفعل "من تعني؟"

قال الصوت الآخر "من تظنني أعني؟.. سانا.. أعني ريم.. لقد استيقظتْ أخيراً.. وهي تبدو بخير.."

ظل سليم صامتاً لفترة طويلة دفعت الصوت ليتساءل "أما زلت هنا؟"

أجابه سليم بصوت مبحوح "أجل.. أنا معك.."

عاد الصوت يقول "الآن سنبدأ من جديد.. لقد مر وقت طويل اضطررنا فيه للصمت، لكن منذ الآن علينا أن نتكاتف من جديد لننهي الأمر لمرة أخيرة.."

قال سليم دون أن يملك ارتجافة صوته "أجل.. سأكون تحت إمرتك متى ما قررت البدء بذلك.."

أنهى الصوت الاتصال دون تأخير، فظل سليم في موقعه واقفاً وهو سارح الفكر للحظات طالت.. ودون أن يشعر، سالت دموعه على خديه لتتخلل لحيته قبل أن ينتحب بصوت خافت وهو عاجز عن السيطرة على نفسه..

لقد استيقظتْ أخيراً..

بعد تلك السنوات الطويلة التي عاشها في ندم شديد وضيق أشد..

هذا يزيح جبلاً من الحجارة الثقيلة التي كانت تجثم على صدره طوال تلك السنين التي مرت دون أن يهنأ بنوم أو راحة..

ودون أن يجد حلاً لتلك الكوابيس التي قضّت مضجعه بشكل شبه يومي..

****

بعد أيام معدودة، تمكنت ريم من الخروج من جناحها، وإن كان هذا باستخدام كرسي متحرك، فطلبت من إحدى الخادمات أن تأخذها للحديقة.. ورغم اعتراض الخادمة على ذلك، بسبب برودة الجو التي ستضرّ جسدها الضعيف، إلا أن ريم أصرّت على ذلك بشدة فلم تجد الخادمة بداً من تنفيذ الأمر.. وبالفعل، فإن ريم قد ارتجفت بقوة فور أن أحست بالهواء البارد خارج القصر، لكنها أبت الاعتراف بذلك وهي تطلب من الخادمة تركها في جانب الحديقة المطلّ على المدينة

الشاسعة من تحتها.. لكن الخادمة لم تغادر قبل أن تحضر لها بطانية غطّت بها ساقيها وهي تقول "سأكون قريبة، فنادِني عندما تكتفين من الجلوس خارجاً.."

وغادرت تاركة ريم وحيدة في ذلك الجزء الخالي من الحديقة.. ظلت ريم جالسة على كرسيها المتحرك تتأمل ما بدا لها من المدينة.. وبعد مدة من الوحدة والصمت التام، زفرت ريم وهي تشعر بما يشبه سحابة من الدخان تصطرع في عقلها.. كانت تذكر كل ما مرّ بها قبل سقوطها في تلك الغيبوبة، لكن في الآن ذاته كان كل شيء مغلفاً بضباب كثيف لا تكاد تزيله محاولاتها.. وكأن كل ما مر بها كان مجرد حلم ما عادت هي متأكدة إن كان واقعاً أم لا..

سمعت حفيف ثوب طويل يقترب منها، لكنها لم تستدر وهي تسمع الصوت المبحوح الذي تبغضه بشدة يقول "أأنت بخير اليوم؟"

لم تجبه وهي لا تجد في نفسها الرغبة حتى بالنظر إليه.. ثم وجدته يقف قريباً منها ويمد يده يمسك إحدى يديها بقوة قبل أن يغمغم "أنت باردة كالثلج.. من الذي أخرجك قبل أن تستعيدي قواك؟"

قطبت ريم شيئاً ما وهي تقول "أنا أصررت على الخروج الآن.. فلا شأن لأي أحد بذلك.."

تنهد تولاد قبل أن يقرّب أحد الكراسي الخشبية ويجلس قريباً منها.. ظل يحدق بها لفترة طالت دون أن تعيره أي اهتمام محاولة التشاغل بالحديقة من حولها.. حتى سمعته يقول "أما زلت غاضبة مني؟"

لم تجبه ريم وهو يضيف "مرت سنوات طويلة منذ ذلك الوقت.. ألن تنسي ما فات أبداً؟"

غمغمت ريم "كان ذلك البارحة بالنسبة لي.."

تنهد تولاد وهو يغمغم "هذا حق.."

ثم أضاف برجاء "لكن ألا يمكن أن تسامحيني وأنتِ تعلمين أنني ما فعلت كل هذا لو لم تكن بي رغبة شديدة بعودتك إليّ؟.."

فقالت ريم بضيق "كيف تدّعي أنني ابنتك وأنا عشت حياتي كلها هناك؟.. ما الذي أدّى بي للذهاب لذلك العالم؟"

أدار تولاد وجهه بعيداً للحظة، ثم قال "تلك حكاية طويلة.. قد أحكيها لك في يوم من الأيام.."

فقالت بإلحاح "بل أريد أن أسمعها الآن.."

ابتسم تولاد وهو ينظر لباطن رسغه حيث رأت ريم قطعة زجاجية شفافة بها بعض الأرقام "لم أدرك أنك لحوحة من قبل.. للأسف لديّ اجتماع طارئ علي حضوره الآن دون تأخير.. لذلك عليك الانتظار لوقت آخر قبل أن أخبرك بكل شيء"

ظلت ريم مقطبة بينما نهض تولاد ومسح على شعرها مضيفاً "انتبهي لنفسك ولا تبقي خارجاً لوقت طويل.. أخشى أن تصابي بنزلة برد بجسدك الهزيل هذا.."

لم تعلق وهي تراه يقف قربها صامتاً للحظات، ثم استدار مبتعداً دون أن يضيف كلمة أخرى.. فيما بقيت ريم تفكر في

القصة التي حدثت قبل ولادتها، أو ربما بعد ولادتها بوقت قصير، والتي استدعت إبعادها عن هذا العالم طوال تلك السنين.. لكن ربما تفادى تولاد الحديث عن هذا الأمر لخلوّه من الصحة.. لابد أن تلك مجرد ادعاءات منه.. لابد أن يكون الأمر كذلك...

بعد أن طال الصمت من حولها، دون أن تغادر موقعها وسط الحديقة، سمعت ريم خطوات أخرى تتقدم منها.. ثم أتاها صوت لم تميزه يقول "كنت أعلم منذ استيقاظي هذا الصباح أن هذا يوم سعد.."

التفتت تنظر خلفها، فرأت ذلك الشاب ذو الجسد الطويل الأسمر بعضلاته الواضحة ووجهه المتناسق وشعره العسلي الذي سرّحه للوراء بإحكام بشكل بدا مشابهاً لما يفعله تولاد.. يرتدي لباس الجنود الأزرق، وابتسامة واسعة تغزو شفتيه لتنعكس على عينيه العسليتين وهو يرمقها بنظرة لم تفهمها.. فقالت بشيء من التوتر "من أنت؟.. ما الذي تريده مني؟"

اتسعت ابتسامة الجندي أكثر وهو يقول "ألم تعرفيني حقاً يا ريم؟"

دهشت ريم لمناداته إياها بذلك الاسم الذي يرفض الجميع في أنكاريا استخدامه، ثم قطبت وهي تتأمله محاولة تذكر هويته.. ولما طال صمتها رأته يتقدم منها وهو يغمغم "هذا يجرح مشاعري كثيراً يا فتاة.. ظننتك ستتعرّفين عليّ منذ اللمحة الأولى.."

فوجئت به يقترب منها فيمد ذراعيه ويضمّ رأسها إليه برفق هامساً "لقد انتظرتك طويلاً يا فتاتي.."

احتقن وجه ريم لما فعله فسارعت لدفعه بقوة رغم هزالها وصاحت بغضب "أأنت مجنون؟ ما الذي تظن نفسك فاعله؟!"

لم يقاومها وهي تدفعه ليسقط أرضاً بعيداً عنها.. فظل جالساً ينظر لها وابتسامة متسعة ترتسم على شفتيه، قبل أن تنقلب لضحكة عالية لمرأى ملامحها الغاضبة والتي اكتست بحمرة شديدة.. ثم قال لها "هل فقدت ذاكرتك أيضاً؟.. لا يمكن ألا تتذكري ملامح وسيمة كملامحي.."

فقالت بغضب "كف عن المزاح وغادر.. لست أعرفك ولن أتعب نفسي بالحديث معك.."

لكنه قال دون أن تزول ابتسامته "حقاً؟.. على الأقل ظننتك لن تتنكري لما جرى بيننا.. لازلت أذكر ركلتك التي أصابت ساقي في لقائنا الأول كأنها حدثت البارحة.."

قطبت ريم شيئاً ما وهي تحاول التذكر.. هل التقت به عند قدومها لأنكاريا؟.. لا.. ربما قبل ذلك.. قبل ذلك بكثير.. منذ بدأ كل شيء.. وبالنظر للسنوات التي مضت، لابد أن من عرفتهم قد كبروا وتغيرت أشكالهم كما حدث لها هي.. فرفعت ريم حاجبيها وهي تتأمل ملامحه قبل أن تهمس "هذا مستحيل!.. سهم؟"

ضحك بصوت عالٍ وقال "إذن مازلت تحتفظين بذاكرتك يا ريم.. هذا رائع.."

ونهض نافضاً ملابسه بينما عضّت ريم على شفتها السفلى لتمنع ارتجافة واضحة فيها وهي تتأمله.. لم تتوقع أن ترى أحداً

من أهل القرية هنا.. وسهم بالذات؟.. فاضت مشاعرها للقائه فخفضت وجهها ودمعتان تسيلان رغماً عنها على خديها.. منذ استيقاظها وهي تشعر بضياع تام، وبأنها خسرت سنوات عمرها بالإضافة لخسرانها أبويها اللذان فقدت الأمل في رؤيتهما مجدداً.. ولم تجعلها رؤية تولاد أو تيمار أكثر راحة واطمئناناً.. لكن شيئاً ما كان يمنعها من أن تذرف الدموع أمام أيهما.. أما الآن، فسهم شأن آخر تماماً..

اقترب منها سهم وركع قرب الكرسي الذي تجلس عليه قائلاً بقلق "ما الأمر؟ أأنت بخير؟"

مسحت ريم دموعها وهي تهمس "كيف أتيت إلى هنا؟"

قال سهم وهو ينظر حوله ليتأكد من عدم وجود متلصص على حديثهما "تلك حكاية طويلة، لكن المهم أنني الآن أعمل في أنكاريا.. لقد انضممت لجنودها، وتمكنت بعد جهد من الانضمام لجنود رئيس مجلس الحكماء، والذي يهوى الادعاء بأنه أبٌ لك في كل لحظة وثانية.."

نظرت له ريم بدهشة وعلقت "كيف سمحوا لك بذلك؟"

ابتسم سهم مجيباً "إنهم يعرفون أنني من البدائيين، كما يطلقون على سكان القرى.. وهم لا يمانعون من عملي معهم فهناك غيري كثير، كل ما علينا فعله هو أداء قسم الولاء لأنكاريا والطاعة لمجلس الحكماء.. لكنهم لا يعلمون أنني من تلك القرية بالذات.."

تساءلت ريم "لكن لماذا؟"

نظر لها سهم قبل أن تنعكس ابتسامته على عينيه وهو يقول "لأكون قريباً منك بانتظار لحظة استيقاظك.. الحمدلله أنك قررت الاستيقاظ أخيراً فقد أصابني الملل لطول الانتظار.."

عادت تقول بشيء من الإلحاح "لماذا؟.. ألا يشكل عليك هذا أي خطر؟"

أجاب سهم "بلى.. لكن لم يكن ذلك يهمني.. كما أن سليم ينتظرك.."

نظرت له ريم بدهشة، ثم قالت "ألم يكن سليم هو من سلمني للغرباء؟.. لقد أخبرني ذلك الرجل بهذا.. أخبرني أن سليم كان متعاوناً معهم منذ البداية.."

فقال سهم "لكنه كان مجبراً على ذلك.. والآن ندم شديد يغزوه لأنه فرط فيك.. لقد سعى بإصرار لإعادتك لعالمك عندما سقطتِ في الغيبوبة، لكنه فشل فشلاً ذريعاً ولم يجد بداً من الرحيل مع أهل القرية والاختباء في موضع بعيد بانتظار استيقاظك.."

ثم ابتسم مضيفاً "لكنني لم أستطع الانتظار.. سعيت للقدوم لأنكاريا والانضمام لجنودها بعد سنة من سقوطك في الغيبوبة.."

تساءلت ريم بدهشة "وكيف قبلوا بذلك؟"

شرح سهم الأمر قائلاً "بسبب وجود نقص من سكان أنكاريا نفسهم، فإنهم يقبلون بتوظيف بعض البدائيين في وظائف مهينة وغير مهمة.. والعمل كجندي موكّل بحراسة قصر هي من المهام غير المهمة في نظرهم، لذلك لم أجد صعوبة في ذلك.."

غمغمت ريم "ولماذا فعلت ذلك؟"

أجاب سهم "أخبرتك.. لأكون قريباً منك.."

عادت تسأله "لماذا؟"

فقال بتصميم "لأخرجك من هذا المكان.. أليس هذا ما ترغبين به؟"

نظرت له ريم بدهشة وهو يمسك يدها ويقول "ألا تريدين العودة للقرية؟.. سنذهب معاً، ولن أسمح لذلك المدعو تولاد أن يسجنك في هذا القصر رغماً عن إرادتك.."

صمتت ريم وهي تنظر إليه.. أهذا ما تريده حقاً؟.. ما زالت مبلبلة الفكر، ولا تعلم ما ستفعله في الأيام القادمة.. لكن من المؤكد أنها لا تريد البقاء في أنكاريا..

بعد برهة صمت قالت بخفوت "أجل.. أريد الرحيل.."

فابتسم سهم معلقاً "هذا طبيعي.."

ثم نهض واقفاً وأضاف وهو يتلفت حوله "عليّ الرحيل.. لو رآني تيمار قريباً منك لمزقني على الفور.."

سألته ريم بلهفة "متى ستعود؟"

أجاب سهم "قريباً يا فتاتي.. لا تقلقي.."

ونظر لها بصمت للحظة، قبل أن يغمغم "ألن تبتسمي قليلاً؟"

نظرت له بشيء من الدهشة، فلمس خدها بإصبعه بخفة وهو يهمس "اشتقت لغمازتيك.."

غزا الوهج خدا ريم لكنها سارعت لتقول مقطبة "ربما يحسن بك حقاً الرحيل.."

غمغم سهم وهو يتراجع "يبدو أنك لا تختلفين كثيراً عن أخيك تيمار.."

ثم أضاف قبل أن يبتعد "انتظريني.. فلن أغيب عنك طويلاً.."

وغادر وهي تنظر لظهره بصمت.. ثم تنهدت وهي تشعر أن شيئاً من الكآبة والضيق التي سيطرت عليها قد زالت ولو قليلاً.. شعرت أن معنوياتها أفضل مما سبق، وأنها تملك ما تتطلع إليه في أيامها القادمة في هذا القصر..

****

طال بقاء ريم في القصر ما يقارب الشهر، خضعت فيها لفحوصات كثيرة، وجلسات علاج طبيعي لاستعادة مرونة أعضائها وحيويتها بعد الخمول الطويل.. وقد ظل تولاد يتزلف إليها بكل طريقة ممكنة طوال تلك الأيام، مما أشعرها في بعض الأحيان بالسوء لأنها تعامله ببرود.. لكن عندما تغفو كل ليلة، وترى في أحلامها منظر أمها وأبيها الباكيين، فإن كل تعاطف نحوه يتبخر بشكل كامل في النهار التالي..

وقد داوم تيمار على زيارتها بشكل دوري، بناءً على طلب أبيه، وإن ظل يعاملها ببرود كعادته.. مما جعل ريم تتمنى في كل مرة لو يكفّ عن زيارتها تماماً.. لكنها تخشى أن تنطق تلك الكلمات فتستحق بغضه أكثر من السابق..

وكعادته، ظل سهم يزورها بشكل دائم وإن حرص على لقائها بسريّة في كل مرة.. كان يخشى أن يدرك شخص ما صلته بها وبالقرية، وبسليم بالتالي.. لذلك كان يتحينّ الفرص التي يخلو فيها القصر من تولاد وتيمار، وعندها يبدأ الجنود بالتساهل في عملهم بشكل آلي.. عندها كان سهم يحاول لقاءها ولو لدقائق معدودة يطمئن فيها على حالها، ويتبادل معها الحديث عن القرية وعن أحوال من فيها.. وبالذات عن سليم وكل ما فعله منذ تلك الليلة التي سلمّها فيها للغرباء بنفسه..

وفي ذلك اليوم، كانت ريم تأخذ قسطاً من الراحة في جناحها وهي جالسة في سريرها تستمتع ببعض النسمات الهادئة التي تتسلل عبر النافذة المفتوحة.. عندما سمعت صوت سهم يقول "مرحباً.. أتنامين جالسة عادة؟"

فتحت عينيها لتجده مستنداً على النافذة المفتوحة وهو يتأملها بابتسامة، فغمغمت بحرج "لا.. كنت أشعر ببعض التعب، لكني مللت من النوم.. لقد نمت تسع سنوات لو أنك نسيت هذا.."

فضحك سهم معلقاً "مادمتِ تطلقين النكات على ما جرى لكِ، هذا يعني أنك قد تجاوزتِ صدمتك وبدأت تتقبلين الأمر.."

قالت ريم "وهل أملك حلاً آخر؟"

لم يعلق سهم وهو يشير لما وضع على طاولة جانبية قرب سريرها "ما كل هذا؟"

نظرت ريم للطاولة التي حوت عدة علب مخملية بها بعض الهدايا من أبيها المزعوم.. بعض القلائد الذهبية والأساور ذات الأحجار الكريمة والخواتم الفضية والذهبية.. كان ما تراه أمامها يشكل ثروة، لكن نفسها عافت كل ذلك وهي تغمغم "كالعادة.. محاولة من ذلك الرجل لإثارة إعجابي واستبقائي في هذا القصر.."

قال سهم مشيراً لها "ويبدو أنه قد نجح في ذلك..!"

مدت ريم يدها تلمس حليتين صغيرتين معلقتين في أذنيها على شكل زهرة ملونة، ثم قالت بشيء من الضيق "لقد ألحّ علي لارتدائها، ولم أملك رفضه خشية إغضابه.. لكني لا أريد كل هذا.."

وهمّت بانتزاعها، لكن سهم سارع ليقول "لا داعي لذلك.. إنها تزيدك جمالاً.."

خفضت ريم يدها بصمت وقد اكتست ملامحها بحمرة خفيفة، ثم قالت مغيرة الموضوع "حتى متى سأبقى هنا؟.. ألم يئن الوقت لأغادر هذا المكان؟"

قال سهم بابتسامة "قريباً يا فتاتي.. قريباً بإذن الله تعالى.. ننتظر فقط أن تستعيدي قواك ويصبح جسدك قادراً على تحمّل هروبنا هذا.."

ثم نظر خلفه بحثاً عمن قد يراه ويبلغ رئيس الجنود بما فعله، فانتبهت ريم في تلك اللحظة لعلامة غريبة في عنق سهم لا تذكر أنها رأتها من قبل.. كانت العلامة عبارة عن وشم أحمر بشكل خط طويل لا يزيد سمكه عن نصف سنتيمتر يغطي نصف عنقه من الأمام حتى الخلف.. فقالت ريم بدهشة "ما هذا؟"

انتبه لها سهم ورآها تشير لعنقه، فابتسم كعادته وهو يلمس الوشم بيده متسائلاً "ألا تعرفين ما هوية هذا الوشم حقاً؟.. يبدو أنك لم تحصلي على وقت كافٍ لمعرفة تقاليد أنكاريا الصارمة.."

رفعت ريم حاجبيها بدهشة وتساؤل، فأكمل سهم "هذا يا فتاتي هو وشمٌ يضعه المسؤولون عن المدينة لكل من يحاول الانضمام لأنكاريا وليس من سكانها الأصليين.. إنه علامة على كونه مواطناً من الدرجة الثانية، له حقوق وامتيازات تقلّ كثيراً عن مواطني الدرجة الأولى.. وقد وضعوا لي هذا الوشم عندما أبديت رغبتي بالانضمام لجيش أنكاريا.."

عبست ريم وهو تغمغم "كيف رضيت بذلك؟.."

هز سهم كتفيه معلقاً "لم يكن باليد حيلة.. كان هذا هو السبيل الوحيد للوصول إليك.."

ومال نحوها مضيفاً بابتسامة "وقد كنت مستعداً لفعل أي شيء للوصول إليك يا فتاتي.."

خفضت ريم بصرها لئلا تواجه عينيه وهي تلتزم الصمت، ولما طال صمتها اعتدل سهم معلقاً "لا عليك من هذا.. سأزيل عني هذا الوشم بعد أن نعود للقرية.."

رفعت ريم بصرها نحو سهم متسائلة "هل علم سليم بأمر استيقاظي حقاً؟ لماذا لا يحاول الوصول إليّ؟.."

ابتسم سهم مجيباً "بالتأكيد علم باستيقاظك.. ولو أن هذا لم يكن عن طريقي أنا.. هناك مصدر موثوق يزوّده بكل المعلومات المهمة عن أنكاريا وعنك.. لكن قدومه الآن مستحيل تماماً.."

رفعت ريم حاجبيها متسائلة "مصدر موثوق؟.. ومن يكون هذا؟"

رفع سهم يديه وهو يقول "ليس مصرّحاً لي ذكر أي شيء عن هذا الموضوع.. حياة الكثيرين على المحكّ هنا، وسلامتك هي أولهم.."

ظلت ريم تنظر له بحيرة، لكنه قال بجدية "سأرحل هذه الليلة.."

نظرت له ريم بدهشة قبل أن تقول "إلى أين؟"

أجاب سهم "سأعود للقرية.. لا يمكنني أن أخرجك من هذا المكان وحيداً.. لذلك سأعود مع من يمكنه مساعدتي من الرجال.. وبعدها، سنخرجك من هذا المكان وللأبد.."

همست ريم "أرجو ذلك.."

ثم نظرت له متسائلة بقلق "هل سيطول غيابك؟"

تساءل سهم متفحصاً ملامحها "لماذا؟"

قالت "وجودك يسلّيني على الأقل.. أكره هذا القصر، وأكره أكثر من ذلك رؤية تولاد المتزلف وتيمار المتجهم دائماً.."

مطّ سهم شفتيه وهو يغمغم "كنت أظنك ستشتاقين إليّ في غيابي.."

احمرّ وجه ريم وهي تقول بشيء من الحنق "من قال ذلك؟.. أنا أتعجل الهرب ليس إلا.."

فابتسم سهم وهو يقول "لا تقلقي.. لن أتأخر كثيراً، بضع أيام لا أكثر.. لكن لو اشتدّ بك الشوق إليّ فلا تلوميني عندها.."

ولوّح لها بيده وهو يبتعد بينما ريم تدمدم بغيظ "من قال إن شيئاً من هذا قد يحدث؟.. يا للغرور.."

أتاها صوت من خلفها يقول "من هو المغرور؟!.."

ارتجف قلب ريم في ضلوعها وهي تلتفت بسرعة لتواجه عيني تيمار الباردتين وهو يدخل جناحها بصمت.. تمالكت ريم نفسها بالكاد وقالت بارتباك واضح "لست أعني أحداً.. أنا....."

لم تعرف ريم بمَ تجيبه والعرق يحتشد على جبينها وهي تلقي بنظرة من النافذة لتطمئن على رحيل سهم.. فوجدت تيمار يقترب من النافذة متطلعاً عبرها وهو يغمغم "أتمنى ألا أكون أنا ذلك المغرور.."

سارعت ريم لتهتف قائلة "لم أكن أعنيك بذلك بتاتاً.. صدقني.."

ابتسم تيمار ابتسامة باهتة وهو يغلق النافذة معلقاً "لا بأس.. يحسن بك أن تبقي تلك النافذة مغلقة في مثل هذا الوقت.. الجو بارد في أنكاريا.."

هزت ريم رأسها موافقة وهي تحاول تمالك ارتباكها ويدها المرتجفة لئلا تفضح نفسها أمامه أو تثير شكوكه.. لكن تيمار أمعن النظر إليها وقال "تبدين بأسوأ حال.. أأنت محمومة؟ لهذا السبب ما كان عليك ترك النافذة مفتوحة.."

مسحت ريم جبهتها وهي تغمغم "ربما كنت كذلك.."

اقترب منها تيمار بهدوء وهو يقول "يا عزيزتي.. أنت ترتجفين.."

وأمسك يدها التي كانت ترتجف بشكل ظاهر وهو يغمغم " من الغريب أن تصابي بحمى خلا ل ساعات معدودة.."

ثم نظر لها بنظرة حادة وهو يقول "أم أنك خائفة؟"

ظلت ريم تنظر له بعينين متسعتين بشكل بدا موافقة صريحة لما يقوله، عندها ابتسم تيمار ابتسامة مريبة جعلت قلب ريم يهوي عند قدميها وهو يقول "ما الذي تخفينه يا عزيزتي سانا؟.."

****

نظر سليم بدهشة عميقة لسهم الذي وقف أمامه بابتسامة مرحة، ثم تساءل " ما الذي جاء بك في هذه الأوقات بالذات؟"

أجاب سهم وهو يفتح ذراعيه "أما من وسيلة للترحيب بي إلا بهذه الطريقة؟ ظننتكم ستكونون بشوق لرؤية وجهي الوسيم"

علق سليم بهدوء "ربما.. لكن ليس هذا هو الأهم الآن.. كيف تغادر المدينة في هذا الوقت؟ أأنت واثق أنهم لا يعلمون أنك تنتمي لهذه القرية بالذات؟"

هز سهم كتفيه وهو يجلس جانباً وقال "قطعاً هم لا يدركون ذلك.. أظننتني بهذا الغباء؟.."

قال يعقوب الجالس قريباً "لقد استطال لسانك يا فتى!.."

قال سهم بابتسامة جانبية "فتى؟.. ألم أصبح كبيراً على هذه الكلمة؟"

فعلق يعقوب بهزء "أظننت أنني سأداهنك بإطلاق لقب رجل عليك كما في السابق؟.. فات الأوان على هذا.."

قال سهم باستنكار "أكان ذلك كذباً؟.. يا لك من....."

وإزاء نظرات يعقوب الحادة، حك سهم رأسه وهو يغمغم "سأصمت احتراماً لمكانتك.."

ثم التفت لسليم قائلاً باهتمام "إذن.. وصلتك الأخبار، أليس كذلك؟.."

هز سليم رأسه إيجاباً، فأضاف سهم "إذن ما الخطة؟.. علينا التصرف بسرعة قبل أن يسوء وضعها هناك أكثر مما هو عليه الآن؟"

التفت يعقوب بدوره متسائلاً "ما الذي يمكنكما فعله حقاً؟.. أنتما تواجهان مدينة كاملة، وجزء من جنودها كفيل بالقضاء على القرية كاملة"

قال سهم بكبرياء "لا تستهِن بنا يا يعقوب.."

لم يعلق يعقوب بينما قال سليم "هذا شيء مسلّم به طبعاً.. لكن، من قال إننا سنواجه الجنود مباشرة؟"

فقال يعقوب "أرجو ألا تسبب للقرية كوارث أخرى.. لا نريد أن نفقد الاستقرار الجزئي الذي حظينا به في السنوات الأخيرة.."

لم يعترض سليم وهو يرى يعقوب يغادر، بينما غمغم سهم "أيسمي هذا استقراراً؟.. إنه لم يرَ من أمور الدنيا شيئاً بعد.."

قال سليم بهدوء "لا تجعل عيشك في أنكاريا يؤدي بك لاستحقار قريتك وموطنك.."

قال سهم باستنكار "لماذا؟.. أظننت أنني لا أتمنى لأهل قريتي عيشة رغدة كما يعيش الغرباء؟.. ما الذي يجبرنا على تحمّل هذه الحياة القاسية بينما يمكننا الحصول على بعض الامتيازات التي ستجعلنا أكثر سعادة؟.."

فقال سليم "لكن من تكون أنت لتفرض على أهل قريتك تغيير نمط حياتهم؟"

دمدم سهم "هذا حق.. ولكن....."

لم يعلق سليم وهو سارح بفكره ونظراته للحظات طالت.. ثم تساءل بخفوت "كيف حالها الآن؟"

ابتسم سهم بجانب فمه مجيباً "مصدومة.. تسع سنوات ليست بالشيء الهينّ.. لكنها لا تزال ريم التي نعرفها.. وهي تسألني باستمرار متى ستتمكن من العودة للقرية.. يبدو أن ذلك المدعو تولاد لا يريحها البتة.."

فغمغم سليم "ألم تعلق على ما جرى قبل سنوات؟"

ابتسم سهم معلقاً "أتعني اكتشافها تعاونك مع تولاد في السابق؟"

بدا سليم منفعلاً وإن حاول الاحتفاظ بهدوئه الظاهري، فربت سهم على كتفه مجيباً "أأنت خائف أن تكون غاضبة منك؟.. لا تخشَ شيئاً.. لقد سامحتكَ بالفعل.."

نظر له سليم بصمت للحظات، ثم غمغم قبل أن يغادر "لقد كبرتَ كثيراً وأصبحت رجلاً.. هذا شيء يغيظ نوعاً ما.."

نظر له سهم باستنكار ودهشة، ثم سار خلفه متسائلاً بإلحاح "وماذا عن الخطة؟.. أنت لا تفصح لي عن أي شيء بتاتاً.. ما الذي تنوي فعله الآن؟"

****

الفصل التاسع « صديق؟.. أم عدو؟!.. »

أمضت ريم عدة أيام بعد رحيل سهم في تعاسة تامة.. بدت لها الأيام بطيئة ثقيلة، ولم يزدها وجود تولاد أو تيمار إلا ضيقاً.. وعندما رأت تيمار يأتي لزيارتها كعادته بعد هذا الوقت، صاحت به فور اقترابه "هلا كففت عن دسّ جواسيسك من حولي؟.. ليس من اللائق التجسس عليّ حتى في جناحي.."

ابتسم تيمار ابتسامة باردة وهو يقول "من قال إن لديّ جواسيس هنا؟.. أتعنين الخدم الذين يعج بهم هذا القصر؟.."

فقالت ريم بحدة "بل أكاد أقسم أنهم يتجسسون عليّ.. أرى نظرات الشك في عيونهم، وأجدهم أمامي كلما التفت.. ما الذي تحاول معرفته؟.."

جلس تيمار جانباً باسترخاء وهو يقول "ربما كان ارتباكك هو ما يوحي لك بأنني أرسلت الخدم جواسيس عليك.. لكن حقاً، ما الذي تخفينه؟"

قالت ريم بحنق "لست أخفي شيئاً.."

أطلق ضحكة صغيرة وهو يلتفت لينظر من النافذة، بينما جزّت ريم على أسنانها وهي تصمت.. من حسن الحظ أن سهم اختفى منذ ذلك اليوم، وإلا لكُشف أمره على الفور.. لكن ما الذي ستفعله عند عودته؟.. هل سينكشف أمر قرارها الهرب قبل أن تنفذه بالفعل؟.. هل سيقبض تيمار على سهم ويستجوبه ليعرف هويته الحقيقية؟ ما الذي ستفعله عندها؟..

التفتت إليه لتجده يراقبها بنظرات حادة رغم الابتسامة على شفتيه، فتجرأت لتسأله "لماذا تكرهني؟"

هز كتفيه بخفة مجيباً "وما الذي يدعوك لاعتقاد ذلك؟"

عقدت حاجبيها قائلة "نظراتك تكفيني لأعرف ذلك.. فما هو السبب؟"

قال لها بهدوء "وما الذي يجعلني أحبك دون قيد أو شرط؟"

قالت بعد تردد "ألستُ أختك الصغرى؟"

ضحك ملء فمه وهي تنظر له بضيق، ثم قال "أتعترفين بذلك الآن؟.. أم أن هذا الاعتراف لا يكون إلا بما يناسب أهواءك؟"

قالت بضيق "لا تستهزئ بي.. أنتم من يصرّ على إجباري أن أكون من هذه العائلة.. أنتم من يحاول استبقائي رغماً عن إرادتي.. فلماذا بعد ذلك تقابلني بكراهية وأنا لا أعرفك ولم أخطئ في حقك بتاتاً؟"

فقال تيمار بابتسامة جانبية "المرء عليه تحمل أخطائه وأخطاء آبائه.. أليس كذلك؟"

قطبت محاولة فهم ما يقوله، بينما نهض تيمار وهو يتجه نحو المخرج، فقالت ريم "ألن تفسرّ لي ما تعنيه؟"

قال وهو يمسك مقبض الباب "عليك أنت أن تحليّ هذا اللغز يا أختي الصغرى.."

وغادر دون أن يضيف كلمة أخرى.. فزفرت ريم وهي بضيق شديد.. لم تعد تعرف كيف تتعامل مع تولاد، ولا تعرف كيف تتعامل مع تيمار النقيض عن الآخر تماماً.. كيف لها وهي التي قضت أغلب حياتها في غيبوبة أن تتعامل مع شخصين غريبين ومتناقضين بهذه الصورة؟..

****

في تلك الليلة، ظلت ريم وقتاً طويلاً مستيقظة وهي تفكر بشكوك تيمار الواضحة نحوها.. شعرت بالنوم يجافي عينيها، وشعرت بالاختناق في هذا القصر الواسع أكثر من أي وقت مضى.. وبعد ساعات قضتها مسهدة، سمعت صوتاً خافتاً عند إحدى النوافذ.. ففتحت ريم نصف عين وهي تتأمل قمم الأشجار من النافذة ظناً منها أن ذلك الصوت بفعل ريح قوية.. لكن الهدوء كان يعمّ الحديقة الساكنة، وسرعان ما تراءى لها ظل أسود قرب النافذة لم يلبث أن فتح أحد مصراعيها بصمت متسللاً للجناح.. عندها اعتدلت ريم جالسة وهي تصرخ بفزع وقد اعتراها رعب من هوية هذا المتسلل، لكنها رأت الجسد الأسود يقفز نحوها فيكمم فمها وصوتاً مألوفاً يهمس "لا تصرخي.. إنه أنا.."

تعرفت صوت سهم في الحال، فأزاحت يده وهي تهمس بدورها "ما الذي أتى بك في هذا الوقت؟"

سمعا صوت أقدام تركض في الممر قبل أن تقتحم الخادمة المعنيّة بأمور ريم الجناح هاتفة "ما الأمر يا آنستي؟.."

تمالكت ريم نفسها وقالت وهي ترمق سهم الذي انخفض مختبئاً قرب السرير "لا تقلقي.. ظننت أني رأيت فأراً.."

اتسعت عينا المرأة بصدمة وهي تصيح "فأر؟.. في قصر سيدي؟.. هذا مستحيل.."

وتقدمت من السرير بسرعة مما أربك ريم بشدة، فصاحت فيها بحدة "أنا واثقة أنه فأر، لكنه هرب الآن.. فاتركيني أنام قبل طلوع النهار.."

غمغمت الخادمة وهي تقف في موقعها "أأنت متأكدة؟"

قالت ريم بحدة "أتظنين أنني كاذبة؟.. اتركيني فالشمس تكاد تشرق بعد قليل.."

ترددت الخادمة للحظة وريم تزداد ارتباكاً وقلقاً.. ثم استدارت الخادمة وهي تغمغم "لا بأس يا آنستي.."

ثم وقفت قرب الباب قائلة "استمتعي بنوم عميق يا آنستي، ولن أوقضك حتى يحين موعد جلسة العلاج اليومية.."

ظلت ريم جالسة تراقب الخادمة التي خرجت مغلقة الباب خلفها، ثم تنهدت وهي تغمغم "كاد قلبي يقف لشدة الرعب.."

ثم نظرت لسهم الذي اعتدل واقفاً وقالت باضطراب "متى عدت من القرية؟.. لا، ليس هذا هو المهم.. الأفضل أن تغادر بسرعة، ولا تحاول الحديث معي بتاتاً.."

نظر لها سهم بتعجب متسائلاً "لماذا؟.. ما الذي جرى؟"

قالت ريم فاركة يديها "تيمار يشك بي وبنواياي .. إنه يحيطني بمن يتجسسون عليّ طوال الوقت.. ولو رآك تحادثني، عندها....."

ضحك سهم باستمتاع بشكل فاجأها، ثم قال وهو يقترب منها "ليس أمر تيمار هو المهم الآن.."

وأمسك يدها القريبة منه بقوة وهو يقول بابتسامة "بل المهم ما هو آتٍ.. والليلة هي موعدنا.."

تساءلت ريم بدهشة "موعد ماذا؟"

قال سهم بجذل "موعد فرارك يا فتاتي.. هيا بنا.."

خفق قلب ريم بقوة وهي التي آمنت أن تلك اللحظة لن تأتي بتاتاً.. ثم وجدت سهم يجذبها لتقف وتتبعه نحو باب الجناح، فقالت ريم بقلق "مهلاً.. هل سنخرج من هذا الباب؟.. الخادمة قد غادرت قبل قليل، وربما نجد غيرها في ممرات القصر وقد يكشفون أمرنا.."

قال سهم "لا تقلقي.. الهرب عبر الممرات أأمن لنا من التسلل عبر النافذة والحديقة.. الجنود على أهبة الاستعداد ليلاً ولن نفلت من مراقبتهم.."

فتساءلت ريم "لكن كيف يمكننا الخروج من هذا القصر؟.. سينكشف أمرنا على الفور.."

قال سهم "لقد أعددنا للأمر عدته بالفعل.. وهناك من سيعاوننا على الخروج دون مصاعب.."

سألت ريم بدهشة "ألم تخبرني أن تولاد قبض على ذلك الشخص سابقاً؟"

قال سهم "لا.. من حسن الحظ أن الشبهات اتجهت لكابو، لكن ليس هو الشخص المعنيّ بحال.."

فتساءلت ريم بفضول "إذن من يكون هذا؟"

ابتسم سهم مجيباً "سترينه بعد قليل.. فنحن متجهون إليه بالفعل.."

ظلت ريم بحيرة وهي تتساءل عن هوية ذاك الذي سيعينهما على الهرب.. أهو من أهل القرية؟.. أم هو من خدم القصر وقد تعاطف معها؟..

شعرت بسهم يجذبها من يدها، فاستوقفته وهي تعترض من جديد قائلة "مهلاً.. أمهلني لأستبدل ملابسي أولاً.."

فعلق سهم وهو يلاحظ ملابس نومها القطنية الفضفاضة "حقاً، ملابسك هذه لا تصلح للهرب.. ستستبدلينها.. لكن ليس هنا، وليس الآن.."

نظرت له ريم بتعجب، فعاد يجذبها نحو الباب وهو ينظر عبره بحذر.. ثم همس لها "لا تصدري أي صوت.."

وسار معها عبر الممرات المظلمة إلا من أنوار متفرقة في جوانبها من مصابيح موزعة بدقة بحيث تريح الناظر وتنير الممر دون أن تزعج سكان القصر.. فكان سهم يتخيّر المواقع المظلمة بعيداً عن النور الساقط في جوانبه وريم تتبعه بقلب

واجف متلفتة بقلق كبير.. لكنهما لم يواجها شخصاً في تلك الممرات الهادئة وسهم يسير عبر طريق يحفظه بشكل تام..

بعد لحظات صمت، رأت سهم يقترب من باب أحد الأجنحة ويطرقه طرقة واحدة خفيفة قبل أن يفتح الباب ويدلف عبره.. فهمست ريم وهي تتبعه بقلق "مهلاً.. قد يفاجئنا شخص ما...."

وقفت فجأة وهي ترى شخصاً يجلس وسط الجناح المظلم نوعاً ما بصمت دون أن يبدو عليه أي مفاجأة لدى رؤيتهما..

ثم وجدت سهم يقترب منه وهو يقول "ها قد جئنا حسب الخطة.. والآن، ما الذي علينا فعله؟"

ظلت ريم تراقب ذلك الشخص الذي غلّفه الظلام بشيء من القلق وهي تلاحظ صمته الغريب، ثم وجدته يقف بهدوء ويقترب منهما قائلاً "أأنت متأكد أن أي شخص لم يركما وأنتما قادمان لهذا الجناح؟"

اتسعت عينا ريم بذهول وهي تتعرف الصوت ذو النبرة الهادئة ببرود واضح.. ووجدت الشخص يقترب حتى سقط نور القمر عليه من نافذة قريبة، فتمكنت من التأكد من ملامحه التي لا يمكن إخطاؤها.. ذات الشعر الأشقر، وذات البشرة الشاحبة، وذات العينين الباردتين ونور القمر يزيدهما شحوباً بحيث بدتا شفافتين.. همست ريم وهي تتراجع خطوة "تيمار؟.. ما معنى هذا؟.."

نظر لها تيمار بصمت كعادته دون أن يجيب أسئلتها، فقالت باعتراض وهي تنظر لسهم "هذا مستحيل.. إنه يكرهني.."

لم يعلق تيمار بينما قالت له ريم مقطبة"إذن لماذا كنت توحي لي بأنك تشك بي وبتصرفاتي باستمرار؟"

ابتسم تيمار ابتسامة جانبية وهو يقول "كان من الممتع رؤية ذعرك الواضح لأدنى تلميح مني.."

رفعت ريم حاجبيها مستنكرة، بينما استدار تيمار وهو يقول باقتضاب "اتبعاني.."

همست ريم لسهم "اشرح لي ما يجري هنا.. أليست هذه خدعة من تيمار؟ ألن يقوم بتسليمنا لذلك الرجل؟"

قال سهم بابتسامة "اطمئني.. سليم يثق به تماماً، وأنا أثق به أيضاً.. هيا بنا.."

غمغمت ريم وهي تتبعه "منذ متى؟!"

قادهما تيمار عبر الجناح الخالي لجزء خلفي، حيث وجدا ثياباً للجنود قد صفّت بعناية على أحد الكراسي، بينما قال تيمار موجهاً حديثه لريم "ارتدي هذا الرداء الآن، وستخرجان برفقتي حتى نغادر ربوع القصر والأحياء القريبة منه قبل استيقاظ من في القصر.. في هذا الرداء، لن يستوقفكما أحد ولن يتساءل عن هويتكما أي شخص.."

تساءل سهم "ألن يدرك تولاد الخدعة ويكتشف خيانتك بعد هروب ريم؟"

قال تيمار "لا.. أبي يثق بي ثقة مطلقة، ولن يشك في أي أمر أفعله مطلقاً.."

فغمغم سهم وهو يتفحص أحد تلك الأردية "هذا درس جديد لي.. لا يوجد مَن يستحق ثقتي المطلقة في هذا العالم.."

كان سهم يرتدي رداء الجنود بالفعل، بينما ناول الرداء ذو الحجم الأصغر لريم، وقال لها "اذهبي وارتدي هذا الرداء في دورة المياه الملحقة بهذا الجناح.. سأنتظرك هنا مع تيمار فلا تتأخري.."

هزت ريم رأسها موافقة وتناولت الرداء منه لتتجه نحو دورة المياه القريبة وأفكارها تعصف بها بقوة.. تيمار يعاونها؟ كيف يمكن ذلك؟.. إنه يبغضها منذ البداية.. وربما هذا هو السبب الذي يجعله يعينها على الهرب.. لابد أنه ينوي التخلص منها بشكل تام..

فور أن أغلقت باب دورة المياه خلفها رأت نوراً خافتاً يضيء المكان ورائحة عطرية تغمر الجو.. رغم كل ما رأته، مازالت الرفاهية التي يتمتع بها القصر تثير دهشتها.. لكن لم يكن الوقت وقت دهشة وتعجب مع اقتراب فرصتها الكبيرة للهرب من هذا المكان.. ويعلم الله أنها كانت تتوق لهذه اللحظة منذ وطأت قدمها هذا المكان.. لكن أن تأتي الفرصة عبر تيمار؟.. هذا ما لم تتخيله حتى في أشد أحلامها جموحاً..

بعد بعض الوقت، عادت للجناح لتجد سهم ينتظرها مع تيمار، فنظرت لنفسها وهي تغمغم "ألن يشك أحد فيّ حقاً في هذا الرداء؟"

رأت سهم يكتم ضحكته بالكاد وهو يدير وجهه جانباً، بينما تقدم تيمار وهو يعلق "من الطبيعي أن يشك الجنود في جندي لا يعرف كيفية ارتداء زيّه الرسمي.."

وجدته يساعدها على لبس المعطف الذي وجدت صعوبة في ارتدائه بمفردها بشكل صحيح.. عندها علّقت ريم ووجهها يحمرّ حرجاً "وما أدراني كيف يرتدون هذه الأشياء؟.. لقد كنت في غيبوبة منذ الثامنة من عمري، وبالكاد كنت أرتدي أي ملابس قبلها بمفردي.."

غمغم سهم معلقاً بابتسامة "إذن كنتِ طفلة مدللة سابقاً.."

قطبت ريم دون أن تعلق، بينما جذبها تيمار من ذراعها وهو يقول "هيا بنا.. سنغادر حالاً.. التزما بالصمت التام وأنا من سيتولى الحديث إن واجهنا أي مشكلة.."

رأياه يتناول من على السرير معطفاً مخملياً بلون أزق قاتم ويرتديه، ثم تقدمهما نحو الباب بصمت.. فهمست ريم من جديد لسهم "أأنت واثق حقاً منه؟"

لم يجبها سهم وهو يشير لها لتلتزم الصمت بينما هما يتجاوزان باب الجناح ويسيران بتحفز خلف تيمار عبر ممرات القصر..

في تلك الأثناء، كان تولاد يسير نحو جناح ريم وقد أصابه الملل بسبب أرق أبقاه متيقظاً طوال الليل.. لكنه وقف أمام باب الجناح متردداً بين رغبته بالجلوس معها وبين خوفه من إزعاجها.. بعد لحظة تردد استدار عازماً على الرحيل والعودة بعد شروق الشمس، عندما سمع الباب يفتح بقوة وخطوات تخرج منه راكضة.. استدار تولاد بتعجب ليرى الخادمة الموكّلة بأمور ريم تتوقف فجأة بعينين متسعتين ذعراً.. قطب تولاد وهو يسألها "ما الذي جرى؟"

ارتبكت الخادمة قليلاً وقد راودها قلق من تولاد، لكنها تجاوزت ترددها وهي تهتف "الآنسة الصغيرة قد اختفت يا

سيدي.. ليست في الجناح كله.."

رفع تولاد حاجبيه بدهشة، ثم علق قائلاً "ربما هي في موقع آخر من القصر.. لم القلق؟"

أجابت الخادمة بارتباك "لا أدري.. لا تخرج الآنسة الصغيرة من جناحها في الليل عادة.. وهذا ما أقلقني.."

فدمدم تولاد بسخط وهو يبتعد "أنت مسؤولة عنها.. فكيف لا تعلمين باختفائها؟"

انبرت الخادمة بتبرير موقفها وهي تركض محاولة اللحاق بخطواته الواسعة، لكن تولاد لم يستمع لها وهو يبحث عن ريم محاولاً وأد القلق الذي بدأ ينمو في صدره.. لا يمكن لريم أن تغادر بهذه البساطة.. القصر يعج بالجنود الساهرين على حراسته، ولن يغفل أحدهم عنها لو حاولت الهرب بأي طريقة.. ثم كيف يتسنى لها الهرب وحدها والعودة لتلك القرية؟.. كان عليه أن يبلغها أن سكان القرية تلك قد هربوا لموقع غير معلوم، ربما جعلها هذا تيأس من فكرة الرحيل تماماً..

أثناء بحثه، رأى في أحد الممرات تيمار بصحبة جنديين من جنود القصر مما أثار تعجبه.. فناداه تولاد وهو يسير نحوه بخطوات واسعة.. انتفض تيمار نوعاً ما وهو يسمع صوت تولاد، ولم يكن الذعر أقل وضوحاً في ملامح ريم التي تجمدت في موقعها خلفه دون أن تستدير.. استدار تيمار ليلاقي عيني سهم المقطبتين وبالمقابل عينا ريم المذعورتين، فهمس لهما وهو يتجاوزهما عائداً إلى تولاد "ابتعدا قليلاً واصمتا.. سأتدبر الأمر.."

اقترب تيمار من تولاد قبل أن يصل لموقع ريم وسهم وهو يتساءل "ما الأمر يا سيدي؟.. أنت مستيقظ أبكر من المعتاد.."

قال تولاد "يمكنني قول المثل عنك أنت.. إلى أين أنت ذاهب؟"

أجاب تيمار "لديّ بضع أعمال مستعجلة تخصّ اجتماع المجلس لليوم، لذلك قررت التبكير بالذهاب والانتهاء منها.. لكن، ما الذي جرى؟"

فقال تولاد "لقد اختفت سانا من جناحها، ألم ترها في القصر؟.. إننا نبحث عنها منذ بعض الوقت.."

ازدادت الارتجافة في جسد ريم وعرق بارد ينساب على صدغيها، لكن سهم لم يتحرك وهو يغطي جسدها بجسده محاولاً عدم لفت أنظار تولاد إليها نسبة لقصرها الواضح.. أما تيمار، فقد أجاب السؤال بكل هدوء "لا.. لم أرها الآن.. أليست في الحديقة؟.. لقد كانت تقضي أوقاتاً طويلة فيها كل يوم.."

هرعت الخادمة بحثاً عن ريم في الحديقة، فيما التفت تيمار إلى سهم قائلاً "أيها الجندي.. اذهبا إلى الحديقة وابحثا عن الآنسة الصغيرة.. لا تعودا قبل أن تعثرا عليها.."

أحنى سهم رأسه مطيعاً، وهو واثق أن وجهه لا يثير شبهة تولاد، بينما ظلت ريم مولية ظهرها لهم.. ثم ركض سهم دافعاً ريم أمامه نحو مدخل القصر الأمامي، فهمست ريم وهي تركض بدورها متوترة "والآن ماذا؟"

قال سهم بخفوت "حسب الخطة، سنقابل جنديان من جنود تيمار الثقة أمام القصر، ونهرب معهما عبر إحدى المركبات

الخاصة بالقصر.. لو تأخر تيمار، ربما يتوجب علينا الرحيل دون انتظاره.."

لم تعلق ريم وهي تسمع صوت تولاد المبحوح بوضوح رغم ابتعادها عن موقعه.. ولم تهدأ حتى خرجا من القصر ورأيا المركبة بانتظارهما أمام الباب.. تقدم سهم من المركبة دون تردد حيث رأى جنديان يقفان قرب المركبة بصمت، فقال لهما سهم لدى اقترابه "لقد تأخر تيمار بسبب تولاد.. إنهم يبحثون عن الفتاة الآن، لذلك لا يجب علينا أن نقف هنا طويلاً.."

نظر الجنديان لبعضهما البعض، ثم قال أحدهما "ربما يحسن بنا ذلك، لكن يجب أن نتلقى الأوامر من سيدي تيمار.."

قطب سهم فيما قال الآخر "سأذهب لرؤية سيدي وأعود بسرعة.. اصعدا المركبة وانتظرا بصمت.."

دمدم سهم "هذا التأخير ليس في صالحنا.."

لم يعلق الجنديان وأحدهما يسرع نحو مدخل القصر عائداً إلى تيمار، بينما وقف الآخر متحفزاً وهو يرى سهم يقود ريم نحو المركبة.. في تلك اللحظة، رأى الجندي تلك الخادمة تجوب الحديقة متلفتة بقلق شديد، ولما رأته اقتربت منه هاتفة "أنت.. ألم ترَ آنستي الصغيرة سانا؟.. ألم تأتِ لهذا الموقع؟"

قال الجندي بدون انفعال هازاً رأسه "لا.. لم تأتِ إلى هنا.. أليست في جناحها؟"

تلفتت الخادمة حولها بقلق متزايد وهي تغمغم "لو كانت في جناحها هل كنت ستراني أركض كالمجنونة؟"

ثم لمحت سهم وريم وهما يهمّان بركوب المركبة، فتركت الجندي فجأة وتوجهت إليهما صائحة "أنتما.. أيها الجنديان...."

حاول الجندي الآخر الإمساك بها وهو يهتف "انتظري.."

لكنها لم تتمهل وهي تجذب ذراع أقربهما إليها قائلة بإلحاح "ألم تريا الآنسة سانا؟"

استدارت ريم رغماً عنها وهي تشعر بالخادمة تجذب ذراعها، لكن أسرعت بعدها تدير وجهها جانباً وتغطيه بالقبعة على رأسها آملة أن يكون الظلام قد منع الخادمة من تعرّفها.. فيما وقف سهم بينها وبين الخادمة بسرعة وهو يقول عاقداً حاجبيه "لا لم نرها هنا.. أليس من الأفضل....."

لكن الخادمة صاحت بعينين متسعتين "آنستي سانا.. ما الذي تفعلينه هنا؟"

توترت ريم وهي تبتعد بينما أسرعت الخادمة وأدارتها نحوها قائلة بدهشة عارمة "ولماذا ترتدين هذا الرداء؟"

جذبها سهم بعيداً عن ريم وهو يقول بحدة "لا شأن لك بما يحدث هنا.."

كان يفكر بسرعة في طريقة لإسكات الخادمة قبل أن تجذب إليهما الأنظار، لكنه سمع صياح تولاد الذي وصل لمدخل القصر ورأى ما جرى قائلاً بحدة "سانا؟.. ما الذي تفعلينه هنا؟"

تخلى سهم عن الخادمة على الفور وهو يركض نحو ريم ويجذبها قائلاً بتوتر "لنهرب.."

صعدا للمركبة القريبة بينما صاح تولاد "سانا.. عودي حالاً.."

نظرت ريم خلفها بقلق فرأت تيمار يصيح في الجنديين القريبين من رجاله "اقبضا عليهما بسرعة قبل أن يهربا.."

ارتفع حاجباها بصدمة وهي التي لم تتخيل خيانة تيمار السريعة لهما، بينما قام سهم بتشغيل المركبة وارتفع بها بسرعة مديراً إياها نحو بوابة حدائق القصر.. لكن الجنود المسؤولين عن حراسة البوابة قاموا بإغلاقها بسرعة وبعضهم يقف في طريق المركبة محاولين إيقافها.. فصاحت ريم وهي ترى البوابة الحديدية المذهبة تقترب منهم بسرعة "سنرتطم بها.. توقف يا سهم"

لكن سهم لم يخفف سرعة المركبة وهو يغمغم "ليس بعد.."

جذب مقود المركبة بقوة محاولاً الارتفاع بها أكثر ليتجاوز البوابة، رغم أنه لا يعرف المدى الذي يمكن لمثل هذه المركبات الارتفاع بها.. وبالفعل، ارتفعت المركبة وهي تتجه للبوابة بسرعة متزايدة حتى تجاوزت رؤوس الجنود الواقفين أمامها.. وكادت تتجاوز البوابة ذات النقوش الحادة في أعلاها لولا أن ارتطم جزءها السفلي بأعلى نقش في البوابة، فاهتزت المركبة بقوة وريم تصرخ للصدمة قبل أن تدور المركبة حول نفسها بعنف وهي تتهاوى بسرعة بعد أن تجاوزت البوابة بالكاد.. حاول سهم السيطرة على المركبة والارتفاع بها من جديد، لكنها ارتطمت بجدار قصر قريب بقوة شديدة حتى توقفت وهمدت حركتها تماماً..

نهضت ريم بألم شديد في جسدها، فيما هبّ سهم واقفاً وهو ينظر للجنود الذين قاموا بفتح البوابة محاولين اللحاق بهما قبل أن يفلحا بالهرب.. فاستغل سهم ذلك التأخير ليجذب ريم بقوة وهو يهتف "هيا بنا.."

نظرت ريم خلفها لترى الجنود يلحقون بهما قبل ابتعادهما، ثم وجدت سهم يجذبها نحو زقاق يقع بين سورين عاليين لقصرين قريبين ويحاول الخروج من الجانب الآخر.. ثم أسرع بعدها يعبر الطريق الذي يقطع الحيّ ليختبئ في زقاق آخر مواصلاً الهرب باستماتة.. كانت أقدام الجنود تقترب بسرعة كبيرة، لكن بدل أن يسرع سهم بالهرب للجانب الآخر من ذلك الزقاق، وجدته يقف فجأة متلفتاً حوله، ثم تسلق شجرة مدت جذورها في ذلك الزقاق وتسلقت الجدار القريب بعزم مدهش.. فتسلق سهم الشجرة بسرعة وخبرة وريم تهمس بيأس "نتسلق الأشجار هنا أيضاً؟"

لكن سهم مدّ يده لها وهمس "أسرعي.."

لم تتردد ريم هذه المرة وهي تمد يدها له، فقبض على ذراعها وجذب جسدها النحيل نحوه بسرعة شهقت لها وهي تجد أنها وصلت للفرع العلوي بخفة.. ثم عاونها لترتفع أكثر في الشجرة هامساً "سنختبئ هنا قليلاً حتى يبتعد الجنود.. ثم نواصل الهرب.."

ربضت ريم في موقعها وهي تنظر تحتها من بين الأوراق الكثيفة لتلك الشجرة، وساعد الظلام الجزئي في ذلك الموقع في إبعاد الأنظار عنهما.. رأيا في تلك اللحظة بعض الجنود يجوبون الطريق القريب ويتفحصون ذلك الزقاق باهتمام، عندها كتمت ريم أنفاسها تلقائياً وهي ترى الجنود يقتربون من هذا الموقع.. لكن بعد بعض البحث انطلق الجنود دون تأخير باحثين عنهما في مواقع أخرى.. عندها تنهدت ريم بخفوت قبل أن تقول لسهم "أخبرتك أننا لا يجب أن نثق بتيمار.. إنه

يبغضني، ولن يكون في عوني بتاتاً عندما أحتاج إليه.."

قال سهم "بالعكس.. تيما ر كان ذا عون لنا منذ البدء، وقد بذل الكثير لأجلك.. لابد أنه حاول أن يبعد الأنظار عن الجنديين الآخرين لكيلا يتهمها أحد بالتعاون معنا.. وكما أخبرتك، فإن سليم يثق به تماماً.."

تساءلت ريم بحيرة "لكن لماذا؟ ما الذي يجنيه من كل هذا؟"

قال سهم وهو ينظر حولهما بحثاً عن أثر للجنود "عليك أن تسأليه ذلك بنفسك.. بعد أن ننتهي من أمر مطاردينا طبعاً"

صمتت ريم دون تعليق وهما يبقيان في موقعهما لفترة طالت.. ولما طال الهدوء في البقعة، هبط سهم بهدوء وحذر متلفتاً حوله، قبل أن يعاونها على الهبوط بدورها.. ولما استقرت ريم أرضاً، جذبها سهم من يدها بصمت متسللين عبر الزقاق لتبتلعهما المدينة الهادئة..

****

دارت ريم ببصرها في أرجاء الحي الصامت وسهم يجذبها خلفه أثناء هروبهما عبر طرقات ذلك الحي وأزقته محاولين الاختباء عن ملاحقيهم من الجنود.. ثم همست لاهثة وهما يعبران أحد الأزقة المظلمة "أتعرف دربك جيداً؟.. كل الأماكن متشابهة بالنسبة لي.."

أجاب سهم "طبعاً.. لستُ غريباً على هذه المدينة فقد قضيت فيها ثماني سنوات.."

لم تعلق ريم وهي تشعر بخطواتها تتثاقل بشدة وهي التي لم تبذل جهداً منذ استيقاظها، بل منذ سقوطها في تلك الغيبوبة وهذا يساوي تسع سنوات.. كادت تتعثر أثناء ركضها بعد أن بلغت أقصى طاقتها، فتوقفت جاذبة يدها من يد سهم وهي تهمس بأنفاس متقطعة "لنقف قليلاً.. لا أستطيع الاستمرار أكثر من ذلك.."

نظر لها سهم بقلق قائلاً "أأنت بخير؟.. مازال طريقنا طويلاً، ومن الخطر البقاء هنا"

غمغمت ريم وهي تجلس جانباً "جسدي لا يطاوعني.. خمس دقائق فقط.. أرجوك.."

لم يعترض سهم وهو يتلفت في المكان خشية مداهمة الجنود لهم، بينما ظلت ريم مطرقة وهي تتنفس بقوة .. كانت أطرافها ترتجف بشكل واضح، وراودها شعور كريه بأنها ستفقد وعيها من جديد في أي لحظة.. وبعد وقت قصير وجدت سهم يجذب يدها لتقف قائلاً "هيا.. لا يجب أن نبقى أكثر من هذا.."

لم تعترض ريم وهي تقف بتعب، عندما سمعا صوت أقدام تركض قريباً من موقعهما عند بداية الزقاق، فركض سهم وهو يجذبها مبتعدين عن تلك الخطوات.. كان الزقاق طويلاً بطول سور ذلك القصر القريب، ويُفضي إلى طريق متسع يقطع ذلك الحيّ.. ومن بعده يمكنهم رؤية ذلك السور العالي الذي يضمّ المدينة كلها بقلبه.. غمغم سهم وهما يقتربان من نهاية

الزقاق "قليلاً بعد.."

لكن عندما وصلا نهايته وجدت ريم سهم يرتدّ فجأة بعنف حتى كاد يسقط للخلف بينما ظهر أربع جنود أمامه حاملين أسلحتهم.. تمالك سهم نفسه وهو يعتدل في وقفته واضعاً يده على موضع الضربة القوية التي أصابت بطنه، فيما قال أحد الجنود بصرامة "ابتعد عن الفتاة أيها المجرم.."

أمسك سهم بيد ريم بقوة مجيباً "هل أخبركم تولاد بأنني مجرم؟.. ما الجرم الذي ارتكبته؟"

قال الجندي مقطباً "وهل اختطاف الآنسة الصغيرة لا يعتبر جرماً؟"

ضحك سهم بسخرية معلقاً "وإن أقنعتكم أنني لم أختطفها وأنها غادرت بمحض إرادتها، ستتركوننا نغادر عندها؟.."

تقدم الجندي منه قائلاً "هذا كذب.."

فهتفت ريم "هذه هي الحقيقة.. أنا رحلت بإرادتي.."

قال الجندي بحدة "هذا لا يعفيه من المسؤولية.."

وتقدم نحو سهم رافعاً سلاحه بينما سهم يدير بصره في بقية الجنود، ثم بانت ابتسامة جانبية على فمه قبل أن يقفز على الجندي القريب منه وهو يدفعه ليسقط أرضاً ويلكمه بقوة لكمتين متتابعتين حتى أفقده الوعي.. ثم حاول النهوض بسرعة ملتفتاً لبقية الجنود، لكن ضربة قوية أصابت رأسه بسلاح جندي آخر وسط شهقة ريم المرتعبة.. تمالك سهم نفسه بشدة ودفع قدمه نحو الجندي الذي هاجمه بضربة قوية أسقطته على ركبته.. رفع الجندي سلاحه ليضرب سهم مرة أخرى، لكن سهم وجّه راحة يده المضمومة نحو أسفل فك الجندي بضربة سريعة.. وقبل أن يتمالك الجندي نفسه كان سهم يضربه على عنقه ضربة أخرى ألقته للخلف بصمت..

رفع سهم رأسه نحو الجنديين الأخيرين، ليجد أحدهما يسقط بصمت بدوره بعد أن فاجأته ضربة على عنقه من الخلف.. عندها وقف سهم مبتسماً وهو يقول للجندي الأخير "من حسن حظي أنك كنت ضمن هذه الفرقة.."

انتبهت ريم في تلك اللحظة أن ذلك الجندي كان أحد الجنديين اللذين وصفهما سهم بأنهما من رجال تيمار.. فتنهدت براحة بينما قال لهما الجندي "اهربا نحو السور.. لن يبحث عنكما الجنود هناك، ولن يشك في أمركما أحد وأنتما ترتديان رداء الجنود.."

فقال سهم "وماذا عنك؟.. ألن يشكوا بك؟"

قال الجندي "لا.. إنهم لا يعلمون كم شخصاً يعاونك، وسأدّعي أن شخصاً هاجمني كما حدث مع الجندي الآخر.."

تساءل سهم "وماذا عن تيمار؟.. ألن تتجه الشكوك نحوه؟"

أجاب الجندي "محال.. ليست لسيدي مصلحة واضحة لتتجه الشكوك نحوه.. والآن ارحلا ما دامت الفرصة مواتية.."

فغمغم سهم وهو يجذب ريم "شكراً لك.."

لم يعلق الجندي وهو يراقب هروبهما نحو السور القريب، قبل أن يستدير متأملاً رفاقه فاقدي الوعي في الزقاق..

كان السور يرتفع عالياً بحيث يغطي المدينة تحته بشكل كامل ويحجب عنها الرياح القوية التي قد تهبّ على هذا الارتفاع.. نظرت ريم للسور بقلق وهما يقتربان منه قائلة "ألن تكون الحراسة أقوى قرب السور؟"

قال سهم "وما الذي يدعوهم لذلك؟ وجود السور وحده كافٍ.. الحراسة تتركز قرب البوابات فقط.."

لم تفهم ريم سبب اكتفائهم بالسور وحراسة البوابات فقط.. ألن يواجهوا أي هجوم من أي جانب آخر من السور؟.. رأت سهم يتقدم نحو باب حديدي صغير في جانب السور، ولم ترَ أي جنود قربه.. ففتح سهم الباب الذي لم يكن مغلقاً وريم تهمس "ماذا لو واجهنا أحد الجنود؟"

أجاب سهم بخفوت "أرجو ألا تكون أنباء هروبك قد وصلت لهذا المكان.."

كان الباب يفضي لغرفة صغيرة خالية ينبثق منها سلم حجري يؤدي للأعلى، فلم يتردد سهم في صعود ذلك السلم وريم خلفه وهي تتلفت حولها قلقة.. كان السلم يرتفع أمامهما لارتفاعٍ عالٍ، ولم تلبث ريم أن بدأت تلهث وسهم يجذبها خلفه دون أن يمنحها فرصة للراحة وهو يغمغم "ليس هذا وقت الاسترخاء والراحة.. يجب أن نكمل حتى نصل موضعاً آمناً.."

وبعد مسافات ومسافات رأتها ريم لا نهائية، وصلا لأعلى السلم الذي يفضي لممر حجري يشكل سطح السور العلوي.. فور أن وصلا للأعلى لاحظا النور الخفيف الذي تبدّى في الأفق مبشراً بانتهاء تلك الليلة، وهبّت الرياح قوية فارتجفت ريم مع البرودة التي كانت أشدّ في ذلك الموقع وذلك الوقت عما كانت عليه وهي في قصر تولاد.. كان المكان، للدهشة، خالياً من الجنود رغم وجود أبراج مراقبة موزعة على طوله.. فتساءلت ريم بدهشة "كيف يمكن أن يغفل الجنود عن حراسة موقع مهم كهذا؟"

قال سهم "أتمزحين؟ وما حاجتهم للحراسة في هذا المكان؟.. انظري لما خلف السور وستفهمين ما أعنيه.."

تقدمت ريم بعد تردد نحو نهاية السور الذي لم يكن به أي حواجز تحمي الواقفين عليه، ولما نظرت لما خلف السور، صدرت شهقة من حلقها وهي تراقب اللوحة التي تبدّت أمامها مذهلة بشكل أثارت الرعب في أعماقها.. كان السور الحجري يمتد لارتفاعٍ عالٍ تحت قدميها بما يوازي عشرين متراً، وهو يقف على أطراف هضبة عالية وسط سلسلة جبلية شاسعة.. وبينما انتصبت قمم الجبال في الأفق تبارز بعضها البعض في العلوّ، فإن المساحات الشاسعة التي تراها ريم من تحت السور وحتى الأفق قد غطّتها سحب كثيفة أخفت ما تحتها وبدت كسجادة غليظة بيضاء اللون يتخللها النور بشكل خفيف.. أدركت ريم عندها أنه من المستحيل مهاجمة المدينة من تلك المناطق فالسور يقع على أطراف هاوية عميقة تمتدّ لعمق مخيف تحتهما، كما بدا لها من بين السحاب..

اندلعت رياح قوية في المكان أثارت رجفة في جسد ريم وعبثت بشعرها الطويل.. كانت البرودة تزداد مع مرور تلك الرياح القوية ولوجودهم على هذا الارتفاع الشاهق، بينما تحركت السحب الأخف كثافة بفعل الرياح فغدت كأمواج

هادئة تتماوج وتغيرّ شكلها باستمرار حتى ترتطم بسور المدينة فتتبدد أو تغيرّ مسارها وتعود للوراء لتبدأ حركتها المتماوجة من جديد.. كان نور الشمس الذي يبدو في الأفق قد بدأ يصبغ قمم السحب بلون أصفرٍ زاهٍ وبدا متبايناً بشدة مع البرودة التي غمرت الأجساد في هذا الموقع بشدة..

وقف سهم قرب ريم ونظر للمنظر، ثم التفت لريم معلقاً "أيبدو هذا المنظر صادماً بالنسبة لك؟ لقد كان كذلك عندما رأيته للمرة الأولى وأنا الذي اعتدت على المسطحات التي تخلو من أي ارتفاعات تذكر.."

غمغمت ريم بافتتان "يبدو المنظر مذهلاً بشكل يثير رجفة رعب في أوصالي.. كنت أعلم أن المدينة على ارتفاعٍ عالٍ، لكن لم أكن أظنها تعلو فوق السحب.."

فعلق سهم "هذا سبب رئيسي لاستغناء الجنود عن مراقبة السور، فمن الصعوبة بمكان الهجوم من هذه الاتجاهات.. كما أنهم يملكون هذه"

وأشار جانباً لأحد الأبراج القريبة المقامة على السور، فلاحظت ريم جهازاً متوسط الحجم لا يكاد يزيد على متر طولاً وعرضاً معلق في أعلى نقطة في البرج، وسهم يضيف "هذه تحوي آلات رصد ومراقبة تعمل ليلاً ونهاراً لتسهل عملية مراقبة ما خلف السور.."

فقالت ريم وهي تتذكر أمراً ما "أليست مجرد صندوقٍ معدني؟.."

نظر لها سهم بدهشة، ثم أطلق ضحكة عالية وهو يقول "أما زلت تذكرين هذا؟.. أنت تستهزئين بي لأنني كنت جاهلاً قبل قدومي لأنكاريا ولم أعرف هوية الجهاز الذي يستخدمه سليم.. لكن لم يكن لي حيلة في الأمر.."

قبل أن تعلق ريم على الأمر، سمعا صوت جلبة عالية خلفهما.. فاستدارا ناظرين بتوتر وقد تبخّر سحر المنظر مع الخطر الذي عاد يواجههما بقوة.. أمسك سهم بيد ريم وهو يقول "يحسن بنا الرحيل من هنا بسرعة.."

ركض سهم ومعه ريم عبر السور الخالي مبتعدين عن مصدر الأصوات.. ركضا مسافة طويلة وريم ترى المدينة وقصورها الفخمة صغيرة جداً من هذا الارتفاع.. وبعد ركض طويل اتجه سهم نحو مدخل قريب يقودهما إلى قلب السور، لكن لم يكادا يصلان للمدخل حتى فوجئا بخروج جماعة من الجنود في وجهيهما لا يقل عددهم عن سبعة.. استدار سهم وجذب ريم بقوة عازماً على الفرار من الجهة الأخرى وأحد الجنود يهتف "ها هما.."

لم يتوقف سهم لرؤية ما سيفعلونه، لكن استوقفته رصاصة ارتطمت بالأرض عند قدمه، عندها اضطر للتوقف والتفت خلفه نحو الجنود الذين سرعان ما أحاطوا بهما في حلقة محكمة.. ثم اقترب أحد الجنود من سهم ونزع قبعته ليرى وجهه بشكل أفضل، قبل أن يقول بحنق "وتجرؤ على التنكر بزي جندي أيها المجرم؟"

قال سهم بابتسامة ساخرة "بل أنا جندي بالفعل.."

ازدادت تقطيبة الجندي وهو يدفع السلاح في وجه سهم، لكن سهم أمسك السلاح بقوة قبل أن يصل إليه، وبالمقابل دفع

قبضته في ضربة سريعة لوجه الجندي.. ثم تركه يسقط خلفاً وهو يلتفت نحو جندي آخر بضربة أخرى، لكن الجنود لم يتيحوا له ذلك وأحدهم يسرع للقبض عليه من الخلف محيطاً صدره بذراعيه بينما قام جندي آخر بضرب سهم بقوة في صدره.. ولما تهيأ لضربه من جديد، كان سهم يستند على الجندي خلفه ويرفع قدمه بركلة نحو من يواجهه..

في تلك الأثناء كان أحد الجنود يرفع سلاحه ويسدد ضربة لظهر ريم بقوة أسقطتها أرضاً دون أن يدرك هويتها مع رداء الجنود الذي ترتديه.. فصاح سهم وهو يقاوم الجنود حوله "أيها الوغد.. ارفع يدك عن ريم.."

عندما رفعت ريم وجهها بذعر واضح نحو الجندي القريب، أدرك كونها فتاة للمرة الأولى.. فقبض ذراعها وأجبرها على الوقوف متسائلاً "اسمك ريم؟.. أين أخذتم سانا ابنة سيدي تولاد؟"

لم تجبه ريم خشية أن يقتادوها لقصر تولاد من جديد.. فهزها الجندي بشيء من العنف وهو يصيح بقسوة "أجيبي السؤال بسرعة.. أين سانا؟"

وجد أن سهم الذي تخلص ممن حوله قد هجم عليه بركلة قوية ألقته خلفاً، وفي الآن ذاته سقطت ريم التي لم يفلتها الجندي قبل سقوطه، وتسبب سقوطها في تدحرجها بقوة.. حاولت تمالك نفسها والنهوض واقفة، عندما فوجئت بلطمة من سلاح قريب حيث يتعارك الرجلان، سهم والجندي، وكل منهما يحاول التخلص من الآخر بسرعة.. كانت اللطمة عنيفة بحيث أسقطتها للخلف من جديد.. ولكن هذه المرة كان سقوطها قريباً من حافة السور الذي لم يكن بعيداً عن موقعهم.. أطلقت ريم صيحة فزع وهي تجد نفسها تتهاوى نحو الفراغ.. لوّحت بذراعيها حتى استطاعت التمسك بحجارة السور البارزة بعد أن خدشت ذراعيها بقوة.. لكن على الأقل تمكنت من إيقاف اندفاعها في الفراغ ونحو العمق السحيق الذي لا ترى نهايته.. وقد شكلت السحب عازلاً، رغم جماله، يثير الفزع ويوحي بأن السقطة ستكون أشنع مما قد يتخيل المرء..

سمعت ريم صياح سهم "ريم.. سآتي إليك، فاصمدي.."

لكن الكلام سهل، فبذراعين كذراعي ريم الهزيلتين اللتين عانتا من الخمول سنوات طوال، وبجدار شبه أملس يكاد يخلو من النتوءات التي يمكن التشبث بها، بدأت قبضة ريم تخفّ مع مرور الثواني وهي تصيح "سهم.. ساعدني.."

أما سهم، فقد حاول التخلص من الجندي القريب منه وهو يدفعه جانباً ويركض تجاه حافة السور.. لكن جندياً آخر اعترض طريقه تلاه آخر وهما يحاولان القبض عليه وتجريده من سلاحه.. لم يبدُ على أحد الجنود أي اهتمام بريم، مما دلّ سهم أنهم لا يدركون هويتها الحقيقية.. عندها صاح سهم بحنق "أيها الحمقى.. تلك الفتاة هي سانا ابنة سيدكم تولاد.. هل ستتركونها تقضي نحبها؟"

تردد صدى صوته في المكان والجنود يتجمدون في موقعهم، وفي اللحظة ذاتها تعالى صياح ريم المذعور وقد أفلتت قبضتها الجدار وهوت بسرعة نحو الهاوية والجبال القريبة تردد صيحتها بشكل متكرر .. هبّ سهم مفزوعاً نحو الحافة وهو يصيح "ريـــــــم.."

نظر نحو الهاوية بقلب مذعور، لكنه توقف قرب الحافة وهو يرى جسد ريم معلقاً في علم ضخم من أعلام أنكاريا المتوزعة على طول سورها وعلى انخفاض عدة أمتار عن أعلى السور، وقد بدأ الهواء القوي يطوّح بها بقوة.. فصاح سهم "ريم.. أأنت بخير؟"

أتاه صوتها المذعور "سهم، ارفعني بسرعة.. لا أظنني سأصمد طويلاً.."

كان بقية الجنود قد اقتربوا من الحافة بدورهم والارتباك واضح على وجوههم.. فسقوط ريم معناه فشل المهمة التي أرسلوا لإتمامها.. تلفت سهم حوله بحثاً عن وسيلة لرفع ريم، ثم اندفع نحو برج قريب وجذب سلماً من الحبال يستخدم للوصول للأماكن العالية من الأبراج المتناثرة على السور.. فجذبه سهم بقوة جذبة سريعة أدّت لفكّه من موضع تثبيته، ثم عاد لحافة السور وثبته في أحد جوانبه البارزة قائلاً لجندي قريب "تأكد أن الحبل لن يفلت موضعه.."

قبض الجندي على كتف سهم وهو يقول بحدة "ما الذي ستفعله يا هذا؟"

قال سهم بحدة "سأستعيد الفتاة وأعيدها قبل أن تقضي نحبها.. أليس هذا ما ترغب به؟"

فقال جندي آخر "اتركه.. هذا أفضل من تعريض جنودنا للخطر.."

غمغم سهم بهزء "يا للجبناء.."

ورمى السلم من خلف السور والجندي يقول له بصرامة "إياك أن تحاول الهرب بأي شكل مع الفتاة.."

فقال سهم بسخرية "المهرب الوحيد لي هو في السقوط في هذه الهاوية.. سيكون هذا مهرباً من الدنيا وما فيها.."

وأسرع يهبط عبر الحبل الذي عبثت به الرياح بقوة، لكن سهم لم يخشَ الارتفاعات الشاهقة التي يطل عليها السور وهو يهبط بسرعة وخفة حتى وصل قريباً من موضع ريم.. وبجذبة سريعة، كان قد جذب العلم الذي تتشبث به وأمسك ذراعها قبل أن تفلت العلم وتسقط بعيداً عن مرمى يده.. شعر سهم بالسلم يميل بشدة مع ثقليهما وهو يجذب ريم لتقف قربه ويضمّ جسدها المرتجف إليه.. نظر سهم بقلق للأعلى ليتأكد أن الحبل ثابت في موقعه، ورأى الجنود يراقبونه عن كثب.. ثم سمع ريم تهمس وهي تتلفت حولها بذعر "ظننت أني حقاً هالكة.."

فغمغم سهم وهو يدقق النظر حوله "ليس بعد يا فتاتي.."

ثم عاد ببصره للأعلى وأحد الجنود يصيح به "عد بسرعة بالفتاة يا هذا.."

لكن سهم قال لريم "تشبثي بي جيداً وأفلتي الحبل.."

اتسعت عينا ريم بدهشة، عندما رأت سهم يمسكها بقوة ويقفز متخلياً عن الحبل، وسرعان ما تهاوى جسديهما أرضاً بسرعة وريم تصرخ بفزع.. لتبتلعها الهاوية بينما تماوج السحاب حتى غطى على أي أثر لهما..

****

الفصل العاشر « جزءٌ من الحقيقة.. »

عندما تهاوى جسدا سهم وريم، حدثت بلبلة صغيرة بين الجنود الواقفين قرب السور، قبل أن يحاول أحدهم اللحاق بسهم وريم عبر السلم لمعرفة ما جرى لهما، بينما انطلق البعض لاستدعاء المزيد من الجنود لتمشيط المنطقة بحثاً عن جسديهما.. فقال أحد الجنود وهو يراقب رفيقه يهبط السلم المكون من الحبال بسرعة محاولاً معرفة ما جرى للهاربين "يا للشيطان.. كيف يمكنه القفز نحو هذه الهاوية المرعبة بكل تلك الثقة؟ لابد أن بقاياه تتقاذفها الرياح الآن.."

ثم التفت لجندي آخر مضيفاً "لقد انتهى الأمر.. الفتاة ومن معها في عداد الموتى ولاشك.. بقي علينا انتشال جثتيهما....."

قال الآخر بحزم "لا.. هذا مستحيل.."

نظر له الجندي وقال مقطباً "ماذا تعني؟.. من يمكنه أن ينجو من السقوط في مثل هذه الهاوية؟"

قال الجندي الآخر "الشاب حريص على الفتاة كل الحرص، فهل سيُلقي بها للتهلكة هرباً منا؟.. لابد أنه وجد مخرجاً ما.."

واندفع مبتعداً عن الموقع تاركاً رفيقه يدقق من فوق السور قبل أن يغمغم "كيف يمكنه ذلك؟"

أما ريم، فعندما تهاوى جسدها مع سهم أغمضت عينيها بفزع وهي تطلق صياحاً مرعوباً بانتظار أن تشعر باصطدامهما بالصخور وما ينتج عنه من موت محتم.. لكنها شعرت بحبال ليّنة تلمس جسدها وتحدّ من سقوطهما وهي تلين تحتهما بقوة قبل أن تقذفهما للأعلى بشكل بسيط ليسقطا عليها من جديد.. فتحت ريم عينيها بعد استقرار جسدها بدهشة لتجد شبكة من الحبال المتينة تحتهما مثبتة في دعائم حديدية مدت من السور بشكل عرضي فوق الهاوية، وقد منعت الشبكة سقوطهما في الهاوية التي بدت أوضح لعينيها من هذا الموقع، بينما حجبت السحب موقعهما عمّن يقف فوق السور.. فنظرت ريم لسهم الذي وقف بسرعة وحاول الاقتراب منها دون السقوط قائلاً "لقد لاحظت وجود هذه الشبكة قبل سقوطنا، ويبدو أنها تستخدم لحماية الجنود الذين يعملون في الأبراج في حال سقوط أحدهم.. لحسن حظنا.."

نهضت ريم بقدمين ترتجفان، فعاونها سهم على الوقوف وهو يتلفت حوله باحثاً عن وسيلة لمغادرة هذا الموقع بأمان، ثم استخرج خنجراً من جيبه قائلاً "سنبدأ من جديد.. فكوني حذرة.."

صاحت ريم "ما الذي تنوي فعله أيها المجنون؟"

رأته يمزق الشبكة بخنجره بضربات سريعة، وقبل أن يتهاوى جسديهما في الفراغ من جديد أمسك سهم بريم بيد وأمسك جزءاً من الشبكة الممزقة باليد الأخرى.. وبسقوطهما، وباستخدام جزء من الشبكة مثبت في جانب السور، استخدم سهم الجاذبية القوية ليمنح جسده قوة دفع وهو يطوّح نفسه ومعه ريم نحو السور القريب.. لم تكن ريم تستطيع رؤية ما يجري وهي تتشبث بعنق سهم بذعر، بينما مدّ سهم قدميه فور اقترابهما من نافذة زجاجية في السور وتخلى عن الشبكة

الممزقة.. وفور ارتطامهما بالنافذة تحطمت بصوتٍ عالٍ والزجاج يتناثر في المكان كله بينما تدحرج جسداهما على الأرضية الصخرية والزجاج المتحطم.. حاولت ريم الاعتدال بألم وهي تشعر بالزجاج يؤلم مختف أنحاء جسدها، بينما هبّ سهم واقفاً على إثر هتاف تردد في الغرفة التي اقتحماها.. رأت ريم رجلاً بملابس عادية يجلس خلف طاولة عليها أكداس وأكداس من الأوراق، وقد نهض بذعر لدى ولوجهما الحافل للغرفة.. فسارع سهم ليركل الرجل بقوة في صدره أتبعها بضربة على مؤخرة رأسه أسقطته فاقد الوعي.. ثم عاد لريم وهو يقول بتوتر "علينا الرحيل بسرعة.. ربما جذب الصوت بعض الجنود.."

نفض شعرها مما علق به من حطام النافذة، ثم جذبها بقوة وهو يتجه نحو المخرج بينما قالت ريم بقلق "ألا تملك موقعاً يمكننا الاختباء فيه حتى نستردّ أنفاسنا؟.. لن نصمد هكذا حتى نغادر أنكاريا.."

قال سهم "سنفعل ذلك بالطبع، لكن في وقت لاحق وفي موقع أبعد من هذا.."

ثم التفت إليها ملاحظاً عرجها الواضح وتساءل بقلق "هل أنت بخير؟"

قالت ملوحة بيدها "ليس شيئاً خطراً.. قدمي تؤلمني بعد سقوطنا العنيف هذا.."

فقال سهم بقلق أكبر "لا يمكننا الانتظار حتى تريحي قدمك.. أتريدين مني حملك؟"

رفضت ريم ذلك بإصرار، فاستسلم سهم وهو يجرها معه محاولاً مجاراة سرعتها في الركض.. غادرا تلك الغرفة نحو ممر جانبي حجري مضاء بمصابيح متفرقة، ومنه نحو سلم حجري مشابه للذي استخدماه لصعود السور.. لم يتردد سهم وهو يسلك ذلك الطريق، بينما تشبثت به ريم وهي تغمغم بقلق "أأنت متأكد من طريقنا هذا؟"

أجاب سهم "أرجو ذلك.."

لم يكد يتمّ قوله، حتى رأيا ثلاثة جنود يقفون وسط السلم يتجادلون بشيء من الحدة، وقد التفتوا لدى اقتراب سهم وريم منهما.. وفي الحال، تجمد الهواء لثانية وريم تنكمش وهي ترى الأسلحة المعلقة على أكتافهم، لكن سهم لم ينتظر أكثر من تلك الثانية وهو يزن الأمور بعقله.. ثم بقفزة قوية وسريعة مستغلاً وقوفه في الجزء العلوي من السلم ومستعيناً بالجاذبية التي ستمنحه قوة أكبر، كانت قدماه ترتطمان بأقرب الجنود إليه قبل أن يتمكن أحدهم من رفع سلاحه.. فتهاوى الجندي وهو يطلق صيحة ألم لسقوط سهم على صدره بقوة كادت تكسر أضلاعه، وجاءت سقطته على رفيقه الذي لم يتمكن من تجاوزه بالسرعة الكافية.. بينما تجاوز الجندي الأخير المصير ذاته وهو يتراجع خطوة قبل أن يقفز نحو سهم موجهاً نحوه سلاحه..

أدرك سهم منذ اللحظة الأولى أن إطلاق النار صعب في هذا الموقع الضيق، خصوصاً عندما يقف وسط الجنود مع خطورة إصابة رفاقهم.. لذلك استغل هذا التردد ليصيب بقبضة قاسية فك الجندي وأنفه قبل أن ترميه ضربة أخيرة أرضاً.. كان الجندي الثاني في تلك اللحظة قد تمكن من النهوض بعد أن أبعد رفيقه من فوقه، لكن سهم ركله ركلة قوية أسقطته فاقد

الوعي مثل رفاقه..

ظلت ريم تراقب ما يجري بتوتر شديد، حتى رأت سهم يناديها بعجلة وهو يجرد جنديين من سلاحيهما.. فعلق أحدها على كتفه وحمل الآخر بيده، ثم تقدم بسرعة متجاوزاً الأجساد وهو يقول لريم "لنهرب قبل أن نواجه المزيد.."

تجاوزت ريم الأجساد بدورها بقلق كبير، ثم ركضت خلف سهم بما تسمح به قدمها المصابة وهي تهمس "كم بقي لنا بعد؟"

أجاب سهم "تحليّ بالصبر يا فتاتي.."

لم يكد ينهي جملته وهو يصل لنهاية السلم، حتى فوجئ بعقب سلاح يرتطم بفكه بقوة جعله يرتدّ للخلف قبل أن يسقط على السلم.. شهقت ريم بفزع وهي تقف، ورأت جندياً يقترب منهما بعد أن ظل مختبئاً في بقعة مظلمة أسفل السلم.. نظر له سهم وهو يفرك فكه بينما كان السلاح موجهاً لرأسه والجندي يقول بشيء من السخرية "كان عليك أن تكون أكثر حذراً وهدوءاً عند هروبك يا هذا.."

ثم لوح بسلاحه قائلاً بصرامة "ارمِ الأسلحة التي معك بعيداً.."

نهض سهم متحاملاً على نفسه وهو يشعر بألم في ظهره من سقوطه، فكرر الجندي الأمر بشيء من الحدة قائلاً "ارمِ الأسلحة بسرعة وارفع يديك في الهواء.. لا تجبرني على التعامل معك بعنف أكبر.."

لم يعلق سهم وهو يتناول السلاح المعلق على ظهره.. فرمى السلاح الأول أرضاً نحو قدمي الجندي، وفي اللحظة التي خفض فيها الجندي بصره يراقب السلاح بشكل لا إرادي، كان سهم يرمي السلاح الآخر بقوة في وجه الجندي تفاداها الأخير بصعوبة.. لكنه لم يكد يعتدل حتى وجد قبضة سهم تطير نحو وجهه، فرفع الجندي ذراعه ليتقي الضربة القاسية، عندما وجد ضربة أخرى ترتطم بفكه من الأسفل بقوة ألقته للوراء..

صاح سهم وهو يستعيد أسلحته "هيا بنا.."

تبعته ريم بسرعة وهو يغادر الموقع عبر باب يختلف عن الذي وصلا عبره للسور.. ليجدا نفسيهما أمام شارع مرصوف ملاصق للسور العالي ويشق طريقه بين الأحياء القريبة.. لم تكن المنطقة ذات حراسة شديدة، فلم يتردد سهم وهو يجذب ريم خلفه عبر الطريق ونحو الحي القريب وهي تسأله "ما فائدة لجوئنا للسور؟ عدنا من حيث بدأنا.."

فقال سهم "نحن في حيّ يختلف عن ذلك الذي يقع فيه قصر تولاد.. هنا لن يكون البحث عنا شديداً، كما أن طلوع النهار سيصعّب البحث على الجنود إن اختبأنا بين سكان المدينة.."

لم تعلق ريم وهو يركض نحو الحي القريب دون إبطاء محاولين الذوبان وسط الأهالي الذين نشطوا مع بداية النهار قبل أن تلمحهما أعين الجنود..

****

"ماذا تعني يا داميت؟"

صدر التساؤل من فم أحد أعضاء مجلس الحكماء والذي يتكون من ثمانية رجال من أهم رجال أنكاريا وأكثرهم تأثيراً.. وظل الأعضاء يحدقون بالوجه الساكن لأحدهم، وهو رجل يتجاوز الخمسين من العمر بلحية حمراء خفيفة وبشرة بيضاء وشعره الأحمر خالطه بياض واضح.. كانت عيناه العسليتان هادئتان وهو يقلّب بصره في بقية الأعضاء قبل أن يقول "كما قلت لكم، تولاد قد امتلك جهازاً جديداً.."

تبادل الأعضاء نظرات متوترة، بينما قال أحد الأعضاء "مرة أخرى؟ لماذا؟.. ظننت أننا كنا واضحين معه المرة الأولى.."

مال داميت نحوهم قائلاً "يبدو أنه لا يعير قوانين أنكاريا أي اعتبار.. والأدهى أنه يمتلك الجهاز منذ تسع سنوات.."

بان الانزعاج الشديد على وجوه بقية الأعضاء وأحدهم يقول بحنق "كيف؟.. لماذا يستمر بخداعنا طوال تلك السنين؟"

انبرى آخر يقول بانزعاج "قانون أنكاريا كان واضحاً، ورغم خداعه لنا في المرة الأولى، لكن ما كان عليه أن يعيد تصنيع هذا الجهاز مرة أخرى ضارباً عرض الحائط بكل القوانين.. أليس هو الرئيس؟"

فقال داميت "ليس هذا ما وصلني فقط.."

نظر البقية إليه باستغراب، فأضاف داميت "ما وصلني أنه يملك خططاً أخرى"

وإزاء النظرات المتسائلة، قال عاقداً حاجبيه "سمعت أنه ينوي إعادة شعب أنكاريا كله.."

اتسعت الأعين بعنف وأحد الأعضاء يصيح "محال.. كيف يمكن ذلك؟"

فقال داميت وهو يدير بصره في وجوههم "أنتم تعلمون أن الجهاز قادر على ذلك.."

تبادل الأعضاء نظرات الصدمة العنيفة وأحد الأعضاء يقول بعصبية "يعيد أنكاريا لتواجه مصيراً بشعاً هناك؟.. ما الذي سيجنيه من هذا؟ لقد حصلنا لأول مرة في تاريخنا على أمان لم نكن نحلم به هناك.. فلماذا؟!"

بينما عضو آخر يقول بصوت مرتجف "هذا محال.. أينوي تولاد القضاء على شعب أنكاريا كله؟.."

ثم قال آخر "كيف علمت بكل هذا يا داميت؟.."

قال داميت عاقداً حاجبيه "علمته من مصدر موثوق طبعاً.. أخبرني به أحد العلماء العاملين في مختبرات تولاد.."

تساءل العضو بدهشة "كيف حدث ذلك؟"

قال داميت بابتسامة "لقد تمكن مساعدي الأول بالدو من الوصول لأحد العلماء وإقناعه بالعمل للمجلس .. لذلك لا أشكك في المعلومات التي وصلتني بتاتاً.."

بدا القلق والتوتر واضحاً على الوجوه بشكل عنيف.. فصمت داميت وهو يرى الأعضاء يتبادلون التعليقات المنزعجة التي

يفوح منها ذعر واضح.. وبعد أن منحهم عدة دقائق لاستيعاب تلك الفكرة، نهض واقفاً وهو يقول "أيها السادة.. ما عاد بالإمكان الصمت على كل هذا.. تولاد يخالف القوانين صراحة.. ولو كان مجرد رجل عادي، لكان بالإمكان الاكتفاء بالاستيلاء على الجهاز.. لكن أن يكون رئيس مجلس الحكماء، والذي من المفترض أن يسخّر نفسه لحفظ أمن أنكاريا وسلامة شعبها، فهذا ما لا يمكن السكوت عليه.."

تساءل أحد الأعضاء بقلق "ما الذي تقترحه يا داميت؟.. نحن معك في جميع الأحوال.. فلا يمكننا الصمت على ما قد يضرّ بأمن أنكاريا.."

علت ابتسامة جانبية شفتي داميت وهو يرى الأعضاء ينظرون له بلهفة.. لقد آن الأوان لإعادة الأمور لنصابها.. ولمعاقبة كل من يحاول المساس بأنكاريا العظيمة..

****

بعد وقت طويل قضياه متسللين في جوانب أنكاريا، وقد ارتفعت الشمس في السماء، دون أن يخفت قلق ريم وذعرها لدى رؤية أي جندي، وصل الاثنان لأحد الجبال التي تنتصب ملاصقة لتلك الهضبة العالية والثلج يغطي قمته البعيدة..

تساءلت ريم وهي ترى الطريق يقودهما لفتحة في الجبل ويهبط بهما لأسفل في قلبه "أهذا سبيلنا للفرار من أنكاريا؟"

قال سهم "ليس من هنا.. لكن يجب أن نجتمع بالرفاق قبل ذلك.."

بدأ الطريق الذي تجاوز أحياء أنكاريا القريبة ينحدر أكثر عبر مغارة واسعة الفتحة في قلب الجبل.. وهناك، قال لها سهم "مرحباً بك في أحياء مواطني الدرجة الثانية.."

نظرت ريم حولها بدهشة للمغارة الواسعة عالية السقف في قلب الجبل، وقد احتلّت المنازل الحجرية أغلب جدران تلك المغارة بشكل رأسي بحيث تعلو بعضها البعض.. منازل عادية من حجارة بدون تلك البهرجة التي تبدو على منازل مواطني الدرجة الأولى.. كما تغطت مساحة واسعة من أرضية المغارة بتلك المنازل البسيطة ومساحات قليلة قد تم رصفها، ومجرى للمياه يعبر ذلك الحيّ قادماً من القمة الثلجية لذلك الجبل.. كان الجو دافئاً في هذه المغارة مقارنة بباقي أحياء أنكاريا، لكنه نوعاً ما كان خانقاً وساكناً بشدة..

بدا لريم ذلك الحيّ مختلفاً بشدة عن باقي أحياء أنكاريا بحيث شكّت أنه ينتمي للمدينة ذاتها.. كان يبدو كأنقاض بعض المدن القديمة التي رأتها في عالمها السابق، وبدا أكثر بؤساً من القرية التي كانت فيها.. على الأقل، كانت القرية تنعم بنور الشمس وبالفضاءات الشاسعة..

سمعت سهم يناديها لتتبعه، فعادت لواقعها وأسرعت خلفه عبر الطريق المرصوف وبين المنازل البسيطة وريم تتأملها عن

قرب.. ثم رأت رجلاً يقترب من سهم قائلاً "مرحباً بعودتك يا سهم.. كنا بانتظارك، لكنك تأخرت حتى شككنا أن الجنود قبضوا عليك.."

ونظر لريم باهتمام بينما قال سهم "في الواقع كادوا يفعلون ذلك عدة مرات.. أين البقية؟"

أجاب الرجل "في منزلي.. أتظن الجنود على إثركما الآن؟.."

قال سهم "اطمئن.. لن يأتوا الآن.. ليس قبل أن نفرّ من أنكاريا كلها.."

فغمغم الرجل وهو يقودهما عبر الطريق المرصوف "لا أريد أن يداهموا منزلي ويكتشفوا تعاوني معكم.. عائلتي ستتضرر من ذلك بالتأكيد.."

وصلوا لمنزل لا يختلف عن غيره من المنازل، ودخلوه لتجده ريم أكثر حرارة وسكوناً من المغارة نفسها، فبدا لها خانقاً رغم النوافذ المفتوحة فيه في محاولة بائسة لتهويته.. تساءل سهم وهو يتأمل المنزل "أين البقية؟.. وأين عائلتك؟"

قال الرجل وهو يشير لمقاعد في جانب المكان "أرسلت عائلتي لمنزل صديق لي، فهذا أأمن لهم في الفترة الحالية .. أما البقية، فهم في موقع قريب ولا شك.. سأذهب لمناداتهم، فانتظروا هنا.."

وغادر من فوره مغلقاً الباب خلفه، فجلس سهم جانباً بينما ظلت ريم واقفة تتأمل تفاصيل المكان.. كان المنزل بسيطاً بشدة، بأثاث قديم مستهلك، تمت تغطية أجزائه بقماش مطرز.. وعدد من الطاولات الخشبية في المكان قد بدا عليها القدم وتغيرّ لونها أو تم استبدال سيقانها بأجزاء مغايرة.. الجدران قد صبغت بألوان مشرقة لمنح المكان تغييراً عن الكآبة المخيمة على الحيّ، لكن الألوان قد تغيرت في مواضع كثيرة وبدا عبث الأبناء فيها واضحاً في مواضع أخرى..

سمعت سهم يقول لها "أريحي قدمك قليلاً يا ريم فأنت متعبة ولا شك.."

تساءلت ريم وهي تجلس بدورها "من هو هذا الرجل؟"

أجاب سهم "هو صديق تعرفت عليه أثناء إقامتي في هذا الحي.. فقد كانوا يمنعوني من الإقامة في مبنى الجنود الخاص بتولاد إلا في أيام عملي، وفي الأيام الأخرى أضطر للعودة لهذا الحي والإقامة فيه بشكل مؤقت.."

لم تعلق ريم وهي تتساءل من جديد "من هم البقية الذين ننتظرهم؟"

ابتسم بجانب فمه مجيباً "سترين بعد قليل.. والآن، اخلعي حذاءك لأرى ما حلّ بقدمك.."

غمغمت "لكن قدمي بخير الآن.."

فقال سهم "لو كانت بخير لما كنتِ تعرجين.. دعيني أراها لأطمئن.."

خلعت ريم الحذاء الخاص بالجنود، وظهرت قدمها متورمة قليلاً وبلون أحمر واضح.. فقال سهم وهو يتفحصها "كدمة بسيطة، لا تحتاج إلا لقليل من الراحة وبعض الكمادات.."

سمعا لغطاً خارج المنزل، وما لبث الباب أن فتح ليدخل منه صاحب المنزل مع شخصين آخرين.. تعرفت ريم على يعقوب

على الفور رغم التغيرّ الواضح في ملامحه واللون الأبيض الذي غزا شعره ولحيته وهو يتساءل "أهذه هي؟"

لم يكن سؤاله بحاجة لإجابة وهو يقترب من ريم قائلاً "لقد كبرتِ يا فتاة.. حمداً لله على عودة الوعي إليك.. فقد طال نومك.."

لم تعرف ريم بمَ تجيبه، فاكتفت بابتسامة محرجة.. ثم لاحظت ذلك الرجل الذي دخل خلف يعقوب ووقف ينظر لها بصمت.. كان هو سليم ذاته.. بعويناته العتيقة وشعره المبعثر ولحيته النامية.. وإن ازدادت ملامح وجهه تعباً وازدادت الشعيرات البيضاء في شعره ولحيته..

رأته يتقدم منها فيجلس قربها ونظراته تفضح قلقه الشديد قائلاً بلهفة "هل أنت بخير يا ريم؟ حقاً أنت بخير؟"

لم تجب وهي ترمقه بصمت.. كانت حائرة بعد كل ما عرفته عنه.. رغم معرفتها القصيرة به، شعرت بشيء من الثقة تجاهه وأصبح بمثابة أبٍ تثق به وتطمئن إليه في هذا العالم الغريب.. لكنها بعد ذلك اكتشفت أنه خائن غدر بها وسلّمها لمصيرها خوفاً على عنقه هو.. فكيف عليها أن تتعامل معه الآن؟..

ويبدو أن نظراتها قد أصابته في الصميم، فصمت بدوره وهو يبعد عينيه عنها، ثم خفض رأسه وهو يقول بصوت مرير "سامحيني يا ريم.. يحق لك أن تكرهينني.. لقد أخطأت ولا أرجو منك غفراناً على ما فعلته.. لكني عملت بنصيحة تيمار وحقنتك بتلك المادة بشكل متكرر.. كنا نأمل أن تؤثر في جسدك بحيث تجبر تولاد على إعادتك لعالمك أملاً في شفائك، وعندها لن يطالك مرة أخرى.. لكن ما أدراني أنه بهذا العناد والقسوة؟.. ورغم ذلك، أتمنى أن تسامحيني يا ريم...."

نظرت له ريم بانفعال وهي تكبت دموعها بصعوبة.. لم تظن في يوم أن يبدو سليم بهذا الانكسار.. فهل لها أن تلومه وهي تعلم أنه حاول إعادتها لعالمها بشتى الطرق؟..

ظل سليم يغمغم دون أن يجرؤ على رفع بصره نحوها "سامحيني يا ريم.. سامحيني.."

وجدها تضع يدها على يده برفق، ثم قالت بصوت خافت "إن سامحتك، هل ستناديني بابنتي كما كنت تفعل سابقاً؟"

لم يرفع سليم رأسه وهي ترى دمعة سارع لمسحها قبل أن يلاحظها أحد مغمغماً "أنت تجعلينني أظهر بمظهر الوغد الذي لا يطاق.."

ابتسمت ريم وهي تقول "حتى لو كنتَ وغداً.. فأنت ساعدتني في أوقات كثيرة.. أحياناً كنت أراك مرعباً، لكني أحياناً كنت أشعر بك كأب لي.."

سمعت سهم يغمغم من خلفهما "لو استمررتِ بهذه الطريقة فلا أشك أن ينفجر سليم بالبكاء الآن"

نظر له سليم بحنق، بينما ضحكت ريم وهي تقول "سيكون ذلك منظراً مبهجاً.."

غمغم سليم "أنتما تهزآن بمشاعري.."

فقالت ريم بابتسامة "إن كنتَ تريدني أن أكف عن ذلك، عدني أنك لن تتجنب النظر في عيني مرة أخرى.."

صمت سليم للحظات، قبل أن يرفع بصره إليها ويواجه عينيها قائلاً "لن أفعل ذلك أبداً يا ابنتي.. أعدك بذلك.."

اتسعت ابتسامتها بينما قال سهم وهو يدير بصره بعيداً ويحك أنفه "ما كل هذه الانفعالات؟ اعفوني منها رجاءً"

فقالت ريم بابتسامة "من الذي سينفجر بالبكاء الآن؟"

ضحك سليم لمنظر سهم الذي احمرّ وجهه وهو يصيح "من الذي سيبكي أيتها الحمقاء؟.."

نظر سليم لوجه ريم الذي بدا عليه الابتهاج، وغمغم "حمداً لله.. كنت أظنني سأرى فتاة غاضبة حانقة لكل ما جرى لها.. لكن..."

قاطعته ريم قائلة بانشراح ظاهر "لست غاضبة بتاتاً.. بل أنا سعيدة حقاً لرؤيتكم، وسأكون أسعد بعودتي للقرية.."

نظر لها سليم متسائلاً "هل تخليتِ عن فكرة عودتك لعالمك الأصلي؟"

كان السؤال مثار حيرة ريم لوقت طويل، فصمتت للحظات محاولة العثور على إجابة في نفسها، بينما قال سهم بضيق واضح "إلامَ تهدف بتذكيرها بما مضى؟"

غمغمت ريم "لكني لم أنسَ ذلك لحظة واحدة.."

نظر لها سهم رافعاً حاجبيه، ثم قال باستنكار "أتنوين الرحيل حقاً؟.."

هزت كتفيها مجيبة "لا أعلم.. لقد تراجعت هذه الأمنية كثيراً حتى ما عدت واثقة من وجودها في نفسي.."

ونظرت لسليم مضيفة "كل ما أريده الآن هو أن أتخلص من أمر تولاد نهائياً.."

هز سليم رأسه قائلاً "لكن عليك تقرير هذا في الساعات القليلة القادمة.. لو غادرنا أنكاريا، ستكون عودتنا إليها ولقصر تولاد مستحيلة تماماً.. وتولاد هو الوحيد الذي يملك وسيلة إعادتك.."

هزت ريم رأسها موافقة رغم أنها لا تزال غارقة في حيرتها.. وبعد ابتعاد الآخرين عنها، اقترب سهم من ريم وأمسك يدها متسائلاً بقلق "أنت لن ترحلي يا ريم.. أليس كذلك؟.."

نظرت لعينيه بصمت للحظات، ثم قالت "لا أعلم يا سهم حتى الآن.. هل عليّ الرحيل إلى عالم لم أعد أنتمي إليه؟ أم عليّ البقاء في عالم لم أنتمِ إليه بعد؟"

فقال سهم ضاغطاً على يدها "أنتِ تنتمين لهذا العالم .. أنت ولدتِ هنا، فهذا عالمك بالأساس.. نحن كلنا معك، فلماذا ترمين كل هذا خلف ظهرك وتعودين لعالم لا تعرفين كيف أصبح بعد كل تلك السنوات؟!"

صمتت ريم بحيرة أصابت سهم بشيء من الغيظ، فقال بحدة "ريم.. أنت مدركة أنك لن تتمكني من العودة بتاتاً عند رحيلك.. أليس كذلك؟.. سليم يؤكد أنك لن تتمكني من العودة أبداً.."

أطرقت ريم وهي تغمغم "لكني لا أستطيع البقاء دون أن أعود إليهما.."

ثم رفعت بصره إليه مضيفة بخفوت "لا يمكنني تركهما بعد كل ما جرى.. أنا مدينة لهما بكل ما قدماه لي، ولذلك....."

أمسك سهم بذراعيها بقوة وهو يقول بحدة "وماذا عني أنا؟.. ألستِ مدينة لي بأي شيء؟.. ألستِ مدينة لي بعذر أكثر ملائمة من هذا العذر الهزيل؟.. ألستِ مدينة لي بتفسير وأنت تنوين الرحيل دون عودة؟"

قالت ريم بضيق "وما الذي يمكنني فعله؟.."

قال سهم "أزيلي تلك الفكرة من رأسك.. اقتنعي بكل ما حصلت عليه هنا، وانسي ذلك العالم تماماً.."

فقال سليم الذي كان يجلس قريباً "لا تحاول التأثير على قرارها يا سهم.."

قطب سهم بضيق قائلاً "أتريد الخلاص منها؟"

اعتدل سليم مجيباً "قطعاً لا.. لكن ليس من حقي استبقائها ضد إرادتها.. فلتقرر هي مصيرها بنفسها.."

نظر له سهم بغيظ، بينما أضاف سليم "لقد أتينا جميعاً لأنكاريا لنعينها على العودة لعالمها.. هذا هو الهدف مما نفعله الآن.."

قال سهم بحنق "كيف يكون تهريبها من القصر هو الوسيلة لإعادتها لعالمها؟"

تنهد سليم قبل أن يقول "نحن بهذا نشتت الجنود وبالتالي ستخف الحراسة على القصر مع استماتة تولاد في البحث عن ريم.. وفي الليل، سنحاول التسلل للقصر واستخدام الوسيلة التي يملكها تولاد لإعادة ريم.. وبعدها، مهما حدث لنا، لن يتمكن تولاد من استعادة ريم أو التدخل في حياتها بتاتاً.."

فعلق سهم محتداً "وتظن أنني سأعينك على ذلك؟"

أجاب سليم بحزم "لا، لكن القرار لا يرجع إليك.. هذا هو قرار ريم بالأساس.."

لم يعلق سهم وهو يبتعد بضيق واضح لينضمّ للآخرين، بينما حاولت ريم تمالك الضيق الذي غمرها وهي تجد أنها قد خيّبت ظن سهم بها.. ثم لاحظت أن سليم يراقبها بصمت، فغمغمت "هل سأكون قاسية لو رحلتُ دون الاهتمام بما قد يشعر به سهم؟"

أجاب سليم "كما قلتُ لك، هذا قرارك أنت وحدك.. لا تهتمي بما سيبدو به قرارك للآخرين واهتمي بما يسعدك أنتِ.."

ثم قال وهو يراقب انفعالاتها "أنت تدركين أن سهم يحبك.. أليس كذلك؟"

ابتسمت ريم بحيث بدت غمازتيها وسط خديها المتوردين وهي تقول ببساطة "أجل .. بدا لي ذلك واضحاً منذ استيقاظي.."

ظل سليم ينظر لها بشيء من التعجب، قبل أن ينظر لما أمامه معلقاً "ربما كان هذا من حسنات غيبوبتك التي دامت تسع سنوات.. أنت لازلت تحتفظين ببراءة الطفولة ونقاوتها.."

ضحكت ريم وهي تقول "أهذا مديح أم ماذا؟"

ابتسم سليم قائلاً "بالطبع هو مديح يا طفلتي.."

صمتت ريم وهي تراقب سهم لفترة من الوقت، ثم غمغمت "أتراني حقاً كطفلة؟"

والتفتت لسليم المتعجب مضيفة "ألا يراني الآخرون بلهاء بعقل طفلة؟.. لقد فقدت سنوات طويلة من عمري، وهذا قد يؤثر في نظرة الناس إليّ، أليس كذلك؟"

ربت سليم على رأسها وهو يقول "بل أنت رائعة يا عزيزتي.."

انتبهت لجدالٍ يحتدم بين البقية المتحلقين في جانب المكان، ويعقوب يقول "يجب أن نغادر حالاً.. لا ندي متى سيستدلّ الجنود على هذا المكان.. ولا نريد تعريض الجميع للخطر.."

فقال سهم باعتراض "لكن ريم لا تقوى على ذلك الآن.. كما أن من الخطورة بمكان التنقل في وضح النهار.. لننتظر حلول الليل"

هز يعقوب رأسه برفض وهو يقول "استمع لما أقوله يا فتى.. نحن نعرض أنفسها للخطر بكل دقيقة نقضيها هنا.."

فاقترب سهم من سليم متسائلاً "ألا يمكن لتيمار مساعدتنا على التسلل من أنكاريا؟.. هذا سيكون أسهل بكل تأكيد.."

أجاب سليم "لا.. لا نريد أن نكشف أمره، ولا نريد المخاطرة بالاعتماد عليه أكثر من ذلك.. ثم إننا لن نرحل من أنكاريا قبل أن تتخذ ريم قرارها.."

قطب سهم شيئاً ما بينما غمغمت ريم بشيء من القلق "أتظن أنه بخير؟"

أجاب سليم "لنأمل ذلك.."

ثم نظر ليعقوب قائلاً "لننتظر ساعة على الأقل قبل الرحيل.. بحث الجنود عن ريم قائم الآن ولا نريد المخاطرة بها قبل تأمين طريقنا بشكل تام.."

تساءلت ريم باهتمام "لماذا قرر تيمار معاونتك ضد رغبة أبيه؟.. إنه شخص بارد لا يتعاطف مع الآخرين، فكيف بذل كل ذلك الجهد في قضية لن تسبب له إلا المتاعب؟.."

أجاب سليم "لست أدري حقاً، فهو لا يفصح الكثير عن ذلك.. لقد فوجئت به في يوم ما قرب أسوار القرية عارضاً عليّ معاونتي على إعادة الأمور لنصابها، وتصحيح ما فعله تولاد.. وكان ذلك قبل قدومك لهذا العالم بأيام قليلة.. وخلاف ذلك، فهو شخص كتوم قليل الكلام ولا يبرر أفعاله بتاتاً.."

زادتها إجابته تعجباً من تصرفات تيمار، ثم نظرت لسليم بفضول أكبر وهي تقول "وماذا عنك؟.."

نظر لها بدهشة متسائلاً "ماذا عني؟!"

قالت باهتمام "أنت لم تخبرنا بعد من تكون حقيقة.. وما الذي يجعلك تلتجئ لتلك القرية.. أين هو موطنك الأصلي؟.. وما هي حقيقتك التي كنت تخفيها؟"

بدا الاهتمام على وجوه الجميع، وسهم يقول "أجل.. لم يعد هناك أي داعٍ للاحتفاظ بهذا السر.."

وجد الجميع يتحلقون حوله منصتين وريم تقول "هيا يا سليم.. أخبرنا من تكون أنت حقاً.."

فقال سليم بعد لحظة صمت "حسناً.. لم يعد هناك داعٍ للكتمان كما قال سهم.. في الواقع.. أنا أيضاً من العالم الآخر.."

اتسعت الأعين بصدمة مذهولة وسهم يصيح "أنت أيضاً؟.. كيف؟.. ولماذا؟"

قال سليم "لا داعي لكل هذا الانفعال.. أجل، أنا من ذلك العالم.. وما جاء بي إلى هنا حادث قد يعتبره البعض مأساوياً، بينما أعتبره أنا أفضل ما حدث لي في السنوات الأخيرة.."

لم يعلق أحد بكملة بينما أضاف سليم "في عالمي، كنت عالِماً مرموقاً يتنبأ لي الجميع بمستقبل باهر.. وقد قضيت تلك السنوات وأنا متأكد أن مستقبلي سيسير من رائع لأروع.. لكن بسبب حادث أحمق، بسبب رجل فضّل أن ينام وهو يسوق شاحنته بدل أن يتأخر في الطريق لوجهته، فقدت كل شيء.. لم أفقد حياتي.. لكني فقدت كل ما عدا ذلك.. فقدت بصري.. وفقدت أعضائي كلها.. أصبت بشلل رباعيّ أقعدني الكرسي المتحرك، ولم يكن هناك حاجة لاستخدامي لذلك الكرسي فما عاد هناك ما يمكن أن أقوم به مع فقداني لبصري.. بدأ الجميع يتنصلون مني.. وبدأت مكانتي تنحدر انحداراً سريعاً حتى أصبحت كماً مهملاً وعالة على مجتمعي يتمنى الكل الخلاص منه.."

نظرت له ريم بصدمة وأسى بينما تبدّت دهشة عميقة على وجه سهم.. ثم علق بعد برهة صمت سادت المكان "لكنك بخير الآن.. أتحاول خداعنا بخدعة هزيلة كهذه؟"

هز سليم رأسه زافراً للحظة، ثم قال "بينما كنت في عزلتي المضاعفة.. عزلتي من العالم ومن الناس ومن الإحساس بأي شيء أو رؤية أي شيء.. فاجأني في إحدى الليالي صوت طنين مزعج تعالى قريباً مني بالإضافة للفحات هواء حارة دارت في الغرفة المغلقة.. لم يكن الخادم الذي عيّنه أحد أقربائي لي قريباً مني في تلك اللحظة.. ناديته مراراً وتكراراً ليعرف ماهية ذلك الصوت، لكن رغماً عني لم يخايلني أي رعب.. فحتى لو تسبب ذلك الصوت بفقداني لحياتي، فأي حياة تلك التي أخشى على فقدانها؟.. في الواقع ظللت في تلك اللحظات أحلّل ما أسمعه وأحاول إيجاد تفسيره بعقل علمي منهجي خالٍ من أي لمحة بشرية.. لكن قبل أن أصل لأي نتيجة وجدت وعيي يغيب فجأة وجسدي يسقط أرضاً، وفي الواقع لم أدرك سقوطي بسبب غياب الإحساس في جسدي إلا عندما ارتطم رأسي بالأرض بعنف.."

غمغمت ريم "هذا نفس ما جرى لي.."

لم يعلق أحد على قولها، فيما أكمل سليم قائلاً "عندما عاد لي الوعي، شعرت بآلام شديدة في جسدي، وشعرت بالأرض الصخرية القاسية تحتي.. تأوهت لشدة الألم واعتدلت جالساً بتلقائية وأنا أغمض عينيّ لشدة النور الذي أعشاهما.. عندها، لطمتني الفكرة وبدأ الاستيعاب ينهمر على رأسي.. فتحت عيناي على اتساعهما رغم الألم الذي يحرقني فيهما.. ونظرت حولي لأجد تلك السهول التي تغزوها الأشجار واضحة أمام عيني.. لم يذهلني مرأى ذلك المكان الغريب الذي وجدت نفسي فيه بقدر ذهولي لاستعادتي البصر في وقت قصير وبسبب حادث غير مفهوم.. ولك أن تدرك مدى ذهولي

لرؤية جسدي يستعيد قدرته على الحركة دون سبب أعرفه.."

ظل الجميع ينظرون له بصدمة بينما قال سليم "كنت مذهولاً.. لكن سعادة شديدة كانت تغمرني ولا تجعل لأي تساؤل مكاناً في صدري.. فليكن ما يكون.. ما السيئ في استعادة كل ما فقدته حتى لو رمى بي ذلك في مكان مجهول وموحش؟.. حتى عندما رأيت تلك الكائنات الطويلة الصامتة تسير جماعات قربي، رغم الذعر الذي اعتراني لرؤيتها، فإن هذا لم يزدني إلا تشبثاً بموقعي هنا.. كل ما دار بذهني أنني لا يمكن أن أتخلى عن كل ما جنيته في هذا المكان.. حتى جاؤوا هم....."

نظر له الجميع باهتمام وهو يضيف "لم أكن متعجباً من رؤية مركبتهم عندما ظهرت أمامي كما كان تعجبي لاحقاً عندما علمت أن هذا العالم لم يحظَ بالتطور الذي اعتبرناه طبيعياً في عالمنا.. إنما انتابني فضول لمعرفة كيفية عملها وهيئتها الغريبة.. بدت لي أكثر تطوراً عما عهدته، خاصة أنها لا تسير على الأرض بل ترتفع عنه مسافة معقولة، ولم يبدُ لي أنها تعمل بالوقود الذي اعتدناه.. ولكن استغرابي ازداد أكثر عندما سمعتهم يتحدثون اللغة العربية بلكنة غريبة عليّ.. حاولت ربط الأمور ببعضها البعض دون فائدة.. فرغم كل تخميناتي، لم يدُر بذهني فكرة العوالم الموازية قط.."

نظر له الجميع بدهشة وعدم فهم، ثم تساءل سهم "ما الذي تعنيه بذلك؟.."

فقال سليم موضحاً المغزى بيديه "لو فرضنا أن العالم من حولنا ليس كما نراه فقط.. هناك عدد من العوالم المشابهة لعالمنا تشغل الموقع ذاته الذي يشغله عالمنا.. لكن لا يرى كل عالم الآخر ولا يشعر به بتاتاً، لأن كل عالم يختلف في ذبذبته عن العالم الآخر.. كل العوالم، رغم الاختلافات فيها، متشابهة في الأصل.. كل عالم منها فيها سليم آخر، يختلف عني في الشكل وفي الاسم، لكن في الوقت ذاته هو أنا بلا ريب.."

تساءل يعقوب بدهشة "أتعنى أن....."

أجاب سليم "أجل.. هو عالم واحد.. أو بمعنى آخر نسخاً عديدة من عالم واحد.. لكن هناك اختلافات فيها قد تكون طفيفة وقد تكون كبيرة.. التطور في هذا العالم وبيئته يختلفان تمام الاختلاف عن بيئتنا في العالم العربي.. بعض الحيوانات والكائنات تختلف.. لكن في الأصل، هما عالم واحد.."

ثم عاد لروايته الأصلية قائلاً "عندما جاءت تلك المركبة نحوي، كنت قد قضيت ليلة من أسوأ لياليّ في هذا العالم.. عند وصولي، فاجأتني ثورة الحيوانات في ذلك الموقع، وأغلب الظن أن انتقالي لهذا العالم قد أحدث تغييرات كبيرة سببت لتلك الحيوانات التوتر والميل للعدائية دون سبب.. لا أعلم كيف تمكنت من البقاء حياً طوال تلك الساعات، لكن عندما وصلت تلك المركبة، شعرت أن فيها خلاصي.. وعندما أبلغوني برغبتهم أخذي معهم، وافقت بكل حماس طبعاً.. وهنا، التقيت بتولاد.."

وتنهد مضيفاً "دعوني أخبركم، لم أرتحْ لهذا الرجل منذ البدء.. كان صارماً بشكلٍ قاسٍ.. هادئاً بشكل يغيظ.. ولا يستمع للمنطق بأي حال.. كان....."

سمعوا خلفهم من يقول بهدوء وصوت مبحوح "لم أظن فكرتك عني كانت سيئة لهذه الدرجة يا سليم.."

انتفض الجمع برعب وقد هبّ سهم ويعقوب واقفين، بينما ارتجفت ريم في موقعها وهي تنكمش قرب سليم وتنظر نحو الباب حيث وقف تولاد بطوله الفارع وبمعطفه المطرز والبرود القاتل في عينيه الهادئتين .. تدافع الجنود من حولهم محيطين بهم وسارعوا لنزع أسلحة الرجال وقائد فرقة الجنود يقول لهم بصرامة "لا تحاولوا المقاومة.. فباستثناء الآنسة سانا، لا يهمنا بقاء أي منكم على قيد الحياة.."

لم يعترض سهم أو بقية الرجال وهم يقفون بصمت مراقبين ما يجري.. بينما وقف سليم ببطء وهو يقول "كيف استدللت على هذا المكان؟.."

ابتسم تولاد وهو يقترب من ريم قائلاً "لستَ الوحيد الذي يملك عيوناً في كل مكان.."

نظر سليم بصدمة للفكرة، ثم دار ببصره في الرجال من حوله.. من قد يكون جاسوساً لتولاد؟.. من الذي خانهم حقاً؟.. حتى تيمار لا يعلم خطة هروبهم فور مغادرتهم القصر.. لكن تولاد تقدم من ريم وأنهضها واقفة، ثم مدّ يده ولمس الحلية المدلاّة من أذنها قائلاً بابتسامة "سعيد أن أراك تحتفظين بهديتي يا سانا.. فهذا يدلّني على مكانتي عندك.. وبفضلها، استطعت استعادتك قبل أن يسمّم هذا السليم أفكارك.."

اتسعت عينا ريم بصدمة ولطمت يده بعيداً، ثم نزعت الحلية بشيء من العنف وألقتها أرضاً لتدوسها بقدمها بقوة.. نظر تولاد للحلية المحطمة والتي بدت في أجزائها قطعٌ صغيرة من جهاز تتبع خاص به، ثم غمغم بابتسامة "لم يعد هذا مهماً الآن.. لقد عدتِ إليّ ولم أعد بحاجة لأي أجهزة.."

وقبض على يد ريم بقبضة قوية وجذبها خلفه خارجاً من المنزل، فهبّ سهم محاولاً استعادتها منه لكن قابلته ضربة قوية من سلاح أحد الجنود أعادته للخلف بعنف وسط صياح ريم المرتعب، بينما منعت الأسلحة المشهرة البقية من التدخل..

قال قائد فرقة الجنود لتولاد قبل أن يغادر "ما هي تعليماتك يا سيدي بشأن هؤلاء؟"

قال تولاد ببرود "سلّموهم لمجلس أمن أنكاريا.. أخبروهم أن مثيري الشغب هؤلاء قد اقتحموا قصري واختطفوا ابنتي.. فليحكموا عليهم بما يستحقونه.."

صاحت ريم بجزع "لا.. لا تفعل ذلك.."

لكن تولاد قال لها وهو يجذبها "اهدئي يا عزيزتي.. سأعمل على إزالة كل الأفكار التي سمموا عقلك بها.."

جذبت ريم يدها بقوة محاولة الإفلات وهي تقول "اتركني.. لا يحق لك إجباري على العودة.. أنا أريد الرحيل، ولا أريد البقاء معك.."

لم يعلق تولاد وهو يسير بها على الطريق المرصوف الذي يمرّ في ذلك الحي وسط نظرات الفضوليين من الأهالي، فقالت ريم برجاء وهي تحاول استيقافه "أرجوك.. أطلق سراحهم ولا تعاقبهم.. لا ذنب لأحد فيما جرى.. أنا المسؤولة عن التخطيط

لهروبي هذا.."

نظر لها تولاد بابتسامة جانبية وقال "أظننتِ أنني سأنخدع بكلمات كهذه؟.. لن تستسلمي وتكفّي عن التفكير بالفرار حتى تنتهي علاقتك بهذه الشرذمة نهائياً.. وثقي بي، أنا من سيضع نهاية لكل هذا.."

وجذبها عنوة رغم اعتراضها خارجين من ذلك الحيّ القاتم الذي بقي فيه الهواء ساكناً كما كان وكما سيظل دائماً..

****

الفصل الحادي عشر « كل ما مضى وكل ما هو آتٍ.. ا »

دخلت ريم جناحها بخطوات سريعة وعرج واضح وهي تحاول تمالك انفعالها وتعض على شفتها السفلى بقوة لتمنع نفسها من البكاء بغيظ.. ثم دخل خلفها تولاد بهدوء ورآها ترمي نفسها على أقرب كرسي وتضع وجهها بين يديها بصمت.. فقال وهو يقترب منها "لم تفعلين كل ذلك يا سانا؟.. بذلت جهدي لاستمالتك طوال الأسابيع الماضية، وظننت أنك قد عدلت عن فكرة الرحيل بتاتاً.. فلماذا؟"

نظرت له بغضب وهي تصيح "لماذا؟.. لا يحق لك إجباري على البقاء في مكان لا أريده.. لا يحق لك إجباري على معاملتك كأب لي.. أنت لست أبي ولن تكون كذلك أبداً.. ألا تفهم؟"

قطب وهو يقف عندها قائلاً "إذن لمن ستذهبين؟.. من يمكنه أن يجعلك تتخلين عن عائلتك وترحلين؟.."

لم تجبه وهي تشيح بوجهها بغضب ظاهر، فقال بوجه قاتم "سليم؟.. أهو السبب؟.. لو أنه سبب إصرارك على الرحيل فسوف....."

نهضت ريم وهي تصيح في وجهه "ليس لسليم أي دخل في ما يخصني.. أريد الرحيل من هذا العالم كله.. أريد العودة لأبويّ.. أريد نسيان كل ما جرى هنا.."

وأخفت وجهها بين يديها ودموعها تسيل على خديها رغم محاولاتها الكفّ عن البكاء.. فربت تولاد على كتفها قائلاً برفق "لماذا تريدين الرحيل؟.. أنا أبوك.. وهذا عالمك.. هذه مدينتك يا سانا.."

لطمت يده بعيداً وهي تصيح "إذن لماذا وجدتُ نفسي في ذلك العالم؟.. ما الذي أجبرك على إرسالي بعيداً مادمت مصراً على أكاذيبك هذه؟.. أليس من حقي معرفة الحقيقة؟.."

نظر تولاد لدموع ريم التي انحدرت على خديها وللغضب الظاهر على وجهها، ثم قال لها مقطباً "لماذا تصرّين على معرفة كل ذلك؟"

صاحت بغضب "ألا يحق لي ذلك؟ لقد هدمت حياتي منذ كنت في التاسعة من عمري.. لم أعد أعلم من أنا ولأي مكان عليّ أن أنتمي.. ألا يحق لي معرفة سبب كل ذلك؟"

تنهد تولاد وهو ينظر من النافذة لحديقته الغناء، ثم غمغم "لكنها حكاية طويلة جداً.."

فقالت ريم بتصميم "أريد معرفة ما حدث منذ البداية.. أنت مدين لي بذلك.."

عندها استدار تولاد لينظر إليها قائلاً "إذن كوني مستعدة.. وأرجو بعد أن تستمعي لما جرى أن تغفري لي كل ما سبق.."

لم تعلق ريم وهي تمسح دموعها وتثبت بصرها عليه بانتظار أن تسمع الحقيقة.. أن تعرف سبب كل ذلك العذاب الذي

مرت به منذ كانت طفلة لا تعرف من هذه الدنيا شيئاً..

****

قبل سبعة عشر عاماً...

في قصر فخم من قصور الطبقة الراقية، في أحد أحياء أنكاريا الجنوبية، وفي جانب من الحدائق الواسعة المحيطة به ذات الأشجار الوارفة والأزهار البهيجة، انتصب بناء كبير يحتلّ جانباً كبيراً من الحدائق .. كانت ذلك البناء يختلف تماماً في تصميمه الجاف والبسيط عن القصر المزخرف والفخم في أدق تفاصيله.. ولم يكن ذلك البناء إلا مجموعة من المختبرات التي شيّدها تولاد، المعروف بحبه للعلم، لإجراء تجارب لا يعلم أحد عنها شيئاً.. لم يكن ذلك القصر هو مسكن تولاد الأساسي، بل كان واحداً من قصوره وممتلكاته العديدة في أنكاريا.. وفي أحد غرف ذلك المبنى الملحق بالقصر، كان تولاد يجتمع كعادته مع رئيس المختبرات لينظر في آخر أخبار التجارب التي يجريها العلماء في مختبراته وتقدمها وما تحتاج لتطويرها.. وفي ذلك اليوم، قابله رئيس المختبرات قائلاً بلهفة واضحة "سيدي.. لديّ نتائج باهرة ستسرّك شخصياً.. وأرجو أن تعيد النظر في مسألة المخصصات السنوية للمختبرات، فهي بحاجة لمواكبة احتياجاتنا المتزايدة.."

نظر تولاد لرئيس المختبرات قائلاً "ما الذي أنجزتموه؟"

أجاب الرئيس بلهفة "أتممنا الاتصال بأحد العوالم الموازية لعالمنا بالفعل، وكانت النتائج باهرة.. يمكنني أن أبلغك رسمياً أن الاتصال بالعوالم الموازية قد تمّ بنجاح.."

فغمغم تولاد "لكننا لم نحصل على موافقة مجلس الحكماء بعد.."

قال الرئيس بقلق "لكنك أنت رئيس المجلس.. لن يكون الأمر بهذه الصعوبة.. أليس كذلك؟"

قال تولاد "أنت لا تعرف كيف تجري هذه الأمور.."

ثم اعتدل في مجلسه قائلاً "المهم.. كيف جرت التجارب السابقة؟"

قال الرئيس بحماس "كانت النتائج رائعة.. لقد أجرينا عدداً من التجارب التي كانت موفقة أكثر مما تخيلناه.. استخدمنا عدداً من الفئران، ثم انتقلنا للأرانب والقطط.. كما أجرينا تجربة على أحد الكلاب.. ورغم كل مخاوفنا فإن...."

صاح تولاد بحنق "فئران وقطط؟.. أهذه هي التجارب الناجحة؟"

ارتبك الرئيس وهو يقول "هذه هي البداية .. لن يمكننا التجربة على البشر قبل أن نتأكد أن تجربة كهذه آمنة بشكل تام.."

فعلق تولاد "لكن إن لم نقم بتجربة على البشر فلن نستطيع معرفة نتائج تلك التجربة.. وماذا عن الشبيه؟"

عدّل الرئيس نظارته وهو يقول "هذه هي الصعوبة الوحيدة.. فنظرياً، من المستحيل أن يتواجد نسختان من الشخص ذاته في عالم واحد.. ومادمنا نقلنا شخصاً، أو حيواناً، من هذا العالم للعالم الموازي، من الطبيعي أن ينتقل شبيهه لهذا العالم.. لكن لم نعثر على شيء من هذا في مختبراتنا، ولا في أنكاريا.."

قطب تولاد قائلاً "إذن؟ ما الذي ستفعلونه بهذا الأمر؟"

هز الرئيس كتفيه مجيباً "كما تعلم، يمكننا التحكم في المكان الذي نرسل إليه موضع تجربتنا في ذلك العالم.. لكن من العسير التحكم في الموقع الذي سينتقل إليه الشبيه بسبب تلك التجربة.. كان من المفترض أن ينتقل الشبيه للمعمل ذاته الذي جرت فيه التجربة، لكن ذلك لم يحدث في كل مرة رغم كل تجاربنا.. لكن....."

صمت مفكراً للحظة، فسأله تولاد باهتمام "لكن ماذا.. هل هناك وسيلة لمعرفة ذلك؟"

رفع الرئيس بصره إليه مجيباً "بعد عدد من التجارب، لجأنا لقياس المجال المغناطيسي لعدد من المواقع في الآن ذاته في لحظة القيام بالتجربة وبعدها لعدد من الساعات.. هناك تخلخل واضح في أنكاريا بسبب التجربة التي قمنا بها، لكن الأمور ظلت هادئة في المواقع الأخرى جميعها، عدا موقع واحد.. فبالتجارب المتكررة، وجدنا أن خلخلة في المجال المغناطيسي لذلك الموقع قد تكررت في كل مرة في مواضع مختلفة.. وهذا دليل أكيد أن الشبيه يتم رميه لذلك الموقع.."

سأله تولاد "إذن هذا يحل تلك المشكلة.. وأين هو ذلك الموقع؟"

أجاب الرئيس "في تلك المساحات العشبية في الجنوب الشرقي من أنكاريا.. المشكلة الوحيدة أن ذلك الموقع قريب من بعض القرى التي يكنّ لنا أهلها عداءً واضحاً.. ولا نضمن ألا يشتبك جنودنا معهم في القتال إن حاولنا البحث عن ذلك الشبيه.."

قال تولاد بصرامة "لا يهم.. سنرغمهم على الخضوع لنا إن لزم الأمر.. ابحث لي عن بشري يصلح لإجراء التجربة عليه، وكف عن اللهو بالقطط والكلاب.. أريد نتائج واضحة هذه المرة.."

هز الرئيس رأسه موافقاً وقال "أمرك سيدي.."

ثم ألقى بنظرة قلقة على تولاد مغمغماً "ماذا عن المخصصات؟"

****

ركض تولاد وسط ممرات القصر قرب منتصف الليل وقلق غامر يرتسم على ملامحه، بينما سار خلفه أحد خدمه وهو يقول بتوتر "لا تقلق يا سيدي.. كل الأمور ستكون على ما يرام.."

غمغم تولاد بقلق "سهل عليك قول ذلك.."

مرّ في طريقه بأحد الممرات المظلمة ذات النوافذ والتي ينير القمر المضيئ جزءاً منها.. عندها انتبه لوجود تيمار، البالغ من العمر أربعة عشر عاماً، يجلس في جانب المكان تحت ضوء أحد المصابيح المعلقة في الحائط وفي يده كتاب يقرأ فيه باهتمام.. توقف تولاد قريباً منه وهو يقول "تيمار.. جيد أنك هنا يا فتى.. أمك الآن قد بدأت الولادة، وستأتي لك بأخت صغيرة جميلة.. ألا يسعدك هذا؟"

صمت تيمار للحظة دون أن يرفع رأسه عن الكتاب، ثم غمغم "هذه ليست أمي.."

ساد الصمت للحظات والخادم يقلب بصره بتوتر بين الاثنين، ولم يصدمه إلا صوت الصفعة التي دوّت على خد تيمار الشاحب.. ولم يلبث خده أن تحوّل للون الأحمر القاني وتيمار خافض رأسه دون أن يبدو عليه الاستنكار أو الذعر.. ثم سمع تولاد يقول له ببرود "هذه هي أمك رغم أنفك.. أما الأخرى، فعليك نسيانها تماماً حتى آخر لحظة من حياتك.. أتفهم؟"

لم يعلق تيمار وهو يفرك خده بينما تجاهله تولاد وأكمل طريقه بعجلة في الممر.. فوقف الخادم قرب تيمار الصامت للحظة وهمس "ما كان عليك قول هذا يا سيدي.. أنت تعرف أن سيدي الأكبر لا يقبل الحديث في هذه الأمور.."

غمغم تيمار وهو يفتح كتابه من جديد "لا عليك.. لا تهتم لأمري واذهب لعملك قبل أن يطالك غضب أبي أنت أيضاً.."

رمقه الخادم بنظرة مشفقة، ثم غادر بصمت بينما غرق تيمار في كتابه دون أن يبدو على وجهه أي تأثر ظاهر..

****

ظل رئيس المختبرات يطرق الطاولة أمامه وهو يحدق في ورقة وضعت أمامه بصمت طال.. ثم زفر وهو يغمغم "ما هذا الحظ النحس؟.. لا أظن أن تولاد سيصبر حتى نجد شخصاً يمكننا التضحية به في تجربة لا نعلم عواقبها على البشر.."

وعاد ينظر للورقة وتوتره يزداد، عندما تعالت طرقات على الباب دلف بعدها شاب في العشرين من عمره يرتدي عوينات طبية ويبدو عليه التعب والإرهاق.. فقال فور دخوله "سيدي، أتملك دقيقة؟"

قال رئيس المختبرات "ادخل يا هاد.. ما الذي جاء بك الآن؟"

اقترب هاد مغلقاً الباب خلفه، وقال وهو يقف أمام الرئيس "الأمر يتعلق بتلك التجارب الخاصة بالاتصال بالعوالم الموازية.. هناك مشكلة صغيرة في المادة الوسيطة وتركيبتها، وقد....."

بعد وقت قصير كفّ الرئيس عن الاهتمام بما يقوله مساعده وهو يراقبه مفكراً لوقت طويل.. ثم قاطع حديثه وهو يقول له باهتمام "هاد.. ما هي أخبار عائلتك؟"

نظر له هاد بتوتر للسؤال الغريب الذي لا علاقة له بالحديث الدائر بينهما، ثم أجاب "عائلتي؟ أنت تعلم يا سيدي أنني لا أملك من عائلة إلا والدي وهو كبير في العمر.. والعناية به تستغرق الكثير من وقت فراغي.."

عاد الرئيس يسأله باهتمام "لكن من الغريب أن شخصاً في عمرك لم يفكر في تكوين عائلة بعد.. ما السبب يا ترى؟"

ابتسم هاد بتوتر وهو يقول "الزواج ليس من ضمن اهتماماتي حالياً.. خاصة مع هذا...."

وأشار لجانب رقبته حيث ظهر وشم على هيئة خط ضعيف بلون أحمر واضح للعين.. فيما أضاف هاد "لكن ما الداعي لكل هذه الأسئلة؟"

صمت الرئيس وهو يستغرق في التفكير تاركاً هاد يقف بحيرة بانتظار الحصول على تفسير ولو بسيط لتلك الأسئلة.. ولما كاد ييأس من الحصول على ذلك، فاجأه الرئيس بأن قال وهو يميل نحوه عبر الطاولة"ما رأيك بأن تتبرع للدخول في عمل سيخوّلك ترقية مكانتك في أنكاريا من مواطن من الدرجة الثانية إلى مواطن من الدرجة الأولى؟.. أنت تعرف أن أمراً كهذا سيتيح لك أن تحصل على رعاية مدى الحياة لوالدك، بالإضافة لتسهيلات تمكنك من الزواج والحصول على منزل مريح كما تحلم تماماً.."

نظر له هاد بدهشة وتوتر متزايد لهذا الطلب الغريب، لكن اللهفة كانت واضحة بشدة في عينيه وهو يقول "أي عمل هذا يا سيدي؟ أنت تعرف أن هذا أقصى ما قد يتمناه المرء في أنكاريا.."

فقال الرئيس بابتسامة "لا تقلق.. نحن سنتكفل بكل شيء، سأقوم بتجهيز الأوراق اللازمة لتقوم بالتوقيع عليها إثباتاً لموافقتك على إجراء التجربة.. وبعدها ستحصل على كل ما كنت تحلم به.."

شعر هاد بتوجس غريب وتساءل بارتباك "تجربة؟.. أي تجربة تعني يا سيدي؟"

اتسعت ابتسامة الرئيس وهو يقول "ماذا ظننت؟.. تجربة الاتصال بالعوالم الموازية بالطبع.."

****

ارتسمت ابتسامة واسعة على شفتي تولاد وهو يلاعب الكائن الصغير الملفوف في دثار صوفي بلون عاجي وتطريزات منمنمة وردية اللون.. بينما جلست زوجته لونا على كرسي قريب وقد ارتدت رداءاً حريرياً بلون سماوي هادئ وفوق كتفيها وضعت شالاً صوفياً اتقاءً للنسمات التي هبّت من الشرفة المطلة على الحديقة.. بعد لحظة انشغل فيها تولاد مع الرضيعة وهو يمسح على شعرها الزغبي الأسود، التفت إلى زوجته متسائلاً بشيء من القلق "أتظنين أنها بخير؟"

ابتسمت لونا قائلة "ألا تراها؟ إنها بخير وبأفضل حال ممكن.."

تأمل تولاد الوجه الصغير والخدين المتوردين قبل أن يغمغم "لكن في المرتين السابقتين كانتا....."

قاطعته لونا بشيء من الحدة لم تملكها "هذه المرة مختلفة.. لا تقارن بين ابنتيك اللتين توفيتا سابقاً وبين ابنتي.. لا يمكن أن تحمل سانا المرض ذاته.."

لم يعلق تولاد وهو يتنهد ويمسح على خد الرضيعة الناعم، بينما أضافت لونا "أنا متأكدة أن جينات ذلك المرض كانت من تلك المرأة.. أفضل شيء فعلته أنك تخلصت منها.. أعدك أنني سأنجب لك العديد من الأطفال الأصحاء كما كنت تتمنى.."

ابتسم تولاد وهو ينظر إليها معلقاً "الأهم أن يحملوا جزءاً من جمالك يا عزيزتي.."

ابتسمت لونا بدورها بسعادة، بينما انتبه تولاد لوجود تيمار في الحديقة قريباً من النافذة وهو يرمقهما بصمت.. عندها قال تولاد "تيمار.. تعال يا بنيّ لترى أختك الصغيرة.. أنت لم ترها منذ ولادتها، أليس كذلك؟"

بدا الضيق على وجه لونا، بينما أطاعه تيمار وهو يقترب من باب الشرفة ويدلف منه بصمت كعادته.. دعاه تولاد للاقتراب وهو يرفع الطفلة برفق قائلاً بسعادة واضحة "ما رأيك.. أليست جميلة؟"

وقف تيمار ينظر للطفلة بصمت وشيء من الامتعاض، لكن غلفه بهدوئه المعتاد وهو يقول "بلى.. هي جميلة يا سيدي.."

قرب تولاد الطفلة من تيمار الواقف بجمود، لكن لونا قفزت فجأة وتناولت الطفلة من يديه وهي تغمغم "يجب أن آخذها لمربيتها، فهذا موعد إطعامها.."

لم يعلق أحدهما بكلمة بينما نادت لونا المربية التي كانت تنتظر خارج الغرفة، فسلّمتها الطفلة الغافية.. بينما غادر تيمار بصمت دون أن يبدو على وجهه أي اهتمام أو تفاعل بالأمر.. وبعد مغادرته، تساءل تولاد "ما الأمر؟ أهناك ما يسبب لك الضيق في تيمار؟"

قالت لونا بامتعاض واضح "إنه يكرهها.."

نظر لها تولاد بدهشة وقال "تيمار؟ مستحيل.."

قالت بحزم "بل هو يفعل.. كما يكرهني أنا لأنني احتللت موقع أمه.. لذلك لا آمن على ابنتي منه.. وأفضّل أن يبقى بعيداً عنها.. بل أتمنى أن تكون بعيدة عنه لفترة طويلة.."

قال تولاد مقطباً "هذه أخته.. وليس لك الحق في إبعادهما عن بعضهما البعض.."

هزت لونا كتفيها بعدم اكتراث وهي تغمغم "هي أمنية لا أكثر.."

****

بعد أسابيع قليلة، كان تولاد يقف في غرفة جانبية أحد جدرانها مكون من نافذة زجاجية كبيرة تطلّ على قاعة واسعة من المختبرات.. وقربه وقف رئيس المختبرات الذي قال "كل الأمور على أهبة الاستعداد.. وخلال لحظات قليلة ستبدأ أول

تجربة لنا مع بشري في الاتصال بالعوالم الموازية.."

تساءل تولاد وهو يرمق ما يجري في تلك القاعة "وماذا عن ذلك الشاب؟.. هل قام بالتوقيع على تطوعه للقيام بالتجربة وتحمّله نتائجها بالكامل؟.."

أسرع الرئيس نحو مكتبه القريب واستخرج ورقة قائلاً "طبعاً يا سيدي، بل هو متحمس للأمر تماماً.. مع العرض المغري الذي حصل عليه بترقيته ليكون مواطناً من الدرجة الأولى وتحمّل أعباء أبيه المريض، من يمكنه أن يرفض القيام بهذه التجربة؟.. ثم إنه أحد مساعديّ، أي أنه يعرف هذه التجارب ويعرف أننا لم نواجه أي مشاكل فيها.."

ألقى تولاد لمحة سريعة على الورقة التي تحمل التوقيع، قبل أن يرمق عبر النافذة ذلك الشاب الذي جلس في جانب القاعة مرتدياً ملابس عادية وهو يراقب ما يفعله العلماء من حوله.. كان ارتباكه واضحاً، من حركاته وتململه المتكرر، ومن قيامه بمسح العرق عن جبينه بيده بين لحظة وأخرى وهو يدير رأسه في المكان باستمرار.. وهذا خالف ما يقوله رئيس المختبرات عن تحمس الشاب لهذه التجربة.. لكن كل ما يهم تولاد هي تلك الورقة التي قام الشاب بتوقيعها، فهي تلغي عنه أي مسؤولية لِزَجّ الشاب في تجربة لا يُعرف نتائجها على البشر، ولا يُعرف إن كان الشاب سيتمكن من العودة منها لهذا العالم أم لا..

بعد لحظات أخبره رئيس المختبرات أن التجربة على وشك البدء، فأولى تولاد اهتمامه لما يجري وهو يرى أحد العلماء يقترب من الشاب الجالس بتوتر.. فرفع العالم كم قميصه لأعلى الذراع، وبعدها حقنه بتلك المادة الصفراء حتى أفرغها في عروق الشاب.. وبعد وقت قصير، نهض الشاب مقترباً من منصة معدنية دائرية الشكل تتوسط القاعة، فوقف وسطها وهو يستمع لتعليمات أحد العلماء الذي كان يحمل بيده لوحاً إلكترونياً ويريه للشاب.. ثم ابتعد عنه تاركاً الشاب يتلفت حوله، بينما قال الرئيس لتولاد "كل ذلك كان مجرد إعداد للتجربة.. الآن تبدأ التجربة بشكل حقيقي.."

رأى تولاد قطعة زجاجية سميكة بشكل دائري يتجاوز طولها أربعة أمتار تهبط من السقف حتى تقف في موضع مهيأ لها في القاعدة بحيث تلتحم بها بشكل تام محيطة بالمنصة والشاب الواقف عليها بشكل تام.. ومن أعلاها كانت عدة أسلاك معدنية غليظة تصلها بجهاز طويل خلف المنصة يجلس قربه أحد العلماء.. ظل الشاب يتلفت حوله وهو يمسح العرق الغزير عن وجهه ونظرة مرعوبة تتبدى في عينيه، لكن أحداً لم يهتم بذلك وكبير العلماء يعطي إشارة البدء للعالم الجالس قرب الجهاز.. ولم يلبث بعدها أن بدأ الجهاز يصدر هديراً واضحاً وبدأت الأسلاك تهتز بشكل ملحوظ..

تقدم تولاد من النافذة ينظر لما يجري باهتمام متزايد، بينما ازداد ارتباك الشاب وهو يرى الفراغ من حوله يلتمع بأضواء سريعة تبدو كالتماعة عشرات الكشافات بشكل يكاد يعمي البصر.. ولاحظ تولاد على الفور أن الشاب قد بدأ يفقد ماديته وجسده يميل للشفافية بشكل بسيط.. ثم، بفرقعة قوية وضوء أعشى الأعين، اختفى جسد الشاب تماماً ولم يبقَ في موقعه إلا سحابة خفيفة من الدخان الأبيض..

ساد الصمت القاعة لبرهة والكل يتأمل موضع التجربة، ثم علت صيحات الفرح من بعض العلماء بينما بقي البعض يتابع ما يجري على الأجهزة التي ملأت جوانب القاعة..

التفت تولاد لرئيس المختبرات الذي كان يراقب ما يجري ونظرة فخورة تبدّت في عينيه، ثم قال له "أهذا يعني أن التجربة ناجحة؟"

قال الرئيس بابتسامة "بالطبع.. لقد تمّ النقل بنجاح.."

غمغم تولاد بشك "حقاً؟.. من يضمن أن الشاب قد انتقل بالفعل لذلك العالم؟"

قال الرئيس "لو لم تكن التجربة ناجحة، فلم يكن المنظر ليبدو محبباً.. تجاربنا الأولى كانت مأساوية.. وصدقني، لم يكن المنظر جميلاً البتة.."

صمت تولاد والرئيس يضيف "الآن، علينا تفحّص المناطق القريبة ورؤية الموقع الذي من المحتمل أن يكون شبيهه من العالم الآخر قد انتقل إليه.. وبعدها، يمكننا أن نعرف لأي مدىً كانت تجاربنا ناجحة.."

تساءل تولاد "وكيف ستتمكنون من استعادة الشاب الذي أرسلتموه؟"

هز الرئيس كتفيه مجيباً "الطريقة الوحيدة هي في إعادة شبيهه لذلك العالم.. هذا هو السبيل الوحيد لإجبار الطبيعة على إعادة هاد إلينا.. فمنذ انتقاله لذلك العالم ينقطع كل اتصال بيننا وبينه ولا نملك وسيلة لإعادته بها إلا بهذه الطريقة.."

ظل تولاد صامتاً بينما أضاف الرئيس "لا تقلق.. هذه هي البداية فقط.. بعدها، سنقدر على تطوير تجاربنا والحصول على نتائج أفضل وأكثر دقة بالتأكيد.."

استدار تولاد قائلاً "إذن أخبرني عندما تعثرون على ذلك الشبيه.. سأرسل جنود قصري لاستعادته، وأريد رؤيته بنفسي.."

وغادر عائداً لقصره وهو يشعر بشعور كريه وضيق شديد في صدره وأنفاسه .. أهذا بسبب الخلخلة المغناطيسية التي تسببها التجربة؟.. يا له من شعور كريه حقاً..

****

علا صوت نحيب وبكاءٍ عالٍ في إحدى غرف القصر تخلله صياح يقول باعتراض "هذا كذب.. لا يمكن أن يكون هذا حقيقياً هذه المرة أيضاً.. ليس مرة أخرى.."

جذب الصوت تيمار الذي كان يسير في الممر، فاقترب من الباب شبه المفتوح ونظر عبره ليجد لونا منهارة على أحد الكراسي وهي تدفن وجهها بين يديها، بينما وقف تولاد مواجهاً طبيب القصر وهو يصيح "أنت تمزح.. أليس كذلك؟"

اندفعت لونا تقول والدموع تغرق وجهها حتى سال كحلها خطوطاً "لا يمكن أن تكون ابنتي مريضة.. أنا لا أحمل جينات

ذلك المرض.. تلك المرأة هي من كان يحمل المرض في دمها.. أما ابنتي، فلا يمكن أن تصاب به أيضاً"

قال الطبيب "لم يذكر أحدنا أنك أنت السبب يا سيدتي.. لقد أجريت الفحوص المطلوبة على الطفلة، ووجدت فيها ذات العلامات التي تدلّ على إصابتها بالمرض ذاته.. لا يمكنني خداعكما ببضع كلمات منمقة، فلن تلبث العلامات أن تظهر ما إن تكمل الطفلة عامها الأول.. وعندها، لن يستطيع أي شخص إنكار ما يجري لها.."

صاحت لونا باكية "لماذا؟ ما سبب هذا المرض؟"

أجاب الطبيب "هذا مرض وراثي انتقائي.. وهو لا يصيب إلا الإناث، بينما يَسْلَم منه الذكور عادة.. آسف لقول ذلك، لكن الجينات حاملة المرض هي منك أنتَ يا سيدي.."

ظل تولاد يحدق بالطبيب صامتاً، بينما قالت لونا بصوت مندهش "من تولاد؟ ألم تكن تلك المرأة هي السبب؟"

هز الطبيب رأسه مجيباً "بعد أن أصيبت الطفلة الثانية بذلك المرض، منذ عدة أعوام، قمتُ بأخذ عينة من دم سيدي تولاد لفحصها والتأكد أن هذا المرض الوراثي ليس منه هو.. لكن للأسف، كانت نتائج الفحوصات إيجابية بشكل واضح لا يمكن إنكاره.. وقد أبلغتُ سيدي بذلك فور ظهور النتائج.."

التفتت لونا نحو تولاد تحدق في وجهه بذهول، ثم قالت "منذ عدة أعوام؟ هذا يعني قبل زواجي بك، أليس كذلك يا تولاد؟"

خفض تولاد بصره دون أن يجيب، فصاحت لونا بصوت يرتجف "لِمَ أخفيت الأمر عني؟.. أجبني؟.. أكنت تنتظر أن أنجب لك ابنة ويظهر عليها المرض ذاته لكي تخبرني؟.."

قال تولاد بكآبة "أكنت تظنين أنني تمنّيت لابنتي أن تصاب بهذا المرض؟.. ألا يكفي أنني فقدت ابنتين سابقاً للسبب ذاته؟.."

صاحت لونا بغضب "لكنك خدعتني لكيلا أرفض الزواج بك، أليس كذلك؟.. لو أنك أخبرتني، لما أنجبت لك هذه الطفلة.. بل لرفضت الزواج بك من الأساس.. لكنك حقير استغللت جهلي بالأمر.."

تنحنح الطبيب وهو يقاطع ثورتها قائلاً "المهم الآن هو ما سنفعله بشأن الطفلة.. العِلم يتطور كل يوم، وربما لو ساند رئيس مجلس الحكماء بعض المختبرات الطبية في أنكاريا، فإن أحدها ولاشك سينجح في العثور على علاج لهذا المرض قبل أن تظهر علاماته على الطفلة.."

التفتت لونا إلى الطبيب متسائلة بانهيار "متى سيبدأ ذلك؟"

أجاب الطبيب "بعد أن تكمل سنة من عمرها، أو في أفضل الأحوال بعد سنتين.. في البدء ستضمر عضلات ساقيها وقدميها وستفقد القدرة على المشي، ثم سيتطور الأمر لعضلات ذراعيها وسيغدو تحريك يديها أو الإمساك بالأشياء مهما كانت صغيرة عسيراً.. ولن يكون ذلك هو أسوأ ما يحدث.. ستغدو غير قادرة على رفع رأسها، أو البلع، وسيتطور الأمر للتنفس..

عندها لن تكون قادرة على الاستغناء عن أجهزة الإعاشة التي ستعينها على قضاء ما تبقى لها من حياة.. ثم....."

تراجع تيمار دون أن يسمع بقية الحديث، وسار في القصر حتى وصل جناحاً فتح بابه ودخل بهدوء.. وفي جانب الجناح، رأى امرأة متوسطة في العمر تجلس على كرسي هزاز وفي حضنها فراش صوفي لفّت به الطفلة الصغيرة الغافية.. اقترب تيمار من المربية التي قالت مبتسمة "مرحباً بك يا سيدي الصغير.. هل أتيت للاطمئنان على أختك الصغرى؟"

لم يعلق تيمار وهو يحدق في وجه الطفلة التي تململت للأصوات التي أزعجت نومها، بينما قالت المربية "لقد نامت للتو.. إنها طفلة هادئة وغير مزعجة بتاتاً.. لابد أنكما ستتآلفان كثيراً عندما تكبر هذه الجميلة.."

ونظرت لتيمار الذي لم يتفوه بكلمة مضيفة "أتريد حملها قليلاً؟"

قال تيمار بهدوء وهو ينظر للطفلة "لا.. ليس ذلك مهماً.. فهي ستموت على أي حال...."

****

عندما وصلت فرقة الجنود في مركبتين من مركباتهم إلى تلك المنطقة ذات المساحات العشبية والأشجار المتفرقة، لم يعثروا على أثر للشبيه الذي أرسلهم رئيس المختبرات للبحث عنه.. دام بحثهم ساعة في تلك المنطقة الشاسعة دون حظ كبير، حتى رأوا تحت شجرة من الأشجار دباً من ذوي الفراء الغزير يصارع أسداً بلون أسود فاحم.. كان زئير الأسد يصمّ الآذان بينما يدكّ الدبّ الأرض بقدمه الضخمة وهو يرمي ذراعه المخلبية نحو الأسد محاولاً إصابته..

وقف الجنود بمركبتيهما على شيء من المبعدة من تلك المعركة الضارية، وأحدهم يستخدم منظاراً يتأمل به الموقع بحثاً عن مركز وسبب تلك المعركة غير المعتادة.. وفوق تلك الشجرة، رأى شبيه هاد الذي كان يتشبث بفرعها بقوة والذعر يرسم أقسى علاماته على وجهه وهو يلوّح بذراعيه نحو المركبة باستمرار.. خفض الجندي منظاره وهو يقول لقائد المركبة "ها هو الشبيه فوق الشجرة.. علينا التخلص من هذين الحيوانين قبل الوصول إليه.."

لم يعلق قائد المركبة وهو يتقدم بمركبته بشيء من السرعة، بينما تأهب جندي آخر ببندقيته حتى اقتربت المركبة من الشجرة.. عندها سارع الجندي لإفراغ رصاصات سلاحه في جسد الدب وهو الأضخم والأصعب في التخلص منه.. أطلق الدبّ صيحة متحشرجة وجسده يتهاوى جانباً بينما بدأت الدماء تتسرب عبر فرائه الأبيض بغزارة.. أما الأسد، فقد تخلى عن خصمه الذي هوى أرضاً واستدار راكضاً بخفة نحو المركبة وهو يطلق زئيراً حاداً.. لكن الجندي عاجله بطلقات أخرى أسقطته بدوره أرضاً وجسده يرتجف محتضراً..

تخلى الجندي عن بندقيته وهو يتأمل ساحة المعركة التي لا يزال الغبار من آثار ذلك العراك معلقاً في الهواء.. فمع الجسدين الساقطين أرضاً قرب المركبة، استطاع أن يرى جسداً ثالثاً لنمر مرقط أبيض اللون وقد تهشم جانب وجهه بشكل

تام.. سمعوا الشبيه يقول باللغة العربية "أرجوكم.. أنقذوني.."

بعد بضع ثوانٍ لم يجد فيها رداً من الجنود، عاد الشبيه يقول باللغة الإنجليزية "أرجوكم.. هل تفهمون هذه اللغة؟.. أنقذوني قبل أن تقتلني الحيوانات.."

فقال له قائد المركبة "اهبط من تلك الشجرة.."

ارتفع حاجبا الشبيه وقال "أنتم تتحدثون العربية؟.. حمداً لله.. لقد كدت أقضي نحبي عدة مرات في الساعات الماضية.."

سارع للهبوط من الشجرة وهو يتلفت حوله بقلق بين فينة وأخرى خشية هجوم حيوانات أخرى.. ثم اقترب من المركبة وهو يتأملها بشيء من الدهشة والفضول متسائلاً "من أي دولة أنتم؟.. أين أنا الآن؟"

لم يجب القائد أسئلته وهو يقول "أنت هنا بسبب إحدى التجارب التي قام بها سيدي.. وهو يريدك عنده الآن.. لذلك أتينا لاصطحابك.."

اتسعت عينا الشبيه باهتمام وهو يتساءل "تجربة؟.. ما هي تلك التجربة؟ وأين أنا؟"

قال القائد مقطباً "ستأتي معنا أم لا؟"

أجاب الشبيه بلهفة "سآتي معكم طبعاً.. لا يمكن أن أبقى في هذه السهول المخيفة بعد الآن.."

وصعد إلى إحدى المركبتين وهو يتأمل كل ما يراه بشيء من الفضول الذي لم يكبحه، بينما بدأ القائد تشغيل المركبة لبدء العودة لأنكاريا بأقصى سرعة.. وخلال أقل وقت ممكن، كان الجنود يقتادون الشبيه إلى غرفة رئيس المختبرات الذي جلس خلف طاولته يتفحص القادم باهتمام تام.. وخلفه، رأى الشبيه رجلاً يجلس في زاوية الغرفة وقتامة واضحة تشكل هالة حوله.. ولم يكن ذلك الرجل إلا تولاد..

جلس الشبيه بشيء من التوتر وقد أنسته نظرات الرجلين المتفحصة ذلك الفضول الذي غمره منذ وصوله لهذا المكان الغريب، بينما ظل رئيس المختبرات يتفحصه باهتمام واضح وهو يقول لتولاد "انظر إليه.. إنه يشبه هاد بشكل تام، ما عدا تغيرات طفيفة مثل لون البشرة وطول الشعر.."

ثم قال موجهاً حديثه للشبيه "قيل لي أنك تتحدث العربية كذلك.. هل اسمك هو هاد أيضاً؟"

نظر له الشبيه بتوتر قبل أن يجيب "بل اسمي سليم.."

ثم تساءل بشيء من القلق "هل أنتم من تسبب بحضوري لهذا المكان؟ ما كانت تلك التجربة؟"

قال رئيس المختبرات "هي تجربة انتقال بين العوالم الموازية.."

تدلّى فك سليم بدهشة تامة وهو عاجز عن التعليق لثوانٍ قبل أن يهتف "عوالم موازية؟.. أتعني أنني لست على الأرض؟"

ضحك رئيس المختبرات قائلاً "بل أنت على الأرض طبعاً.. لكنها ليست الأرض التي تعرفها.. بل أرض أخرى.."

اعتدل سليم في مجلسه وهو يغمغم بحرج "هذا ما كنت أعنيه بالطبع، لست جاهلاً في هذه الأمور.. هذا يفسرّ الكثير من

الأشياء، مثل تلك الحيوانات غريبة المظهر.."

فقال رئيس المختبرات وهو ينظر لسليم بفضول "إذن.. أخبرني بالتفصيل بما أحسست به عند انتقالك لهذا العالم.. ما الذي جرى لجسدك؟ وهل تشعر بتغيير كبير في هذا العالم من حيث تركيب الهواء والجاذبية وخلافه؟.. سنفحص جسدك فيما بعد للتأكد أنكم متشابهون معنا فعلاً، لكن هذا سيحدث في وقت لاحق.."

خفض سليم بصره وهو يبدو بارتباك واضح، بينما جلس تولاد في جانب المكان وهو لا يكاد يركز على ما يقال في هذه الغرفة.. لا يعلم ما الذي يجبره على الاهتمام بهذه التجربة في هذه الظروف.. لقد تركت معرفته بمرض الطفلة فراغاً كبيراً في صدره بحيث يشعر أنه فقد الاهتمام بكل أمر في أنكاريا.. لم يعد أي شيء يبدو مهماً لعينيه..

عاد الرئيس يسأل سليم "ألم تشعر بأي شيء بتاتاً؟..أي شيء قد يمر في ذهنك.. زغللة في عينيك، صفير في أذنيك، ازدياد خفقات قلبك، ضيق في تنفسك.. أي شيء قد يطرأ لك.."

بعد برهة صمت وتردد، رفع سليم بصره قائلاً "لا يمكن ألا ألحظ أي تغيير.. التغيير الذي حدث في جسدي تزيد نسبته عن سبعون في المائة.. لو رأيتني قبل انتقالي لهذا العالم لما صدقت أنني الشخص ذاته بتاتاً"

نظر له الرئيس باهتمام وهو يتساءل "صِف لي التغيير الذي حدث لك بالضبط.. أنا أراك شخصاً طبيعياً ولا أرى فيك أي اختلاف عن هاد الذي أرسلناه لعالمك.."

وأضاف مشيراً لوجهه "باستثناء العوينات، فهاد كان يعاني من ضعف نظر شنيع ولم يكن يستغني عن عويناته بتاتاً.."

ابتسم سليم بجانب فمه معلقاً "وأنا كنتُ كذلك، قبل الحادث...."

تساءل الرئيس "أي حادث؟.."

سمع سليم زفرة ضيق واضحة من الرجل بالغ الطول الجالس في الجانب البعيد من الغرفة، لكنه لم يعلق وهو يقول "منذ سنة تقريباً، حدث لي حادث مأساوي بينما كنت أسوق مركبتي عائداً لمدينتي.. ظهرت أمامي فجأة شاحنة ضخمة نام سائقها ومالت في سيرها حتى ارتطمت بمركبتي في حادث أقل ما يوصف به أنه بشع.. ما جنيته من الحادث هو شلل رباعي بسبب كسر في فقرات العنق، وضربة قوية على الرأس قضيت شهوراً طويلة في المستشفى بسببها حتى التأم جرحها بعد عدد من العمليات التي أجريت لي.. وتسببت تلك الضربة في فقدان بصري لسوئها.. الشيء الوحيد الذي أذهل الأطباء هو بقائي حياً بعد حادث كهذا.."

نظر له الرئيس متسائلاً بدهشة "وكيف استعدت حواسك تلك؟ ما الذي فعلته؟"

ابتسم سليم شيئاً ما وهو يجيب "لم أفعل شيئاً، بل أنتم من فعل..."

تزايدت الدهشة في وجه الرئيس متحولة ذهولاً، بينما تبدى اهتمام على وجه تولاد وهو يرمق سليم بفضول ظاهر.. فقال الرئيس "أتعني أن انتقالك هو من فعل ذلك؟"

أجاب سليم "أجل.. لقد ظللت محتفظاً بعاهاتي تلك شهوراً طويلة بعد أن عجز العلماء عن استرداد شيء منها.. لكن عندما فوجئت بذلك الصوت المزعج والهواء الحار الذي اندلع في غرفتي، أو عزلتي، وعندما فقدت وعيي لمدة لا يعلمها إلا الله تعالى، وجدت أنني عند استيقاظي إنسان طبيعي تماماً.. عاد لي بصري، وعاد لي الإحساس بأطرافي الأربعة.. صحيح أنني شعرت بإنهاك شديد ودوار عارم، وصحيح أنني وجدت نفسي في موقف لا يُحسد عليه عندما قررت تلك الحيوانات غريبة الشكل مهاجمتي لسبب لا أعلمه، إلا أن أن هذا لا يقارن بما جنيته هنا.."

ازداد الاهتمام في وجه تولاد بينما قال الرئيس بحماس "حقاً؟.. هذا كشف علمي مذهل.. علينا التأكد منه قبل أن....."

نهض تولاد فجأة مقترباً من سليم قائلاً "أأنت متأكد أن نقلك هو السبب؟.. ربما كان هناك سبب آخر.. أو ربما....."

هتف الرئيس مقاطعاً تولاد بدون أي لياقة "أتعلم معنى هذا يا سيدي؟.. إننا أمام حل معجز لعلاج كثير من الأمراض التي قد تكون مزمنة.. تخيّل كم شخصاً سيستفيد من هذا الكشف العلمي الجديد في علاج العاهات والأمراض المزمنة.."

التفت إليه تولاد وهو يقول بحزم "اسمع.. أنا أريد منك كتمان هذا الأمر بشكل تام.. لا أريد أن يصل خبر ما يجري هنا لمجلس الحكماء أو أي شخص من طرفهم.. أتفهم؟"

نظر له الرئيس بصدمة، ثم قال "لماذا؟.. هذا شيء لا يمكن التغطية عليه.. لماذا نبخل على الآخرين بكشف مذهل كهذا؟"

قطب تولاد قائلاً "هذه مختبراتي وأنت تحت إمرتي.. أليس كذلك؟.. لا أطلب منك التوقف عن هذه الاختبارات، لكني أريد إرجاء كشف أمرها أمام المجتمع.. لو انكشف أمرها، فقد نواجه قائمة عريضة من القوانين التي ستأخذ منا أحقية استخدام جهاز النقل وقد توقف تجاربكم لأجلٍ غير مسمىً.. لذلك أطلب منك الصبر.. فهناك من هو بحاجة لهذا الحل غير العادي بشكل ملحّ.."

رفع الرئيس حاجبيه وهو يتساءل "أتعني.....؟"

التفت تولاد إلى سليم بدون أن يجيب تساؤل الرئيس، وقال له "لو كان ما تقوله صحيحاً، فأنا أعدك أنك ستنال جزاءً وافياً مني.. لكن لو اتضح كذبك، فعقابك لن يكون هيّناً بتاتاً.."

ازدرد سليم لعابه قبل أن يغمغم "وما هدفي من الكذب الآن؟"

لم يعلق تولاد وهو يعود للرئيس المذهول قائلاً "نفذ ما أمرتك به.. لا أريد أي تسريب لهذا الخبر وإلا كان عقابكم شنيعاً على يديّ.. وأنت تعلم أنني أستطيع فعل ذلك.."

وغادر بخطوات متعجلة عائداً للقصر ولهفة قوية تقوده إلى الطفلة الصغيرة سانا.. هذه معجزة أرسلها الله تعالى له.. ولن يتردد في استخدامها بتاتاً..

****

الفصل الثاني عشر « كل ما مضى وكل ما هو آتٍ.. ٢ »

خلال يومين، خضع سليم لاستجواب كامل ومفصّل من العلماء عن العالم الذي أتى منه وتاريخه وطبيعته، كما خاض عدة فحوصات وتجارب لمعرفة اختلافاته عن سكان هذا العالم.. كان سليم متعاوناً معهم بشكل كبير على أمل أن يحصل على إجابات بدوره بعد أن يُشبع فضولهم.. لكنه لم يكد يحصل على أي تفاعل منهم ولم يُجِب أيهم على أي تساؤل مما دار في ذهنه.. وبعد هذين اليومين، استيقظ في الصباح ليجد أحد الجنود يقوم باقتياده من الغرفة التي كانت مأواه في اليومين السابقين.. كان طريق سيره يختلف هذه المرة عن كل مرة، ومرّ بأجزاء مختلفة من المختبرات التي لم يكد يغادرها منذ مجيئه.. ثم انتهى بهما الطريق لباب معدني ضخم قادهما إلى قاعة واسعة عالية السقف بمختلف الأجهزة وبعدد كبير من العلماء ومساعديهم وكلٌ منشغل بعمله في جوانب القاعة..

وقف سليم ينظر للأجهزة القريبة والمنصة الماثلة أمامه بانبهار ظاهر، قبل أن يدمدم "يا للروعة.."

ظهر رئيس المختبرات من خلفه وقد بدا الفخر على ملامحه وهو يقول "أليس كذلك؟ .. هذا الجهاز مفخرة مختبراتنا هذه.. وصدقني، هو الوحيد من نوعه في أنكاريا وفي هذا العالم بأكمله.."

شعر سليم بمن يقاطع اندماجه وهو يجرّه نحو المنصة، فالتفت خلفه بقلق متسائلاً "ما الذي تنتوون فعله؟"

قال الرئيس ببساطة "نريد استعادة رجلنا هاد.. أعتقد أنه قد أمضى ما يكفي من الوقت لاستكشاف ذلك العالم.."

بدت الصدمة ظاهرة على وجه سليم والجندي يجرّه نحو الكرسي القريب من المنصة.. ولما أجلسه على الكرسي زالت الصدمة عنه وهو يهبّ واقفاً ويصيح "لكنني لا أريد العودة.."

نظر له الرئيس وبقية العلماء بدهشة وتساؤل، فقال سليم برجاء "لا أريد العودة لذلك العالم.. عودتي هناك تعني عودتي لإعاقتي وللعجز الذي كنت فيه.. لا أريد العودة لذلك بتاتاً.."

فقال الرئيس بلهجة عملية "ونحن نعيدك لنتأكد من هذا الأمر بالذات.. نريد معرفة إن كان شفاؤك هذا مؤقتاً ومتعلقاً بابتعادك عن عالمك، أم أن الانتقال نفسه هو من حلّ عيوب جسدك تلك بطريقة نجهلها.."

صاح سليم مدافعاً الجندي "لا تفعلوا هذا الآن.. اصبروا قليلاً فلدي الكثير مما أخبركم به عن ذاك العالم.."

لم يهتم شخص به وأحد العلماء يقترب منه حاملاً محقناً ذو مادة صفراء.. لكن سليم قاوم بشدة حتى اضطر الجندي لاستدعاء آخر لمعاونته على تثبيت سليم في موقعه.. ظل سليم ينظر للمادة الصفراء وهي تغيب في ذراعه بعد أن تمكن الجنديان من السيطرة عليه، وقال بتوتر بالغ "ما هي هذه المادة؟ ما عملها؟"

لكنه وجد الجنديين يوقفانه بقوة ويجرّانه نحو منصة أقيمت وسط القاعة.. ورغم مقاومته، لم يتمكن سليم من التخلص

من قبضتي الجنديين حتى رمياه وسط تلك المنصة.. وقبل أن يعتدل واقفاً، وقد تراجع الجنديان بسرعة، وجد حاجزاً زجاجياً اسطوانياً قد هبط من الأعلى حتى التحم بالمنصة مانعاً سليم من الهرب.. أخذ سليم يطرق الزجاج متلتفاً حوله بذعر، بينما تراجع رئيس المختبرات إلى حيث وقف تولاد وقال "سنبدأ التجربة الآن يا سيدي.. ربما يحسن بنا الابتعاد إلى مكتبي تفادياً للتغييرات التي ستحدث مع بدء هذه التجربة"

لكن تولاد فضّل البقاء في موقعه بصمت وهو يراقب تلك التجربة من موقعه.. ظل سليم يدير بصره فيما حوله بفزع شديد.. ظلت عيناه تدوران في محجريهما وكأنه سيقضى نحبه خلال ثوانٍ معدودة.. تذكر كل تلك المشاعر الكريهة التي كاد أن ينساها.. مشاعر العجز والحرمان.. مشاعر النبذ من أقرب الناس إليه.. أن يبقى حبيس ظلام دائم لا يتخلله أي نور، وحبيس جسد هامد لا يتحرك فيه عضو.. فأي عالم ذلك الذي يطمح بالعودة إليه؟..

شعر سليم بهدير واضح من الجهاز القريب، ورأى الأسلاك من فوقه والزجاج المحيط به يبدأ بالاهتزاز بشكل ملحوظ ومثير الفزع.. بدا الرعب واضحاً في عيني سليم وهو يرى التماع أضواء سريعة وخاطفة في الفراغ من حوله، بالإضافة للفحات هواء ساخن تعصف بالمنطقة المغلقة.. ولما نظر سليم لجسده، لاحظ على الفور أنه بدأ يكتسب شفافية مرعبة وبدا كشبح في وسط النهار.. فقال سليم بصوت مرتجف "لا.. لا.. لا تفعلوا بي هذا.."

اندفع نحو الزجاج السميك وبدأ يضربه بقوة وهو يصيح "لا تعيدوني.. أرجوكم.. لا أريد العودة لذلك العالم.."

شعر أن صوته قد بدأ يميل للحشرجة بحيث غدت كلماته غير مفهومة، بينما كانت ضربات يده تصدر صوتاً مكتوماً على الزجاج وكأنه يضربه من خلف طبقة من المياه.. ثم صدرت فرقعة قوية صمّت أذنيه واندلع ضوء قوي من حوله أعشى الأعين للحظات.. ولما انتهى كل شيء، وقف العلماء في مواقعهم وهم يرون ذلك الجسد المكوّم أرضاً على المنصة، قبل أن يروا سليم يعود ليقف وهو يلتفت حوله بعينين متسعتين وذهول واضح..

كان الذهول من نصيب العلماء وهم ينظرون لبعضهم البعض، بينما بدأت الدموع تسيل على خدي سليم وهو يصيح ويضرب الزجاج بقوة أكبر من السابق "أخرجوني من هنا.. سأفعل كل ما تطلبونه.. لا تعيدوني لذلك العالم.. لا أريد العودة لذلك المصير.."

وتهاوى أرضاً وهو يشعر بألم شديد في أعضائه، بينما نظر تولاد لرئيس العلماء وهو يقول "ما الذي جرى؟.. ما زال الرجل في موقعه.. هل فشلت التجربة؟"

قال الرئيس بحيرة شديدة "لا أعلم.. هناك ما اعترض عملية النقل، ونحن نجهل السبب حالياً.. ربما كان السبب له علاقة بانتقاله القريب لعالمنا، لذلك لم تؤثر به الذبذبات بشكل كافٍ.. لكني سأبحث الأمر مع معاونيّ قبل أن نعاود التجربة مرة أخرى.."

فغمغم تولاد "لا داعي لذلك.. ربما كان هذا الرجل أكثر فائدة لنا من هاد.."

نظر له الرئيس بدهشة، ثم قال "أأنت واثق يا سيدي؟ لكن هاد....."

فقال تولاد وهو يستدير ليغادر "ألا تملك تلك الورقة التي تحمل توقيعه؟.. إذن لا داعي للقلق من أي أمر.."

وغادر بعد أن ألقى نظرة سريعة إلى المنصة حيث بدا سليم بائس الحال ينتحب بلا انقطاع..

****

بعد هذين اليومين، كان تولاد قد شدّ عزمه على قرار يراه الأنسب لطفلته التي لم ترَ من الدنيا شيئاً بعد.. ظل طوال اليومين الماضيين منغلقاً على ذاته وأفكاره تدور كدوامة نحل لا تهدأ، بينما لا يتخلّف عن أي جلسة يقوم بها رئيس مختبراته مع سليم ويستمع لكل تفصيلة عن عالمه باهتمام.. بدا له متحضراً، أكثر من هذا العالم البدائي الذي يعيش فيه.. صحيح أنه قد لا يكون بتحضر أنكاريا، لكنه بلغ درجة كافية من الحضارة لإيواء طفلته دون الخوف عليها من حيوانٍ ضارٍ أو من حروب عنيفة..

وبعد أن اتخذ هذا القرار الحاسم، دخل جناح زوجته التي كانت لا تغادره إلا لحضور حفل من حفلات أنكاريا الراقية أو للاجتماع بصديقاتها من زوجات الحكماء أو الوزراء وذوي المناصب العالية .. لم يكن لزوجته أي دور تقريباً في تربية الطفلة، لذلك قدّر أنها لن تعارض قراره هذا، بل سيسعدها إيجاد حلّ لمرض الطفلة قبل أن يظهر على جسدها بوضوح..

عندما دخل الجناح، وجدها قد فرشت أغلب ملابسها الثمينة في أرجاء الجناح وهي تدور بينها تدمدم لنفسها وقد لفّت شعرها الجميل عادة بتسريحة غريبة وزينتها بلآلئ وجواهر ثمينة.. ولما رأته قالت وهي تشير لما حولها "ما رأيك يا عزيزي؟.. أي ثوب يصلح لارتدائه في حفل زوجة بيما؟.. لقد قضيت ساعة أحاول اختيار الأنسب دون فائدة.."

جلس تولاد جانباً وقال بهدوء "ليس هذا هو المهم يا لونا.. أريدك أن تستمعي لي.."

غمغمت لونا دون أن تتوقف عن تقليب الملابس "بل هو مهم يا عزيزي.."

قال تولاد بحزم "لونا.. استمعي إليّ.."

توقفت برهة للهجته الحازمة التي قلما يستخدمها معها، ثم قالت بقلق "ما الأمر؟.. هل أصاب الطفلة شيء؟"

قال تولاد "لا.. أتمنى ألا يحدث لها أي شيء.. لكني جئت لأبلغك بخبر عثوري على حلّ جذري لمرضها ذاك.."

ظهر السرور على وجه لونا وهي تقول "حقاً؟.. رائع.. كنت أعلم أن مختبراتك هذه ليست عديمة الجدوى.. إذن، ما هو ذلك الحل السحري؟"

أجابها تولاد "سأُخضع سانا لتجربة الانتقال للعوالم الأخرى.. ذلك الشخص الذي أجرينا عليه التجربة أبلغنا أنه شفي من إصابات مستعصية بعد انتقاله عبر العوالم الموازية.. وأنا متأكد أن الأمر ذاته سيفيد سانا هي الأخرى.."

كانت لونا قد توقفت عما تفعله وهي تنظر له بعينين متسعتين، ولما أنهى حديثه قالت بصوت مرتجف "ماذا تعني؟"

نظر تولاد لها قائلاً "ما سمعتِه للتو.. أنوي نقل سانا إلى العالم الآخر.."

صاحت لونا "أأنت مجنون؟"

قال تولاد دون أي انفعال "هذا هو علاجها الوحيد.. ألا تريدين لابنتك أن تشفى؟"

قالت لونا بغضب "تشفى أم تموت؟.. أنت تريد إجراء تجاربك تلك على ابنتي وتطلب مني الموافقة؟"

قطب تولاد معلقاً بحزم "لم أطلب منك أي موافقة بتاتاً.."

اتسعت عينا لونا وهي تقول "ماذا تعني؟"

نهض تولاد شادّاً جسده فبدا أمامها أكثر طولاً من المعتاد وهو يقول "أعني أن هذه ابنتي، وليس لك أي رأي فيما أفعله بها.. سأقوم بهذه التجربة، ولا أريد منها إلا الحفاظ على حياة سانا.. عليك استيعاب ذلك جيداً.."

صاحت لونا بغضب "سأشكوك لمجلس الحكماء.. أنسيت أن عمي هو من أعضاء المجلس؟ لن يقبل المجلس ما تفعله بتاتاً.."

أصاب قولها التوتر في نفس تولاد فهدر في وجهها غاضباً "أنسيتِ أنني أنا رئيس ذلك المجلس؟.. ما أقوله لا يُرد بتاتاً.."

وغادر الجناح بخطوات سريعة تاركاً لونا تنظر له بصدمة.. وخارج الجناح، وبإشارة من يده، اقترب أحد خدم القصر منه.. فقال تولاد "منذ هذه اللحظة، لونا ستكون حبيسة في جناحها.. ليس لها أن تغادر ولا يدخل عليها أحد ولا تقوم بأي اتصال خارج القصر.. لن يقوم على خدمتها إلا خادمة واحدة سأعيّنها بنفسي.."

رغم تعجبه، لم يجد الخادم بداً من تنفيذ أمره وهو يسارع لإغلاق باب الجناح بإحكام، بينما تعالى صياح لونا من الجانب الآخر للباب وهي تحاول فتحه "ما الذي تفعله أيها الحقير؟.. من تظن نفسك؟ أطلقني وإلا شكوتك لعمّي.."

لكنها لم تستطع فتح الباب، فصاحت وهي تضرب الباب بقبضتيها "أيها الوغد.. أتعتبر نفسك أباً؟.. ما أنت إلا وحش حقير.. أنت مجرد من المشاعر الإنسانية.. لكنك لن تفلت من العقاب.. لن تفلت أبداً.."

لكن تولاد صمّ أذنيه عن صياحها وهو يعود لجناحه وقد شدّ عزمه على ما ينتوي فعله.. مهما حاول الآخرون منعه من ذلك..

****

في اليوم التالي، فوجئ سليم بأن ذلك الرجل الغامض بالنسبة له والذي يناديه الجميع باحترام قد اجتمع به وحده في إحدى غرف المختبرات.. كان سليم قد بدا شاحباً بشدة وهالات سوداء تحت عينيه بعد أن أنهكه التفكير في اللحظة التي

سيقتادونه فيها لذلك الجهاز ويعيدونه لعالمه، لذلك تبخّر ذعره عندما رأى أنهم يقتادونه لغرفة عادية، وأن من سيقابله هو ذلك المدعو تولاد..

بعد أن استقر سليم مقيّد اليدين أمام تولاد وهو ينظر له بتوتر، قال الأخير باهتمام كبير "اسمعني يا هذا.. أريدك أن تخبرني بكل ما مررت به منذ بدء انتقالك إلى عالمنا حتى الآن.. أريد كل ما تذكره وكل ما نسيته من معلومات.."

قال سليم بتعجب "لقد سبق وأخبرتكم بكل هذا من قبل.."

فقال تولاد "لكني أريد أن أسمع كل شيء مرة أخرى وبتفصيل أكبر.. ثم إنني أريد معرفة إن كنت تعتقد بخطورة مثل تلك النقلة على جسد طفل صغير.. أعني من ناحية تأثيرات تلك النقلة المفاجئة على جسدك وما شعرت به.."

نظر سليم لتولاد مصعوقاً، وقال "أتنوي إجراء هذه التجربة على طفل؟"

قال تولاد بجدية "طفلة في الواقع.. ابنتي التي لم تكمل سنتها الأولى تعاني من مرض وراثي سيجعلها عاجزة بشكل تام بعد عدد قليل من السنين، لكني لم أكن لأسمح لذلك بتاتاً.."

نظر له سليم بدهشة تامة، فقال تولاد مؤكداً على كلامه "أجل.. أنت أثبت لي أن هذا حل مثالي لابنتي.. عندما رأيتك وسمعت حكايتك، راح عقلي يفكر بسرعة كبيرة ونحن في ذلك الاجتماع.. رغم اختلاف الأسباب، فإن حالتك وحالة ابنتي واحدة.. أنت استعدت كل ما فقدته بنقلة واحدة لعالمنا، فما الذي يمنع أن تحظى ابنتي بالفرصة ذاتها؟.."

قال سليم بصدمة "أتنوي رمي الطفلة في العالم الآخر لتشفيها مما هي فيه؟"

هز تولاد رأسه إيجاباً، فقال سليم باعتراض "كيف يمكنك أن تفكر في ذلك؟ سترمي ابنتك التي تبلغ عدة شهور لعالم غريب دون أن تعلم ما الذي سيجري لها هناك؟.. أهذا في رأيك أفضل من بقائها هنا؟"

قال تولاد بحزم "أن تعيش بين غرباء وهي تتمتع بحياتها وتتمكن من الحركة خير لها من العيش بين أهلها وعائلتها لفترة قصيرة فقط ثم تقضي نحبها قبل أن تعرف ما هي الحياة حقاً.."

قال سليم باستنكار "أنت مخبول.."

فقال تولاد محتداً "أتجدني كذلك؟.. أخبرني، هل كنت سعيداً حقاً هناك؟.. كانت عائلتك معك، وحياتك كلها هناك.. فلماذا استرجيتني لتبقى في هذا العالم الغريب؟.. لماذا ذرفت الدموع وأنت تكرر أنك لا تريد العودة لذلك العالم؟.."

تجمدت الكلمات في حلق سليم وتولاد يضيف "أنت آخر من يحق له الاعتراض على شيء.. كيف تفكر بحرمان طفلة من حقها في الحياة وفي التمتع بجسد طبيعي بينما تتشبث به أنت في سنك هذا؟.."

فقال سليم مقطباً "لكن وجودها في عالم غريب ليس الخطر الوحيد عليها.. نقل شاب يختلف تماماً عن نقل طفلة ذات شهور معدودة.. من يدري إن كان جسدها سيتحمل نقلة كهذه؟.."

ظل تولاد صامتاً بينما أضاف سليم "هل ستستمر بهذه العملية مع وجود ذلك الخطر على الطفلة؟"

قال تولاد بعناد "بلى، سأقوم بها.. أن أمنح ابنتي فرصة لا تتعدى نسبة نجاحها واحداً في الألف خير من أن أحرمها إياها لمجرد الخوف.. ولذلك السبب سأصبر حتى تكمل ابنتي عامها الأول.. ثم سأقوم بالتجربة قبل أن تبدأ علامات المرض في الظهور عليها وقبل أن يستفحل المرض في جسدها.. ولهذا السبب أيضاً أنت هنا أمامي، لأعرف من خلال تجربتك إن كانت النقلة تلك ستضرّها أم لا.."

قال سليم بحدة "أنت لا تفهم.. ليس ذلك العالم بهذا الجمال الذي تتصوره.. أنت ستلقي بها لعالم لا يقلّ وحشية عن هذا الذي تعيش فيه.."

قال تولاد بهدوء "لو كان ذلك يعني أنها ستغدو فتاة طبيعية وتعيش حياتها كبقية البشر، فلن أتردد في تحقيق ذلك.."

ازدادت حدة سليم وهو يصيح "لكنك لا تجني عليها هي فقط بذلك.. أنت تعلم أن تواجد المرء وشبيهه في عالم واحد مستحيل تماماً.. كما حدث لي، فإن انتقالها لذلك العالم يعني انتقال نسختها لهذا العالم بشكل تلقائي.. ما مصير تلك الفتاة التي لم تجنِ شيئاً من هذا كله؟.."

زفر تولاد بملل واضح ثم قال "أنت من لا يفهم الأمر.. هذه التجربة يجب أن تنجح رغم أنف الجميع.. ولستُ هنا لاستجداء موافقتك عليها بتاتاً.."

ثم مال نحو سليم قائلاً بحزم "بل أنا هنا لأخيرّك.. بين العودة لعالمك، أو معاونتي فيما لا يقدر جنودي عليه.."

تراجع سليم في كرسيه وهو يشعر بشيء من التوجس، ثم قال "طبعاً معاونتك هي الخيار الوحيد لديّ.. لا يمكنني العودة لذلك العالم بتاتاً بعد الآن.."

ثم تساءل بقلق "وماذا عن شبيهي الذي رحل لعالمي؟ ألن تحاولوا استعادته؟"

قال تولاد ملوحاً بيده "ذلك الشخص لا يهمني بتاتاً.. مادمت قد وافقت على معاونتي، فهذا يعني أن تنفذ ما أقوله دون جدال.. أفهمت؟"

تساءل سليم "وما المطلوب مني بالضبط؟"

أجاب تولاد "تأمين شبيهة الطفلة عند قدومها لهذا العالم.. أنت تعلم أنني بدون استخدام تلك الشبيهة، لن أتمكن من استعادة ابنتي بتاتاً عندما يحين الحين.. لذلك أريد منك أن تؤمنها من أي خطر يحيق بها حتى تسلمها لجنودي.."

قال سليم بدهشة "هذا فقط؟.. وما الذي يمنع جنودك من القيام بهذه المهمة؟"

قال تولاد ببرود "لو كنت أستطيع استخدام جنودي لم أكن لأحتاج شخصاً مثلك.. أليس كذلك؟"

ونهض واقفاً وهو يقول "البقعة التي تقذف بها تلك النقلة الشبيه تقع في تلك السهول، ولأسباب عديدة من الخطر بقاء جنودي هناك لفترات طويلة.. لذلك أفضل بقاء شخص مثلك لا يثير شبهات أحد.."

وإزاء نظرات الدهشة، أضاف تولاد "ويحسن بك ألا تفضح صلتك بنا مهما كان السبب .. هذا الأمر أفضل لسلامتك

طبعاً.."

غمغم سليم عاقداً حاجبيه "عمّن يجب أن أخفي ذلك؟"

ابتسم تولاد ابتسامة جامدة وهو يقول "ستعرف كل شيء طبعاً.."

وأشار للجنود بيده بصمت مضيفاً "كن مستعداً.. سترحل لموقعك المحدد غداً.. وسيخبرك قائد جنودي بالتفاصيل كلها.."

أسرع بعض الجنود نحو سليم وساقوه خارج الغرفة، بينما استدار تولاد مغادراً بدوره وهو يغمغم "وها قد بدأ العد التنازلي.. لم يبقَ الكثير يا طفلتي.. لم يبقَ الكثير.."

****

ظل سليم مطرقاً طوال الوقت الذي قضته المركبة في طريقها نحو الموضع الذي انتقل فيه لهذا العالم .. بدا الشحوب والإنهاك على وجهه وهو ينظر ليديه المقيدتين بقيد حديدي محكم.. وبعد سير طويل قطعوا فيه تلك السلسلة الجبلية ومن بعدها جزءاً من الغابات المحيطة بالسلسلة.. وبعد انحسار الغابات، ظهرت تلك السهول العشبية ممتدة على مرمى البصر ولا تجعلها الأشجار المتفرقة أكثر ألفة وجمالاً.. ظل سليم ينظر للمنظر من حوله بقلب منقبض وهو يفكر في أيامه في مثل هذه السهول.. ليلة واحدة قضاها هنا أرته أسوأ ما في كوابيسه.. فما الذي سيفعله هنا طوال تلك الأيام والشهور والسنين القادمة وقد أجبروه على البقاء في أهبة الاستعداد حتى عودة تلك الطفلة؟.. كما قال له الرجل الطويل، عليهم الانتظار سبع أو ثماني سنوات على الأقل حتى تتجاوز الطفلة مرحلة الخطر.. لكن هل سيصمد طوال تلك السنين حقاً وهو وحيد؟..

توقفت المركبة في بقعة تتوسط تلك المساحات العشبية، ثم أجبر أحد الجنود سليم على النهوض والنزول منها.. ازداد قلق سليم وهو يتلفت حوله في تلك المنطقة الموحشة، ثم التفت إلى الجندي الذي انشغل بفك قيده الحديدي قائلاً "ما الذي سأفعله هنا وحيداً؟.. لن أصمد أكثر من يوم واحد حياً.."

قال الجندي بهدوء "سيدي يقول لك إن هذا شأنك وليس شأنه.. هذا السوار يدلّنا على موقعك، فلا تحاول أن تبتعد عن هذه المنطقة أكثر من كيلومتر واحد.. فلو فعلت، سنعلم بالأمر فوراً، وسنعاقبك دون رحمة.."

رأى سليم الجندي يحيط رسغه الأيمن بسوار جلدي يشبه أساور الساعات العادية وفي جانبه بروز شبه واضح.. فشرح له الجندي وظيفته وكيفية استخدامه للاتصال بالمسؤول عن متابعته في أنكاريا.. وخلال لحظات قصيرة، كانت المركبة تبتعد بمن عليها من جنود تاركين سليم يقف وحيداً يستمع لصوت الرياح التي تخللت الشجرة القريبة مصدرة صوتاً واضحاً زاد المكان وحشة..

****

بعد ما يقارب العشرة أيام، كان تولاد قد تم إعلامه باجتماع طارئ لمجلس الحكماء وضرورة قدومه نسبة لكونه رئيساً للمجلس.. غلبت الدهشة تولاد الذي اعتاد على إعلام الجميع بالاجتماعات وتحديدها بنفسه.. لكنه لم يعلق بكلمة عندما أجرى معه داميت، أحد أعضاء المجلس البارزين وعمّ زوجته بالذات، اتصالاً يبلغه فيه عن أمر الاجتماع..

تأنق تولاد كعادته كلما ذهب لتلك الاجتماعات، فارضاً هيبته على من يقابله بطوله الفارع وملابسه التي تزيده هيبة وجلالاً.. ولكن قبل مغادرة قصره، مرّ بجناح زوجته الحبيسة فوجدها في جانب الجناح تصبغ أظافرها بلا مبالاة واضحة دون أن تلقي عليه نظرة واحدة.. فسألها دون أن يخطو خطوة داخل الجناح "كيف هي أمورك يا عزيزتي؟.. تبدين بأفضل حالٍ كما أرى.."

فقالت لونا بشيء من السخرية "كما أراك أنت يا زوجي العزيز.. ألم يحدث مايعكر صفوك هذه الأيام؟"

تأملها تولاد ببرود وصمت، ثم غادر الجناح ليقابل الجندي المسؤول عن حراستها وسأله "هل تمكنت لونا من التواصل مع أي أحد بخلاف المرأة التي عيّنتها لخدمتها؟"

هز الجندي رأسه قائلاً "بتاتاً يا سيدي.. أنا واثق من هذا.."

فمضى تولاد في طريقه مقطباً وهو يفكر فيما يجري.. هل استطاعت لونا الاتصال بعمها واشتكت إليه مما ينوي تولاد فعله؟.. لو كان هذا حقاً، لاستدعى ذلك تسريع إجراء التجربة التي كان من المفترض قيامها بعد شهر من الآن.. لكن، ليس لديه ترف الانتظار كما يبدو..

فور خروجه من القصر، قال لكابو قبل أن يركب مركبته الخاصة "اذهب إلى قصري الآخر وأبلغ رئيس المختبرات بأن يستعدّ لإجراء التجربة فور وصولي إليه.. أخبره أن أمري لا يحتمل التأجيل.."

انحنى كابو مطيعاً الأمر، بينما صعد تولاد للمركبة وبإشارة من يده بدأت انطلاقها خارجة من بوابة قصره المذهبة، وعبر الطريق الحجري الذي تحفّه الأشجار نحو الحيّ الذي يتوسط أنكاريا.. كانت أنكاريا مقسمة لأحياء كبيرة وطرقات تؤدي كلها للمبنى الكبير الذي يعلو بشكله الحلزوني مرتفعاً أعلى من بقية المباني في أنكاريا كلها.. كان البناء بلون طيني أحمر وشكل غريب مقارنة ببقية المباني، وحوله ساحة واسعة مرصوفة توزعت الأشجار المزهرة في أنحائها واتخذت الحمائم والعصافير مأوىً لها فيها..

كان ذلك المبنى هو موقع مجلس الحكماء الذي يحكم أنكاريا ويدير أكبر شؤونها وأصغرها عبر أعضاء لا يزيد عددهم عن الثمانية.. ولكل عضو مساعدين ومدراء يبلغ عددهم أحياناً أربعين شخصاً يتناوبون على تأدية أعمالهم الهامة

والإحاطة بأمور هذه المدينة المترامية على اتساع تلك الهضبة العالية المسطحة..

وفي موقع الاجتماع، وفور أن اتخذ تولاد مجلسه على رأس المائدة، بادر بسؤال داميت بهدوئه المشهور "إذن، ما الداعي لهذا الاجتماع الذي لم أعلم عنه شيئاً حتى قيامه؟.. هذه سابقة تاريخية لهذا المجلس حتماً.."

قال داميت وهو يرمق تولاد "ليس إن كان موضوع الاجتماع هو رئيس المجلس يا تولاد.."

لم يكن تولاد يستبعد هذا الاحتمال، لذلك لم يبدُ متفاجئاً كما توقع الجميع منه وهو يدير بصره في الآخرين .. ومن النظرات المتبادلة والحذر في الجلوس، تأكد لتولاد أن الاجتماع، وكل القرارات فيه، كانت قد تمت بإجماع الأعضاء كلهم قبل مواجهة تولاد بالفعل..

اعتدل تولاد وهو يقول "إذن.. هاتِ ما عندك يا داميت.."

دامت لحظة سكون بدا أن داميت يحاول فيها الدخول للموضوع بسلاسة دون استثارة غضب تولاد، ثم مال نحوه قائلاً "سمعت أنك تجري الكثير من التجارب في مختبرك الذي أقمته في منزلك الآخر يا تولاد.. أهذا صحيح؟"

ابتسم تولاد مجيباً "أنت تعلم هذا منذ زمن طويل يا داميت.. كن أكثر تحديداً في حديثك رجاءً.."

عندها قال داميت بحزم "أنت بالتأكيد تعلم ما أعني.. أأنت تنوي الاتصال بالعوالم الموازية في إحدى تجاربك تلك؟"

قال تولاد "أخبرني أولاً.. من الذي أبلغك بذلك؟.. لونا؟"

قطب داميت قائلاً "ليس هذا هو المهم.. أجب عن السؤال المطروح عليك.."

فقال تولاد "لقد فعلتُ ذلك بالفعل.."

بدا إقراره مفاجئاً للجميع، فظهر مزيج الدهشة والصدمة في وجوههم وهم يتبادلون النظرات، قبل أن يقول داميت منزعجاً "لماذا؟.. ما الذي يدفعك لإجراء هذه التجارب بالذات؟"

هز تولاد كتفيه قائلاً "لا يوجد قانون يمنع ذلك كما أظن.. وإن فاتني مثل هذا القانون، فأبلغني به.."

فقال داميت بشيء من الحدة "لكن أنت تدري ما تنطوي عليه تلك التجارب بالتأكيد.. ماضينا لا يزال حاضراً بقوة، ولسنا بحاجة لتكرار مثل هذا الماضي من جديد.."

قال تولاد بحزم "كما قلتَ أنت، هذا ماضٍ انتهى بغير رجعة.. أتظن أن أي خبرات سيئة خاضتها الشعوب منعتها من التقدم ومن تحقيق أي إنجازات؟"

فقال داميت وهو يرمق تولاد بحدة "أنت تعلم ما سيحدث لو انتبه أعداؤنا لما جرى.."

فقال تولاد بحزم "لن يعلموا بشيء.. أجدادنا قد دمّروا تلك الأجهزة تماماً.. هذا مكتوب بوضوح في مذكرات جدي الأكبر بيناد"

اعترض داميت قائلاً "لكن هذا لا يعني أن أعداءنا لم يسعوا لتطوير نسخ جديدة منها.. والسعي خلفنا بالتالي.."

زفر تولاد قائلاً بضيق "لا داعي لكل هذه المبالغة وتضخيم الذات كعادتكم.."

ضرب أحد الأعضاء الطاولة قائلاً "لقد عشنا في أمانٍ منذ مائة عام على الأقل.. فلماذا يجب أن يعاني شعب أنكاريا من الخوف والذعر لمجرد أنك لا تريد إيقاف تجاربك تلك؟"

قال تولاد بصرامة "العلم لا يتوقف لخوف شعب أو لاعتراضه.. لماذا يجب أن نحرق مخزوناً علمياً مثل هذا لمجرد أن شعب أنكاريا خائف من ماضٍ انقضى منذ مائة عام؟"

فقال داميت "تولاد.. أنت تعلم أن تجاربك هذه تثير توتراً وتخلخلاً مغناطيسياً واضحاً في عالمنا.. وهذه إشارة واضحة لموقعنا في هذه العوالم.. هل ستتحمل المسؤولية لو فُتح ذلك المعبر من جديد وواجهنا أعداءنا مرة أخرى؟"

قال تولاد مقطباً "أظننتم أنهم سيقضون المائة عام المنصرمة يبحثون عنكم رغبة في إبادتكم؟.. من يعلم ما الذي جرى في القرن الماضي؟.. ربما دُمّر ذلك الكوكب كاملاً كما توقع العلماء ولم يبقَ منه أحد.."

نظر الحكماء لبعضهم البعض في اتفاق صامت، ثم قال داميت "أنت رئيس مجلس الحكماء يا تولاد، لكن هذا المجلس لا يخضع لقرارات شخص واحد.. إنه يتخذ القرارات بالإجماع، وقد أجمع الحكماء السبعة على قرار واحد.."

شدّ تولاد جسده وهو يقول "رغم أنني أعرف قراركم بالطبع، لكن... هاتوا ما لديكم..."

فقال داميت بعد أن دار ببصره بين الحضور "أي شخص في أنكاريا ممنوع من القيام بأي تجارب قد تهدد أمن أنكاريا وسلامة شعبها.. وفي رأس تلك القائمة، تجارب الاتصال بالعوالم الموازية.. ومن يخالف ذلك القرار، عقابه سيكون شديداً بحجم جُرمه.."

ونظر لتولاد مضيفاً "أرجو أن تتفهم هذا القرار يا تولاد وتدرك أنه قرار لا رجعة له.."

قال تولاد مقطباً "هذا أمر مجحف .. حتى متى ستدفنون رؤوسكم في التراب؟.. مادمتم جبناء، فسيظل الشعب كله جباناً.."

قال داميت "هذا قرار بالإجماع.. عليك العمل به دون اعتراض.."

فقال تولاد موجهاً حديثه للبقية "أنا لا أسعى لمخالفة القوانين.. ولا أنوي تعريض أنكاريا للخطر.. لن أسعى للاتصال بذلك العالم بتاتاً، لكن هذا لا يمنع أن نحاول الاتصال بعوالم أخرى.."

قال داميت "لا تحاول التأثير على الأعضاء.. الكل أجمع على قرار واحد، وإن لم تسعَ أنت للاتصال بذلك العالم، فقد يسقط الجهاز بيد من يسعى لذلك.."

ثم مال نحو تولاد مضيفاً "والآن.. عليك تسليم مخططات الجهاز كافة والجهاز نفسه وكل ما يتعلق به للمجلس.. ليس من حقك الاحتفاظ بأي معلومة عنه ولو كانت جزئية.. سيتم الاحتفاظ بهذا الجهاز ومخططاته في مبنى مجلس الحكماء ولن يرى النور بعدها بتاتاً.. أما أنت، فسنعفيك من العقوبة هذه المرة بشرط أن تتعهد بعدم تكرارها.."

خفض تولاد بصره مقطباً.. كان هذا يتعارض مع خططه تماماً، وجاء هذا القرار في أسوأ الأوقات الممكنة.. لكن لا يحق له الاعتراض على القرار بتاتاً وإلا صودر الجهاز منه بالقوة..

رفع تولاد بصره إلى المجلس أخيراً وقال "حسناً.. أوافق على هذا القرار رغم سُخفه.."

نظر له الأعضاء بين حانق وقلق، بينما أضاف تولاد "لكن أمهلوني يوماً حتى أتمكن من تنفيذ هذا القرار.. غداً صباحاً سيصلكم كل ما طلبتم.. أهذا مناسب؟"

قال أحد الأعضاء "أنت تحاول خداعنا.."

فقال تولاد بصرامة "من تظنني؟.. يمكنكم مراقبة القصر طوال الساعات القادمة، وستكتشفون أي محاولة مني لتهريب الجهاز ولاشك.. لكن لا أسمح لأحد تدنيس قصري دون أن آذن له بذلك.."

نظر داميت للبقية بتوتر، ثم اعتدل في مجلسه قائلاً "حسناً.. إذن موعدنا غداً صباحاً.. وأرجو ألا تخيّب ثقتنا فيك يا تولاد.."

لم يعلق تولاد وهو يبتسم ابتسامة باردة كعادته، ثم ينهض مغادراً بصمت وخطوات صارمة.. لقد أزف الأوان، ولن يتراجع عن تحقيق ذلك مهما حاولوا منعه..

****

الفصل الثالث عشر « كل ما مضى وكل ما هو آتٍ.. ٣ »

في ذلك اليوم، وقف تولاد وسط تلك القاعة التي تحتوي على جهاز النقل.. وحوله، تحرك العلماء بتوتر وهم يعدّون العدّة لإجراء التجربة من جديد وسط تعليمات رئيس المختبرات.. أما خلف تولاد، فقد وقفت المربية حاملة بذراعيها الطفلة التي لم تكد تبلغ عامها الأول.. وقد حرص تولاد على ألا تعلم زوجته بأمر قيامهم بهذه التجربة في هذا اليوم بالذات..

بعد وقت رآه تولاد طويلاً وأفقده صبره الطويل عادة، التفت إليه رئيس المختبرات قائلاً "كل الأمور على ما يرام.. بقي إعداد الطفلة لهذا الانتقال.."

هز تولاد رأسه وقد عاد إليه الاهتمام، فقال الرئيس بتوترٍ ظاهر "أأنت واثق من قرارك هذا؟.. أخشى أن تندم عليه فيما بعد.."

قال تولاد بحزم "أنجز ما عليك ولا شأن لك بأي أمر آخر.. عندما أندم على شيء فعلته فلن آتي إليك للشكوى.."

ثم استدار متجهاً للطفلة التي كانت تعبث بوجه مربيتها وتطلق ضحكاتها الطفولية البريئة غير مدركة للسبب الذي جعل دموع المربية تسيل على خديها.. ولما اقترب منها تولاد، التفتت إليه مبتسمة وهي تمدّ يديها وتمسك إصبعه بقوة.. فمسح تولاد بيده الأخرى على خدها وقال "لا تخشي شيئاً يا صغيرتي.. قريباً جداً ستستعيدين حياتك التي يهدد المرض بسلبها منه.. قريباً ستعيشين دون مخاوف ودون آلام.. لكنك ستعودين لي.. حتماً ستعودين.."

قبضت الطفلة على يده بأصابعها الدقيقة وهي تحاول الوصول لثيابه المطرزة والتي تبدو لامعة ومثيرة للاهتمام.. بينما انتحبت المربية وهي تتشبث بالطفلة محاولة إخفاء صوت نحيبها دون أن تتمكن من السيطرة على دموعها التي غمرت وجهها.. لكن تولاد لم يولِ اهتماماً للمربية وهو يمسك يد الطفلة الناعمة ويمسح عليها مغمغماً "قريباً يا ابنتي.."

ثم حملها من المربية، التي حاولت التشبث بها أكثر، لكن بنظرة قاسية منه تخلت عنها بصمت وهي تتراجع مغادرة القاعة كلها.. فضمّ تولاد الطفلة إليه برفق للحظات، قبل أن يعود بها لأحد العلماء الذي تناولها منه بصمت ليبدأ الاستعداد للتجربة.. ظل تولاد واقفاً بهدوء وحزم وهو يراقب ما يفعلونه بالصغيرة.. لم يهتز لبكائها الذي أطلقته فور أن حقنوها بالمادة الصفراء، موقناً أن بكاءها في هذه اللحظة أهون بكثير من البكاء عليها لو سقطت أسيرة مرض لن يرحمها بتاتاً..

بعد لحظات، وضعوا الطفلة الباكية وسط المنصة، وسرعان ما كانت القبة الزجاجية تحيط بها وتمنعها من المغادرة.. سكتت الطفلة عن البكاء وهي تسمع الهدير الذي تعالى عند رأسها.. وعندما بدأت الأضواء تتقافز من حولها، ظنته الطفلة بخيالها عرضاً مثيراً وبدأت الابتسامة تعود إليها وهي تتلفت حولها بلهفة ودهشة.. ظل تولاد واقفاً في موقعه زاماً

شفتيه وهو يراقب الطفلة التي بدأت تكتسب شفافية في جسدها وبدا صوتها مكتوماً.. ولم تلبث تلك الفرقعة والضوء المبهر أن أعلن للجميع انتهاء تلك التجربة..

تأمل تولاد الضباب الخفيف الذي خلّفته التجربة في موضع الطفلة، بينما تنهد رئيس المختبرات براحة واضحة والتفت إلى تولاد قائلاً بصوت مرتجف قليلاً "لقد نجحت التجربة يا سيدي.. حمداً لله.."

لم يعلق تولاد وهو يستدير مغادراً القاعة بدوره، بينما تهاوى الرئيس على أقرب كرسي وهو يمسح العرق عن جبهته مغمغماً "حمداً لله على ذلك.. حمداً لله.."

أما تولاد، فلم ينبس ببنت شفة طوال ما بقي من ذلك اليوم وتلك الليلة بتاتاً..

****

عندما تلقى سليم ذلك الاتصال، في فجر اليوم التالي، غلبه توتر بالغ وهو يعتدل جالساً في فراشه وينظر للسوار في يده.. لقد مرت أيام طويلة نسي فيها وتناسى كل ما يتعلق بتلك المدينة الغريبة وتجاربها وجنون سكانها.. تآلف مع سكان تلك القرية الصغيرة التي لجأ إليها والتي قابلته بترحاب رغم ماضيه الغامض بالنسبة لهم.. وبعد وقت قصير كان قد حصل على منزل خاص به، وهو منزل هجره أصحابه منذ مدة، وبدأ يعيش حياة عادية تخلو من المفاجآت، ولا يعكّر صفوه إلا أسئلة بعض الرجال المتكررة عن هويته وسبب قدومه للقرية.. لكن كان عليه إحاطة أمر تعاونه مع الغرباء بالسرية خوفاً من ردّ فعل القرويين على معلومة كهذه، كما حذره تولاد.. وطوال تلك الأيام، انقطع الاتصال بينه وبين الغرباء حتى نسي، أو تناسى، ما كلّفوه به بشكل تام..

لذلك، كانت دهشته وارتباكه كبيرين وهو يتلقى ذلك الاتصال.. فاستجاب له وهو يقول بصوت مرتبك "مرحباً.."

جاءه صوت أحد العلماء الذي وكّل بأموره وهو يقول "استمع إليّ.. لقد قمنا بالتجربة على الطفلة قبل قليل.. وفور انتهاء التجربة قمنا بقياس المناطق القريبة منك بأجهزتنا.. لقد تم انتقال الشبيهة للمنطقة ذاتها التي انتقلت إليها أنت عند قدومك لهذا العالم.."

بلع سليم ريقه وهو يقول "إذاً.. ما هو المطلوب مني؟"

أجابه العالم "عليك الإسراع إلى ذلك الموضع حالاً.. سنرسل لك مركبة فانتظرهم في الموقع ذاته حتى يحضروا وسلّمهم الطفلة.."

قال سليم وهو يضع يداً على جبهته "أأنت متأكد أن الطفلة بخير؟.."

قال العالم بهدوء "هذا عملك أنت لا عملي.. وبعد ذلك عليك أن تنتظر أي أمر آخر منا.."

وأنهى العالم الاتصال بصمت تاركاً سليم يدور في منزله بقلق، ثم سارع لارتداء ملابسه وهو يغمغم "حتى متى سأظل في في انتظار ندائهم؟.. ظننتهم حقاً قد نسوني.."

بعدها غادر منزله والقرية كلها خفية عن الآخرين ولكي لا يجابه تساؤلاتهم.. طال به الوقت وهو يسير في تلك السهول بقلق شديد متذكراً ما جرى له عند انتقاله لهذا العالم.. فكيف ستصمد تلك الطفلة أمام هجمات الحيوانات الثائرة؟.. هذا لو سلّمنا أنها قد وصلت لهذا العالم حيّة دون أن يقضي عليها الانتقال العنيف..

بعد دهر كامل، وصل سليم للبقعة حيث تلك الشجرة التي أوى إليها مذعوراً منذ شهور طويلة.. وعلى الفور استطاع أن يسمع صوت ذلك البكاء الحاد لطفلة لم تتجاوز السنة بكثير، ورأى جسداً صغيراً يحاول الوقوف بعسر وهي تتلفت حولها باستمرار.. هرع سليم للطفلة وحملها رغم العويل الذي صمّ أذنيه وهو يهمس لها "مهلاً يا طفلتي.. كفى بكاءً الآن.."

كانت الطفلة تتلفت حولها باستمرار بحثاً عن وجه مألوف وهي تدفع أصابعها الصغيرة في ذراعه وتحاول إبعاده عنها بفزع واضح.. الدموع تغرق وجهها وتسيل مع لعابها على ملابسها القطنية ذات الزهور الوردية الصغيرة وهي غارقة في بكاءٍ حادٍ ومستمر.. تفحص سليم جسدها بعد أن لاحظ الكدمة الواضحة في جبهتها من أثر السقوط العنيف كما يبدو، ولما اطمأن أنها لم تتأذى أكثر من ذلك تلفت حوله بقلق متوقعاً هجوم حيوانٍ ضارٍ عليهما في أي لحظة.. ثم نظر للشجرة مغمغماً "يبدو أن لا حيلة لي إلا بالعودة لهذه الوسيلة.."

وضع الطفلة جانباً وخلع قميصه، ثم شدّ جسد الطفلة لظهره باستخدام القميص وربط أطرافه حول صدره آملاً أن يكفي لإبقاء الطفلة معه رغم حركتها المستمرة واستماتتها في البكاء.. ثم أسرع نحو الشجرة فارتقاها بحذر خشية سقوط الطفلة منه جراء أي حركة مفاجئة، حتى وصل لارتفاع مناسب يمكنه من المكوث فيه حتى يحضر الغرباء ويأخذوا الطفلة منه.. جلس سليم على الفرع القوي الذي اختاره في الشجرة ووضع الطفلة أمامه محاولاً تهدئتها والتربيت على ظهرها بخفة هامساً "كفاك جذباً للأنظار يا طفلتي.. فات أوان البكاء الآن.."

بدأت الطفلة تهدأ قليلاً بعد أن بحّ صوتها من البكاء وأصابها التعب، فبدأت تفرك وجهها بيديها للحظات وهي لا تكاد تفتح عينيها، قبل أن تتهاوي على صدره في نوم أشبه بالغيبوبة.. شعر سليم بضيق شديد وهو يتأمل ملامحها ويفكر في حال أبويها في تلك اللحظة.. أم أنهما لم يدركا اختفاءها بعد أن نقل تولاد ابنته في موضع ابنتهما؟.. يا لقسوة هذا الوضع الذي هما فيه.. لكن من يكون هو ليتذمر من أي شيء؟..

طال به الوضع ما يزيد على الساعة، قبل أن يبدو صوت المركبة واضحاً رغم خفوته وهي تقترب من موضعه بسرعة كبيرة.. فاعتدل سليم دون أن يغامر بالهبوط وهو يراقب المركبة في اقترابها ويفكر في أمر الطفلة بقلق.. ترى، ما الذي سيفعله تولاد بالطفلة هذه حتى عودة ابنته؟.. لا يبدو أن شخصاً بارداً مثله قد يعامل الطفلة كما يعامل ابنته من صلبه.. فما الذي ينوي فعله بها حقاً؟..

وصلت المركبة قريبة من الشجرة، فتوقفت بحدة مثيرة الغبار كعادتها، قبل أن يقف أحد الجنديين فيها وهو يقول لسليم "أين الطفلة؟"

أزاح سليم قميصه الذي غطى به الطفلة ليراها الجندي بوضوح، فقال الجندي "أحضرها إليّ الآن.."

تساءل سليم بشيء من القلق "ما الذي ستفعلونه بها؟"

قال الجندي ببرود "هذا ليس من شأنك بتاتاً.. أحضرها الآ....."

فوجئا بتلك الضربة القوية التي أصابت المركبة في أحد جوانبها ودفعتها عدة أمتار حتى كاد الجنديان يسقطان من عليها..

نظر سليم بدهشة ليرى ذلك الحيوان الهائج الذي يشبه وحيد القرن، إنما بثلاث قرون وبلون نحاسي غريب، وهو يضرب قدمه في الأرض وينفث الهواء من أنفه بصوت مسموع متحدياً.. وخلال لحظة كان قد عاود هجومه نحو المركبة حيث استطاع الجنديان بالكاد تمالك نفسيهما، وجاءت اللطمة أقوى من السابق والحيوان يدفع المركبة أمامه برأسه بقوة وهو يضرب قدميه في الأرض بعنف.. ولم يتوقف حتى قام أحد الجنديين بإفراغ رصاصات سلاحه في جسده بغزارة أسقطته جانباً لترتجّ المركبة قليلاً قبل أن تستعيد توازنها..

ظل سليم يراقب ما يجري بتوتر حتى رأى الحيوان يسقط هامداً وبصمت تام، بينما قال له الجندي بحدة "أحضر الفتاة الآن.."

غالب سليم تردده وهبط بشيء من الحذر حتى لمست قدماه الأرض، فتجاوز الجسد الهامد الذي سالت دماؤه بغزارة، وتقدم من المركبة قائلاً "يجب أن تفحصوا الطفلة لتتأكدوا أنها لم تصب بضرر من جراء ذلك الانتقال.."

لم يعلق الجندي وهو يتناول الطفلة ثم يشير لزميله الذي ارتفع بالمركبة عن الأرض من جديد قبل أن ينطلق منها بسرعة ودون تهاون تاركين سليم واقفاً وحده في تلك السهول..

ظل سليم يتأمل المركبة المبتعدة وهو يشعر بقبضة قاسية تكاد تكتم أنفاسه.. هل أخطأ بتسليمهم الطفلة؟.. لابد أنه أخطأ.. لكن، ما الذي كان بإمكانه فعله غير ذلك؟.. ليس له ذنب فيما سيحدث لها.. تلفت سليم حوله بقلق وهو مدرك أن ثورة هذا الحيوان لن تكون الأخيرة، ثم استدار عائداً للقرية بسرعة وهو يهمس لنفسه "ليس لي ذنب في كل ما جرى.."

وغادر بعجلة محاولاً إقناع نفسه بما قاله وهو يكرره مراراً وتكراراً..

****

في ذلك الفجر، وفي الوقت ذاته الذي انطلق فيه سليم نحو السهول العشبية بحثاً عن الطفلة، اندلعت نيران هائلة في

جانب من جوانب أنكاريا روّع الحيّ الذي التمع باللون الأحمر ساعات طويلة .. كان مصدر تلك النيران هو قصر من قصور أحد وجهاء المدينة، وبالتحديد في أحد المباني الملحقة بحديقته الواسعة.. لم يجد الأهالي وقتاً لإطفاء النيران التي أكلت المباني بشراهة وسرعة كبيرة تصاحبها انفجارات محدودة.. وسرعان ما تهاوى المبنى أرضاً وغدت بقاياه سوداء لا يكاد المرء يستخرج شيئاً منها.. وبعد أن قضى الحريق على المبنى وجزء من القصر ، وصلت مركبات الجنود وعربات الإطفاء وكلها مستعدة لإخماد ما بقي من الحريق وإنقاذ أي أرواح بشرية في القصر والمباني الملحقة به..

لم يمضِ وقت طويل حتى كان الحريق قد أُخمد تماماً ونجا خدم القصر من الموت خنقاً أو احتراقاً.. بينما لم يكن أحد أصحاب القصر فيه في تلك الليلة.. كانت تلك الليلة حديث الكثير من سكان الأحياء القريبة في أنكاريا، ومثار لغط حاد في مجلس الحكماء وأحد الأعضاء يقول بحنق "ذلك الوغد تولاد.. لقد خدعنا.. هذا الحريق مفتعل تماماً.."

قال داميت مقطباً "كلنا نعلم ذلك.. لكن كيف نثبته؟"

قال العضو بحدة "يجب أن نواجه تولاد باتهاماتنا.. لابد أنه أخفى الجهاز في موقع آخر بغفلة منا.. لا يمكن أن يكون الحريق إلا من تدبيره هو ليمتنع عن تسليمنا ذلك الجهاز.."

هز داميت رأسه قائلاً "لا يمكن اتهامه بشيء.. فتحقيقات رجال الأمن تثبت العكس تماماً"

نظر له الجميع باستفهام وضيق، فقال داميت "لقد تم القبض على رجل بعد الحريق مباشرة، وقد شاهده أحد الجيران بوضوح يقوم بإشعال النيران في القصر.. وبالتحقيق معه، تبيّن أنه أحد المساعدين الذين عملوا في مختبرات تولاد.. وأنه قد طرد من العمل هناك قبل أيام معدودة بسبب بعض الأخطاء الجسيمة التي قام بها.. ذلك الرجل يملك الدافع وقد ثبتت عليه التهمة، فمن الذي يقدر على اتهام تولاد بعد كل ذلك؟"

صاح عضو آخر بحنق "لكن ما هذه الصدفة التي لا يمكن تصديقها؟.. هذا محض ادعاء.. لابد أن ذلك الرجل مدسوس من قبل تولاد"

هز داميت كتفيه قائلاً "لكنه صمد أمام الاستجواب ولم يتراجع عن قوله رغم كل التهديدات .. إنه الفاعل مهما حاولنا الإنكار.."

تساءل عضو آخر بشيء من الضيق "لماذا تبدو هادئاً يا داميت؟.. وكأن الأمر لا يعنيك.."

قال داميت "ما يهمني أن ذلك الجهاز قد دمّر تماماً.. لقد وزّعت رجالاً يراقبون القصر منذ انتهى اجتماعنا البارحة.. ولم يخبرني أحدهم عن أي تهريب قام به تولاد للجهاز أو أجزاء منه.. كل ما فعله أنه زار القصر بعد الاجتماع وقضى به نحو ساعة أو يزيد.. ثم غادر مرة أخرى دون أن يحمل شيئاً من قصره.."

غمغم آخر "لكني لا زلت غير مطمئن لما جرى.."

فقرر داميت قائلاً "سنرسل من يقوم بتفتيش بقايا المختبرات والقصر والحدائق كلها.. لن يملك تولاد الاعتراض على أي شيء

من ذلك.. وعندها، سنطمئن أن تجارب خطرة مثل تلك لن تهدد أمن أنكاريا مرة أخرى..

لم يملك أحدهم الاعتراض على ذلك، بينما قال داميت بلهجة واثقة "أمن أنكاريا فوق الجميع.."

****

في قصره في أنكاريا، ظل تولاد يراقب الطفلة التي كانت تتلفت حولها وهي تمسك بيديها ما تطاله وتحاول الوقوف ببطء متلفظة بكلمات مبهمة بين حين وآخر.. وقربها وقفت المربية تذرف الدموع باستمرار وتراقب الطفلة بأسىً واضح.. لم تكن الطفلة تشكو من شيء كما أكد له طبيب القصر، وإن كان هذا لا يطمئنه كثيراً.. هل كان انتقال سانا لذلك العالم آمناً؟.. لقد حرص على نقلها للموضع الذي كانت شبيهتها فيه، كما أكد له رئيس مختبراته.. وهذا يعني أنها ستكون عند والدي هذه الطفلة التي تأقلمت بسرعة مدهشة وهي تتلفت حولها بفضول كبير.. هكذا يطمئن تولاد أن ابنته ستكون تحت رعايتهما حتى يزول شبح المرض عنها ويمكنه استعادتها بأمان..

التفت إلى المربية قائلاً "لقد خصصت جناحاً جديداً لهذه الطفلة، وأنتِ ستكونين المسؤولة الوحيدة عنها.. لا أريد أن أراكِ تخرجينها من ذلك الجناح، ولا أريد لعيناي أن تقعا عليها مهما كانت الأسباب.. أفهمتِ؟"

هزت المربية رأسها بارتباك وسارعت لحمل الطفلة، واستدارت خلف أحد الخدم الموكّل لأخذها لجناح الطفلة.. لكنها توقفت قرب الباب والتفتت بشيء من التوتر إلى تولاد قبل أن تسأله "سيدي.. متى ستستعيد الطفلة سانا؟"

نظر لها تولاد بهدوء وهي تضيف "أتمنى ألا يطول بقاؤها هناك.. لا نعلم ما الذي قد يجري لها.. أنا قلقة عليها كثيراً.."

فقال تولاد ببرود "ألم أخبرك سابقاً ألا شأن لك بأي شيء أقرره هنا؟.. لا تستثيري غضبي وإلا طردتك من هذا العمل.. ولن تجدي في أنكاريا كلها عملاً أفضل منه.."

خفضت المربية رأسها على الفور واستدارت مغادرة وهي تتأسف باستمرار.. بينما قال رئيس المختبرات الذي كان يجلس جانباً "وماذا عن المجلس يا سيدي؟.. لابد أنهم علموا بقيامنا بهذه التجربة، كما لا بد أنهم قد أدركوا أنك أحرقت المختبرات عامداً.. قد يتّخذون إجراءً عقابياً ضدك.."

قال تولاد بهزء "لا يقدرون على ذلك.. هل يستطيعون إثبات أننا قمنا بأي شيء من ذلك؟"

فتساءل الرئيس "لكن لماذا دمرّت المختبرات والجهاز الناقل معها؟.. أما كان يفترض بك تهريبه قبل حرق المختبرات؟"

قال تولاد بابتسامة "دمّرته عامداً كي لا يخامر أعضاء المجلس شك بأنني أنوي صنع جهاز جديد.. ولكي لا يحصلوا على الجهاز ومخططاته، فلم أكن لأسمح لهم بذلك بتاتاً.."

نظر له الرئيس بحيرة، فقال تولاد بابتسامة جانبية "اطمئن يا رجل.. كل الأمور ستسير كما أحب وأشتهي.."

بعد لحظة صمت، تساءل الرئيس "ماذا عن شبيه هاد؟.. ما الذي سيجري له منذ الآن؟"

قال تولاد "سيبقى في تلك القرية حتى أستعيد طفلتي سانا.."

قال الرئيس بحيرة "أأنت واثق من طاعته العمياء لك؟"

ابتسم تولاد قائلاً "بالطبع.. بمجرد رفض أي أمر من أوامري، فإن هذا يهدد بعودته لذلك العالم الذي يبغضه بشدة.. وهو سيفعل المستحيل ليبقى في هذا العالم ويتمتع بما حصل عليه من مميزات.."

غمغم الرئيس "وأي ميزة في البقاء في قرية بدائية؟"

اتسعت ابتسامة تولاد وهو يقول "ميزة أن يكون رجلاً صحيح الجسد، بدل أن يكون مجرد شبح رجل في عالم متحضر.."

سمع تولاد طرقات متعجلة على الباب، قبل أن يدلف أحد الجنود بتوتر واضح قائلاً "سيدي .. هل لي بحديث قصير معك؟"

تساءل تولاد بصرامة "ما الأمر؟ تحدث بسرعة.."

قال الجندي بارتباك "سيدتي لونا يا سيدي.. لقد اختفت من القصر.."

لم يبدُ الانفعال على وجه تولاد بينما أضاف الجندي بتوتر أشد "لقد كنتُ أحرسها بحذر كما أوصاني قائدي وكما أوصيتني يا سيدي.. ولم أشك أبداً في أن أمراً غريباً قد حدث في جناحها.. لكن عندما جاءت الخادمة حاملة إفطار سيدتي ودخلت به الجناح، هرعت بعدها تخبرني بأن سيدتي لونا مختفية عن الجناح بأكمله.. ولا نعلم كيف خرجت منه أو بمساعدة من كان ذلك.."

فقال تولاد بهدوء "لا تهتم بالأمر وأبلغ كابو بذلك.. ليتحرّى الأمر ويستعلم عن الكيفية التي رحلت بها لونا من بين الحراسة المشددة في القصر.."

غادر الجندي بارتباك ظاهر، بينما قال رئيس المختبرات بشيء من القلق "أتظن أن لهروبها تبعاته علينا؟"

قال تولاد بشيء من الهزء "أتمزح؟.. الآن، لا يهمني ما تفعله هي أو ما يفعله مجلس الحكماء بأكمله.. ثم إن لدينا سنوات طويلة لنخطط للمرحلة القادمة.. لذلك لست أخشى أحداً بتاتاً.."

انحنى رئيس المختبرات نحو تولاد متسائلاً "إذن، يا سيدي.. ما هي خطتك حقاً للمرحلة القادمة؟"

قال تولاد وهو يقف "علينا الانتظار بضع شهور حتى تهدأ مراقبة المجلس لي.. بعدها، سأبدأ ببناء مختبر جديد ملحق بقصري هذا.. وأريد منك الإشراف على البناء بنفسك واختيار ما سيعينك على إعادة المختبر أفضل مما كان.. وبعد الانتهاء من ذلك، سأسلمك مخططات الجهاز الذي احتفظت بنسخة منه في قصري هذا.."

تساءل الرئيس بقلق "ألن يدرك المجلس أنك تعيد بناء المختبرات؟"

قطب تولاد مجيباً "أنا أمتلك حصانة تمنحني حرية التصرف في أملاكي دون مراقبة.. لذلك لا يسعهم التدخل حتى يعثروا

على دليل دامغ على إخلالي بالأمن.."

غمغم الرئيس "من حسن الحظ أنك كنت تصرّ على الاحتفاظ بنسخة من كل تقارير تجاربنا ومخططات الأجهزة التي نستخدمها في قصرك هذا.."

قال تولاد بابتسامة جانبية "لا شأن للحظ بأي شيء يا هذا.. إنما هو تخطيط جيد وبُعد نظر.."

****

بعد عودة سليم للقرية، وتجاهله لتساؤلات القرويين ونظراتهم المتعجبة لغيابه المفاجئ وعودته المفاجئة، استغرق سليم في حياته التي يعتبرها الغرباء بدائية بصمت ودون تذمر.. حاول عدداً كبيراً من المرات أن يتناسى منظر الطفلة الباكية وهي تبحث عن والديها أو عن وجه مألوف قربها.. لكن وجهها يتبدى له واضحاً في أحلامه أغلب الليالي، فينهض والقلق يغمره ويعتصر صدره دون أن يدري ما ذنبه في كل ما جرى.. ويقضي بقية الليلة عاكفاً على بعض الأبحاث التي يشغل أيامه بها في القرية الهادئة دون أحداث تذكر..

لا يدري كم شهراً مضى، ولا كيف تحولت الشهور لسنين، دون أن يسمع عن الغرباء أو يسمع منهم أمراً.. حاول تناسي دوره المطلوب، وظن أنهم نسوه بالفعل.. لكن في كل مرة تراوده نفسه على الرحيل، كان يزجر نفسه بسرعة ويعود لأبحاثه مقنعاً نفسه أنه باقٍ بمحض إرادته.. حتى ورد إليه ذلك الاتصال في إحدى الليالي..

كان سليم عاكفاً على الجهاز المخبأ في الكوخ المنفرد أعلى القرية، وقد تناسى السوار الذي يحيط به بشكل تام بحيث أن الاهتزاز الذي طرأ عليه قد أثار ذعره في البدء.. ظل سليم ينظر للسوار بشيء من الغباء، قبل أن تلطمه كل الذكريات التي دفنها عميقاً في عقله.. وبيد متعرقة، ضغط على زر الإجابة على الاتصال وهو يقول بارتباك "مرحباً.."

بعد لحظة صمت، أتاه صوت هادئ ببرود ملحوظ يقول "استمع إليّ.. وانتبه لما سأقوله جيداً دون جدال.."

في الليلة التالية، وبعد أن غفت القرية بشكل كامل بعد يوم عمل شاق، توقفت تلك المركبة الخاصة بالغرباء قرب سور القرية الخشبي.. عندها وقف سليم بشيء من التوتر دون أن ينسى أن يدير بصره فيما حوله بحثاً عن أي عين متلصصة.. عاد ببصره للمركبة فرأى تيمار يجلس في المقعد الخلفي، وفور استقرارها وقف بهدوء مشيراً للجنديين الموجودين فيها للانتظار.. ثم هبط من المركبة قائلاً "أهذه هي القرية التي استقررت بها؟.. تبدو بائسة الحال.."

وتطلع حواليه للقرية ذات المنازل شبه المهدمة والطريق الحجري الضيق الذي يقطعها، ثم غمغم "أنت تعلم أن أهل القرى يكرهون أنكاريا وكل ما يتصل بها.. أليس كذلك؟"

قال سليم بتوتر "لا تقلق.. إنهم لا يعلمون عني شيئاً، ومع ذلك فقد رحّبوا بي واستضافوني بينهم.. وبعد ما قدمت لهم

من خدمات، غدا بقائي بينهم مفروغاً منه.."

ثم نظر لتيمار متسائلاً "لكن ما سبب هذا الكره؟ وما سبب هذه الفجوة الثقافية العظيمة بينكم وبين أهل السهول؟.. هذا غير طبيعي البتة.."

قال تيمار بوجه هادئ "كما هو وجودك هنا.. ما الذي تراه طبيعياً في هذا العالم؟"

ظل سليم ينظر له بصمت وعيناه تتسعان، ثم هتف "أتعني أنكم أيضاً....؟"

قاطعه تيمار قائلاً "لست أعني شيئاً.. لا يهمك معرفة هويتنا ومنشؤنا.. المهم أن تركز تفكيرك على القضية التي بين أيدينا.."

فقال سليم بتوتر "لا تقلق.. لكن.. ما الذي دعاك للاتصال بي وعرض مساعدتك لي؟.. ألا تخشى غضب أبيك؟"

تجاهل تيمار السؤال بشكل تام وهو يشير لأحد جنوده بينما عاد سليم يتساءل "ما هدفك مما تطلبه مني؟ أليست هذه خدعة منك؟"

قال تيمار بهدوء "لست بحاجة لخداعك يا رجل.. فالخداع يتوجه به الشخص الضعيف نحو شخص أقوى.. ولستُ ضعيفاً بأي حال من الأحوال.."

رأى سليم الجندي يهبط من المركبة حاملاً صندوقاً خشبياً متوسط الحجم.. وفور نزوله وضعه عند قدمي سليم قبل أن يتراجع وتيمار يقول "هذا ما كان اتفاقنا عليه..إنهم يُجرون استعداداتهم للتجربة من جديد، معنى هذا أن موعد البدء قد حان أخيراً.. أأنت واثق أنك لا تحتاج لشيء آخر؟"

قال سليم "لا.. ليس في الوقت الحالي على الأقل.."

عندها قال تيمار "إذن خبئ هذا الصندوق جيداً.. أنت تعلم أنني أخاطر بموقعي وبكل شيء أملكه لأجل إيصال هذا الصندوق إليك.. ولا أستطيع تكرار هذا العمل مرة أخرى بتاتاً.."

انحنى سليم قرب الصندوق مغمغماً "أعلم ذلك.. وأنا شاكر لك بكل تأكيد.."

فتح غطاءه متفحصاً محتوياته بتدقيق وهو يتأمل العبوات الزجاجية التي تحوي المادة الصفراء، ثم تساءل "ألا تعلم ما هي تركيبة هذه المادة؟"

قطب تيمار قائلاً "هل تظنني أعرف شيئاً كهذا حقاً؟"

غمغم سليم "لا.. لكن سيكون من المفيد معرفة هذا بالتأكيد.."

ثم نظر خلفه للمركبة وللجنديين الجالسين فيها وقال "ماذا عن هذين؟.. هل تضمن أنهما لن يفشيا سرّك بتاتاً؟"

قال تيمار بثقة "هذان من أخلص رجالي.. ولن يفشيا سراً يخصني ولو قادهما ذلك للموت.."

غمغم سليم متعجباً "يبدو قولك هذا مبالغاً فيه.. أأنت واثق تماماً؟.."

قال تيمار ببرود "لا يغرّك صغر سني.. فأنا لست أحمقاً.."

ثم استدار عائداً للمركبة وصعد عليها ليستقر في مقعدها الخلفي، وقبل أن تتحرك المركبة التفت لسليم قائلاً "كن مستعداً.. أبي ينوي استعادة الفتاة غداً.. ابقَ على اتصال بي.. لكن لا تُجرِ أي اتصال إلا للضرورة القصوى.."

هز سليم رأسه موافقاً، فأعطى تيمار إشارة الرحيل.. وبسرعة كبيرة، كانت المركبة تبتعد بصمت تام حتى قطعت مسافة كبيرة في فترة وجيزة.. فراقبها سليم حتى غابت في الأفق، قبل أن يعود ببصره للصندوق قربه مغمغماً "ما هذه إلا البداية.."

ثم نظر للسماء المظلمة من فوقه مضيفاً "ويعلم الله ما هي النهاية.."

وحمل الصندوق عائداً للقرية القريبة التي استغرقت في غفوة عميقة دون أن تدرك شيئاً مما جرى قربها تلك الليلة..

****

في اليوم الموعود، كان تولاد يدلف الجناح الذي خصصه للطفلة في موقع ناءٍ من قصره.. وخلفه، دلف رئيس المختبرات ليلقي نظرة على الطفلة ويقرر إن كانوا يستطيعون إجراء التجربة هذا اليوم.. رأى تولاد المربية تقف بتوتر شديد، فتجاهلها وهو ينظر للطفلة التي بلغت من العمر ثماني سنوات، وتأمل وجهها الشاحب بشكل واضح، وجسدها الهزيل..

ثم التفت إلى رئيس المختبرات متسائلاً "ما رأيك؟"

قال رئيس المختبرات "أظن أننا نستطيع القيام بالتجربة في أي وقت، فحالها مستقر منذ أيام عديدة.."

ازداد توتر المربية، بينما التفت تولاد خلفه وهو يقول لأحد الجنود القريبين "خذوا الفتاة وابدأوا التجربة حالاً.."

استوقفته المربية قائلة بتوتر "سيدي.. هل يجب أن تفعل ذلك؟.."

نظر لها تولاد باستنكار ظاهر، فقالت المربية برجاء "أشك أن تتحمل الطفلة تجربة مثل هذه.. ارحمها من هذا رجاءً.."

قطب تولاد باعتراض ظاهر وقال "محال.. يجب أن نقوم بهذه التجربة الآن.."

فقالت المربية بانفعال ورجاء "أرجوك.. لن تتحمل تجربة كهذه.. قد تموت إذا خاضتها بجسد ضعيف كهذا.."

رأت تولاد يلتفت لرئيس المختبرات القريب وهو يقول "قم بالإعداد لهذه التجربة دون إبطاء.."

وتوجه نحو مدخل الغرفة عازماً على الاتجاه للقاعة، لكنه فوجئ بالمربية تتشبث بمعطفه وهي تصيح "أرجوك يا سيدي.. لا تكن قاسياً.. هذا سيقتلها دون شك.."

جذب تولاد معطفه بغضب وهو يقول بحدة "أأنت مجنونة؟.. وهل بقاؤها بهذه الحالة أفضل لها؟.. غادري قبل أن ينالك عقابي.."

فصاحت المرأة بغضب وهي تراه يستدير مغادراً "أنت رجل ظالم.. لقد حرمتني من الطفلة سانا وأرسلتها لمكان يعلم الله تعالى أين يكون.. والآن ستأخذ هذه الطفلة البريئة أيضاً وتقتلها بكل برود؟ أنت مجرم.. من هم مثلك لا يستحقون لقب أبٍ بتاتاً.."

فوجئت به يعود إليها لتجد صفعة قاسية تدوّي على خدها المتغضن.. ظلت تنظر له بصمت مذهول وهو يقول ضاغطاً على أسنانه "من أين لك الحق بالتدخل في أموري؟ أنت مجرد مربية، وما أفعله بالطفلة ليس من شأنك بتاتاً.. ومنذ الآن، فإن هذا القصر يستغني عن خدماتك وللأبد.."

واستدار مغادراً بصمت بينما تعالى انتحاب المربية وهي تحتضن الطفلة وتهمس "ليتني لم أنتظر حتى أرى ما يفعلونه بك يا طفلتي.. ليتني لم أنتظر حتى تصبحي بهذه الحالة.. ليتني أخذتك وفررت من هنا.."

سمعت صوت رئيس المختبرات يقول "حسناً فعلتِ، فلو فكرت بالهرب بها لكان عقابه لك عنيفاً "

وجدت أحد الجنود القريبين يأخذ الطفلة خارجاً من الجناح، لكن حاولت المربية أن تتشبث بها وهي تصيح "أرجوك.. ارحموا هذه الطفلة.. أنتم ستقتلونها بما تفعلونه.. أرجوكم.."

لكن رئيس المختبرات جذبها لتفلت الطفلة وقال "يحسن بك الرحيل حالاً، وإلا طلبت من أحد الجنود طردك من القصر.."

وغادر تاركاً المربية تتهاوى أرضاً ودموعها تتساقط على ملابسها وهي تهمس بغضب "أنت رجل ظالم.. أنت وغد وحقير يا تولاد.."

ثم أغمضت عينيها بقوة وهي تهمس منتحبة "يا لك من مجرم.. لا مكان للرحمة في قلبك بتاتاً.."

****

الفصل الرابع عشر « ما بعد الحقيقة.. »

مضت ساعة على الأقل منذ بدأ تولاد الحديث.. وخلال تلك الساعة، لم تقاطعه ريم بتاتاً رغم ضيقها من بعض جزئيات تلك الحكاية، وارتعابها من جزئيات أخرى.. ولما انتهى، حيث بدأت حكايتها الحقيقية، نظر لها تولاد ليجد الاستنكار واضحاً في عينيها.. عندها قال "يبدو أن كل ما حكيته لك لم يجعلك أكثر تعاطفاً معي.."

قالت ريم بصوت يرتجف غضباً "تعاطف؟.. أي تعاطف تبغيه وأنت قد ارتكبت كل ذلك مدّعياً بأن ما تفعله لصالحي؟.. أي قلب سمح لك بحماية ابنتك مقابل تعذيب طفلة أخرى دون اعتبار لمجرد أنها ليست من دمك؟.. سلبتها والديها وأبقيتها حبيسة الجدران، فقط لأنها تذكرة استعادة طفلتك؟"

قال تولاد رافعاً حاجبيه "وما الذي كنت تريدين مني فعله؟.. أن أعاملها كابنة لي؟.. هذا محال.."

فقالت ريم بغضب "ما كان يجب أن تبدأ تجربتك العبثية هذه بتاتاً.. ليتك أبقيتني كما أنا، لكان هذا خيراً لي"

نهض تولاد واقترب من إحدى النوافذ متأملاً الحديقة وهو يقول "لو أنكِ بقيتِ كما أنت، لكرهتِني في كل يوم ولحظة.. للعنتِني لأنني لم أحاول مساعدتك.. لأنني لم أحاول إنقاذك قبل فوات الأوان"

ونظر لريم المقطبة قائلاً "أتظنين أن رؤية طفلتين تمران بذات المرض سهل عليّ؟.. أتظنين أني لا أملك أي مشاعر وأنا أرى الطفلتين تتهاويان نحو الموت بخطوات سريعة قبل أن تتجاوزا مرحلة الطفولة؟.. هل كنت أقدر على رؤيتك تمرين بالأمر ذاته؟.. محال"

قالت ريم مشيحة بوجهها "بل أراك بلا مشاعر فيما يتعلق بعلاقتك بالآخرين.. ما ذنب تلك الطفلة؟ وما ذنب والديها؟"

تنهد تولاد وصمت عاجزاً عن مجادلتها، بينما تذكرت ريم أمراً فالتفتت إليه متسائلة "لكن هناك ما لم أفهمه في روايتك هذه.. ما الذي جرى للفتاة في هذا العالم؟"

قال تولاد رافعاً حاجبيه "ما الذي جرى لها؟.. لم يجرِ أي شيء غير عادي.."

اعترضت ريم "هذا غير منطقي.. لماذا سعى سليم لإعادتي للعالم الذي تنتمي شبيهتي إليه بهذا الإصرار حتى قبل أن يدرك موت تلك الطفلة؟.. لماذا، بعد كل البؤس الذي عاشت فيه هنا، يعيدها لهذا العالم؟.. لماذا يستعيدها بعد أن عادت لوالديها أخيراً؟"

قال تولاد مقطباً "عليك أن تسألي ذلك الوغد بنفسك.. وإن كنت أتمنى ألا نراه مرة أخرى.."

فقالت ريم بحزم "بل سنراه، وسأسأله عن كل ما لم تخبرني به.. هناك شيء تخفيه، ولن أرتاح حتى أعرفه.."

قاطعتهما طرقة على باب الجناح، فسمح تولاد للقادم بالدخول.. ولما دخل ذلك الخادم أحنى رأسه لتولاد قائلاً "عذراً يا

سيدي.. هناك من يطلبك بإلحاح.."

قطب تولاد قائلاً "من يكون؟.."

سمع صوتاً من خلف الخادم يقول "هذا أنا يا تولاد.."

نظر تولاد وريم للقادم بدهشة.. فتعرف تولاد على داميت الذي دخل الجناح بصمت وتقطيبة ظاهرة على وجهه.. عندها قال تولاد بصرامة "ليست عادتك أن تأتي لزيارتي في مثل هذا الوقت وبلا موعد.. والأسوأ هو تجوالك في قصري دون استئذان.."

قال داميت وهو يتقدم في الجناح بهدوء "ما جاء بي أمر مهم بالتأكيد.. ولو كنت تستجيب لاتصالاتي لما اضطررت للمجيء بنفسي.."

ألقى تولاد نظرة سريعة على باطن رسغه حيث الشاشة الساكنة، ثم قال عاقداً حاجبيه "إذن، ما هذا الأمر المستعجل الذي يجعلك تتجاوز أدنى حدود اللياقة؟"

فقال داميت وهو يقف مواجهاً تولاد "أكنت تظننا مجموعة من الحمقى يا تولاد؟.. أنت رئيس المجلس، وأنت ملزم بالتقيد بقوانين وأحكام أنكاريا.. لقد تجاوزنا خديعتك الأولى بإرادتنا.. لكن هذا لا يعني أننا سنسامحك عندما تفكر بخداعنا مرة أخرى.."

ازداد انعقاد حاجبي تولاد بينما مال داميت نحوه قائلاً بتقطيبة "جهاز الاتصال بالعوالم الموازية.. لماذا احتفظت بمخططات الجهاز ولم تسلمنا إياها عندما طلبناها منك؟.. لماذا قمت ببناء جهاز جديد رغم معارضتنا لذلك؟.. بل الأدهى أنك أجريت اتصالاً بالعوالم الموازية ضارباً عرض الحائط كل قوانين أنكاريا.."

تساءل تولاد مقطباً "كيف علمتم بذلك؟.. ألديك جواسيس في قصري؟"

أجاب داميت شادّاً جسده "لست بحاجة لدسّ الجواسيس.. الأخبار تصلني بدون اللجوء لتلك الطريقة.."

قال تولاد بسخرية لم يستطع السيطرة عليها "وهل علمتم بذلك الآن؟.. أنا أملك هذا الجهاز منذ تسع سنوات.."

قال داميت مقطباً بشدة "لكني أعلم بمخططك الجديد.. ولن أسمح لك بتنفيذه.."

فقال تولاد عاقداً حاجبيه "أي مخطط تعني؟.. أنت لا تفهم الأمر يا داميت.. فعلت كل ذلك لأجل....."

نظر داميت لريم وهو يقاطعه "لأجل ابنتك.. أعلم أن هذا ما تدّعيه منذ البدء.."

قطب تولاد بشدة بينما أضاف داميت "أنت مدرك أنني أعلم بالأمر كله منذ أمد طويل.."

فعلق تولاد "من الغريب أنك، أو لونا، لم تتدخلا في أمر سانا طوال تلك السنين.."

قال داميت بضيق "تلك المرأة الحمقاء رأت أن فقدان ابنتها في إحدى تجاربك خير من رؤيتها طريحة الفراش.. لذلك تخلت عنها وهي موقنة أن الطفلة لن تعود من ذلك العالم، أو لن تعود حية على الأقل.. ولم يكن لي خيار التدخل في أمر

لا تريده هي.."

صمت تولاد بلا انفعال بينما شحب وجه ريم وهي تستمع إليه.. أهذه هي أمها الحقيقية؟.. أي أمومة جعلتها تتخلى عن طفلتها بعد اكتشاف مرضها المميت؟.. وأي حياة يريد تولاد استبقاءها لأجلها؟.. لأجل أب قاسٍ؟.. لأجل أم أنانية؟.. أم لأجل أخ يكرهها صراحة رغم معاونته لها؟..

سمعت داميت يقول مجادلاً "لمَ تبذل كل هذا الجهد لأجل طفلة واحدة؟.. كان بإمكانك الحصول على عشر أطفال غيرها طوال السبعة عشر عاماً الماضية.. لكنك تخليت عن زوجتك ولم تفكر بالزواج مرة أخرى ناذراً نفسك لأجل فتاة واحدة.. ليست هذه تصرفات رجل عاقل.."

قال تولاد بهدوء "أتريد مني إنجاب المزيد من الأطفال وتسليمهم للموت بعد ذلك؟.. هذه جهود أكثر عبثية برأيي.."

ثم جلس جانباً مضيفاً بابتسامة "أنت لم تأتِ إليّ الآن لتسدي لي النصائح بالتأكيد.."

فقال داميت "جئت أبلغك قرار مجلس الحكماء بشأن هذه القضية.."

علق تولاد بسخرية "قرارٌ اتخذتموه دون إشراكي فيه كالعادة.. حسناً، وما هو هذه القرار؟"

قال داميت بحزم "قرار إقالتك من منصبك كرئيس للمجلس يا تولاد.."

ساد الصمت والسكون المكان بعد أن ألقى داميت قنبلته تلك، وريم تقلب بصرها بينهما بتوتر بالغ متعجبة من كل ما تسمعه.. فهي لا تعرف من هو تولاد حقاً، ولا أي منصب يشغله في أنكاريا.. ولم تكن تملك الفضول الكافي للسؤال عن ذلك طوال الشهر الذي قضته هنا بعد استيقاظها..

سمعت تولاد يقول بصوت ينذر بغضب شديد "أتريد أن تعيدني لمنصب عضو عادي في المجلس؟"

قال داميت بصرامة "بل أخرجك من المجلس تماماً.. وهذا ما أجمع عليه الأعضاء كلهم"

فقال تولاد بسخرية "ومن هو الرئيس الجديد؟ أنت؟!.. هل يجب عليّ تهنئتك؟"

أجاب داميت "أمور المجلس لم تعد تعنيك بتاتاً منذ الآن.."

هبّ تولاد واقفاً بغضب لم تره عليه ريم من قبل وهو يصيح "أتستهزئ بي؟.. أجئت لمنزلي لتستمتع بإذلالي؟"

ثم اقترب من داميت بخطوات تدك الأرض دكاً وهو يقول بغضب "لا يمكنك فعل ذلك بي.. ليس أنا.. أنا الرئيس، وسأظل الرئيس مهما فعلتم لإقصائي بأعذار هزيلة كهذه.."

قال داميت بصرامة أشد "هذا القرار تم بالإجماع، ولا يحق لك الاعتراض عليه.. لقد عرضت أنكاريا للخطر عدة مرات لأغراض شخصية لا تهم أحداً غيرك.. وهذا لا يليق برئيس مجلس الحكماء الذي يسعى للمحافظة على أمن واستقرار أنكاريا.."

صاح تولاد بغضب "لا يحق لك.."

فقال داميت بحدة "لا تملك ترف الاعتراض.. ولن يحق لك بعد الآن إقامة أي تجارب في مختبراتك.. كما أن الجهاز وكل ما يتعلق به ستتم مصادرته من قبل المجلس"

اقترب تولاد منه وقبض على مجمع ثيابه وهو يقول بشدة "لن أسمح لك.."

قال داميت بهدوء "المصادرة جارية بالفعل الآن يا تولاد.."

اتسعت عينا ريم بينما حدق تولاد في زميله السابق بغضب يتنامى، قبل أن يدفعه جانباً ويسرع خارجاً من الجناح ليرتطم بأحد مساعدي داميت في خروجه، ولم تلبث ريم أن لحقت به.. أما المساعد، فقد اقترب من داميت قائلاً "سيدي.. لقد تمكنا من مصادرة الجهاز الناقل من المبنى ونقلناه بشاحنة إلى مبنى مجلس الحكماء.. تتبقى محتويات المختبرات والأجهزة الأخرى، فالجهاز الناقل كبير الحجم ولا يمكن شحن جميع الأجهزة معه.. كما أننا نواجه مقاومة من العاملين في المختبرات.."

فقال داميت مقطباً "لا تهتم بمقاومتهم.. من يقاوم ارمه في السجن ولو لليلة حتى ينصاع لأوامر المجلس.. أما المختبرات فضع فرقة من الجنود لحراستها جيداً حتى الغد.. سنطلب شاحنة أخرى لنقل ما تبقى غداً.. عليك أن تحذر الجنود من تدخل تولاد.."

هز المساعد الشاب رأسه موافقاً وهو يستدير، فقال له داميت قبل أن يغادر "عليك أن تحرص جيداً على الجهاز الناقل يا بالدو.. إياك أن تسمح لأحد أن يصل إليه حتى تؤمنه في مبنى المجلس.. أتفهم؟"

هز بالدو رأسه من جديد وهو يقول "اطمئن يا سيدي.. سأحرص عليه أكثر مما تطلب مني.."

وابتسم ابتسامة جانبية لم يجد لها داميت أي معنى، قبل أن يستدير ويغادر الجناح بسرعة..

أما ريم، فقد لحقت بتولاد عبر ممرات القصر والجزع يتسلل لصدرها بشدة .. لو صادروا الجهاز، فستفقد وسيلتها الوحيدة للعودة.. ستبقى حبيسة هذا العالم دون أن يتسنى لها رؤية أبويها ولو لمرة واحدة.. فكيف يمكنها أن تمنع ذلك؟.. التقوا في ركضهم بتيمار الذي هتف قائلاً "سيدي.. جنود المجلس يعيثون بالمختبرات الفساد، ويستولون على كل ما تطاله أيديهم.."

لم يعلق تولاد وهو يركض نحو المخرج، بينما تشبثت ريم بتيمار وهي تصيح "أوقفهم يا تيمار أرجوك.. سيصادرون الجهاز، عندها كيف يمكنني أن أعود؟"

قال تيمار قالباً كفيه "وما الذي يمكنني عمله؟ إنهم يحملون أمراً من مجلس الحكماء بمصادرة كل شيء.. ومن يقاومهم سيساق للسجن بكل تأكيد.."

تهاوت ريم أرضاً وهي تهمس "أهذا يعني أنني سأظل حبيسة هذا العالم؟"

لم يعلق تيمار وهو يقف بصمت، قبل أن يسألها بقلق "ما الذي جرى للبقية؟ أين هم؟"

قالت ريم بأسى "لقد اقتادهم الجنود بعيداً.. سيحاكمون لإثارتهم الشغب ولسعيهم اختطافي كما يدّعي تولاد.."

ثم رفعت بصرها إلى تيمار قائلة برجاء "اتصل بالجنود واطلب منهم إطلاق سراحهم الآن.. سيطيعونك، أليس كذلك؟"

نظر لها تيمار بصمت وهو يفكر بالأمر.. هل يفعل ذلك؟.. هذا يعني كشف أمره على الفور.. فما ستكون نتائج ذلك؟..

****

فور اقتراب تولاد من مبنى المختبرات، لاحظ على الفور أولئك الجنود الذين وقفوا متحلقين قرب المبنى لمنع تدخل أي شخص فيما يجري فيه، فيما تجمّع عدد كبير من خدم وخادمات القصر في جانب الحديقة يراقبون ما يجري بقلق وتوتر.. وتعالى لسمعه صياح وهتاف من قلب المبنى دالاً على حجم التخريب الذي يجري فيه.. تقدم تولاد بإصرار نحو المبنى، ليجد أحد الجنود يقف في وجهه قائلاً "لا يُسمح بدخولك يا سيدي.."

نظر له تولاد بغضب شديد وهو يقول "أتمنعني أيها الجندي؟.. أنسيت من أنا؟"

قال الجندي بشيء من التوتر "أنا أطيع أوامر مجلس الحكماء.. ورئيس المجلس نفسه قد أمرنا بأن...."

لطمه تولاد بقوة على وجهه وهو يصيح "أنا الرئيس.. أتجرؤ على ما قلته؟"

لم يتزحزح الجندي من موقعه إنما لم يجرؤ على إظهار غضبه، فيما تقدم قائد تلك الفرقة وهو يقول "سيدي.. لا داعي للمقاومة، فلدينا أمر باعتقال كل من يحاول عرقلة عملنا هنا.."

شعر تولاد بغضب يتنامى في صدره وهو يرى الجنود يقفون في وجهه للمرة الأولى في حياته، وعندما التفت حوله رأى بادر وفرقة من جنود القصر يقفون جانباً بصمت.. فصاح بهم تولاد "بادر.. لمَ سمحت بدخول هؤلاء قصري دون إذن؟.. أخرجهم من مختبراتي وقصري حالاً.."

لم يبدُ الاهتمام على أي من جنود المجلس، بينما قال بادر بحزم "سيدي.. نحن نتبع جنود المجلس في الأساس، وأي أمر لهم يسري علينا أيضاً.."

نظر له تولاد بنظرة حارقة، فأحنى بادر رأسه مضيفاً "سامحني يا سيدي.. لكن لا يمكنني التدخل بتاتاً.."

رأى تولاد في تلك اللحظة بعض العلماء والمساعدين يغادرون المختبرات.. منهم من يُظهر ألمه بوضوح بعد أن أصيب بضربات الجنود التي لا تعرف الرحمة، ومنهم من يطلق الشتائم وهو يعين رفاقه على المغادرة.. أما رئيس المختبرات فقد اقتاده جنديان خارج المبنى وهو يقاوم بشدة ويطلق الشتائم واللعنات بغضب شديد.. لكن أحداً لم يعبأ به وهم يرمونه خارجاً ويقفون كسدّ يحول بينه وبين العودة للمختبرات، بينما مازالت أصوات التحطيم والتخريب تصل لأسماعهم بوضوح من الداخل..

لاحظ رئيس المختبرات وجود تولاد قرب الموقع، فهرع إليه صائحاً "سيدي.. لقد صادروا الجهاز الناقل.. كيف تسمح لهم بذلك؟.. امنعهم قبل أن يدمروا كل شيء.."

قال تولاد بغضب حاول كتمه "وما الذي بيدي فعله؟"

قال الرئيس بإصرار "يجب أن تفعل.. ألستَ....؟"

قاطعه تولاد قبل أن ينطق الكلمة وهو يقول من بين أسنانه "لم أعد كذلك منذ اللحظة.."

واستدار مغادراً بصمت وغضبه يتوهج في صدره بشدة دون أن يكون قادراً على التنفيس عنه.. ها هي مختبراته التي يفخر بها تدمّر نهائياً.. ها هو الجهاز الذي سعى طويلاً لإتمامه يدمّر ويطويه النسيان.. فكيف يصمت على كل ذلك؟..

رأى أثناء سيره في ممرات القصر تيمار الذي كان يتحدث في أحد أجهزة الاتصال بإلحاح، بينما كانت ريم تقف قربه تراقبه برجاء واضح.. ولما اقترب منهما دون أن ينتبها لوجوده سمع تيمار يقول بشيء من الحدة لم يعتدها منه "أنا آمرك أن تطلق سراحهم جميعاً.. أسمعت ما قلته؟.. أوامري هي ذاتها أوامر سيدك تولاد.. وإن لم تقم بإطاعة هذا الأمر، فعقابك سيكون شديداً.."

سمع تولاد عبر جهاز الاتصال المفتوح صوت أحد الجنود يقول بتوتر "سيدي.. لقد أمر سيدي تولاد بوضوح ألا نفلتهم حتى نسلّمهم لمجلس أمن أنكاريا.. وهناك ستتم محاسبتهم على اختطافهم الآنسة الصغيرة.. يجب أن أتلقى أمراً مباشراً من سيدي تولاد بإطلاق سراحهم لأنفذ هذا الأمر.."

بدا غضب شديد على وجه تيمار وهو يصيح "سأتأكد من فصلك من عملك يا هذا.. أتتجرأ على رفض أمري؟"

فوجئ تيمار بمن يسحب الجهاز من يده بقوة، فالتفت هو وريم لصاحب اليد ليفاجئا برؤية تولاد الذي قال عبر الجهاز "استمع يا هذا.. أنا تولاد.. لا تطلق سراح أولئك المشاغبين بتاتاً.. هذا أمري الأخير لك.."

وأنهى الاتصال وهو يحدق بنظرات حادة بتيمار الذي بدا أكثر شحوباً من العادة.. ثم تقدم خطوة منه قائلاً بهدوء ظاهري "أكان هذا أنت منذ البدء؟.. أنت هو الخائن يا تيمار؟"

نظرت ريم لهما بقلق بينما ثبت تيمار في موقعه وهو يتمالك نفسه قائلاً "سيدي.. أنا لم أكن خائناً في يوم من الأيام.."

فسأله تولاد مقطباً بشدة "إذن ما معنى ما فعلته؟"

أجاب تيمار على الفور "لقد حاولتُ تصحيح أخطائك قبل فوات الأوان.."

تقدم تولاد خطوة أخرى ووجه لطمه قوية لوجه تيمار جعلته يتراجع عدة خطوات وهو ينثني بألم دون صوت.. ثم عاد يشدّ جسده منتصباً وهو يقول "لقد ظلمتَ الكثيرين بما فعلته يا سيدي.. ولم أكن لأسكت على هذا.."

واجهته لطمة أخرى جعلته ينثني من جديد قبل أن تصيبه ضربة أشدّ على رأسه ألقته أرضاً.. صاحت ريم وهي تقف أمام تولاد "كفى.. لمَ تفعل هذا به؟"

لكن تولاد دفعها من طريقه وقد أعماه الغضب.. وركل تيمار في بطنه دون رحمة قبل أن يوجه ركله أخرى لصدره تأوه لها تيمار دون أن يحاول المقاومة.. ظلت ريم المرتعبة تراقب هذا دون أن تملك التدخل وقد بدا لها تولاد كوحش أطلق من عقاله بعد سنوات طويلة من الأسر المهين.. اجتمع غضبه من مجلس الحكماء وغضبه من الجنود مع غضب اكتشافه خيانة تيمار ليجعل منه شخصاً عنيفاً مغيّب الأحاسيس بشكل تام..

وبعد عدة ضربات وجهها تولاد لجسد تيمار دون رحمة ودون اعتراض من الأخير، وقف قائلاً من بين لهاثه "أيها المغرور.. أنت مطرود من هذا القصر ومن هذه العائلة.. أنت لم تعد تنتمي لهذا المكان.. لا تُرني وجهك بتاتاً بعد اليوم.."

وغادر الموقع بخطوات عاصفة، بينما أسرعت ريم بقلب واجف نحو تيمار الذي اعتدل وملامحه تفضح ألمه الشديد دون أن يصدر منه أي تذمر، بينما سالت بعض الدماء من أنفه وفمه.. عاونته ريم على الجلوس وهي تقول دامعة العينين "لماذا فعل بك كل هذا؟.. ذلك المتوحش.. ما ذنبك أنت؟ كان عليك أن تمنعه قبل أن يتمادى.."

نظر تيمار لعينيها الدامعتين، ثم ابتسم ابتسامة شاحبة وهو يغمغم "الأبناء يتحملون أخطاء آبائهم، أليس كذلك؟"

لم يكن في ابتسامته أي بغض أو كره كما اعتادت منه ريم منذ عرفته.. كانت ابتسامة صافية أوجعت قلبها أكثر وهي تكاد تمنع دموعها من الانهمار بصعوبة.. ففضّلت الصمت وهي تعاونه على النهوض واللجوء لجناحه تاركين العبث والتخريب مستمراً في جوانب المختبرات التي لم تعد تحمل من اسمها شيئاً..

****

أثناء سير المركبتين اللتين تحتجزان سليم والآخرين نحو مبنى مجلس الأمن، تلقى قائد الجند ذلك الاتصال الذي أثار دهشته واستغرابه الشديدين.. انتبه سليم الذي كان يجلس خلفه لقول القائد وهو مقطب الحاجبين "سيدي.. لقد أمر سيدي تولاد بوضوح ألا نفلتهم حتى نسلّمهم لمجلس أمن أنكاريا.. وهناك ستتم محاسبتهم على ما اختطافهم الآنسة الصغيرة.. يجب أن أتلقى أمراً مباشراً من سيدي تولاد بإطلاق سراحهم لأنفذ هذا الأمر.."

بدا صياح تيمار واضحاً من الجانب الآخر، فمال سهم نحو سليم هامساً "أتظنه سينصاع للأمر؟"

غمغم سليم "قطعاً لا.. ليس الأمر بهذه السهولة.."

أنهى القائد الاتصال وهو يقول للجندي قربه "سيدي تولاد أمرنا بالاستمرار بالخطة.. يبدو أن سيدي الصغير ينوي أمراً نجهله.."

عاد سهم يميل نحو سليم قائلاً "هل ننقض عليهم الآن قبل وصولنا للمجلس؟.. يمكننا فعل ذلك في هذه المركبة الضيقة.."

قال سليم بقلق "أنت مجنون.."

فابتسم سهم معلقاً "لا تتصرف كعجوز.."

التفت إليهما القائد الجالس في الأمام وهو يقول بحدة "كفا عن الهمس هناك.."

رأى في اللحظة ذاتها سهم يجذب ركبته حتى لامست صدره، ثم بحركة خاطفة دفع قدمه نحو فك القائد بعنف، ثم كرر الركلة مرة أخرى حتى رماه خارج المركبة المكشوفة.. وفي اللحظة ذاتها قفز سليم على الجندي الذي يقود المركبة فأحاط عنقه بالقيد الذي يقيد يديه وضغط عليه بقوة حتى كاد يختنق، مما أجبره على ترك المقود وهو يناضل للتخلص من سليم فتباطأت سرعة المركبة بشكل ملحوظ وهي تميل جانباً بحدة..

هبّ الجنديان الجالسان خلفاً وهما يرفعان سلاحيهما، لكن سهم أدرك أنهما لن يطلقا خشية إصابة رفيقهما الجالس في الأمام.. عندها دفع جسده نحوهما فلطم أحدهما بكتفه بينما اندفعت ركبته في وجه الآخر.. أسرع الأول يقبض عليه من ذراعيه ويثبته وهو يصيح في رفيقه بحنق "أطلق على ساقه النار كي لا يفكر بالهرب.."

لكن تمايل المركبة قد دفعها نحو عمود إنارة قريب فارتطمت به ودارت حول نفسها بقوة كادت تسقطهم جميعاً من على ظهرها.. عندها استغل سهم الوضع وهو يركل سلاح الجندي المواجه له قبل أن يدفعه بقوة حتى رماه من فوق المركبة.. ثم ضرب الآخر بقوة برأسه حتى رآه ينحني من الألم، عندها ركله ليسقطه عن المركبة..

استدار إلى سليم فوجده يقاوم الجندي الذي يقود المركبة، عندها قفز سهم وضربه ضربة على عنقه بقوة أفقدته الوعي على الفور.. وبينما حاول سهم المحافظة على المركبة وإعادتها لطريقها، كان سليم يفتش الجندي الذي يحتفظ بمفتاح قيودهما في جيبه.. وبعد أن استخرج المفتاح، قام سهم برمي الجندي خارج المركبة وجلس في موقعه قائلاً بحماس "الآن يبدأ الجد.."

قام سليم بتحرير يديه ثم نزع القيود عن يدي سهم وهو يقول بتوتر "بقي أمر المركبة الثانية.."

قال سهم بابتسامة جانبية "لا تقلق.. أمرها سهل.."

كانت مركبتهما تسير خلف المركبة الأخرى، فرآه سليم يزيد سرعة المركبة بينما استدارت المركبة الأخرى وعادت إليهم بعد أن انتبه الجنود فيها لما حدث.. كان عزم سهم على الارتطام بتلك المركبة واضحاً، فصاح سليم بذعر واضح "لا تفعل.. توقف"

قال سهم بعزم "لا تكن جباناً.."

عادت تلك اللحظات التي غيرّت حياته لذهن سليم بوضوح شديد.. تلك الشاحنة.. وذلك الارتطام العنيف.. وتلتها غيبوبة لم يرَ بعدها ضوء النهار بتاتاً.. حتى حدثت له معجزة لم يحلم بمثلها من قبل..

سرت رجفة في جسد سليم وهو يرى المركبة الأخرى تقترب بسرعة رغم محاولة قائدها الابتعاد عنهم.. ولما حدث الارتطام، كان رعب سليم قد بلغ أوجه وهو ينحني واضعاً رأسه بين ركبتيه ويحمي رأسه بذراعيه.. كان الارتطام شديداً، لكنه لم

يكن بالعنف الذي توقعه سليم، فقد ارتدّت مركبتهما بعنف قبل أن تدور حول نفسها وتتجه للاتجاه المعاكس بقوة حتى ارتطمت بمبنى قريب أوقف اندفاعها.. لكن المذهل أنها لم تنقلب بتاتاً ولم يصب أي منهما بجراح أبداً..

نهض سليم من موقعه بيدين ترتجفان وهو يحمد الله أن أطرافه تطاوعه بشكل عادي، بينما هبّ سهم قائلاً "لنسرع لإنقاذ يعقوب.."

في تلك الأثناء، وفور أن استقرت المركبة الأخرى جانباً، نهض جنديان من جنودها الأربعة وهما يحملان سلاحيهما لمواجهة سهم وسليم، بينما رفع الثالث سلاحه في وجهي السجينين وقائد المركبة يحاول إيقاف الدماء المتصببة من رأسه وهو يغمغم "اللعنة عليهما.. هل كانا يرغبان بقتلنا؟"

قال الجندي الأول "أبلغ القيادة بهذا بسرعة قبل أن يتمكنوا من الفرار.."

سمعوا إطلاق النيران، عندها استغل يعقوب تشتت انتباه الجندي للحظة ودفع قدمه بقوة نحو ساق الجندي في ركلة قوية.. صاح الجندي بشيء من الألم وهو يسقط على ركبته، فهبّ يعقوب نحوه ودفع سلاحه بعيداً وهو يلكم وجهه بلكمة قوية صائحاً في صاحب المنزل "تولّ الآخر.."

تردد الرجل للحظة وهو غير معتاد على مثل هذه المواجهات، فسمح لقائد المركبة بأن يستخرج سلاحه ويشهره في وجهيهما.. لكن يعقوب دفع الجندي القريب منه نحو قائد المركبة ثم أفقده الوعي بلكمة أخرى من يده.. وقبل أن يزيح القائد رفيقه من فوقه، وجد ضربة أخرى تصيب رأسه فتفقده الوعي بسرعة مع الدماء التي فقدها في ذلك الوقت..

استولى يعقوب على سلاح أحد الجنديين، ثم اندفع بسرعة نحو الجنديين الآخرين اللذين كانا يحاولان الإيقاع بسهم وسليم.. وبنظرة سريعة أدرك يعقوب أن رفيقاه قد اتخذا المركبة الأخرى وقاءً ضد الرصاص المتطاير.. لم يتوانَ يعقوب عن الهجوم على الجنديين اللذين لم يلمحاه حتى كانت ضربته تصيب أحدهما فتلقيه أرضاً.. عندها استدار الجندي الآخر ووجه عقب سلاحه في وجه يعقوب بضربة قوية، ولما انثنى يعقوب بألم عاد الجندي يضربه على رأسه بقوة وغضب..

لكن، قبل أن يستمرّ الجندي في ضربه، كان يعقوب يقفز عليه ويسقط معه أرضاً ثم يبادره بضربتين متتابعتين بالسلاح في يده تهاوى معها الجندي فاقد الوعي.. فوقف يعقوب وهو يلتفت نحو الجندي الآخر بتوتر ليرى سهم قد انتهز فرصة سقوطهما وتولّ أمر الجندي الآخر بسرعة قبل أن يتمالك نفسه..

لم يلبث سليم أن لحق بسهم وهو يقول لهما بتوتر "يجب أن نغادر بسرعة قبل حضور المزيد من الجنود.."

وافقاه بصمت وصاحب المنزل ينضمّ إليهم، ففكوا قيد يدي يعقوب وصاحب المنزل، ثم أسرعوا بالابتعاد عن المركبتين والطريق الذي يقطع ذلك الحيّ ليندسّوا في أحد الأزقة التي تتغلغل بين المنازل..

بعد سير قصير ضمنوا به أنهم قد ابتعدوا عن قبضة الجنود مؤقتاً، وقفوا في زاوية مظلمة من ذلك الزقاق ونظر الأربعة لبعضهم البعض، ثم تساءل يعقوب "ماذا الآن؟.. الجنود كلهم سيكونون على إثرنا والمدينة ستنقلب ضدنا.. وفشلنا في

استعادة ريم.."

قال سليم للرجل الذي عاونهم منذ البدء "عد إلى منزلك في ذلك الحي لكن لا تختبئ فيه، خذ عائلتك وابتعد عن المدينة قدر الإمكان حتى تهدأ الأمور.. لا نريد لك أن تتضرر من جراء معاونتنا.."

قال الرجل "لا بأس.. أتمنى أن تكلل مهمتكم بالنجاح.."

فقال سهم وهو يربت على كتفه "شكراً لك.. لن أنسى ما فعلته لنا أبداً.."

هز الرجل رأسه محيياً، وسرعان ما تركهم واندسّ بين سكان المدينة متخذاً أقصر الطرق نحو حي مواطني الدرجة الثانية.. بينما نظر الثلاثة لبعضهم البعض قبل أن يقول سليم "قصر تولاد هو وجهتنا الوحيدة.."

تساءل سهم "ألا يجدر بك الاتصال بتيمار لمعرفة ما جرى في القصر؟"

أجاب سليم "ربما كان ذلك هو الأفضل.."

وسرعان ما أجرى اتصاله بتيمار عبر القطعة المعدنية التي استبقاها من السوار، وبعد أن استبطأ إجابته، أتاه صوت تيمار المتعب بوضوح وهو يقول "أين أنت يا رجل؟ ما الذي جرى لكم؟"

سأله سليم بشيء من القلق "بل ما الذي جرى لك؟ تبدو متعباً.."

فقال تيمار محاولاً الاحتفاظ بهدوئه "لم يحدث لي شيء.."

لكن سليم سمع ريم القريبة تقول بشيء من العصبية "الكدمات تغطي وجهك وأنت تنكر حدوث شيء؟"

قال سليم بتعجب "من الذي جرؤ على لمس ابن رئيس مجلس الحكماء؟"

بدا صوت تيمار مبتسماً وهو يجيب "رئيس مجلس الحكماء ذاته.. أو الرئيس السابق لو صحّ لي القول.. لقد عزلوه من منصبه لأنه تجاهل قوانين المجلس زمناً طويلاً.."

صمت سليم لحظات بدهشة وصدمة.. ثم غمغم "هذا الرجل البارد يثور بتلك الطريقة؟.. ما الذي جرى؟.."

أجاب تيمار "لقد اكتشف معاونتي لكم، كما أن جنود مجلس الحكماء هنا في القصر.."

ارتفع حاجبا سليم بدهشة وهو يقول "لماذا؟"

أوجز له تيمار ما جرى في القصر منذ عودة تولاد، ولم يكد ينتهي حتى قال سليم "حسناً.. نحن تخلصنا من الجنود، وسنعود للقصر الآن.."

أنهى الاتصال وسهم يتساءل "هل حدث شيء لريم؟"

قال سليم بتوتر "لا.. إنها بخير، لكن جنود مجلس الحكماء في القصر ويقومون بمصادرة الجهاز الناقل.. علينا الإسراع قبل أن ينتهي كل شيء.."

فقال سهم مقطباً "وما حاجتنا للجهاز الآن؟.. علينا أن نسعى لإخراج ريم قبل أن يصل الجنود إلينا.."

لم يعلق سليم وهو يسأل يعقوب "أأنت آتٍ معنا؟"

أجاب يعقوب "طبعاً.. شاركت معكهم في هذه العملية، وسأنهيها معكم بإذن الله تعالى.."

فغمغم سليم وهما يغادران الموقع "أتمنى أن تكون النهاية كما نحب ونرجو.."

ساروا بين ممرات ذلك الحي محاولين الاختباء لئلا ترصدهم عينا أي جندي قريب.. ومحاولين الوصول للقصر بأقصر الطرق وأسرعها قبل أن تحتدم الأمور أكثر فيه..

****

عاونت ريم تيمار على دخول جناحه والجلوس على سريره وملامحها تحمل قلقاً واضحاً.. فغمغم تيمار وهو يلاحظ نظراتها "لا داعي لهذا التعاطف الأجوف.."

قالت بضيق "لماذا تصفني بذلك؟.. أظننتني قاسية لأسعد برؤيتك تتألم؟"

لم يعلق وهو يخلع معطفه بصمت وألم ظاهر على وجهه، فهبّت ريم لمساعدته.. لكنه دفع يدها وهو عابس، عندها تراجعت ريم خطوة وهي تقول بصوت مهتز "لماذا؟ لماذا تعاملني بهذه الطريقة دائماً؟"

ظل تيمار مشيحاً ببصره للحظات، ثم قال "لأنك نسخة مشابهة لها.. أنتِ تذكرينني بها في كل لحظة.."

تساءلت رافعة حاجبيها "أتعني شبيهتي؟"

ساد الصمت للحظات، ولاحظت ريم، التي تدخل جناح تيمار للمرة الأولى، صورة صغيرة موضوعة بجانب سريره على طاولة صغيرة.. رغماً عنها، مدت ريم يدها وتناولت الصورة.. كانت الصورة لها هي، ربما في الخامسة من عمرها، أو أنها تكاد تجزم بذلك.. ذات الملامح وذات الشعر والقامة والعينين.. لكن كآبة واضحة كانت تطفو على وجهها.. كانت الطفلة تقف وسط أحد أجنحة القصر، تحتضن أرنباً قطنياً أبيض اللون صغير الحجم، وتنظر للعدسة عابسة بشيء من الحدة..

تساءلت ريم "أهذه هي؟"

هز تيمار رأسه قائلاً "هذه هي الصورة الوحيدة التي لها، بعد أن أصرت المربية على تصويرها.."

تأملت ريم ملامح الطفلة بضيق عارم قبل أن تسأل تيمار برجاء "ما الذي جرى لها؟.. يرفض تولاد إخباري بأي شيء، كما أن سليم لم يخبرني بما جرى لها بتاتاً.. لماذا أصرّ سليم على إعادتي لعالمي مضحّياً بها هي؟ ولماذا عاونته أنتَ على ذلك؟"

قال تيمار عابساً "لأن الأوان قد فات بالنسبة لها.."

اتسعت عينا ريم بدهشة وصدمة، ثم همست "ماذا تعني؟"

أغمض تيمار عينيه بقوة محاولاً محو تلك الصورة في ذهنه، ثم قال "بعد مجيء الطفلة ذات العام الواحد، احتجزها أبي

في أحد أجنحة القصر حتى يستطيع استعادتك عندما يحين وقت ذلك.. رغم توسلات المربية المتكررة، لم يعبأ بخروج الطفلة بل أصرّ على احتجازها بحيث لا تقع عيناه عليها.. وبخلاف المأكل والملبس، لم يوفر لها أي احتياجات أخرى.. كنت دائماً أسمع بكاءها عند مروري، وأسمع تذمر المربية في كل وقت وحين من عناد أبي ومعاملته السيئة لها.."

قالت ريم "لقد عرفت جزءاً من هذا من حديث تولاد.. لكن هذا ليس سبب إصرار سليم على إعادتي بالتأكيد.."

فقال تيمار "لم يكتفِ أبي بحبسها، بل قام بعد بلوغها الخامسة بإجراء بعض التجارب عليها.. كان يريد معرفة اختلافها عنا، محاولاً تخيّل ما سيحدث لك في عالمها هي.. لست أدري ما فعله بها، لكنها بدأت تهزل بشكل ظاهر وتفقد قواها باستمرار.. كانت تبدو تعيسة، وأصبحت حبيسة الفراش وجسدها الهزيل لا يكاد يحملها.. وأصبح حالها أسوأ فأسوأ مع مرور الأيام، وبدا أن أيامها ستكون معدودة.. ورغم ذلك، لم يبذل أبي جهداً لإصلاح الأمر.. بل قرر بكل قسوة أن يعيد التجربة رغم هزالها وعدم تحملها لمثل تلك التجربة.."

ظلت ريم تستمع له بصمت مصدوم وتيمار يضيف عابساً "لذلك قررنا إعادتك لوالديك، لأنهما بلا ذنب وليس عليهما تحمّل أهواء أبي.. أن يحتفظا بك خير من أن يفقداك ويفقدا طفلتهما الحقيقية.. وهذا ما حدث فعلاً.. فقد أخبرني سليم أن الفتاة قد قضت نحبها بسبب تلك التجربة.."

وأضاف بضيق شديد " كل هذا بسبب أبي.. وبسببك أنت.. رغم أنك بلا ذنب في الموضوع، لكن الأمر ليس عادلاً.. لماذا يضحّي أبي بها لأجلك أنتِ؟.. ما الذي يجعلكِ أكثر أحقية بالحياة منها؟ لم يجب أبي على هذا السؤال أبداً، ولا أظنكِ تملكين تلك الإجابة أيضاً"

نظر لها، فرآها تخفض وجهها والدموع تتساقط على خديها.. فقال بضيق "بكاؤك الآن لن ينفع الطفلة في شيء.."

همست ريم وهي تدفن وجهها في كفيها "لكني أشعر بذنب شديد.. الآن، أتمنى لو تركني تولاد أعاني من ذلك المرض، لكان ذلك أهون عليّ من التسبب بمقتل تلك الطفلة.."

غمغم تيمار عابساً "لم يعد هناك أي داعٍ لهذا.."

لكن ريم لم تملك نفسها من البكاء ونحيبها يصل إليه مكتوماً.. لا تزال تذكر منظر أمها المنهارة وهي تعلن أن الطفلة تتدهور جسدياً.. لم تكن تعي الأمر في وقته.. لكن الآن، تدرك أي حرقة أصابتهما وهما يريان طفلتهما البريئة تنزلق نحو الموت سريعاً.. ولو علما أن هذا كان بسببها هي، لبغضاها أشد البغض ولاشك..

****

صاح رئيس المختبرات وهو يجتمع مع بقية العلماء في منزله "ما هذا؟.. إنه تعدٍ على حقوقنا.. لا يحق لهم مصادرة كل

شيء ومنعنا من مزاولة عملنا.. هذا إجحاف.."

قال أحد العلماء وهو يتلفت حوله بقلق "لا يجوز بك الاعتراض بهذه الطريقة يا سيدي.. قد تطالنا أيدي المجلس حتى لو كنا في منازلنا.."

فقال الرئيس بحدة "أتظنني أخشاهم؟.. إن لم يفعل تولاد أي شيء للاعتراض، فسأذهب بنفسي للشكوى في مبنى المجلس غداً.. هذا لا يطاق.."

قال ذلك العالم بتوتر غير محدود "لكن ألم تسمع ما قاله الجنود، وما قاله بادر أيضاً؟.. لقد تمت إقالة تولاد من المجلس بشكل نهائي بسبب هذه التجارب.. أخشى أن يقوموا بالقبض علينا نحن أيضاً بتهمة مخالفة القوانين.."

صاح الرئيس وهو يقف بعصبية "لا يمكنهم ذلك.. ليس هناك قانون في أنكاريا يمنع إقامة مثل تلك التجارب حتى لو كانت بشكل شخصي وغير تابعة لمؤسسة علمية.."

وظل يدور في المكان وهو يدمدم بحنق.. بينما قال عالم آخر "الغريب أن تولاد لم يثر ضجة في المكان كما توقعنا.. استسلم بأسرع مما يجب وانزوى في قصره صامتاً.."

قال العالم الأول وهو يفرك يديه "لازلت خائفاً من كل ما جرى.. قد تطالنا اتهاماتهم ويُزج بنا في السجن بعدها.."

ثار النقاش بين العلماء وهم يتداولون عواقب ما جرى هذا اليوم عليهم، بينما صمت العالم الأول بتوتر شديد وهو يتأمل جهاز الاتصال المثبت على ذراعه لفترة طالت.. كان الجهاز يصدر اهتزازات خافتة ويضيء بشكل متواصل بينما بدت عدة كلمات على شاشة ملحقة به..

ظل العالم ينظر للجهاز وقطرات من العرق تسيل على صدغيه، عندما سأله آخر "ما الأمر؟.. هل اتصل بك المجلس؟"

ورغم نبرة الهزء التي بدت في صوت رفيقه، إلا أن ذلك العالم انتفض في موقعه انتفاضة خافتة.. ثم هبّ واقفاً وهو يقول "هناك أمر طارئ جرى في المنزل.. عليّ الرحيل بسرعة.."

وغادر المنزل بارتباك ظاهر وسط تعجب البقية.. فتساءل أحدهم "ماذا جرى له؟"

قبل أن يجيبه أحدهم سمعوا صياح الرئيس الغاضب "سأريهم.. سأشكوهم لرئيس المجلس غداً.. سيرون.."

فغمغم أحد العلماء "لكن رئيس المجلس هو من أرسلهم.. أليس كذلك؟"

في تلك الأثناء، كان ذلك العالم يغادر منزل الرئيس ويتخذ طريقه عبر الحيّ بخطوات سريعة مرتبكة وهو يجيب الاتصال قائلاً بصوت قلق "مرحباً.. ما الذي يجري هنا يا سيدي؟ هل دبّرت لكل هذا؟"

أتاه صوت هادئ عبر جهاز الاتصال وهو يقول "لا شأن لك بكل ما جرى.."

ظل العالم صامتاً بدهشة وإن تزايد قلقه، فسمع الطرف الآخر يقول "لاقِني عند مبنى مجلس الحكماء بأسرع ما تستطيع.. لا تلفت الأنظار إليك حتى ألتقي بك.."

قال العالم وهو يمسح جبهته والعرق يتصبب منه "لماذا؟.. ما الذي تبغيه بعد كل ما جرى؟"

أتاه الصوت يقول بصرامة "لا شأن لك بما أبغيه.. إما أن تلاقيني وتطيع كل ما أطلبه منك، وإلا فضحت كل ما كنت تفعله أمام المجلس.. عندها سيتمّ شطبك من سجل العلماء في أنكاريا وقد تهوي درجة في هذا المجتمع.. أتريد أن تصبح مواطناً من الدرجة الثانية؟"

وقف العالم وهو يحاول تمالك ارتباكه، قبل أن يقول بتردد "لا.. لا أريد ذلك قطعاً.. ما الذي تطلبه مني؟"

فقال الطرف الآخر بلهجة راضية "سأنتظرك قرب المبنى.. فلا تتأخر.."

وأنهى الاتصال تاركاً العالم يحاول تمالك رجفة في يديه، ثم قال وهو يكمل طريقه "كان يجب أن أعلم أن الأمر لن ينتهي عند ذاك الحد.. تباً له.."

****

الفصل الخامس عشر « نهاية لا يتمناها أحد.. »

مالت الشمس لمغيبها في هذا اليوم الطويل جداً منهية ساعات من التوتر والقلق مرّ على ريم ومن معها وخاتمة محاولة فاشلة للهرب.. وفي قلب أنكاريا، في مبنى مجلس الحكماء الذي يرتفع بشكل لولبي أعلى من أي بناء آخر في المدينة، سار داميت بخطواته الهادئة عادة وهو يقول لقائد الجند القريب "كيف يفرّ حفنة من المشاغبين من أيدي جنودك الأشداء؟.. هذه سخرية"

قال القائد وهو يسير قرب داميت "لقد استهنت بهم ولم أرسل معهم إلا ثمانية جنود فقط.. سأقوم بالتحقيق مع أولئك الجنود فور قدومهم، وقد أرسلت فرقتين للبحث عن الهاربين.. سيتمكنون من القبض عليهم بالتأكيد قبل حلول الليل.."

دمدم داميت بحنق "أنت واثق بشدة.. سيحلّ الليل بعد ساعة وجنودك الأغبياء عاجزون عن السيطرة على أربع رجال.."

فقال القائد "لكن ما أهمية القبض عليهم الآن؟.. أمر القبض عليهم جاء من الرئيس السابق للمجلس، والآن أنت الرئيس، فما الذي يجعلنا مستمرين في مطاردة هؤلاء الأشخاص؟"

قال داميت بصرامة "لحفظ الأمن في أنكاريا.. لقد سمعت أنهم من البدائيين، وقد تجرؤوا على التسلل لأنكاريا وإثارة الشغب بها.. كيف تسمح لهم بذلك دون أن تعاقبهم ليكونوا عبرة للآخرين؟"

لم يعلق القائد بكلمة بينما قال داميت "المهم الآن هو أمر تولاد.. لا أظنه سيصمت على ما حدث اليوم.. قد يحاول إثارة بعض الشغب، لذلك كن مستعداً بجنودك.."

لاحظ داميت في تلك اللحظة وجود مساعده بالدو يقف جانباً بانتظار انتهاء حديثه مع القائد، فقال داميت "ما الأمر يا بالدو؟.. هل حدث شيء؟"

اقترب منه بالدو قائلاً "سيدي.. بقية أعضاء المجلس ينتظرونك في غرفة الاجتماعات بالطابق العاشر.. طلبوا مني إبلاغك بقدومهم وانتظارهم لك.."

رفع داميت حاجبيه بتعجب قائلاً "ما الأمر؟.. لقد اجتمعنا البارحة، فما هو الأمر الملحّ الذي يدعوهم لانتظاري اليوم؟"

قال بالدو بهدوء "أبلغوني أن الأمر مهم ومستعجل.."

التفت داميت لقائد الجند قائلاً "أريد مراقبة تولاد.. ويجب أن أجد هؤلاء المشاغبين أمامي خلال الساعات القادمة.."

وغادر يتبعه بالدو بخطوات سريعة حتى وصلا للمصعد الذي سيقلّهما للطابق العاشر من المبنى.. وفي المصعد، تساءل داميت "ما الذي يجري يا بالدو؟.. هذا الاجتماع الذي عقده الأعضاء دون علمي مريب بشدة.. ألم تعلم ما هدفهم من الالتقاء اليوم؟"

ابتسم بالدو ابتسامة جانبية وهو يقول "لا أعلم عن الأمر شيئاً يا سيدي.. لقد فوجئت برؤيتهم فور عودتي من قصر تولاد.."

تساءل داميت باهتمام "ما الذي فعلته بالجهاز الناقل؟"

أجاب بالدو "لقد وضعته في إحدى قاعات الطابق الثامن مؤقتاً، حتى نتمكن من تأمينه بشكل جيد لئلا يقع في أي يدٍ تسيء استغلاله.."

فقال داميت "أحسنت صنعاً يا رجل.. لم أندم يوماً على ترقيتك كمساعدي الأول.. وأرجو أن تستمر بتفانيك في عملك.."

اتسعت ابتسامة بالدو وهو يقول "لن تندم على هذا يوماً يا سيدي.."

وصلوا للطابق العاشر فأسرع داميت نحو قاعة الاجتماعات التي حددها له بالدو، وعند وصوله فتح له بالدو الباب العريض ليخطو داميت نحو قاعة الاجتماع حيث بقية الأعضاء الستة مجتمعين يتبادلون أحاديث جانبية.. فسار داميت نحو الكرسي الذي يحتلّ صدارة القاعة وهو يقول "مرحباً يا سادة.."

بادله البقية الترحيب وهو يرى في أعينهم نظرات متسائلة تعجّب لها.. ولما استقر في مجلسه قال لهم "أصابتني الدهشة عندما أبلغني بالدو اجتماعكم اليوم.. فليس هذا بالأمر المعتاد.."

قال أحد الأعضاء "ونحن غمرتنا دهشة مماثلة يا سيدي.. عندما تلقينا استدعاءك للاجتماع اليوم بشكل ملحّ، شككنا أن تكون مصيبة قد حلّت بأنكاريا.."

قطب داميت شيئاً ما وهو يتساءل "أنا استدعيتكم؟"

أجابه آخر "أجل.. منذ ساعة تلقينا اتصالاً من بالدو يطلب منا فيها الاجتماع بشكل عاجل.. أخبرنا أنك منشغل بأمر تولاد، وأنك ستجتمع بنا فور انتهاءك من هذه القضية.. فما الأمر؟"

قلب داميت كفيه مجيباً "هذا ما أريد معرفته .. لم أطلب من بالدو استدعاءكم بتاتاً.. لكن، سأسأله الآن وأعرف الحقيقة.."

وضغط زراً في جهاز اتصال قريب يستخدمه لاستدعاء مساعده الذي يبقى على أهبة الاستعداد في مثل هذه الاجتماعات.. لكن الوقت طال دون أن يجد أي جواب على استدعائه.. فعاود الضغط على الزر مجدداً وهو يقول مقطباً بشدة "ما الذي يجري هنا؟"

في تلك الأثناء، وفور أن توارى داميت في قاعة الاجتماعات، أغلق بالدو باب القاعة واستخرج مفتاحاً من جيبه أغلق به الباب بإحكام ودون إصدار صوت واضح.. ثم احتفظ بالمفتاح في جيبه وهو يتقدم نحو ممر جانبي حيث يقبع هناك صندوق برتقالي صغير ذو رافعة حمراء.. ففتح الصندوق وأنزل الرافعة ليدوّي عندها صوت إنذار حاد ومتقطع في أرجاء المبنى كله.. كان الطابق العاشر، وهو أعلى طابق في المبنى، شبه خالٍ من العاملين في المجلس، لذلك كانت الأمور أهدأ

هناك عن بقية الطوابق حيث عمّت بلبلة مفاجئة مع صوت الإنذار والعاملين من رجال ونساء يهرعون بتوتر وشيء من الذعر مغادرين المبنى بشكل كامل كما تحتم خطة الطوارئ المتبعة عادة..

سار بالدو نحو ممر جانبي ومنه إلى سلّم الطوارئ ليجد جنديان من جنود المجلس يظهران أمامه وأحدهما يهتف له "يجب إخلاء المبنى حالاً.. المصعد معطل في مثل هذه الظروف كإجراء أمني، فاستخدم السلم.. أين بقية العاملين؟ وأين الحكماء؟.."

قال بالدو بتوتر واضح "هذا الطابق خالٍ تماماً.. الكل سارع للمغادرة فور سماعنا للإنذار.."

فقال الجندي وهو يعود مع رفيقه للسلم مغادرين للطوابق السفلية "غادر أنت أيضاً ولا تتأخر.."

التفت بالدو بعد رحيلهما خلفه وهو يلاحظ الضربات التي وصله صوتها خافتاً من قاعة الاجتماع التي كانت على مبعدة، ثم غادر عبر سلم الطوارئ بخطوات سريعة وهو يكاد يقفز متخطياً ما أمكنه من الدرجات وابتسامة واضحة ترتسم على شفتيه..

وفي قاعة الاجتماعات، كان داميت يحاول فتح الباب بقوة وهو يسمع صوت الإنذار الحاد يتعالى في المبنى بأكمله، بينما وقف الأعضاء قربه وأحدهم يتساءل بقلق "ما الذي يجري هنا؟"

قال داميت عابساً "لا أدري.. من الذي أغلق هذا الباب؟ كما أن بالدو لا يستجيب لاتصالاتنا بتاتاً.."

فقال عضو آخر "ما سبب هذا الإنذار؟.. أتظن أن حريقاً قد شبّ في المبنى؟.. لنتصل بأحد مساعدينا ليفتحوا لنا هذا الباب.."

حاول كل منهم الاتصال بأحد مساعديه لمعرفة ما يجري في المبنى، بينما عاود داميت الاتصال ببالدو وهو يهمس لنفسه "ما الذي تفعله حقاً يا بالدو؟.. هناك أمر مريب.."

قاطعهم صوتٌ عالٍ هدر في جوانب المبنى كله مع تغيرّ صوت الأنذار ليصبح متواصلاً وعالياً بشدة.. تراجع الأعضاء بتوتر وأعينهم تتسع بصدمة وهم يرون ألواحاً معدنية تنزل بسرعة أمام الباب والنوافذ التي تحتلّ جانباً من القاعة.. ظل الهدير متواصلاً لمدة وأحد الأعضاء يصيح بذعر واضح "ما الذي يجري هنا؟"

قطب داميت وهو يرى إجراءات الطوارئ القصوى ماثلة أمام عينيه، فدمدم بشيء من الغيظ "أين أنت يا بالدو الآن؟"

****

قبل تلك الأحداث بلحظات، كان بالدو يقفز فوق سلّم الطوارئ حتى وصل للطابق الثامن.. فسار في الطابق الذي خلا من العاملين والجنود على حدّ سواء حتى وصل أحد الأبواب فاجتازه بسرعة وهو يهتف "أين أنت يا هذا؟"

دار ببصره في القاعة التي تحوي من بين الأجهزة العديدة فيها الجهاز الناقل الذي صودر من قصر تولاد، ثم رأى في تلك اللحظة رجلاً يخرج من خلف الجهاز والتوتر الشديد يبدو على وجهه قائلاً "أنا هنا.. اضطررت للاختباء حتى لا يجبرني الجنود على المغادرة"

ابتسم بالدو قائلاً "عمل جيد.."

ثم سار بالدو نحو بضع شاشات صفّت في جانب المكان، وأخذ يقلّب اللقطات بين آلات المراقبة الموزعة في المبنى بكامله.. ولما اطمأن أن أغلب الطوابق العلوية خلت من العاملين والجنود على حد سواء، قال بالدو وابتسامة متسعة ترتسم على شفتيه "سنبدأ الآن.. كن على أهبة الاستعداد"

ظل الرجل واقفاً بتوتر شديد وهو يرى بالدو يعبث بلوحة تحكم قريبة، ثم استخرج مفتاحاً قصيراً غريب الشكل من جيبه ووضعه في فتحة خاصة في لوحة التحكم، عندها فتح غطاء صغير في لوحة التحكم واستطاع أن يرى زراً أحمر تحته ضغطه دون تردد .. وفور أن فعل، تغيرّ صوت الإنذار الحاد المتقطع ليصبح طويلاً وعالياً بشدة ممتزجاً بهدير قوي والأضواء تتراقص في المبنى بأكمله، ثم بدأت الألواح المعدنية تهبط على بابي القاعة والنافذة الواسعة في جانبها لتحتجزهما فيها دون منفذ للهرب.. راقب بالدو ما يجري بصمت بينما اتسعت عينا الرجل وهو يقول بشيء من القلق "ما الذي تفعله؟.. ولماذا استدعيتني لمبنى المجلس الآن؟.. هل الأمر له علاقة بالجهاز الناقل؟"

استدار بالدو إليه مبتسماً وقال "طبعاً.. كونك من العلماء الذين عملوا في مختبرات تولاد، فلديك الخبرة الكافية لتشغيل هذا الشيء.."

اتسعت عينا العالم وهو يحدق بوجه بالدو، ثم قال بقلق "ولماذا تريد تشغيله؟"

فوجئ ببالدو يستخرج سلاحاً يدوياً صغيراً من جيبه ويلوح به مجيباً "ألم أقل لك لا شأن لك بما أريده؟.. عليك الإطاعة بصمت.."

في تلك الأثناء، وعندما تعالى الهدير الواضح في المبنى، توقف الجنود في مواقعهم بعد أن انشغلوا بإخلاء المبنى من العاملين فيه تحسباً لوجود حريق.. بدت نظرة مذهولة في الأعين وهم يسمعون الإنذار الدالّ على حالة الطوارئ القصوى يتردد في المبنى.. ولم تلبث ألواح معدنية أن هبطت بسرعة على مداخل المبنى ونوافذه حاجبة النور وحاجزة جميع من بقي في المبنى بشكل محكم، كما حجزت من هرب منهم خارجه دون وسيلة لدخول المبنى من جديد..

ضحك بالدو ضحكة متشفّية وهو يقول "انظر إليهم.. ألا يبدون كالفئران الحبيسة؟"

قال العالم بتوتر أكبر "ألسنا حبيسينْ مثلهم؟"

أجاب بالدو "بإرادتي يا رجل.. بإرادتي.."

غمغم العالم "وما الهدف؟"

تجاهله بالدو وهو يتجه لشاشة أكبر في جانب لوحة التحكم، فقلّبها حتى استطاع رؤية قاعة الاجتماعات والأعضاء الحبيسين فيها وقد ازداد توترهم مع بدء حالة الطوارئ القصوى.. عندها ضغط بالدو زراً وقال بابتسامة متسعة "مرحباً يا سادة.. أرى أنكم قد أنهيتم اجتماعكم أسرع من المعتاد.."

التفت الأعضاء لموضع الشاشة في رأس القاعة والتي تُظهر لهم صورة بالدو وصوته.. عندها تقدم داميت من الشاشة بغضب وهو يصيح "بالدو.. فسرّ لي ما يجري هنا.."

ضحك بالدو قائلاً "هذه هي المرة الأولى التي أراك فيها تخرج عن هدوءك.. بدأت أستمتع بكل هذا.."

ثم مال نحو الشاشة قائلاً "يا سادة.. أنا أدعوكم لحضور احتفال خاص.. احتفال خططت له خصيصاً لأنكاريا، ولأعضاء المجلس بالذات.."

وابتعد عن الشاشة مشيراً خلفه وأضاف "رحّبوا معي بضيفنا الرئيسي.. هذا هو أحد العلماء الذين عملوا سنوات طوال في مختبرات تولاد.. وهو هنا ليساهم في هذا الاحتفال بشكل غير مسبوق.."

بدا العالم شديد القلق وهو يمسح العرق عن جبهته ودمدم "ما الذي تريده مني بالضبط؟"

قال بالدو "أن تقوم بتشغيل الجهاز الناقل.. كما أخبرتك.."

صعق داميت ومعه بقية أعضاء المجلس بينما أضاف بالدو "عرضنا الرئيسي سيكون من بطولة الجهاز الناقل.."

ثم نظر إلى الشاشة بابتسامة قائلاً "هل هناك متطوعين من الجمهور لإتمام العرض؟.. لا؟.. إذن العرض سيشمل الجمهور كله.."

قال داميت بغضب "ما الذي تنتويه يا بالدو؟.. كف عن هذا الهراء وافتح الأبواب.."

قال بالدو بجمود "بل أنا من احتمل هراءكم سنوات طوال.. والآن، بدأ الجد.."

وتقدم من العالم الذي كان يجلس جانباً يراقب الوضع بقلق، فأوقفه بالدو وهو يضع فوهة سلاحه في خده قائلاً بصرامة "ابدأ التشغيل.. وحاذر من خداعي، فسأقتلك عندها على الفور.."

ظل العالم ينظر له بذعر شديد، ثم قال "أأنت واثق مما تريد فعله؟"

قال بالدو وقد انقلبت ابتسامته شراسة "افعل ما طلبته منك.. أولاً، قم بفصل ذلك الحاجز الزجاجي.. يجب أن يعمل الجهاز بدون اللجوء لذلك الحاجز.."

اتسعت عينا العالم وأصابته رعدة وهو يقول "أنت مجنون.. لا يمكنني فعل ذلك.. مستحيل.."

خفض بالدو سلاحه وأطلق طلقة واحدة، ورغم صوت الطلقة المكتوم، فإن صياح العالم الذي تهاوى أرضاً يتلوى بألم قد تردد في القاعة كلها والدماء تغرق ساقه اليمنى بغزارة.. بينما قال بالدو ببرود "أخبرتك أن تفعل ما أطلبه بصمت ودون تذمر.. أنت ميّت في كل الأحوال.."

ثم لوّح بالسلاح في وجهه من جديد، عندها لم يجد العالم بداً من النهوض بألم شديد والعرق يغمر وجهه.. لكنه لم يجرؤ على التذمر وهو يتوجه للجهاز ساحباً قدمه المصابة خلفه وخيط من الدماء يتبعه.. بينما قال داميت الذي يراقب ما يجري عبر الشاشة بحدة "ما الذي تنوي فعله أيها الأحمق؟.. أنت مجنون.."

ابتسم بالدو بخبث قائلاً "سترى يا داميت.. صدقني سترى بنفسك.."

ألقى داميت نظرة على وجه العالم، فرآه يزداد شحوباً وقطرات عرق تسيل على صدغيه وهو يعبث بالجهاز.. فحاول داميت إجراء اتصال بقائد الجند عبر جهاز الاتصال في يده قبل أن يقول بعصبية "لماذا لا يستجيب أي شخص لي؟"

ضحك بالدو بقوة وهو يقول "ألا تعلم السبب حقاً؟.. فور بدء خطة الطوارئ القصوى تنقطع الاتصالات في المبنى بشكل تام عبر ذبذبة تصدرها أجهزة موزعة بشكل مدروس.. ولا يمكن إجراء أي اتصال إلا عبر جهاز الاتصال الموجود في هذه القاعة، وذلك تحسباً لوجود إرهابيين في هذا المبنى، فيكون التصرف الأمثل هو عزلهم عن العالم الخارجي.. لكن لحسن الحظ فإن هذه الذبذبة لا تستطيع منع تأثير الجهاز الناقل أبداً.."

قطب داميت بشدة وهو يحاول التوصل لطريقة لإنهاء هذه المشكلة التي أوقعهم فيها مساعده الأول، بينما التفت العالم لبالدو قائلاً بتوتر "لقد فصلت الحاجز عن الجهاز.."

نقل بالدو بصره بين الجهاز وبين العالم بصمت للحظة، ثم وجه ضربة حادة بقبضة السلاح نحو رأسه صرخ لها العالم بألم وهو يحيط رأسه بذراعيه، بينما قال بالدو بحدة "أتحاول خداعي يا هذا؟.."

ثم قال له ملوحاً بسلاحه "افصل هذه الأسلاك عن الجهاز كي ينفصل الحاجز الزجاجي.. أسرع وإلا فجّرت رأسك.."

انكمش العالم وهو يحاول الوقوف بعسر مع ساقه المصابة، واتجه للأسلاك الجانبية التي تصل بين الجهاز وبين الحاجز الزجاجي، ففصلها بقوة ورماها جانباً قبل أن يعود ببصره إلى بالدو الذي يراقب ما يجري.. عندها بدا الرضى على ملامح بالدو وهو يقول "حسناً.. والآن، ابدأ التشغيل.."

دمدم العالم بارتجافة وهو يعود للجهاز "أتطمح أن تقتل نفسك في هذه التجربة؟"

ضحك بالدو معلقاً "ليس اليوم.. لن أموت اليوم بكل تأكيد.."

ونظر للشاشة التي تحمل وجوه أعضاء المجلس وهم يراقبون ما يجري بصمت وغيظ ممزوج بقلق غير محدود..

****

لم يكد الثلاثة، سهم وسليم ويعقوب، يتجاوزون بعض أحياء من المدينة محاولين التخفي عن أعين الجنود في طريقهم لقصر تولاد، حتى ارتجف سليم فجأة بشكل واضح وهو يقف في منتصف الطريق الذي يسلكونه.. فتوقف سهم ويعقوب

بعده وسهم يتساءل بقلق "ما الأمر؟.."

سألهم سليم بتوتر شديد "ألا تشعرون بما أشعر به؟"

نظرا له بدهشة عميقة، فقال سليم بتوتر شديد "ألا يراودكم شعور كريه وضيق في الصدر؟.. ألا تشعرون بالجو المشحون؟"

نظر له يعقوب بصمت بينما قال سهم مقطباً "كفّ عن مبالغاتك يا سليم.. أنت متوتر بسبب المطاردة فقط.."

قال سليم بعصبية "لا.. الأمر أكبر من مجرد توتر.. هذا الشعور..... أنا أعرفه جيداً.. أعرفه وأخشى أنني أعرف ما تسبب به.."

وأسرع يعاود الاتصال بتيمار بينما دمدم سهم "يبدو أنك شِخْتَ حقاً.."

ضربه يعقوب على كتفه ليصمت، بينما تجاهله سليم وهو ينتظر استجابة تيمار، وفور أن استجاب لاتصاله بادره سليم قائلاً "تيمار.. ما الذي جرى للجهاز الناقل؟"

قال تيمار بشيء من الدهشة "هو في مبنى مجلس الحكماء.. لقد صادروه منذ بعض الوقت، ولابد أنهم قد أوصلوه للمبنى واحتفظوا به هناك.."

قال سليم بتوتر "لا.. أخشى أن يكون الأمر يخالف ما تقوله.. هناك من يعبث بالجهاز الآن.."

قال تيمار باستنكار "كيف يكون ذلك؟.. هذا مستحيل"

ارتفع صوت سليم بعصبية وهو يقول "لكني متأكد.. هناك ذبذبات تثير رجفة في جسدي، الجو مشحون بالذبذبات الكهرومغناطيسية.. وهذا شعور لم أشعر به إلا عند استخدام الجهاز الناقل.."

قال تيمار معترضاً "هذا مستحيل.. المجلس صادر الجهاز لمنعنا من استخدامه.. ثم إنك بعيد عن موقع مبنى المجلس، وهو ذلك البناء الكبير في وسط المدينة.. فكيف يمكنك أن تشعر بكل هذا؟"

دار سليم في موقعه وهو يقول بحدة "لا أعلم.. أستطيع رؤية المبنى من موقعي هذا، لكنه بعيد.. ما الذي يحدث فعلاً؟"

قال تيمار بتوتر "لا أعلم، فلا خبرة لي بذلك الجهاز.."

فقال سليم بشيء من العصبية "إذن اتصل بمن له خبرة بذلك.. هناك أمر ما يجري للجهاز، ولا أشعر بالراحة بتاتاً حيال ذلك"

لم يعلق تيمار على اللهجة العصبية التي واجهه بها سليم وهو يقول "حسناً.. سأتصل بك بعد أن أحصل على أي معلومة عن الأمر.."

وأنهى الاتصال مغمغماً "عسى أن يكون الأمر مجرد مبالغة منه.."

قالت ريم التي استمعت للمحادثة عبر الجهاز معلقة "لا أظن أن سليم من النوع الذي يسعى لتضخيم الأمور.."

هز تيمار كتفيه بحيرة، وعاد لجهاز الاتصال في يده، لكنه فوجئ باتصال يرده في اللحظة ذاتها وهو يرى اسم رئيس المختبرات يظهر على شاشته.. فاستجاب للاتصال قائلاً "حظي جيد، كنت للتو سأتصل بك....."

قاطعه رئيس المختبرات بعصبية بدوره "سيدي.. لقد حاولت الاتصال بسيدي تولاد عدة مرات، لكنه لا يستجيب لي.. هناك أمر ما يجري في أنكاريا، وأخشى أنه أسوأ من كل توقعاتنا.."

قطب تيمار متسائلاً "وما هو؟.. لقد اتصل بي سليم للتو وأخبرني أنه يشعر بشعور كريه وبأن الجو مشحون بذبذبات كهرومغناطيسية.. وأنا أشعر هنا بذات الشعور وإن كان خفيفاً جداً.. ما الذي يعنيه هذا؟"

أجاب الرئيس بقلق "هذا ما شعرنا به هنا في منزلي، حيث أجتمع مع بقية العلماء.. بدا الجو مكهرباً فجأة، وكأننا نتعرض لمجال كهرومغناطيسي قوي.. وهذا لا يعني إلا أمراً واحداً.. الجهاز الناقل.."

صمت تيمار بصدمة للحظة والرئيس يضيف "هناك من يستخدم الجهاز الناقل في هذه اللحظة، وهدفه أخطر مما نتوقعه"

قال تيمار بحيرة "لكن الجهاز الناقل في حوزة مجلس الحكماء.. وحتى لو قام شخص بتشغيله، لا أظن أنكم ستشعرون بتأثير ذلك في موقعكم هذا.."

فقال الرئيس بعصبية "هناك من عبث بالجهاز.. جهلاً أو علماً منه، لا أعلم.. كل ما أعلمه أن من يتعامل معه الآن قد قام بفصل الحاجز الزجاجي الذي يحدّ من تأثير الذبذبات التي يرسلها الجهاز.."

صمت تيمار وهو غير مستوعب لخطورة الأمر بينما بدا لغط واضح في الاتصال من بقية العلماء المجتمعين في منزل الرئيس، بينما الأخير يضيف "بدون استخدام هذا الحاجز، فإن مدى الجهاز يصبح أوسع من ذي قبل بشكل كبير.. مداه قد يتخطى عدة أميال، وهذا مجرد تخمين منا فنحن لم نجربه سابقاً بدون الحاجز الزجاجي.."

قال تيمار "لكن هذا لا يغطي المساحة الفعلية للواقع.. تأثير الجهاز الآن يتجاوز هذه المسافة بكل تأكيد"

فقال الرئيس بتوتر "نعلم هذا.. وهذا ليس له إلا تفسير واحد.. هناك من وزّع مرددات على مساحة واسعة تقوم بتقوية ذبذبات الجهاز بحيث يغطي الجهاز مساحة أكبر وتصبح ذبذباته أقوى وأكثر فاعلية.."

تساءل تيمار مقطباً "لكن ما الهدف؟.. وما الذي سيجنيه من هذا الفعل؟"

قال الرئيس "لا أعلم هدفه بالذات، لكني أعلم النتائج بالتأكيد.. استخدام الجهاز دون الحاجز الزجاجي يعني أن مداه سيكون بقدر ما تصل ذبذباته.. كل من يسقط في مداها سيكون معرضاً للانتقال عبر العوالم الموازية.."

قال تيمار بصدمة "ولكن.. كيف يمكن ذلك؟.. من المؤكد أن سكان المدينة لم يتم حقنهم بالمادة الوسيطة بتاتاً"

فارتجف صوت الرئيس وهو يجيب "وهذا هو أسوأ ما في الأمر.."

تساءل تيمار بحيرة "ماذا تعني؟"

أجاب الرئيس بارتجافة أكبر "هذا يعني أن البشر الذين سيتأثرون بالذبذبات لن يكونوا مهيئين للانتقال.. وهذا يعني أن أجسادهم لن تعبر إلى العالم الآخر قطعة واحدة.."

صمت تيمار بعينين متسعتين بينما شهقت ريم بشيء من الفزع وهي تتخيل ما سيحدث لو تحقق ذلك.. بينما قال الرئيس برجاء "حاول إيقاف الجهاز يا سيدي.. ولابد أن تعثروا على تلك المرددات وتحطموها قبل فوات الأوان.."

قال تيمار بحيرة "وأين يمكن العثور عليها؟.. ثم إن الوقت يداهمنا بشدة"

زفر الرئيس وقال "ما يمنحنا فرصة أفضل هو المساحة الشاسعة التي سيغطيها الجهاز، وهذا يعني أن أمامنا ساعة على الأكثر قبل أن يحصل النقل بالفعل.. لكن إن لم نفعل شيئاً خلال هذه الساعة، فكل من سيقع في مدى الذبذبات مقضيّ عليه دون شك.."

تساءل تيمار "وكيف يمكنني العثور على تلك المرددات؟.."

قال الرئيس بلهفة "ابحثوا عنها في أي موقع مرتفع يحيط بالمدينة.. لابد أن تكون في موقع عالٍ ولابد أن تتوزع بشكل متساوي حول المدينة حتى تضمن تغطية المنطقة بشكل كامل.. هذا كل ما يمكنني تخمينه.."

فقال تيمار بسرعة "سأحاول فعل ما أقدر عليه، وإن لم أقدر....."

أكمل الرئيس بتوتر شديد "فليرحمنا الله تعالى.."

أنهى تيمار الاتصال وريم تقول بصوت مرتجف "ما الذي سنفعله؟"

لم يجبها تيمار وهو يعاود الاتصال بسليم الذي استجاب له على الفور.. عندها قام تيمار بشرح كل ما سمعه من رئيس المختبرات، ثم أنهى حديثه قائلاً "عليكم البحث عن موقع مرتفع ومحيط بالمدينة.. أي بناء مرتفع أو برج إرسال سيكون هو المطلوب.."

غمغم سليم بقلق "لكن هذه مهمة صعبة.. يجب أن نجوب المدينة بكاملها، وهذا بالإضافة للجنود الذين يلاحقوننا حالياً.."

قال تيمار بتوتر "عليكم فعل ذلك.. وأنا سأذهب لمبنى المجلس بأسرع ما أستطيع لأحاول الوصول للجهاز.. ربما أستطيع إيقافه رغم كل شيء.."

وأنهى الاتصال وهو ينهض مرتدياً ملابسه، فقالت ريم بتوتر "هل أنت بخير؟"

غمغم تيمار "وهل هذا مهم الآن؟"

فاندفعت ريم تقول "سآتي معك.."

قال تيمار مقطباً "لا.. وجودك لن يفيد في شيء.."

فقالت ريم برجاء "لكنني أريد معرفة ما سيجري للجهاز.. لا تنسَ أنني أتمنى استخدامه للعودة في أقرب فرصة، وأخشى

أن تضيع هذه الفرصة مني مع ما يجري حالياً.. لذلك لا يمكنني الراحة هنا.."

غمغم تيمار وهو ينظر إليها "أأنت عازمة على الرحيل حقاً؟"

هزت رأسها إيجاباً وهي تنظر له برجاء، فتنهد وقال "حسناً.. لكن لا تبتعدي عني بتاتاً، لا أريد القلق لأمرك في هذه الأوقات.."

غمغمت ريم "وهل ستقلق لأمري حقاً؟"

وجدته يتجاهل سؤالها وهو يتقدمها خارجاً من الجناح، فصمتت ريم وهي تتبعه بخطوات سريعة..

****

نظر سليم لرفيقيه بعد أن أنهى الاتصال وقال "حسناً، علينا بذل جهدنا بأسرع ما نستطيع.. عسى أن نتمكن من إيقاف هذه المذبحة.."

قال يعقوب مقطباً "من له مصلحة بفعل هذا؟"

زفر سليم مجيباً "لا أعلم حقاً.. كل ما يهمني هو العثور على هذه المرددات.. فهذا ينهي نصف المشكلة على الأقل"

ثم التفت لسهم متسائلاً "ألم تلاحظ شيئاً مثل هذا في الأيام الماضية يا سهم؟.."

قال سهم بحنق "أنت تهذي.. كيف يمكن لأي شخص البحث عن شيء كهذا في وقت وجيز؟.. لست أنا من خطط هذه المدينة لو ظننت شيئاً كهذا"

فقال سليم وقد عادت له العصبية "لا أطلب منك المستحيل، فقط فكر قليلاً.. أي شيء قد يسهّل بحثنا وينهي هذه المأساة.."

لاحظ أن سهم قد كفّ عن الجدال وهو مثبت بصره على موضع بعيد عن موقعهم، ولما أعاد سليم تساؤله، التفت سهم إليه وهتف "سور أنكاريا.."

نظر له سليم ويعقوب بدهشة، فيما قال سهم بإلحاح "السور.. هو أعلى نقطة في هذه المدينة، ويحيط بها بشكل كليّ.. أليس هذا هو المطلوب؟"

تساءل سليم بحيرة "لكن أين يمكننا البحث في السور؟"

قطب سهم مجيباً "لا داعي للبحث.. لقد عثرت عليه بالفعل.."

واندفع راكضاً نحو السور الذي يقع على مبعدة منهم، فلم يملك سليم ويعقوب أن تبعاه والدهشة تغمرهما للثقة التي نطق بها سهم.. وبعد بعض الوقت استغرقهم للعودة للسور، وذلك الشعور الكريه يتزايد بشكل قوي إنما بثبات وشيء من

البطء، كان الثلاثة يقفون في أعلى السور قرب أحد الأبراج المقامة في أعلاه.. فأشار سهم للبرج قائلاً "انظروا.. هذا هو المطلوب.."

نظر سليم للصندوق الأسود المعلق في أعلى نقطة من البرج وقال من بين أنفاسه المتقطة "ما معنى هذا؟ أتعلم ما هي هذه الآلة؟"

قال سهم وهو يتناول السلاح الذي استلبه من الجنود "هذه آلات رصد تم توزيعها على الأبراج كلها بطول السور، بحجة المراقبة.. لكنها أكبر من أن تكون مجرد آلات رصد ومراقبة، كما أن الموقع ليس بحاجة لمراقبة بتاتاً.."

نظر سليم من فوق السور فارتجف بشدة وهو يرى الهاوية التي ظهرت لعينيه من بين السحب المتماوجة.. ثم عاد ببصره نحو سهم قائلاً "معك حق.. هذا الموقع من المستحيل اقتحامه، فما الذي يدعو الجنود لمراقبته؟"

لم يعلق سهم وهو يصعد البرج حتى وصل لموقع الآلة، وهناك شعر برجفة شديدة في جسده وكأن الذبذبات تصيبه في أعماقه بشدة لا يطيقها.. عندها رفع سلاحه معكوساً، وضرب الآلة بقوة بعقب السلاح عدة ضربات حمّلها أقوى ما عنده.. وبعد بعض الجهد، كانت الآلة التي تصدر أزيزاً خفيفاً قد تحطمت وأزيزها يخفت بشدة، وأخيراً تمكن سهم من ضربها الضربة الأخيرة التي دفعتها من موقعها بقوة لتسقط من فوق البرج نحو الهاوية العميقة..

وفور تحطم الآلة، شعر الثلاثة بشيء من التحسن بعد أن توقفت تلك الذبذبات التي تصيبهم بتوتر وضيق شديد.. عندها قال سهم "ألم أقل لكما؟ علينا تحطيم هذه الأجهزة الموزعة على أبراج السور إن كنا نريد الخلاص من هذا التأثير"

نظر سليم للأبراج الموزعة على طول السور، والتي لا يقل عددها عن مائة برج، ثم قال بقلق "متى يمكننا فعل كل ذلك؟ كما أن مساحة السور واسعة جداً ولن نستطيع قطعها في ساعة واحدة.."

فقال سهم فور هبوطه من البرج "لذلك لابد من أن نتفرق.. سأذهب أنا شمالاً وليتجه يعقوب جنوباً.. وهكذا يمكننا تغطية مساحة واسعة من السور في وقت وجيز"

فقال سليم بإلحاح "هذا لا يعني شيئاً.. لن يكفيكم الوقت للوصول للأبراج كلها.. ولا تنسى الجنود، فنحن لازلنا مطاردين منهم.. ونجاتنا منهم حتى الآن لا تعني أننا لن نواجه أحداً منهم مع ما نفعله.."

قال سهم مقطباً "أتملك حلاً آخر؟"

لم يعلق سليم وهو يفكر بحيرة، فقال سهم "لنتوكل على الله تعالى ونمضي في هذا الأمر.. هذا خير من البقاء دون حراك.."

هز يعقوب رأسه موافقاً، فانطلق سهم على الفور متجهاً عبر الجهة الشمالية التي يقطعها السور نحو أقرب برج عليه، بينما قال يعقوب "عليكَ أنت أن تفكر في حلّ لملاحقة الجنود لنا فيما نقوم نحن بعملنا هذا.."

قال سليم بحنق "وما الذي يمكنني فعله؟"

قال يعقوب مربتاً على كتفه "ستفعل كما كنت تفعل دائماً في القرية.. أنت من يملك الحل الأخير دائماً.."

وغادر على الفور منطلقاً للجهة الجنوبية من السور نحو البرج الذي يليه حاملاً سلاحين من أسلحة الجنود.. بينما وقف سليم في موقعه وعقله يهدر بسرعة محاولاً العثور على مخرج لهذه الأزمة التي وجدوا أنفسهم متورطين فيها رغم إرادتهم.. لكن من المتسبب في عمل إجرامي كهذا؟ لا يمكن أن يكون الأمر خطأ فيبدو أنه قد تم الإعداد له منذ أمد طويل.. لكن من له مصلحة باستخدام الجهاز عدا تولاد؟..

لمعت فكرة في رأسه وهو يفكر في الأمر، ثم سارع للمدخل الذي يقوده لأسفل السور وقد عاد له الحماس من جديد.. هناك وسيلة قد تنجح في منع الجنود من ملاحقتهم، لكن هل سيسعفه الوقت لتنفيذها؟..

****

الفصل السادس عشر « كم زمناً ستدوم تلك الأحقاد؟ »

لم يستغرق تيمار وريم للوصول لمبنى المجلس أكثر من دقائق قليلة بالمركبة التي قادها أحد رجليْ تيمار الذين بقوا على إخلاصهم له.. وفور وصولهم، غمغمت ريم بقلق وهي ترى حشد الجنود حول المبنى "هناك أمر ما حصل هنا.. ألن يعترضوا طريقنا؟"

قال تيمار "قطعاً لا.. فأنا من أعضاء المجلس.."

نظرت له ريم بدهشة، فعلق تيمار "أو بالأحرى، المساعد الأول لأحد أعضاء المجلس البارزين.. الكل يعرفني هنا ولن يعترض طريقنا أحد.."

وهبط من المركبة تتبعه ريم التي لا تزال برداء الجنود الذي هربت به من قصر تولاد.. كانت فرق عديدة من الجنود تحتشد خارج المبنى بشكل مريب بينما شق تيمار طريقه بينهم دون أن يجد اعتراضاً من أحد حتى وصل قريباً من بوابة المبنى العالية.. عندها رأت ريم حاجزاً حديدياً سميكاً يغطي البوابة بشكل لا يتناسق مع تصميم المبنى.. ولما رأى تيمار الحاجز قال مقطباً "هناك من قام بتفعيل خطة الطوارئ في المبنى.. لماذا؟.."

تلفت حوله حتى رأى بادر يقف مع بعض القادة في جانب المكان.. كان اللغط شديداً من حولهم، بينما شق تيمار طريقه وريم تتمسك بذراعه حتى وصلا قريباً من بادر.. عندها تساءل تيمار مقطباً "ما الذي جرى هنا يا بادر؟.."

قال بادر بشيء من الدهشة "ما الذي جرى لك يا سيدي؟"

قطب تيمار وهو يرى بادر يشير لوجهه بكدماته الواضحة، لكن تيمار قال بضيق "هذا لا يهم.. من الذي فعّل خطة الطوارئ في المبنى؟"

قال بادر بشيء من التوتر "لا ندري.. لكن وصلتنا بعض الأوامر من بالدو قبل قليل بالبقاء على أهبة الاستعداد، وبأن هذا الاستنفار له علاقة ببعض المشاغبين الذين قد يكونوا طليعة جيش من البدائيين.."

قال تيمار بسخط "وهل صدقتموه؟.."

ثم غمغم عاقداً حاجبيه وهو يتأمل المكان "أيمكن أن يكون بالدو هو خلف كل ما يجري؟.. أم أنه داميت؟"

علق بادر الذي سمع ما قاله تيمار "أعضاء المجلس في اجتماع سري الآن ولم نسمع من أحدهم أي أمر.. لقد فوجئنا بصوت الإنذار الدال على وجود حريق بالمبنى، وفور أن قمنا بإخلاء المبنى وجدنا أن خطة الطوارئ القصوى قد تم تفعيلها، وبعض رفاقنا لا يزالون محتجزين في المبنى.. وبسؤال بالدو، وهو يملك الوسيلة الوحيدة للاتصال في المبنى، أخبرنا أن الأمر سري وخطير لذلك طلب منا عدم التدخل.."

قال تيمار باستنكار "بالدو مرة أخرى؟"

ثم التفت لبادر قائلاً "أخبرني بما جرى منذ البدء يا بادر.."

ظلت ريم تتلفت حولها بقلق شديد وبادر يقول قالباً كفيه "وما أدراني بما جرى؟.. لقد تلقيت أمراً بالتراجع مع جنودي عن حراسة قصر سيدي تولاد.. فأطعت الأمر دون نقاش وأتيت لمبنى المجلس بانتظار أوامر أخرى.. رأيت بالدو أثناء انتظاري يعود للمبنى ومعه أحد العلماء الذين كانوا يعملون في قصر سيدي تولاد.. وما لبث بعدها أن....."

قاطعه تيمار بحدة "أحد علماء أبي؟.. لماذا؟"

قال بادر بحيرة "وما أدراني؟!.."

عندها قال تيمار وهو يدور ببصره في المبنى "لابد أن لذلك العالم علاقة بما يجري الآن.. لكن من هو المخطط لهذا؟ أهو أحد أعضاء المجلس؟.. هذا خطير جداً.."

همست ريم "ما الذي سنفعله الآن؟.. أشعر بالرجفة في جسدي تشتد بسبب تأثير ذبذبات الجهاز القريب.. يجب أن نتصرف بسرعة.."

تلفت تيمار حوله ملاحظاً التوتر الشديد والانزعاج بادياً في الوجوه من حوله.. ثم شدّ عزمه وهو يقول لبادر وللقائد العام للجند القريب منه"أحمل لكم نبأ سيئاً يا سادة.. هناك من حاك خدعة مستهدفاً مبنى مجلس الحكماء.. ويبدو أن الهدف يتجاوز المجلس فقط.."

نظر له قائد الجنود مقطباً بينما قال بادر "ماذا تعني يا سيدي؟.. ظننت أن الأمر يتعلق ببعض المشاغبين الذين اقتحموا قصر سيدي البارحة.."

فقال تيمار "لا.. إنه يتعلق بالجهاز الناقل الذي صودر من قصر أبي اليوم.. هناك من يقوم باستخدامه في هذه اللحظة، وهذا هو سبب الضيق والرجفة التي تصيبكم.. ألم تشعروا بها؟"

قال قائد الجند "لو أنك تحاول الوصول للجهاز الذي صودر من قصر أبيك.. فاصرف النظر عن ذلك.."

قال تيمار بشيء من العصبية "أنا أريد الوصول للجهاز، لكن ليس للسبب الذي يدور في ذهنك.. لقد اتصل بي رئيس المختبرات الذي كان يشرف على هذا الجهاز بالذات، وهو متأكد أن شخصاً ما يستخدم الجهاز الناقل في هذه اللحظة وبطريقة خطيرة"

علق بادر قائلاً "كل ما أعرفه أن الجهاز ينقل الأشخاص عبر العوالم الموازية، فما الخطورة في ذلك؟"

قال تيمار مقطباً "ليس إن استغنى أحدهم عن استخدام الحاجز الزجاجي، فهذا يجعل مدى الجهاز أكبر بكثير مما نتصور .. وبدون استخدام المادة الوسيطة التي يحقن بها الشخص المراد إرساله، فإن تلك النقلة لن تكون آمنة على الإطلاق.."

قال قائد الجند "هذا سخف.."

سمعوا صوت ريم وهي تقول لتيمار "انظر إلى هذا.."

التفت تيمار إليها فلاحظ على الفور تلك الشفافية التي أصابت أطراف أصابعها بشكل واضح وإنما بدرجة أخف من المتوقع.. ولما دار ببصره فيمن حوله لاحظ أن التأثير يختلف من شخص لآخر وإن كان الجميع غافلين عنه.. فقال تيمار وهو يقطب بشدة "انظروا لهذا.. هذا من تأثير الجهاز الذي يعدّ الأجساد لنقلها لوجهة لا يعلمها إلا الله تعالى.. ومن المؤكد أن شخصاً في أنكاريا لن يعيش ليرى تلك الوجهة"

اعترض القائد بشيء من الحدة "أنت تتحدث عن مدينة تمتد لأميال.. أي جهاز يمكنه أن يغطي مساحة كهذه؟"

أجاب تيمار بسرعة "ليس إن كان الفاعل قد خطط للأمر مسبقاً ووزع حول المدينة عدة مرددات تقوم بتقوية الذبذبات تلك.."

وإزاء نظرات الاستنكار في أعينهم، أخبرهم بما استنتجه سهم وأبلغه إياه سليم في اتصال آخر قبل قدومه للمجلس.. ثم أنهى حديثه قائلاً "إن من يقومون بتدمير آلات الرصد تلك يستهدفون المرددات التي زرعها الفاعل حول المدينة.. هم أشخاص يحاولون إنقاذ أنكاريا من الكارثة التي أراد الفاعل ارتكابها.. لذلك أريدك أن تطلب من جنودك عدم اعتراض طريقهم، ومعاونتهم في هذا الأمر قبل أن يمضي الوقت.."

ثم أضاف وهو يلقي نظرة على الجهاز في يده "كل ما بقي لنا لا يتجاوز ثلثي الساعة بكثير.."

قطب القائد مفكراً بينما قال بادر "لو كان ما تقوله صحيحاً فهذا أمر خطير.. لكن من هو الفاعل؟"

أجاب تيمار عابساً "بودي لو أعلم من هو.."

****

اندفع سهم عبر السور العالي المحيط بأنكاريا نحو هدفه التالي.. كانت المسافة بين برج وآخر تزيد على خمسين متراً قطعها سهم ركضاً على أمل تجاوز الثواني والدقائق التي تتراكض بسرعة محمومة.. كان يشعر بالذبذبات تتزايد كلما اقترب من البرج الآخر قاطعاً كل شك لديه بوجود المرددات في تلك الآلات.. ومع تزايد الذبذبات، كان جسده يتثاقل وأعضاؤه تعاني لدى أقل مجهود يبذله، لكنه دفع نفسه بشدة وهو يركض نحو البرج فيصعد لأعلاه بسرعة ويستخدم سلاحه لتحطيم الآلة ورميها من الأعلى بأعنف ما يملك.. ثم نظر للبرج التالي وللأبراج المصفوفة على طول السور وهو يغمغم "تباً لمن فكر في هذه الخطة.. بودي لو أجده أمامي الآن.."

في تلك الأثناء، كان بالدو يراقب ما يفعله العالم الذي انشغل بتشغيل الجهاز الناقل والدماء تتصبب من جرح ساقه.. فبدا

العالم منهكاً ويلهث بشدة، بينما غمغم بالدو بابتسامة جانبية "رائع.. إن هي دقائق معدودة وأتخلص من الجميع.."

ومن مراقبة ذعر العالم الواضح ونظراته التي تدور في المكان وكأن الموت يتربص به، كان واضحاً لأعضاء المجلس أن ما ينتويه بالدو بتشغيل الجهاز ليس أمراً يمكن التهاون به.. أضِف لهذا ذلك الشعور الكريه بذبذبات تتخلل أجسادهم بقوة وتوتر خلاياهم فور أن بدأ الجهاز الناقل عمله بهدير واضح.. عندها تساءل داميت "دعنا نفهم الأمر يا بالدو.. ما هدفك من هذا كله؟.. ستجد القيود في يديك خلال وقت قصير وستكون نهايتك هي السجن.. أهذا ما تريده؟"

أطلق بالدو ضحكة وهو يقول "حمقى.. أظننتم أنني جئت هنا لألهو؟.. لقد درست كل جوانب المكان ووضعت خطة محكمة لا يمكن لها أن تفشل.. لم أعمل سنين طوال في مجلس الحكماء بلا استفادة من موقعي ذاك.."

ثم نظر نحو العالم مضيفاً بخبث "ولم ينقصني من يمكن رشوتهم بالمال في هذا المكان.."

شحب وجه العالم بشكل واضح وبالدو يقول "بواسطة رجل أحمق كهذا، حصلت على مخطط للجهاز مكنني من دراسته بتأنٍ شهوراً طويلة.. وقرأت التقارير الخاصة به حتى عرفت آلية عمله وأي مخاطر تنتج عن استخدامه.. خطتي هذه لم تأتِ من فراغ يا هذا.."

وإزاء نظرات داميت المقطبة، قال العالم بشحوب "ظننته مهتم بالجهاز لأسباب تخص المجلس، ولم يدُر بذهني أنه يسعى لأمر آخر.."

لوّح بالدو بالسلاح في وجهه وهو يقول "كان عليك أن تكون أميناً يا هذا، فمثل هذا العذر لا يعفيك من المسؤولية.."

فتساءل داميت "إذن ما هدفك من هذا كله؟ ما الذي يدفعك للسعي وراء الجهاز بهذا الإصرار؟"

قال بالدو بابتسامة جانبية "الانتقام.. ماذا ظننت؟"

قطب داميت قائلاً "الانتقام من المجلس؟"

أطلق بالدو ضحكة عالية قبل أن يقول "بل من أنكاريا كلها.."

تساءل العالم بحيرة "كيف يمكنك ذلك؟.. مهما كان مدى الجهاز بعيداً لن تتمكن من الوصول لأنحاء أنكاريا كلها به.."

اتسعت ابتسامة بالدو وهو يقول بلهجة فخورة "لأنني خططت للأمر جيداً.. هذا نتاج شهور من التخطيط المتأني مع الأخذ بعين الاعتبار كل جوانب الضعف في الخطة.."

ثم نظر إلى داميت مضيفاً بضحكة "والأدهى أن خطتي هذه كانت بمساندة المجلس الذي تحمّس للأمر.."

تساءل داميت بدهشة "ماذا تعني؟"

قال بالدو "أعني أنكم وافقتم على مشروع وضع آلات رصد ومراقبة على أبراج سور أنكاريا بحماس شديد، وهذا مكنني من دسّ المرددات التي تقوم بتقوية ذبذبات الجهاز معها.. لقد قام العمال التابعون للمجلس بوضع هذه المرددات بأنفسهم في الأبراج منفذين خطتي دون جهد يذكر مني.."

شحب العالم بشدة وهو يهمس "رباه.. لا يمكن أن يكون هذا حقيقياً.."

أما داميت فقد قال بحدة "إذن كل حديثك عن خطط تولاد كانت كذباً؟.."

ابتسم بالدو بسخرية قائلاً "وهل أدركت هذا الآن فقط؟.. كنت بحاجة لوضع الجهاز في هذا المبنى الذي يتوسط أنكاريا، كما أن التحصينات فيه تمنع أي تدخل في خطتي.."

فقال داميت وهو يرى الوشم الذي يحتل جانباً من عنق الشاب، ذلك الوشم الذي يميّز مواطني الدرجة الثانية ولا يقدر شخص في أنكاريا كلها على إزالته دون إذن "لماذا فعلت كل ذلك؟.. أهذا لكونك من مواطني الدرجة الثانية؟.. هذا سبب سخيف برأيي.. لقد تغاضينا عن هذا وضممناك للمجلس لأنك كنت متفانياً ومخلصاً في عملك.."

فوجئ بالضحكة العالية التي أطلقها بالدو قبل أن يقول من بين ضحكاته "أي حُمق هذا.. هذا سبب سخيف كما قلت أنت.. أظننتني بهذه السذاجة؟"

تساءل داميت بدهشة "إذن ما الذي يدعوك للانتقام من عالمك بأكمله؟.. أي حقد دعاك لهذا؟"

مال بالدو نحو الشاشة قائلاً بغضب مفاجئ "لأن هذا كان عالمي بالفعل.."

نظر له داميت وبقية الأعضاء بشيء من الدهشة وبالدو يقول بغضب أشد "لابد أنكم تناسيتم الملك جيلاد الذي رماه أسلافكم في السجن.. لابد أنكم تناسيتم الملك الذي سلبتموه حقّه وفوق ذلك قتلتموه شر قتلة.."

تحولت دهشة الأعضاء لصدمة عنيفه بينما أضاف بالدو وهو يجول في القاعة بحنق "لقد كان الملك جيلاد جدي الأكبر.. وكانت أغلب المناطق العربية في عالمنا مُلكاً له.. كانت مُلكاً له ولعائلته منذ أجيال وأجيال، وكان ينوي توريثها لأجيال وأجيال أخرى من صلبه.. لكن، بعد الاستقرار في أنكاريا، قرر حفنة من الرجال، بدعوى أنهم مرسلون من الشعب كله، عزل جدي الأكبر والاستيلاء على أملاكه.. نبذوا حقه في المُلك وحقه في أملاكه المتوارثة.. عزلوه وجعلوه من عامة الشعب، وأقاموا مجلساً للحكم وضعوا أنفسهم على رأسه.. حاول جدي الأكبر مع أبنائه استعادة ملكه، وقاتلهم بشراسة.. لكنهم قرروا أنه خطر على أمن أنكاريا، وسمحوا للجنود بقتله بكل قسوة.. وبينما مات جدي بيد جنوده وحراسه، هرب بعض أبنائه ممن نجى من المذبحة وتمكن من الالتجاء لبعض القرى البعيدة وعاش عيشة بدائيين.. ولما فتحت أنكاريا أبوابها للبدائيين الباحثين عن حياة أفضل، عاد نسل جدي الأكبر لأنكاريا متسللين بحثاً عن وسيلة لاستعادة ملكهم المغتصب.."

ثم نظر لهم بعينين كجمرتي لهب "لك أن تعرف حجم الغضب والحقد الذي غلى في قلوبهم بعدما قرر حكماء أنكاريا وسم الجميع بهذا الوشم المهين.. نحن، نسل الملك الأعظم، الذي حكم الدنيا في زمنه، نحمل وشم مواطنين من الدرجة الثانية؟.. حاول بعض أحفاد جدي استعادة الحكم بالقوة، لكنهم قوبلوا بالتعذيب والتنكيل والقتل.. لذلك اضطر البقية للصمت والصبر بانتظار تلك الفرصة.. وها قد جاءت أخيراً.. جاءت بيدي أنا، ولا يمكنني أن أتنازل عنها"

قال داميت باستنكار "لكن هذا تاريخ قديم، كما أنك لن تستعيد ملكك بهذه الحالة.. بل ستقضي على أنكاريا نفسها.."

قال بالدو وابتسامة مجنونة ترتسم على شفتيه "لا بأس.. إن لم تكن أنكاريا لي، فلن تكون لأحد.."

فقال داميت وقد ازداد توتره لما سمعه "استمع إليّ.. لن تستفيد شيئاً مما تفعله.. فكر ملياً في الأمر.. لا تتسرع أرجوك.."

فقال بالدو وهو يميل نحو الشاشة "لكني فكرت وقررت بالفعل.. ولهذا جمعتكم هنا، كي تشهدوا نهاية ما ارتكبه أسلافكم مؤسسي مجلس الحكماء هذا.."

وأنهى الاتصال مع أعضاء المجلس فيما لاحظ العالم في تلك اللحظة على شاشة قريبة ما يفعله سهم ويعقوب في الأبراج المتوزعة على طول السور، فأصابه توتر شديد خشية أن يرى بالدو ما يجري ويعمد لمنعهم من تدمير تلك الأجهزة..

فالتفت إلى بالدو وقال بشيء من الارتباك الواضح "ما الذي ستجنيه أنت من تدمير أنكاريا كلها؟.. ألن يتسبب هذا في موتك أنت أيضاً؟"

ضحك بالدو وهو يقول "أأنت أحمق؟.. لست فدائياً ولا أتشرف بالموت هنا.. أنا ملك.. ولن أموت إلا فوق عرشي"

فقال العالم بتوتر "لكن أنكاريا لا تحوي أي عروش.."

قال بالدو بسخرية "سيكون هناك عرش مذهب يخلب الأبصار.. عندما أتمكن من تحقيق انتقامي والتخلص من هذه الشرذمة المتكبرة التي تحتل أنكاريا، عندها سأجلس على عرشي وأنصّب نفسي ملكاً بشكل رسمي.."

قال العالم وهو يقف أمام الشاشة التي تعرض ما يجري على السور محاولاً إلهاء بالدو "لكن من ستحكم؟.. بعد موت سكان أنكاريا كلها ستغدو وحيداً هنا، هذا لو سلّمنا أنك لن تُقتل معهم.."

فقال بالدو بثقة "لن أموت يا هذا.. صدقني.. بعد مقتل شعب أنكاريا، سأستخدم التقنيات التي سيخلفونها وراءهم، وسأحكم هذا العالم البدائي بأسره.."

ورد اتصال في تلك اللحظة عبر جهاز اتصال ملحق بلوحة التحكم، فاستجاب بالدو للمتصل وهو يسمع قائد فرقة من فرق الجند يقول "سيدي.. حاولنا الاتصال بأحد أعضاء المجلس دون فائدة.. فلم أجد بداً من الاتصال عبر هذه القناة لعليّ أجد رداً.."

قال بالدو بسرعة "الأعضاء في اجتماع سري ومغلق، يمكنك أن تخبرني بما تريده وأنا سأحرص على إبلاغ الأعضاء به.."

فقال القائد "هناك رجلان فوق سور أنكاريا يقومان بتحطيم أجهزة الرصد والمراقبة دون سبب مفهوم.."

اتسعت عينا بالدو بصدمة بينما شحب العالم وهو ملتزم بالصمت، فوجد بالدو يدفعه جانباً ليرى ما يدور على شاشة المراقبة التي فوق السور والقائد يضيف "لقد أرسلت فرقتين من رجالي للقبض عليهما، ونريد أمر أعضاء المجلس فيما نفعله بهما"

فصاح بالدو بشيء من الشراسة "اقتلهما فور القبض عليهما.. لا تتهاون معهما، فكما يبدو هما يحضرّان لهجوم من البدائيين على أنكاريا.. وتحطيم أجهزة المراقبة هي البداية.."

توتر القائد رغماً عنه وهو يقول "هجوم على أنكاريا؟.. هذا سخف.."

فقال بالدو "لا تستهن بالأمر.. سارع للتخلص منهما قبل أن ينجحوا في تدمير المزيد من آلات الرصد.."

وأنهى الاتصال متأملاً ما يجري عبر الشاشة وهو يدمدم "يا للأوغاد.. كيف علموا بأمر المرددات؟"

ونظر إلى العالم بشك واضح، فصاح العالم على الفور "ليس لي دخل بالأمر.. صدقني.."

عاد بالدو ببصره للشاشة يراقب تلك الفرقة من الجنود التي أحاطت بأحد الرجلين وهو يبتسم بتشفٍ معلقاً "لا يهم.. سيُقتلون في الحال.."

****

في تلك الأوقات التي استغلها بالدو لتنفيذ مخطط انتقامه، كان تولاد يستلقي في سريره بصمت وسط الجناح المظلم وهو أفخر وأكبر جناح في قصره.. لم يفتح ستائر جناحه أو مصابيحه وبقي وسط الظلام النسبي مستلقياً بصمت يفكر في كل ما جرى.. من يصدّق أن يصل الأمر لهذا الحد؟.. لقد خطط لكل مراحل خطته هذه بدقة شديدة، وكان واثقاً أنه سينجح في كل أجزائها.. فور استعادته ابنته سانا ستكون قد تخلصت من هذا المرض المميت، وستكون سعيدة بعودتها لأبيها ولهذا القصر وهذه الرفاهية.. فما الذي جرى؟.. أين هو الخطأ الذي ارتكبه؟.. وكيف أدى ذلك لانقلاب أعضاء المجلس عليه وطرده بتلك الطريقة المهينة؟.. أبعد كل ما فعله، يُرمى من مجلس الحكماء ككومة قمامة؟.. هو.. تولاد.. رئيس المجلس لأكثر من عقدين كاملين، يُعامل بهذه الحقارة في نهاية تلك السنوات؟..

لكن لا يمكنه أن يصمت.. لا يمكن أن يستكين ويترك لبقية الأعضاء الغنيمة كاملة.. وخاصة داميت، الذي سعى لإسقاطه والحلول محله.. لابد أنه كان يرجو الحصول على هذا المنصب منذ أمد بعيد، ولابد أنه تمكن من رشوة بقية الأعضاء لمساندته.. وإلا فما الذي يدعو المجلس لطرده بهذه الصورة الفجائية؟.. ظلت الأفكار تسوق نفسها طوال الوقت الذي قضاه تولاد وحيداً في جناحه المظلم دون أن يخلد للراحة أو يتجاوز الغصة التي سدّت حلقه..

تعالت طرقات على باب الجناح في تلك اللحظة دفعت تولاد للاعتدال جالساً بحنق، بينما ارتفع صوت أحد الخدم وهو يصيح "ما الذي تفعله يا رجل؟ لا يحق لك القدوم لهذا المكان وطرق باب الجناح.."

قطب تولاد وهو يجلس في سريره متسائلاً عن هوية ذلك الذي جرؤ على طرق بابه بهذه الحدة، عندما سمع صوت سليم بوضوح وهو يقول "يجب أن أقابل تولاد في هذه اللحظة.. المدينة كلها تعتمد عليه.."

هبّ تولاد واقفاً واندفع نحو الباب ليفتحه بقوة، ثم قبض على سليم من تلابيبه وهزّه بشدة قائلاً بغضب "أتيت إليّ بقدميك أيها الوغد.."

أسرع سليم يقول بتوتر "بعيداً عن العداء الشخصي بيننا يا تولاد.. ألا تشعر بشيء غريب يحدث للمدينة هذه اللحظة؟"

قطب تولاد مفكراً فيما يقوله سليم.. لا يشعر بشيء إلا بالغضب الذي يتزايد في صدره كمرجل والضيق الشديد الذي يكاد يخنقه، فقال سليم بإلحاح "ركز جيداً، فالتأثير هنا لا يزال ضعيفاً.. ألا تشعر بتلك الذبذبات الكريهة ذاتها التي يسببها الجهاز الناقل؟.."

قال تولاد بحدة "ماذا تعني؟"

فقال سليم بسرعة "هناك من يستخدم الجهاز الناقل، وأغلب الظن أن هذا يحدث في مبنى المجلس.. هناك من يسعى لاستخدامه على نطاق واسع، ربما ليشمل أنكاريا كلها.."

نظر له تولاد بصدمة وهو يتخلى عن ملابسه، ثم بعد لحظة تفكير قال بلهجة آمرة "تعال.."

ودخل جناحه صارفاً الخادم الذي كان يقف جانباً بتوتر.. فأسرع سليم يلحق بتولاد داخل جناحه الفخم حتى رآه يجلس في جانب الجناح بصمت منتظراً تفسيراً لما يجري.. فقام سليم بشرح كل ما جري وما استنتجوه من رئيس المختبرات ومن تخمين سهم.. ورغم أن الاهتمام والقلق قد بدا بوضوح في عيني تولاد، إلا أنه حافظ على كبريائه وهو يقول ببرود "ما الذي دعاك للقدوم إليّ الآن؟.. أترجو أن أقوم بحلّ المشكلة بطريقة سحرية؟"

ثم أضاف بابتسامة ساخرة "ألم يبلغوك؟.. لم أعد رئيساً لمجلس الحكماء، ولم أعد من أعضاء المجلس بتاتاً.. لكن لابد أن تيمار قد أبلغك بالأمر فور حدوثه كالعادة.."

قال سليم مقطباً "ما بك يا رجل؟.. ألا تشعر بخطورة ما يحدث هنا؟.. ألا تدرك أن حياتك وحياة كل من حولك ستنقضي خلال الساعة القادمة؟"

قال تولاد بحدة "ما الذي يمكنني فعله؟.. لقد تمّ تهميشي في هذا المجتمع، وحتى جنودي قد تمّ سحبهم مني لأنهم يتبعون المجلس بالأساس.."

فقال سليم بتوتر وهو يدور في الجناح "لا يمكن ألا تملك أي حل.. يجب أن نعثر على طريقة لمنع الجنود من القبض على سهم ويعقوب قبل أن ينجزا مهمتهما.. كيف يمكننا فعل ذلك بحق الله؟"

ظل تولاد صامتاً وشعوره بتلك الذبذبات يتزايد إنما بشيء من البطء.. تذكر المرة الأولى التي شهد فيها تلك التجربة التي أرسلت هاد للعالم الآخر وجاءت بسليم لهذا العالم.. تذكر شعوره بعد انتهاء تلك التجربة وسرت في جسده رجفة لهذه الفكرة.. عندها نهض واقفاً فجأة وهو يقول "ربما يمكنني فعل شيء.. لن نخسر شيئاً.."

نظر له سليم بدهشة وشيء من الأمل، فرآه يتقدم نحو طاولة جانبية في الجناح ويتناول منها جهاز الاتصال الذي تخلّى عنه بعد الأحداث الأخيرة.. فقام بالاتصال بداميت عدة مرات دون أن يكتمل الاتصال في كل مرة، وكان الحال مشابهاً مع بقية الأعضاء، عندها نظر لسليم قائلاً "لا أحد من أعضاء المجلس يتلقى اتصالاتي.. هناك ما يمنعني من الاتصال

بأحدهم.."

تساءل سليم بقلق "إذن ما الذي سنفعله؟"

لم يعلق تولاد وهو يرفع الجهاز قريباً من فمه بعد أن فتح قناة الاتصال العامة التي تتصل بجميع الجنود والقادة في أنكاريا.. وقال بصوته المبحوح إنما بحزم واضح "يا جنود أنكاريا وقادتها.. أنا تولاد.. وكما يعلم أغلبكم، تمّ عزلي من مجلس الحكماء هذا اليوم بالذات.. لكن هذا لا يمنع أن تستمعوا لما أقوله وتحكموا على الأمور بأنفسكم.."

تعجب سليم من تطرق تولاد لهذا الموضوع الحساس بالنسبة له بهذه البساطة، بينما أضاف تولاد "أغلبكم يعلم بموضوع الجهاز الناقل بين العوالم الموازية والذي قام فريق من العلماء تابع لي بصنعه.. لا أخلي مسؤوليتي من هذا الأمر، لكن تمت مصادرة الجهاز مني من قبل مجلس الحكماء هذا اليوم بالذات.. والآن، شخص ما أو عدة أشخاص يقومون باستخدام هذا الجهاز في هذه اللحظة بشكل خطير.. إنهم يعرضون أنكاريا كلها لخطر غير محدود، وقد ضاعفوا الخطر باستخدام مرددات للذبذبات مثبتة على الأبراج المقامة على سور أنكاريا.."

ظل سليم يستمع للّغط الذي تعالى من الجانب الآخر من الاتصال وتولاد يكمل دون اعتبار له "أطلب منكم أيها الجنود منع هذه العملية المراد بها الإضرار بأنكاريا وأمنها.. يجب تدمير هذا الجهاز، ويجب تدمير المرددات التي تم إخفاؤها في آلات الرصد الموزعة على الأبراج.. خلال أقل من نصف ساعة، لو اكتمل عمل الجهاز دون عرقلة، فإن شعب أنكاريا سيواجه مصيراً بشعاً دون تمييز.. أطلب من القادة التدخل في الأمر قبل فوات الأوان.."

تعالى صوت أحد قادة الجند وهو يقول بشيء من الحدة "ما الذي يؤكد لنا حديثك هذا؟"

فسمعوا على الفور صوت بالدو وهو يقول بحنق "إنه كاذب.. لا تستمعوا له.. أنا بالدو مساعد رئيس مجلس الحكماء الحالي.. أطالبكم بتجاهل كل ما قاله هذا الرجل واعتقاله على الفور.."

قال تولاد بصرامة "أين داميت؟.. ولم لا يبتّ رئيس المجلس بنفسه في هذا الأمر؟"

قال بالدو بحزم "رئيس المجلس لديه اجتماع عاجل.. وليس بالتفرغ الكافي للبتّ في أمرٍ تافهٍ كهذا.."

عندها قال تولاد "لكني أطالب بالحديث مع داميت مباشرة.. إن لم تصلني به خلال دقيقة واحدة فهذا أكبر دليل على أن مكيدة يتم تدبيرها من قِبَل المجلس أو بعض أعضائه.. عندها، لا أظن أن اللوم سيقع على قادة الجنود لو تحركوا لمنع هذه الكارثة البشعة.."

صاح بالدو بعصبية "أين قادة الجند؟ كيف تسمحون بمهزلة مثل هذه؟"

فجاء صوت قائد الجند العام عبر الجهاز وهو يقول بصرامة "ننتظر الأمر مباشرة من رئيس المجلس .. ما سبب حالة الطوارئ القصوى التي وضع فيها مبنى المجلس؟.. ولماذا يمتنع الرئيس عن التدخل حتى هذه اللحظة؟ هناك بلبلة بدأت تسري بين الجنود، ولن تهدأ حتى يأتينا أمر مباشر من الرئيس.."

دمدم بالدو بحنق وهو يغلق الاتصال، بينما العالم يراقب ما يجري بقلق وشيء من الأمل.. كان يرجو أن تؤتي محاولة تولاد نتائجها، لكن الزمن يركض بسرعة غير معقولة، وهو يرى أطرافه المرتجفة قد بدأت تكتسب بعض الشفافية التي لم تكن غريبة عليه.. مسح العالم جبهته بتوتر عارم وهو يهمس "يا إلهي.."

أما تولاد، ففور أن أنهى بالدو الاتصال من جهته، حتى قال للبقية "أوجه حديثي لقائد الجند، وللجنود عامة.. ما يجري الآن ليس طبيعياً البتة.. وبعد كل ما قيل، لكم الحق في أي تصرف ستتخذونه.."

وأنهى الاتصال بينما سليم يغمغم بقلق "كان عليك أن تلحّ عليهم لإيقاف الجهاز.."

قال تولاد "قائد الجند شخص ذكي، لكنه سريع الغضب ومتزمت.. ولو ألححت عليه لانقلب الأمر ضدنا.. سترى أنه سيتصرف بالطريقة الصحيحة كما نريد له أن يفعل.."

ثم غادر الجناح قائلاً بأمر "هيا.. سنغادر نحن أيضاً إلى مبنى مجلس الحكماء على الفور.."

ارتفع حاجبا سليم وهو يرى دعوة تولاد له ليرافقه، لكنه لم يعلق وهو يسير خلفه بخطوات سريعة.. وكل ما يأمله أن يمهلهم الزمن لتفادي ما يمكن تفاديه..

****

لم يكد سهم يصل للبرج الثالث في قائمة الأبراج المصطفة على طول سور أنكاريا، حتى وجد فرقة كاملة من الجنود تظهر له من أقرب مدخل للسور وهم يشهرون أسلحتهم في وجهه.. لكن سهم لم يتوقف وهو يصعد البرج بسرعة والرصاص يتطاير من حوله مصيباً الحائط القريب ومهدداً حياته دون رحمة.. استمر سهم في صعوده السريع حتى وصل لموقع آلة الرصد والذي يحميه بشكل محدود من رصاصات الجنود.. انحنى سهم في موقعه محاولاً عدم تعريض نفسه للجنود الذين يترصدون له، واقترب من الآلة القريبة رافعاً سلاحه.. لكن لم يكد سهم يضرب آلة الرصد ضربتين حتى وجد من يضربه بشدة على ظهره، لكن سهم تجاهل الجندي الذي صعد البرج خلفه وهو يركز على الآلة أمامه فضربها بأعنف ما عنده حتى رماها من موقعها نحو الهاوية.. عندها تلقى ضربة أخرى دار لها رأسه قبل أن يلوي الجندي ذراعه بقوة وينتزع السلاح من يده.. دفع سهم الجندي خلفه بقوة بلطمة من كتفه حتى اختل توازنه وسقط من فوق البرج، بينما انحنى سهم مختبئاً عن الرصاص الذي تطاير من حوله..

غدا الآن حبيساً فوق البرج، وهو وضع لم يكن ليدوم طويلاً .. نظر من جانب البرج المواجه للهاوية وهو متردد بين البقاء في موقعه حتى يلقي الجنود القبض عليه، وبين تكرار تهوّره السابق والقفز في الهاوية على أمل أن تلتقطه إحدى الشباك.. لكنه تراجع عن هذه الفكرة بسرعة وقد قدّر أن حظه لن يدوم للأبد.. وبينما هو في حيرته، سمع أحد الجنود يصيح به

"استسلم يا هذا إن كنت تريد النجاة.. ونحن نعدك أن نحافظ على حياتك.."

لم يعلق سهم وهو يلاحظ أن الرصاص قد توقف.. الاستسلام المؤقت هو الحل الوحيد حالياً، لكن ألن يعمدوا لقتله فور استسلامه؟.. عاد الصوت يصيح به "لا مفر لك من الاستسلام.. أنت في وضع بائس، وعليك تقدير عواقب ما تقرره.."

عندها صاح سهم "سأستسلم.. لكن لا تصيبوني بأسلحتكم قبل أن تستمعوا لما لديّ.."

وعده قائد الجند بذلك، عندها هبط سهم من البرج بعد أن ألقى بنظرة سريعة على الجنود المتحلقين في الأسفل.. ورغم التوتر والحدة البادية على ملامحهم، إلا أنه لم يشعر بنيتهم قتله أو إصابته.. صمت سهم وهو يقف وسط فرقة الجنود، فسمع قائد الفرقة يقول "قيدوا يديه بقيد حديدي.."

تساءل أحد الجنود "ألم تصلنا أوامر من المجلس بقتل هؤلاء المشاغبين؟"

عقد سهم حاجبيه بشيء من التوتر، بينما قال قائد الجند "لن نستفيد أمراً من قتله.. نحن بحاجة لمعرفة سبب ما يفعله، ومن هم خلفه.. ثم إنه يرتدي رداء الجنود.. ألم تسأل نفسك كيف حصل عليه ومن هو حقاً؟"

فقال سهم معتداً "أنا جندي بالفعل، ولم أسرق هذا الرداء لو شككتَ بهذا.."

نظر الجندي لسهم قبل أن يقول باستخفاف "إنه من مواطني الدرجة الثانية.. لذلك فولاؤه لأنكاريا مشكوك به.."

نظر له قائد الجند بنظرة حادة وهو يقول بصرامة "أنت تهين العديد من زملائك بهذا التعليق أيها الجندي.."

صمت الجندي محرجاً، بينما التفت قائد الجند نحو سهم وهو يشير لجندي آخر ليقوم بتقييده، لكن سهم انبرى قائلاً "مهلاً.. قبل أن تقوموا بتقييدي، وأنا كما ترون أعزل ومحاط بجنودك، أريدكم أن تستمعوا إليّ جيداً.. أنا جندي من جنود أنكاريا بالفعل، وقد أقسمت عند الالتحاق بالجنود على المحافظة على أمن أنكاريا وسلامها، وهذا ما أحاول فعله الآن.."

قال أحد الجنود بحدة "تدمير آلات الرصد هو لأمان أنكاريا؟.. ما الذي تخطط لفعله حقاً؟"

قال سهم بسرعة "هذه ليست آلات للرصد.. هذه مرددات تقوّي الذبذبات التي يصدرها الجهاز الناقل....."

قاطعه أحد الجند قائلاً بسخط "لم أفهم كلمة يا هذا.. أتحاول خداعنا؟"

قال سهم بحدة "أنا لم أفهم الكثير من هذا الحديث حقاً، لكني أثق بمن أبلغني بهذا الأمر.. هذا الجهاز خطير جداً، ولو سمحنا له باستكمال عمله، فستقع كارثة على شعب أنكاريا كله.. ستكون مذبحة، ولن ينجو منها أحد.. هل ستخاطرون بهذا بقلب مستريح؟"

ساد الصمت للحظات والجنود يبادلون قائدهم النظرات، ثم قال القائد "سأتصل بقائد الجند العام وأرى ما يقرره.."

لم يتحرك سهم من موقعه وهو يرى القائد يجري اتصاله مرة بعد أخرى.. ولما طال الوقت والقائد يقول مقطباً "إنه لا يستجيب.. هذا غريب.."

شعر سهم بتوتر شديد والوقت يمضي في جدال فارغ لن يخدم قضيتهم في شيء، عندها لم يجد بداً من التصرف وحيداً وقد

لاحظ انشغال الجنود عنه بما يفعله قائدهم.. عندها لكم سهم أقرب جندي له ودفع قدمه في بطن جندي آخر، قبل أن يستولي على سلاحه ويستدير راكضاً نحو البرج التالي.. كانت فرصة هربه معدومة، لكنه قرر أن فعل شيء خيرٌ من البقاء صامتاً، وهو يكره الصمت وانتظار الآخرين..

تعالت صيحات الجنود خلفه وهو يشعر بخطواتهم تلاحقه، ثم ما لبث أن سمع الطلقات تتطاير من حوله وهو مواصل ركضه دون استسلام.. أسوأ ما في السور كونه مستوياً بلا انحناءات ولا أي تفاصيل بخلاف تلك الأبراج، مما يمنعه من العثور على موقع يحتمي به من الإصابة.. وبالفعل، وجد أن طلقة أصابت ساقه اليسرى أسقطته على ركبته لشدة الألم المفاجئ، قبل أن ينهض من جديد وهو عازم على استكمال مهمته مهما حدث..

وجد في تلك اللحظة أقرب الجنود إليه يوجه له ضربة قوية بعقب السلاح في وجهه أسقطته أرضاً من جديد قبل أن تصيبه ضربات أخرى في جسده كعقاب له على محاولته الهرب.. وأخيراً، أوقفه أحد الجنود بعنف بينما وجّه فوهة السلاح إلى رأسه قائلاً بحنق "ما الذي يمنعنا من قتلك الآن؟.. لو كنت صادقاً فيما قلته لما لجأت للهرب.."

قال سهم بحدة رغم تهديده بالسلاح "لو أنكم تحركتم بالسرعة الكافية لما لجأت للهرب.. الوقت يمضي ولا نملك رفاهية تبادل الأحاديث.."

ارتفعت عدة أسلحة في وجهه والجندي يقول بصرامة "يبدو ألا مفر من قتلك بالفعل.."

****

الفصل السابع عشر « ليت الزمن تمهل قليلاً.. »

عندما سمع الجنود، ومعهم تيمار، حديث تولاد للجنود عبر القناة العامة، اتسعت عينا تيمار بدهشة لمعرفة تولاد بالأمر.. والأعجب من ذلك تدخله بهذه الطريقة.. وأثناء حديثه، التفت قائد الجند القريب من تيمار متسائلاً "أليست هذه خدعة منكما لاستعادة الجهاز؟"

قال تيمار بشيء من الحدة "كيف تظننا استطعنا تفعيل حالة الطوارئ في المبنى من قصر أبي؟.. عليك أن تقتنع أننا نخشى من الكارثة الوشيكة ونرغب بتجنيب شعب أنكاريا بأكمله مصيراً بشعاً نعلمه تمام العلم.."

فغمغم القائد "لابد أن يتدخل أعضاء المجلس على قول تولاد.. فلننتظر ونرَ.."

لكن عندما اعترض بالدو بشراسة وعصبية واضحة رافضاً تدخل داميت أو أي أعضاء المجلس، تدخّل قائد الجند عبر الجهاز قائلاً بصرامة "ننتظر الأمر مباشرة من رئيس المجلس.. ما سبب حالة الطوارئ القصوى التي وضع فيها مبنى المجلس؟.. ولماذا يمتنع الرئيس عن التدخل حتى هذه اللحظة؟ هناك بلبلة بدأت تسري بين الجنود، ولن تهدأ حتى يأتينا أمر مباشر من الرئيس.."

وعلى الفور لاحظ أن بالدو قد أغلق الاتصال من جهته دون رد.. فقطب القائد وتيمار يعلق "هناك أمر يجري بالداخل وبالدو طرف منه.. هل تصدقنا الآن؟"

قال القائد "كما قال تولاد، إن عدم حصولي على أوامر من أعضاء المجلس يبيح لي التصرف بما أراه مناسباً.."

والتفت إلى الجنود من حوله قائلاً "قوموا باختراق المبنى وفتح ثغرة فيه بالقوة.. هذه هي الوسيلة الوحيدة لنعرف حقيقة ما يجري.."

غمغم تيمار "أتظن الوقت يكفي لذلك؟"

لم يجبه القائد وهو يجري اتصالاً بالجهاز في يده ثم يقربه من فمه قائلاً "إلى الجنود الذين يلاحقون المشاغبين على السور.. آمركم بعدم المساس بهم بسوء.. أنا ألغي أمر قتلهم الذي صدر سابقاً.."

جذبت ريم كم تيمار وهي تهمس بقلق بالغ "أليس سهم ويعقوب وسليم فوق السور؟.. ما الذي جرى لهم؟"

لم يعلق تيمار وهو يتوجه إلى القائد قائلاً بقلق "هذا لا يكفي.. يجب أن يعاونهم الجنود على تحطيم المرددات.. هذا على الأقل سيحدّ من عمل الجهاز.."

صمت القائد لثوانٍ وهو يوازن الأمر في ذهنه، ثم غمغم "لا بأس.. لا أظننا نواجه خطراً حقيقياً من البدائيين، كما أن آلات الرصد تلك رفاهية لطالما اعترضت عليها.."

عاد لجهاز اتصاله وهو يقول "هذا أمري الجديد للجنود.. قوموا بفصل آلات الرصد المقامة على الأبراج فوق سور أنكاريا.. ليتوزع الجنود على السور ويقوموا بفصل تلك الآلات بسرعة.. وليخبرني القادة بتقرير مفصل عما جرى خلال عشر دقائق.."

صمت تيمار بعد هذا محاولاً التركيز على الموقف الذي هم فيه.. راقب لدقائق عمل الجنود قرب المدخل وهو يشعر بالوقت يركض بأسرع مما يتمناه.. وخلا ل دقائق كان بعض الجنود يحاولون إحداث ثغرة في الألواح الحديدية التي تمنعهم من دخول المبنى باستخدام مثقاب قوي تعالى صوته في المكان.. ورغم قوة ذلك المثقاب، بدا أن الوقت يطول دون أن يحقق الجنود تقدماً كبيراً في عملهم، مما دعا تيمار ليقول مقطباً "أما من وسيلة أخرى لدخول المبنى؟ ألا توجد طريقة لإلغاء حالة الطوارئ من الخارج؟"

قال القائد وهو يراقب عمل رجاله "هذا مستحيل.. لا يمكن إلغاء حالة الطوارئ إلا من قلب المبنى.. وجميع المداخل والمخارج قد تم تأمينها بشكل محكم في جميع طوابق المبنى.."

قال تيمار عابساً بشدة "لابد من وسيلة.."

بعد لحظة صمت، التفت إليه القائد قائلاً باهتمام "هناك وسيلة واحدة، لكنها لن تكون أسرع مما يفعله جنودي الآن"

قال تيمار بلهفة "وما هي؟"

بعد لحظات قصيرة، كان تيمار وريم التي تتبعه كظله يقفان في جانب المبنى في موقع غير مطروق عادة.. وأمامه رأى تيمار عدة فتحات في موقع مرتفع من المبنى محاطة بقضبان حديدية إنما لا يغطيها أي ساتر حديدي.. نظر تيمار بدهشة للقائد الذي قال "لا يمكن إغلاق فتحات التهوية الخاصة بالمبنى، وهذه هي الثغرة الوحيدة الباقية للمبنى.. لكنها صغيرة الحجم وتتطلب شخصاً ضئيلاً لدخولها.. كما أن الشخص الذي يجهل مسارات تلك الفتحات سيقضي وقتاً طويلاً قبل الوصول لهدفه.."

قال تيمار بسرعة "سأدخل أنا.. فرغم طولي إلا أن جسدي نحيف بشكل يسمح لي بالمرور من هذه الفتحات.."

قال القائد مقطباً "هذا لا يكفي.."

اعترض تيمار قائلاً "لكنني الأصلح هنا.. أنا أعرف الجهاز المسؤول عن التحكم بالمبنى، وأغلب الظن أن الجهاز الناقل في الموقع ذاته.. يمكنني القيام بهذا العمل بالتأكيد"

هز القائد رأسه قائلاً "قد تقضي نحبك قبل أن تصل لهدفك وأنت وحيد.. يجب أن أرسل معك أحد الجنود ليؤمن ظهرك وينال من ذلك الحقير الذي يعبث بنا بهذه الصورة.."

والتفت لبادر القريب قائلاً "ابحث لي عن جندي ضئيل الحجم لهذه العملية.. وأريد أن تتصل بأحد المهندسين العاملين في المبنى.. أريد نسخة من الخارطة الخاصة بفتحات التهوية في التو واللحظة.."

أسرع بادر لتنفيذ أوامره بينما قالت ريم لتيمار بشيء من التردد "يمكنني أن أعاونك على اقتحام المبنى.."

قال تيمار بسرعة "مستحيل.. ابقي قريبة من القائد أو عودي لقصر أبي.. لا يمكنك أن تكوني ذات فائدة لي ولا خبرة لك بكل هذا العمل الخطر.."

لم تعترض ريم رغم قلقها الشديد مما يجري حولها، وقلقها الأشد على الجهاز الناقل، وهو تذكرتها الوحيدة للخروج من هذا العالم.. لكن ما الذي بيدها فعله بينما كل هؤلاء الجنود غير قادرين على فعل شيء؟..

خلال وقت قصير، كان تيمار يتفحص الخارطة التي أرسلها أحد المهندسين عبر جهاز الاتصال، فظل تيمار يتفحص خطوط التهوية التي تتشعب في المبنى بكامله محاولاً العثور على الطريق الأقصر للوصول لموقع الجهاز الناقل الذي أكد له قائد الجند أنه مؤمن في قاعة الاتصالات والمراقبة في الطابق الثامن.. ولما انتهى من تحديد مساره نظر للجندي المتوتر الذي وقف أمامه بجسده النحيل ووجهه الصغير وهو يمسك بسلاحه بشدة، فقال له تيمار "علينا ألا نصدر صوتاً واضحاً عند دخولنا المبنى.. لا ندري من المسؤولين عن هذه الخطة ولا نعلم إن كان بالدو أو أي من أعضاء المجلس قد استعانوا بأشخاص آخرين.. لذلك علينا أن نلتزم بالحذر.."

هز الجندي رأسه موافقاً، وانطلق من فوره ليرتقي سلماً وضعه الجنود تحت أقرب فتحة للتهوية، بينما تخلص تيمار من معطفه ولحق بالجندي بصمت.. ظلت ريم واقفة قرب قائد الجند وهي تراقب تيمار الذي غاب في فتحة التهوية العالية شيئاً ما بعد أن أزيح الغطاء الذي يغطيها، وراودها القلق عليه ولما قد يحدث له بداخل المبنى.. ثم قطبت ريم شيئاً ما لهذا الخاطر.. هل أصبح تيمار شخصاً قريباً منها لتقلق لأمره؟.. لكنها صرفت هذا الخاطر وهي تغمغم لنفسها "يكفي أنه بذل الكثير لمعاونتي طوال سنوات دون أن أعلم عن ذلك شيئاً.."

نظرت ريم للشفافية التي انتقلت من يدها لذراعها، وارتجفت شيئاً ما لهذا المنظر، قبل أن تشدّ يدها بقوة وهي تهمس "ساعده يا إلهي.. ولتنتهِ هذه المأساة دون خسائر كبيرة.."

****

اختبأ يعقوب خلف أحد الأبراج وهو يسمع الدوي الذي تحدثه الرصاصات بالحائط القريب منه.. كان يعقوب قد تخلص من آلة الرصد فوق ذلك البرج، وهو ثاني برج يصل إليه، عندما فوجئ بهجوم فرقة من الجنود عليه بعد أن خرجوا من أحد مداخل السور بعدد لا يقل عن ستة.. فلجأ عندها للاختباء خلف البرج وهو يطلق بشكل عشوائي على فرقة الجنود ودون أن يجيد التصويب.. لم تكن لأهل القرية أي خبرة باستخدام تلك الأسلحة، رغم معرفتهم لهويتها وعملها، ولا تتجاوز خبرة يعقوب بها بضع مرات سمح له سهم فيها باستخدام سلاحه في زياراته للقرية..

لذلك عندما صدر أمر قائد الجند بعدم المساس به أو بسهم، وعندما توقف إطلاق النار من جهة الجنود، زفر يعقوب بشدة وهو يرى الجرح الذي أصابته بها إحدى رصاصات الجنود يتصبب دماً من كتفه.. لكنه لم يتذمر وهو يطلّ من خلف البرج ليرى البلبلة التي حدثت بين الجنود لهذا الأمر المفاجئ.. بقي يعقوب في مكمنه بصمت حتى سمع عبر جهاز الاتصال المفتوح أمر القائد الجديد بتحطيم آلات الرصد بأسرع ما يمكن، فارتفع حاجبا يعقوب بدهشة وهو يتساءل في نفسه "أهذا ما حققه سليم؟.. يبدو أنه نجح في ذلك بالفعل.."

سمع في تلك اللحظة قائد تلك الفرقة يهتف به "اخرج من مكمنك يا هذا، ولن يصيبك أي جندي بمكروه.."

ظل يعقوب ينظر لهم من خلف البرج مقطباً، محاولاً التأكد من نيّاتهم، فعاد القائد يهتف به "لابد أنك سمعت أمر قائدنا، ولا يمكننا مخالفة أمره بتاتاً.. لذلك يمكنك الخروج الآن.."

لم يملك يعقوب إلا إطاعة الأمر والخروج، فهو لن يحقق شيئاً بالاختباء منهم والزمن يتراكض بأسرع مما يتمنونه.. ظل يعقوب متحفزاً بسلاحه وهو يخرج من مكمنه ويتقدم نحو الجنود، فوجدهم رغم عدم تهديدهم له بالسلاح قد سارعوا للتحلق حوله وأحدهم يقبض على ذراعه ويلويها خلف ظهره بقوة مستولياً على سلاحه.. فقال يعقوب مزمجراً "أكنت تخدعني يا هذا؟"

قال قائد تلك الفرقة "لا.. وعدناك بعدم إصابتك بمكروه، لكن هذا لا يمنعنا من القبض عليك حتى يبتّ القادة بأمرك.. والآن، ما الذي يجري حقاً بخصوص آلات الرصد تلك؟"

قطب يعقوب قائلاً "كل ما أعرفه أنها تشكل خطراً كبيراً على سكان المدينة.. يجب أن نتحرك بسرعة ونحطم هذه الآلات قبل أن يستفحل الخطر المحيق بأنكاريا.."

تساءل القائد مقطباً "وما هو هذا الخطر الذي علمتَ به ولم يعلم به الجنود بعد؟"

أجاب يعقوب "لست أعلم الكثير في الواقع، لكن الوقت يداهمنا ولا يجب أن نكتفي بالحديث دون عمل.."

لم يعلق القائد وهو يشير لجنوده قائلاً "نفذوا أمر القائد بسرعة وافصلوا تلك الآلات عن العمل.. تأكدوا أنها قد توقفت عن العمل تماماً قبل الانتقال للبرج التالي.. وسأستدعي فرقة أخرى من الجنود لتقوم بالعمل في جانب آخر من السور اختصاراً للوقت.."

شعر يعقوب بقليل من الراحة لهذا وهو يرى جزءاً من الجنود ينطلق لتنفيذ هذه المهمة دون اعتراض، بينما قال قائد الجند ليعقوب "سنأخذك إلى مبنى المجلس بعد أن ننتهي من تنفيذ أمر القائد، فلا يحق لك الاعتراض عندها.. كما أنك مصاب.."

قال يعقوب وهو ينتزع جزءاً من كمّ قميصه "لا تهتم بذلك.. أنا معتاد على مثل هذه الأمور.. كما أن الرصاصة لحسن الحظ لم تستقر في كتفي.."

قام يعقوب بربط جرحه ليوقف النزف كيفما اتفق، بينما أجرى القائد اتصالاً بفرقة أخرى لمساندة جنوده في عملهم.. وفي الجانب الآخر، كان سهم يواجه عدداً من الأسلحة الموجهة لرأسه وقد أيقن في تلك اللحظة أنه لن يخرج من هذه المواجهة حياً.. لكنه رفض إظهار جزعه وهو يواجه الجنود وأسلحتهم بهدوء وصمت، عندما تعالى عبر أجهزة اتصالات الجنود صوت القائد العام للجند وهو يطلب من الجميع عدم المساس بسهم أو قتله.. تبادل الجنود نظرات الدهشة بينما كتم سهم زفرة راحة كادت تفلت منه.. ثم قال قائد تلك الفرقة وهو يقترب "لا تفلتوه، هذا الأمر لا يعني أنه حر طليق.. علينا اصطحابه لمبنى المجلس حتى يرى القائد ما سيفعل به.."

تعالى صوت القائد مرة أخرى يطالب الجنود بفصل آلات الرصد وإيقاف عملها بأسرع ما يمكن، عندها قال سهم بانتصار "أسمعتم هذا؟.. القائد يساند ما أفعله، لذلك لا يحق لكم التذمر.."

أطلقه الجنود وهم يلتفتون لقائدهم، فقال لهم "لقد سمعتم الأوامر بوضوح، أليس كذلك؟.. انطلقوا لتنفيذ هذا الأمر دون إبطاء.. ووافوني بتقرير عن ذلك في أقرب وقت.."

لم يتردد الجنود لتنفيذ أمره، بينما قال سهم "هل يمكنني الرحيل معهم؟"

قال القائد بحزم "لا.. ستبقى معي حتى ينتهي الجنود ونعود لمبنى المجلس.."

ثم أضاف بعد لحظة صمت "ثم أشك أن تكون قادراً على تحقيق شيء بوجه متورم كهذا.."

ابتسم سهم ابتسامة جانبية وهو يلمس الكدمات التي أثارت آلاماً قوية في وجهه.. لكنه لم يتذمر وهو يراقب الجنود الذين انطلقوا نحو الأبراج التالية لتنفيذ أوامر القادة.. فتساءل سهم في نفسه إن كان ما يفعلونه كافياً حقاً لتجنيب المدينة مصيراً بشعاً خطط لها شخص ما بدم بارد..

****

رغم هدير المثقاب العالي الذي غطى على كل صوت، ساد صمت ثقيل في الموقع وريم تقف قرب مدخل المبنى حيث وقف قائد الجند وهم بانتظار نجاح إحدى الخطتين.. المثقاب؟.. أم تيمار؟..

مع مرور الثواني تليها الدقائق، كان توتر ريم يتزايد، ولم يكن الحال بين الجنود أقل حدة.. بينما التزم القائد الصمت وهو يلقي بنظرة كل ثانية وأخرى على الساعة في جهاز الاتصال الخاص به، ثم صاح بعصبية واضحة "أأنتم تتسلون بهذا المثقاب أم ماذا؟"

قال أحد مساعديه بتوتر "إن تلك الألواح الحديدية مصممة بحيث يكون من العسير تجاوزها يا سيدي.."

سمعوا في تلك اللحظة صوتاً يقول من خلفهم "أهذا هو كل الجهد الذي تبذلونه في وقت عصيب كهذا؟"

استدار القائد مقطباً ليرى تولاد يتقدم منه بخطوات صارمة كعادته، بينما تبعه سليم بتوتر واضح لرؤية كل هذا العدد من الجنود.. لكنه خمّن أن قدومه مع تولاد سيمنحه بعض الحصانة ولو لوقت وجيز.. هبّت ريم إلى سليم هاتفة "سليم.. انظر ما يحدث لي.."

بدا القلق الشديد واضحاً على وجه سليم وهو يلاحظ التغيير الواضح عليها، ولم يكن تولاد أقل قلقاً وهو يحدق بريم.. ثم التفت إلى القائد قائلاً "ما الذي تنوي فعله؟ الوقت يركض بسرعة ولا نملك رفاهية الانتظار.. ألا يستطيع جنود أنكاريا كلهم إيقاف حفنة من المشاغبين؟"

قال القائد "هناك خطة أخرى ننتظر نتائجها، لكن هذا كل ما نملك فعله الآن.."

تساءل تولاد "وما هي هذه الخطة؟"

أجاب القائد "الوسيلة الوحيدة لاختراق المبنى وتجاوز التحصينات الأمنية هي عبر فتحات التهوية.. وقد أرسلت جندياً مع تيمار ليتسللا عبر ممرات التهوية نحو موقع الجهاز الناقل.."

صاح تولاد فجأة "أرسلت تيمار؟.. أأنت مجنون؟"

عبس القائد بشدة وتولاد يواصل صياحه الغاضب "كيف يمكنك أن تفعل ذلك؟.. إنه ليس جندياً وليست لديه الخبرة للتصرف في مثل هذه المواقف.. كيف ترسله لموضع خطر مثل هذا وحيداً؟"

قال القائد بضيق "لقد أرسلت أحد الجنود معه.."

علق تولاد بحنق "وهل يكفي جندي واحد؟.. لا نعلم كم شخصاً متعاوناً مع بالدو ولا ما يملكونه من أسلحة.."

فقال القائد محتداً بدوره "تيمار هو من أصرّ على القيام بهذه المخاطرة.. ولولا درايته بالجهاز الذي يتحكم بطوارئ المبنى لما أرسلته.."

سمعت ريم سليم يسألها في تلك اللحظة "ما الذي أتى بك إلى هذا الموقع الخطر؟.. كان يجب أن تبقي في القصر يا ريم"

قالت ريم "أتظنني أستطيع البقاء هناك مع كل ما يجري؟"

عقد سليم حاجبيه قائلاً "وجودك لا يفيد أحداً البتة.."

فغمغمت ريم "لكني أريد أن أرى ما يجري للجهاز بعينيّ.."

صمت سليم زافراً وهو يرى التوتر يبلغ أشده بين الجنود والحوار العصبي مستمر بين تولاد وقائد الجند .. ولم يكن أحدهم يملك شيئاً يفعله في تلك اللحظات العصيبة..

****

في تلك الأثناء، كان بالدو يراقب ما يحدث عند السور عبر شاشات المراقبة بغيظ شديد، ودمدم بحنق "كيف يفعلون بي هذا؟.. كيف يصدق هذا القائد الأبله حديث حفنة من البدائيين ورئيس سابق ويكذبني أنا؟.."

ظل العالم صامتاً يراقبه بوجه شاحب بعد أن نزف الكثير من دمائه، لكنه لم يجرؤ على التذمر واكتفى بربط جرح ساقه بقوة لإيقاف الدماء.. ورغم ذلك، راوده خاطر مضحك أن عمله هذا لا معنى له.. هو ميت على كل حال خلال دقائق معدودة.. لقد بدأ جسده يكتسب شفافية ملحوظة وبدأت أعضاؤه تئن بوضوح لهذه التغيرّات العنيفة التي تحدث لها.. لكن للعجب ظل بالدو كما هو دون تغيير..

تجرأ عندها العالم لطرح السؤال الذي يتردد في ذهنه بإصرار "كيف يمكنك أن تجعل الجهاز يتغاضى عن وجودك بهذا الشكل؟.. أنت أقرب شخص للجهاز في هذه المدينة، لكنك لست متأثراً به بتاتاً.."

زمجر بالدو قائلاً "طبعاً.. أظننتني سأخاطر بنفسي وأتسبب بقتلي؟.. ليس لانتقامي أي معنى لو حدث ذلك.."

ثم شدّ جسده مضيفاً بصرامة "كما أن لوجودي في هذا المجلس لم يكن بلا فائدة.."

ظل العالم يستمع له بفضول لم يستطع كبحه، عندها أظهر بالدو جهازاً صغيراً فضي اللون مثبت على صدره تحت ملابسه بحزام جلدي، وقال "ألم ترَ هذا الجهاز من قبل؟.. إنه يحيط الجسد، أو أي مادة قربه، بمجال قوي يمنع نفوذ الذبذبات الكهرومغناطيسية التي يصدرها جهازكم هذا.. كل ما عليّ فعله هو الاحتفاظ به مثبتاً إلى جسدي، وبهذا أحصل على حماية كاملة من تلك النقلة التي يهيؤكم الجهاز لها الآن.."

نظر له العالم بدهشة، فقال بالدو بشيء من السخرية "أشك أنكم أنتم قد علمتم بشيء من هذا قبلاً في مختبراتكم تلك.."

فوجئ الاثنان في تلك اللحظة بضربة قوية تندلع من فتحة التهوية التي تقع فوق رأسيهما بالضبط، مما تسبب بسقوط الحاجز الحديدي الذي يغطيها، ثم تطاير بعض الرصاص في الغرفة بشكل عشوائي دفع بالدو للارتماء خلف أحد الأجهزة في الجانب البعيد من القاعة بينما انكمش العالم في جانب آخر من الغرفة بذعر..

استغل الجندي ابتعاد بالدو ليقفز وسط الغرفة من فتحة التهوية.. لكن بالدو أطلق عليه بضع رصاصات من سلاحه مما أجبر الجندي على التراجع ليحتمي وسط الغرفة بطاولة حديدية قلبها على جانبها واتخذها غطاءً.. ولما رفع الجندي بصره للأعلى، رأى عبر فتحة التهوية تيمار يشير له ليسهّل دخوله، عندها قام الجندي بإطلاق رصاصاته بغزارة على بالدو الذي اضطر للاختباء مدمدماً بغيظ "يا للفئران.. كيف تمكنوا من التسلل بغفلة مني؟.. كيف؟"

سمع صوتاً آخر في الغرفة، فنظر بحذر من خلف الجهاز ليرى تيمار الذي قفز من فتحة التهوية ليتكوم أرضاً بألم، قبل أن ينهض متجاوزاً ألمه ويركض نحو لوحة التحكم التي تقع في ذلك الجانب من القاعة.. أدرك بالدو ما يهدف له تيمار فصاح "لن أسمح لك.."

وصوّب نحو تيمار محاولاً منعه من الوصول للوحة التحكم، عندما غمره الجندي بطلقاته من جديد مجبراً إياه على

التراجع خلف الجهاز من جديد وتفكيره يعمل بشكل محموم.. لا يمكن أن يخسر كل شيء بسبب نسيانه لفتحات التهوية.. لا يمكن أن تكون هذه هي الثغرة المهينة في خطته المحكمة.. رفع رأسه للأعلى، فرأى جزءاً من أحد الأجهزة بسطح معدني سميك معلق في السقف.. وبحسبة صغيرة، أدرك أنه يستطيع الاستفادة من هذا الجزء في التخلص من هذه الورطة.. حاول إجادة التصويب، رغم أنه لم يمتلك خبرة كبيرة في ذلك، إلا أنه لم يتردد ولو للحظة وهو يطلق بضع رصاصات ارتطمت في ذلك الجزء وارتدت لتصيب الطاولة التي يختبئ خلفها الجندي..

تراجع الجندي خلف الطاولة بشيء من الحذر بعد أن فاجأته الرصاصات من الأعلى، عندها أظهر بالدو رأسه وصوّب بغزارة على لوحة التحكم بينما أسرع تيمار يختبئ خلف جهاز آخر عند رؤيته لتراجع الجندي.. صمت تيمار وهو يتبادل النظرات مع الجندي الذي أشار له من خلف الطاولة ليلتزم بموقعه بينما استمر بالدو بإطلاق الرصاص بغزارة.. وإن هي إلا دقائق حتى ساد الصمت إلا من تكة خفيفة من سلاح بالدو الذي فرغ من رصاصاته مع إسرافه في الإطلاق..

عندها خرج الجندي من مكمنه راكضاً نحو بالدو بينما استغل تيمار الفرصة ليركض بدوره نحو لوحة التحكم التي لم تكن تبعد عنه إلا بضع خطوات.. اجتاز الجندي المسافة بينه وبين غريمه بسرعة عندما تعالى صياح العالم بشيء من الذعر "كن حذراً.."

وصل الجندي لموقع بالدو في تلك اللحظة، فرآه قابعاً في مخبئه خلف الجهاز وهو يوجه سلاحاً آخر نحو الجندي الذي فوجئ بالأمر.. ولم يتمكن من التراجع بالسرعة الكافية عندما أصابته طلقة في رأسه ارتدّ لها بقوة حتى سقط أرضاً.. أما تيمار، فلم يتوقف حتى ضغط على زر إلغاء حالة الطوارئ بقوة، عندها بدأ الهدير يعود للمبنى وتلك الألواح الحديدية قد بدأت ترتفع من جوانبه سامحة للنور بالتغلغل عبر النوافذ وميسرّة للجنود الذين وقفوا بتحفز خارجاً لدخول المبنى دون عائق.. قام تيمار عندها بنزع المفتاح الخاص من الجهاز ورماه عبر نافذة قريبة خارج المبنى لئلا يتسنى لبالدو استخدامه مرة أخرى.. ثم سمع صوت بالدو يقول بغضب "أكان يجب أن تتدخلوا فيما أفعله؟ لكنها محاولات فاشلة رغم كل ذلك.."

استدار تيمار إليه ليرى الجندي غارقاً في دمائه بينما بالدو يتقدم منه بعد أن تخلص من سلاحه الفارغ وأمسك السلاح الثاني الذي لم يره أحدهما في البدء.. فقال تيمار بتقطيبة وهو يرى بالدو يتقدم منه بسرعة "استسلم يا هذا.. لن يترددوا في إصابتك لو حاولت المقاومة.."

فوجئ بضربة قوية تصيب وجهه من عقب سلاح بالدو الذي قال بشراسة "من قال ذلك؟"

ثم قبض على ذراعه ولواها خلفه مصوباً السلاح لرأسه وهو يتراجع ويجبره على التراجع معه قائلاً "لا أظن أولئك الجنود يقدرون على مسّ شعرة منك.. أليس كذلك؟"

قال تيمار مقطباً "أنت تهذي.."

تراجع بالدو حتى اقترب من الجهاز الناقل، ولما التفت نحو الجهاز الذي كان يهدر بقوة، رأى العالم يحاول إيقاف تلك التجربة آملاً أن يتمكن الجنود من التدخل في الوقت الملائم.. لكنه توقف فجأة مع الألم الحارق الذي أصاب ذراعه والدماء تنبثق من موضع الرصاصة التي أصابته من سلاح بالدو.. فانثنى العالم متلوياً من الألم وصياحه يعلو في القاعة، ثم وجد بالدو يركله بقوة حتى أبعده عن الجهاز قائلاً بغضب "أتظنني لا أستطيع قتلك الآن؟"

ثم ابتسم ابتسامة جانبية وهو يقول بخبث "لكنك ستموت على أي حال.."

لم يتمكن تيمار، وهو يشعر بألم شديد في أعضائه بسبب تلك التجربة التي لم يخضها من قبل، من التحرر من قبضة بالدو الذي لم يتأثر بالذبذبات واحتفظ بقوته.. بينما بقي بالدو صامتاً وهو يراقب الجنود الذين بدؤوا باقتحام القاعة بسرعة والانتشار في جوانبها محيطين به وأسلحتهم مشهرة.. لكن الابتسامة لم تغادر فم بالدو وهو يراقب الوضع بصمت.. ولما تقدم قائد الفرقة ومعه تولاد وسليم، وريم تتبعه بوجل، بادرهم بالدو بالقول "حسناً.. يمكنكم قتلي لو أردتم الوصول للجهاز وإيقاف هذه التجربة.. لكن هل ستضحّون بتيمار في سبيل ذلك؟"

تطلع القائد للجهاز الذي يبدو خلف بالدو وتيمار، بينما كانت أجهزة ومعدات أخرى تحيط به من الجانبين مما يجعل الوصول إليه وإيقافه عسيراً دون المخاطرة بإثارة غضب بالدو.. بينما قال تولاد بحدة "كيف تجرؤ على تهديد تيمار يا بالدو؟"

قال بالدو بسخرية "ليس هو فقط.. التهديد يطال من هم أهم منه بالتأكيد.."

تساءل أحد الجنود وهو يصوّب سلاحه نحو بالدو "ما هي أوامرك يا سيدي القائد؟"

قال القائد رافعاً يده "انتظروا.. لا يمكن أن نسمح بإصابة تيمار.."

ثم نظر إلى بالدو مضيفاً "ما الذي تتوقع حدوثه الآن يا بالدو؟ .. هل ستمكنك تجربتك هذه من الفرار من أيدينا؟.. استسلم فهذا أفضل لك.. وقد نتمكن من تخفيف عقوبتك لو فعلت ذلك"

أطلق بالدو ضحكة قاسية قبل أن يقول "أيها البلهاء.. انظروا لأنفسكم جيداً قبل تهديدي.."

لم يفهم أحدهم مغزى قوله، فنظروا لبعضهم البعض بحيرة عندما هتف أحد الجنود "سيدي.. ما الذي يجري هنا؟"

تعالى اللغط في القاعة بين الجنود بعصبية واضحة، بينما نظر سليم ليديه ورجفة خفيفة تعتري جسده .. رأى في تلك اللحظة أطرافه تكتسي شفافية ليست غريبة عليه.. وازداد ذلك الشعور الذي يغمره منذ مدة والذي يعيد له ذكريات سيئة.. أما ريم، فقد وقفت جانباً تراقب ما يجري بذعر واضح، وقلقها يتناهبها بين رؤية السلاح الذي يهدد تيمار، وبين الألم الشديد الذي يعتصرها بعد أن زحفت الشفافية لتغمر أغلب جسدها بسرعة كبيرة..

التفت تولاد إلى قائد الجند وهو يقول بشيء من الحدة "ما هذه المهزلة؟.. أيعجز جنودك عن إيقاف رجل واحد؟"

قال القائد مقطباً "أتريد التضحية بابنك؟"

لم يجب تولاد للحظة فيما زحف العالم حتى تهاوى قريباً منه وهو يصيح بذعر واضح "أوقفوه.. امنعوا الجهاز من إكمال التجربة.. بقيت دقائق قليلة ويتم الانتقال.."

لم يعلق شخص على قوله وكل فرد ينظر لجسده الذي بدأ يزداد شفافية ببطء أكثر من المعتاد، ثم بدأ ضجيج عالٍ يصدر في المكان والتمعت أضواء خاطفة تكاد تعشي الأبصار يتبعها هواء ساخن لفح وجوههم بحرارته.. ازداد ارتباك الجنود لما يجري في القاعة فيما انحنى سليم يعاون العالم على إيقاف النزيف من جروحه، بينما هتف تيمار "أوقفوا الجهاز مهما كان الثمن.. لا تسمحوا له بتنفيذ ما خطط له.."

أضاف العالم بصوت يائس "عليكم إيقافه الآن، وإلا فات الأوان بالنسبة لأنكاريا كلها.."

ضحك بالدو بجنون وهو يقول "وماذا ظننتم؟.. انتقامي لن يكون إلا بحجم الظلم الذي وقع عليّ وعلى آبائي.. أنتم تستحقون ذلك.."

لاحظ تيمار أن الجنود مترددون في إطلاق النار خشية إصابته، فقلّب بصره فيما حوله بحثاً عن حل بينما ازداد ضغط فوهة السلاح على رأسه وبالدو يضحك بشماتة، وتزايد الضجيج والأنوار في القاعة بشكل مزعج ومثير للتوتر.. فصاح بالدو بضحكات هستيرية "سترون.. سترى أنكاريا كلها عاقبة الاستهانة بي.. أنا الملك.. أنا....."

رغم الآلام الشديدة التي يشعر بها في أعضائه، ورغم كونه ضعيف الجسد عادة، لم يجد تيمار بداً من التحرك بمفرده.. فأمسك السلاح الموجه لرأسه ورفعه بسرعة وهو يركل قدم بالدو بقوة، ثم انحنى للأمام بشدة دافعاً بالدو الذي فقد توازنه للحظة لينقلب فوق ظهره ويسقط أمامه.. عندها تخلى تيمار عنه وقفز نحو جهاز قريب حيث رأى عدداً من المعدات اليدوية التي تركها عامل صيانة في الموقع.. فحمل تيمار مطرقة حديدية وركض بها نحو الجهاز القريب بينما اعتدل بالدو صارخاً وهو يصوب سلاحه نحوه "أيها الوغد...."

لكن قبل أن يطلق طلقة واحدة كانت عدة رصاصات تستقر في جسده من أسلحة الجنود الذين كانوا ينتظرون هذه الفرصة.. فشهق بالدو وتهاوى أرضاً على الفور والدماء تنبثق من مواضع عديدة من جسده، لكن تيمار لم يلتفت رافعاً المطرقة الثقيلة عالياً وهو يسمع ريم تهتف بذعر "لا.. لا تفعل ذلك.."

لكن تيمار لم يكن يملك ترف الانتظار، فهوى بالمطرقة بأقوى ما يستطيع نحو الجهاز الذي يهدر بقوة رغم صرخات ريم المتعاقبة وهي تصيح "لا تدمر الجهاز.. أرجوك.."

لكنها رأت المطرقة تهوي على الجهاز فينبعج بشكل واضح وتتطاير بعض أجزائه مصدراً أزيزاً قوياً وهو يهتز بعنف.. ظلت ريم تنظر للجهاز الذبيح بصدمة ودمعتان تسيلان على خديها، وقد رأت وسيلتها الوحيدة لرؤية والديها تتهشم أمامها بلا رحمة.. ظلت تهمس وهي ترى ما يجري "رباه.. لماذا فعلت ذلك؟.. لماذا؟"

وجدت سليم الذي اقترب منها يمسك ذراعها ليمنعها من الاقتراب وهي تحاول تمالك نفسها لئلا تجهش بالبكاء .. وفي

الوقت ذاته كان تيمار يوجه ضربة أخرى للجهاز بقوة أكبر بينما استمرت الأضواء تلتمع في القاعة تعمي العيون.. ومع الضربة الثالثة، صدرت فرقعة بصوت يصمّ الآذان لشدته، ثم فوجئ الجميع بانفجار محدود يندلع من الجهاز ملقياً بمن اقترب من الجنود بعيداً قبل أن يغطي كل شيء سحابة كثيفة من الدخان..

أخفت ريم رأسها بين ذراعيها وهي تنحني متفادية بعض المواد التي تطايرت، بينما أحاطها سليم بذراعيه بانتظار عودة الهدوء للقاعة.. ولما انتهى كل شيء، والدخان يزكم الأنوف، استطاع الجميع العودة لمواقعهم وهم يتأملون الخراب الناتج عن الانفجار.. بدأت الأجساد تستعيد ماديتها بسرعة كبيرة، واختفت تلك الذبذبات التي ملأت الصدور بضيق ورجفة كريهة.. عندها تنهد سليم وهو يقول بصوت لم يملك رجفته "حمداً لله.. لقد تمكن تيمار من إيقاف الجهاز قبل إتمام الانتقال.."

وقفت ريم في موقعها تنظر بارتجافة لكل الخراب الذي حدث في المكان، ولرؤية المصابين من الجنود الذين وصلها أنينهم بوضوح.. ثم اندفعت نحو الجهاز بقلب واجف حتى رأت ذلك الجسد الذي سقط غير بعيد عنه.. جَثَت ريم قرب تيمار الذي سقط أرضاً بدوره وعدة بقع من الدماء تنتشر في ملابسه وتبلل شعره الأشقر بينما هو يقاوم الغيبوبة بصمت.. فقالت ريم بجزع وهي ترى جراحه البالغة "أأنت بخير؟ هل تستطيع الوقوف؟.. يجب أن نحضر من يعالجك.."

حاول تيمار الاعتدال جالساً وهو يكتم أنينه، لكنه سرعان ما تهاوى أرضاً من جديد والغيبوبة تزحف سريعاً على وعيه بينما يلمح من بين الغشاوة التي غطت بصره ريم تصيح فيمن حولها "ألا يوجد هنا طبيب؟ ساعدوا تيمار.. إنه يفقد الكثير من الدماء.. أرجوكم ساعدوه.."

ولمح تيمار في الجهة الأخرى تولاد واقفاً ينظر إليه بصمت.. لكن ما تبادر لذهنه والغيبوبة تعصف برأسه بشدة أن تولاد بدا مرتعباً.. بدا مذعوراً بشدة لم يرها عليه سابقاً، ولا يعلم تيمار السبب الذي يجعل تولاد المشهور ببروده الشديد يظهر هذه المشاعر الواضحة..

لا يعلم تيمار كم استمر صياح ريم.. لكن كل ما عرفه أنه، لشدة الألم الذي عصف به، لم يتمنّ عودة الوعي إليه في تلك اللحظات..

****

الفصل الثامن عشر « هذا قراري، سواءً أعجبني أم لا.. »

بعد ما جرى مع مساعد داميت المدعو بالدو، وبعد أن تحطم الجهاز الناقل بين العوالم الموازية، تم نقل الجرحى الذين أصابهم انفجار الجهاز خارج القاعة، بمن فيهم تيمار الذي كان أسوءهم إصابة.. وفي الآن ذاته تم إطلاق أعضاء المجلس الذين حبسوا في قاعة الاجتماعات في الطابق العاشر.. وعلى الفور كان داميت وبقية الأعضاء قد وصلوا للقاعة التي جرت فيها الأحداث الحاسمة، والتي لا تزال جثة بالدو تفترش أرضيتها، وقد بدا داميت عصبياً بشدة بعد تلك التجربة.. وفور أن رأى تولاد صاح في وجهه بغضب شديد "أرأيت ما يمكن لتجاربك تلك أن تفعل؟.. لو أنك لم تخالف قوانين أنكاريا.. لو أنك لم تضرب بتحذيراتنا عرض الحائط....."

قاطعه تولاد قائلاً بحدة بدوره "هذا الخطر جاء من جهتك أنت يا داميت.. ألم تدرك يوماً أن ذلك الشاب الذي يعمل لديك غير طبيعي البتة؟.. كيف تحاسبني على ما لم تدركه أنت؟.."

ظل الإثنان يتجادلان بعصبية لفترة طالت، وفي الوقت ذاته تمكن رئيس المختبرات وسط المعمعة التي حصلت من الدخول للمبنى والاقتراب من الجهاز الذبيح.. ومن بين العصبية التي دارت بقوة في المكان، كان صياحه هو الأعلى وهو يتذمر بهلع متناولاً ما تناثر من قطع الجهاز "لماذا فعلتم كل هذا؟.. كان يكفي إغلاق الجهاز أو قطع الكهرباء عنه لإنهاء تلك التجربة.. عمل سنوات وسنوات وخبرة عشرات العلماء قد ضاعت في دقائق.. تباً لكل هذا.."

جلست ريم في جانب المكان وهي تغمض عينيها بقوة ودموعها تسيل بصمت، بينما سليم يركع قربها ويضمها بقوة قائلاً "كفاك يا ابنتي.. لا داعي لكل هذا الحزن.."

فقالت من بين نحيبها الصامت "لقد دمروا فرصتي الوحيدة.. دمروا أملي الوحيد بالعودة ورؤيتهما.. فما الذي سأفعله الآن؟"

قال سليم وهو يربت على رأسها "لكنهم حقنوا دماء الآلاف ومئات الآلاف بهذا التصرف.. عليكِ أن تكوني شاكرة لذلك.. أم أنك كنتِ تفضلّين الحصول على سعادتك محمولة على دماء شعب بأكمله؟"

هزت رأسها نفياً وهي تواصل الانتحاب بصمت.. رغم أنها لم تُرِدْ أن يصاب شخص بأذىً بسببها، لكن ما جرى كان أكثر مما قد تقدر على احتماله.. فهل يمكنهم لومها إن غرقت في البكاء بيأس؟..

بعد بعض الوقت، تركها سليم بوعد منها أن تكفّ عن البكاء، فلزمت ريم موقعها وهي تراقب الجهاز المشوه بعينين دامعتين.. شعرت بغصة شديدة في حلقها وهي ترى وسيلتها الوحيدة للرحيل قد دمّرت تماماً.. وتشك أن يقوم تولاد بصنع واحد جديد لتستخدمه، أو أن يسمح له المجلس بذلك حتى لو أبدى تولاد موافقته..

دفنت وجهها بين ذراعيها وهي تسمع اللغط من حولها بعد أن غادر سليم لرؤية ما يجري بين أعضاء المجلس بخصوص سهم ويعقوب اللذان سبق وقبض عليها بتهمة إثارة الشغب.. ظلت ريم صامتة حتى شعرت بيد تلمس كتفها وصوت سهم القلق يقول "ريم.. أأنت بخير؟.. هل أصابك مكروه؟"

نظرت له ريم بصمت، فلاحظت على الفور بضع كدمات على وجهه، وإزاء نظراتها القلقة قال بابتسامة "حسناً.. جنود أنكاريا ليسوا بالرقة التي قد يتخيلها المرء.. لكن الأمر لم يتعدّ بضع لكمات.. ورصاصة واحدة في الساق.."

فهمست ريم وقد تزايد قلقها وهي تلمح ساقه التي ربط جرحها كيفما اتفق "أأنت بخير حقاً؟"

أجاب سهم "لا تقلقي.. كل هذا يعتبر شيئاً لا يذكر بالنسبة لي.."

لاحظ في ذلك الوقت الدموع في عينيها، فتساءل بقلق "ما بالك؟.. أأنت حزينة لما أصاب تيمار؟"

وأضاف بشيء من الابتسامة "أم أن هذه الدموع لرؤية وجهي الذي شوّهته الكدمات؟"

لم تبتسم ريم لدعابته وهي تقول بصوت متهدج "لقد حطموا الجهاز بشكل تام .. غدا رحيلي من هذا العالم مستحيل تماماً.."

فقال سهم عابساً "وخيراً فعلوا.."

نظرت له ريم بأسى ودموعها تنحدر على خديها، ثم أخفت وجهها بين ذراعيها وهي تهمس "كيف يمكنك قول ذلك؟"

أمسك سهم كتفيها وقال برجاء "ريم.. أنا أحبك، ولا أتمنى رؤيتك ترحلين.. هل يجب عليّ أن أقول هذه الكلمة صراحة حتى تفهميني؟.."

نظرت له ريم بشيء من الدهشة، ثم خفضت وجهها وهي تقول "لكني أعلم ذلك بالفعل.."

بهت سهم للحظة قبل أن يسألها بدهشة "منذ متى؟"

قالت وهي تمسح دموعها "ربما منذ البدء..."

صمت سهم وهو يغطي وجهه بيد محاولاً تمالك الحرج الذي شعر به فجأة، ثم التفت إليها قائلاً بإصرار "إذن لا ترحلي يا ريم.. ابقي معي.."

خفضت ريم رأسها وهي تهمس "آسفة.."

نظر لها سهم بغير تصديق وهو يتساءل "ماذا تعنين؟ ألا يكفيكِ كل ما قلته؟.."

حاولت تمالك انفعالها وهي تهمس بتهدج "أنا آسفة.."

لم يكن قولها يحتاج لتفسير، فأفلتها سهم وهو ينظر لوجهها بغير تصديق، ثم وجدته ينهض بصمت ويستدير مغادراً القاعة دون أن يلتفت خلفه ولو لمرة واحدة.. ظلت ريم تراقب رحيله بدهشة يغلبها شيء من الأسى.. ثم عادت ببصرها للجهاز الذي لم يبقَ من معالمه السابقة الشيء الكثير.. ظلت تحدق به وأفكارها تسرح لعوالم أخرى، حتى سمعت صوت

سليم يقول لها وهو يقترب "ما الذي تفعلينه؟.. أتأملين أن يعود الجهاز للعمل بمعجزة؟"

رأته يقترب حتى جلس قريباً منها، فغمغمت ريم وهي تعود ببصرها للجهاز "أهذا مستحيل؟"

أجاب سليم "لا يبدو هذا متاحاً.. لكن علينا سؤال رئيس المختبرات لنقطع الشك باليقين.."

قالت ريم برجاء "هل ستطلب منهم إصلاحه؟ يجب أن يفعلوا.. ليس من حقهم منعي من الرحيل.."

علق سليم قائلاً "أتمنى ذلك، لكن المشكلة ليست في إصلاح الجهاز بقدر الخوف من معارضة المجلس على ذلك.. ويكفي ما حدث اليوم.."

نظرت له ريم بقلق، فربت على رأسها وهو يقول "لا تقلقي.. سأحاول المستحيل لنعيدك لعالمك.."

سمعوا صوت تولاد يقول محتداً "ما الذي تظن نفسك فاعله يا هذا؟.. ابتعد عن سانا.."

التفتوا خلفهم ليروا تولاد يتقدم منهم بسحنة غاضبة بعد جداله العصبي مع داميت، وزادته رؤية سليم قرب ريم عصبية.. عندها قال سليم "هل ستحاول عرقلة رحيلها من جديد؟"

قبل أن يتفوه تولاد بكلمة نهضت ريم وقالت له بغضب شديد "لا يحق لك.. أنت لست أبي ولم أعتبرك يوماً كذلك.. لو حاولت إبقائي هنا فسألقي بنفسي من فوق سور أنكاريا ولن تعثر إلا على أشلاء جسدي.. فهل هذا ما تريده؟"

نظر لها تولاد بشيء من الصدمة بينما قالت ريم بعصبية "كف عن التدخل في حياتي.. كف عن التحكم بي.. كف عن وضع نفسك في موضع الأب الذي لم أرغب به بتاتاً.."

لدهشة سليم، بقي تولاد واقفاً ينظر لريم بوجه متغير وعصبية تزداد، لكن بدل مجادلتها أو إجبارها على الرحيل معه كما كان سيفعل عادة، فإنه استدار وغادر بخطوات حادة دون أن يتفوه بحرف واحد..

بقيت ريم واقفة ترتجف لشدة غضبها، فربت سليم على كتفها لتهدأ قليلاً، قبل أن يسألها بشيء من القلق "أكنت عازمة على إلقاء نفسك من فوق السور حقاً؟"

قالت بشيء من الضيق "طبعاً لا.. هل صدقت ذلك؟"

صمت سليم وهو يدور ببصره في القاعة التي احتشدت بأشكال عديدة من البشر، ثم قال لريم "تعالي معي.. لا ضير من المحاولة.."

شعرت ريم بشيء من اللهفة وهي تتبعه بقلب خافق متجاوزين العديد من الجنود وموظفي مجلس الحكماء قبل أن يقترب سليم من رئيس المختبرات الذي يندب جهازه، وقال له "هل يمكن إصلاح هذا الجهاز في وقت قريب؟"

قال الرئيس بعصبية "ألا ترى ما حلّ به؟.. هذه مأساة"

قال سليم دون أن ييأس "مهما يكن، يمكنك إصلاحه بلا ريب.. شخص في مثل خبرتك وبكتيبة العلماء الذين يتبعونك يمكنك إصلاح الجهاز في وقت قصير بالتأكيد.."

نظر له الرئيس بعصبية وهو يقول "ألا تدرك أين نحن الآن؟؟ هل تتوقع بعد كل ما جرى أن يسمح لنا المجلس باستعادة الجهاز بل وإصلاحه؟"

سمعوا صوت داميت يقول بعصبية "لا يمكنني أن أسمح بذلك بالطبع.."

نظرت له ريم بشيء من اليأس بينما قال داميت عاقد الحاجبين "أتريد تكرار هذه المأساة من جديد؟.. كما توقعت، سقط الجهاز بيدٍ أساءت استخدامه، فماذا لو كانت المرة القادمة ستأتي بأعدائنا إلى هذا العالم؟"

قال سليم بحزم "يبدو أنك تملك فكرة خاطئة عن هذا الموضوع.."

نظر له داميت مقطباً، فقال سليم "لماذا لم يحاول أولئك الأعداء الانتقال لهذا العالم منذ سنين رغم تعدد التجارب التي قام بها تولاد؟.."

وإزاء صمت داميت، أجاب سليم بنفسه قائلاً "لا أظن أن ذلك العالم يملك أجهزة للنقل بين العوالم الموازية بتاتاً.. وإلا ما الذي منعهم من ذلك طوال تلك السنين؟.. ألا يطمئنك هذا ولو قليلاً؟"

قال داميت بحدة "لكن هذا ليس مؤكداً.. ماذا لو كانوا عاجزين عن تحديد موقعنا فقط؟.. عندها تكفيهم إشارة منا لتدلّهم علينا بكل سهولة.."

أكمل سليم قائلاً "لقد قام تولاد بعدد لا يحصى من تلك التجارب طوال سبعة عشر عاماً، ألم يكفهم ذلك؟.. خوفكم هذا لا مبرر له برأيي.. ثم يمكنك تدمير الجهاز بعد إعادة ريم لعالمها، لكي لا يسقط الجهاز في أيدي تسيء استخدامه.."

خفتت معارضة داميت قليلاً، لكنه ظل متشبثاً برأيه بعناد، فتدخل الرئيس وقد أصابه انزعاج من اقتراح سليم الأخير قائلاً "ماذا لو خففنا الذبذبات المغناطيسية الناتجة عن التجربة وحددنا مسارها بدقة أكبر؟.."

التفت إليه الجميع، فأضاف "منذ محاولتكم مصادرة الجهاز الأول، راودني خاطر أن هذا التغيير سيحلّ المشكلة.. أنتم لا تريدون للتجربة أن تدلّ على موقع أنكاريا، ونحن يمكننا تحقيق ذلك.. إذن ما المشكلة التي تعيق تجربتنا هذه؟"

ظل داميت صامتاً عاقد الحاجبين، ثم قال وهو يشدّ جسده "يجب أن تكون الموافقة على هذا بالإجماع بين أعضاء مجلس الحكماء.. لن أستطيع تقرير ذلك وحدي.."

فقال سليم بابتسامة "أيعني هذا أنك تعطينا موافقتك الجزئية؟"

بدا الارتياح على وجه ريم، بينما قال داميت بصرامة "أنا لا أعطي موافقتي بمنأى عن المجلس بتاتاً.."

ثم أضاف وهو يقف "لكن هذا لا يمنع أن تستمروا في عملكم حتى يصلكم القرار.."

وقبل أن يعلق أحدهم قال بشيء من الحدة "لكن سيتمّ كل هذا في مبنى المجلس، وسيتم بإشرافي أنا شخصياً.."

عندها قال الرئيس بحماس "رائع.. إذن نبدأ منذ اليوم.. أمامنا عمل كثير ولا نعلم كم سنستغرق لإصلاح الجهاز بشكل آمن للاستخدام.."

تساءل سليم "ألا تريد معاونتي؟.. يمكنني أن أمد يد المساعدة إن احتجتها.."

لوح الرئيس بيده قائلاً "لديّ من المعاونين ما يكفي لهذا العمل.. كل ما أريده هو إخلاء هذا المكان والكفّ عن إزعاجنا.. لا أريد أي شيء آخر منكم.."

ثم توقف فجأة وهو يتساءل بقلق "ماذا عن سيدي تولاد؟ ألن يعارض إجراء التجربة على الفتاة؟"

قالت ريم بتوتر "لست أدري.. هو لا يريد مني الرحيل، وقد يمنع ذلك بأي طريقة.."

فقال سليم "سنحاول تدبر أمره.. وأتمنى ألا يتدخل هذه المرة.."

صمتت ريم وهي تفكر في أمر تولاد.. ما الذي تستطيع فعله لتمنع تدخل الآخرين في قرارها هذا؟.. ليت الأمر يمكن حله ببضع كلمات..

****

فتح تيمار عينيه عندما سمع صوت الباب يطرق بخفوت قبل أنه يفتحه الطارق دون انتظار إجابة.. لكن تيمار لم يتحرك من موضعه حيث استلقى على سريره الوثير الواسع وهو يشعر بآلام في موضع إصاباته رغم مرور يوم كامل على تلك الحادثة ورغم أنه حظى برعاية صحية فائقة من أفضل أطباء أنكاريا بطلب من تولاد.. رأى تيمار ريم تتقدم من السرير، ولما وقفت قربه لاحظت أنه أدار وجهه متطلعاً للسقف بصمت، فقالت "أمازلت تكرهني؟"

لم يعلق تيمار أو ينظر لوجهها، فتابعت بصوت متهدج قليلاً "رغم أنني لاحظت كرهك لي منذ البداية، إلا أنني صدمت لمعرفة أنك كنت تساعدني وتساعد سليم منذ البدء.. حاولت أن أفهم سبب كرهك لي، ولم يزدني معرفة ما جرى منذ ما قبل ولادتي إلا حيرة.. لو أنك كنت تكره ما فعله أبي، ولو أنك كنت تكره أمي، فما ذنبي أنا؟"

غمغم تيمار "وما ذنبي أنا؟"

ظلت ريم ترمقه بصمت، بينما أضاف تيمار دون أن ينظر باتجاهها "لقد قضيت طفولتي وحيداً بعد أن تخلص أبي من أمي بدعوى أنها تنجب أطفالاً معاقين.. حرمني منها دون أن يستوثق من الاتهامات التي أطلقها عليها.. رباني بعدها تربية قاسية متشددة على أمل أن أنضمّ لمجلس الحكماء في سنّ صغيرة وأعينه على إدارة الأمور كما يحب ويشتهي.. أجبرني على معاملة زوجته الجديدة كأم لي رغم بغضي لها ولتصرفاتها.. أخبرني مراراً وتكراراً عن أمنيته أن يُرزق بأطفال أصحاء متناسياً أنني ابنه، وأنني صحيح معافى كما يتمنى.. وهذا أشعرني أن وجودي لا قيمة له عنده حقاً.. فكيف لا ألومك وأنا أراه يبذل كل ما يملكه لأجلك شبه متناسٍ لوجودي؟.."

ظلت ريم تنظر له وهي تحاول تمالك نفسها لئلا تنفجر باكية.. هل عانى من كل هذا في صغره؟.. لا عجب أن يكون بارد

المشاعر غير قادر على التفاعل مع من حوله.. لكن هل كان كرهه لها هو ما يدفعه لإعادتها للعالم الآخر؟.. أكان يريد التخلص منها؟.. تجرأت لطرح السؤال عليه وهي تغمغم "أكنت تنوي إعادتي للعالم الآخر للتخلص مني ومن وجودي في عالمك؟"

ابتسم تيمار بجانب فمه وهو يقول "هناك وسائل أخرى تمكنني من التخلص منك دون أن أبدو كخائن أمام أبي.."

فقالت بإلحاح "إذن لماذا؟.."

نظر إليها بعينيه الهادئتين ذات البرود الواضح وهو يقول "كما أخبرتك سابقاً.. لم أستطع تجاهل ما فعله أبي، ولم أستطع نسيان تلك الفتاة التي ظلمها أبي لمجرد أنها شبيهتك.. كان ذلك أكبر من طاقتي ومن تحملي.."

خفضت ريم وجهها بصمت وهي تفكر في قوله، بينما أضاف تيمار بهدوء "لقد تحمّلت الكثير من ظلمه ومن تصرفاته طوال سنين، لكني كنت أذكّر نفسي أني ابنه، وله حق عليّ.. لكن أن يطال ظلمه طفلة بريئة بلا ذنب؟.. هذا ما دفعني للخروج عن صمتي الدائم.."

مدت ريم يديها وأمسكت يده القريبة منها بقوة وهي تقول "رغم كل ذلك.. أرجو أن تغفر لي ما لم أفعله حقاً.. أرجو أن تحاول، ولو قليلاً، اعتباري كأخت لك.. وأنا أفخر بك كأخٍ لي.."

نظر تيمار لعينيها محاولاً معرفة الصدق في حديثها من الكذب، فأضافت ريم "أنا راحلة، ولست أعلم إن كنت سأتمكن من العودة أم لا.. لكن حتى يتحقق ذلك، أتمنى ألا تضيق بي.. أتمنى أن يبقى جزء ولو صغير في قلبك يرغب بوجودي.. فهذا سيسعدني أيما سعادة.."

غمغم تيمار "أأنت واثقة من عزمك على الرحيل؟"

ابتسمت ريم مجيبة "أليس هذا ما كنت تتمناه دائماً؟.."

غمغم تيمار "ليس أمنية بالخلاص منك، لو كان هذا ما ظننتِه.."

فاتسعت ابتسامة ريم وهي تقول "لا شيء يسعدني أكثر من سماع ذلك.."

ثم قالت بعد لحظة صمت "هل أستطيع الحصول على هذه الصورة؟"

نظر تيمار لها، فرآها تمسك الصورة التي احتفظ بها لشبيهتها.. لا يدري تيمار سبب احتفاظه بتلك الصورة، ربما كانت مشاعر الذنب لما جرى للطفلة، أو لأسباب أخرى لا يعلمها هو نفسه.. فقال بهدوء "يمكنك الاحتفاظ بها.. فبرحيلك، يكون كل شيء قد انتهى أخيراً.."

أزالت ريم الصورة من إطارها وتطلعت لها مطوّلاً.. ثم همست "أتعلم؟.. أملك أرنباً قطنياً مشابهاً لهذا هو لعبتي المفضلة، إلا أنه وردي اللون.. يبدو أننا متشابهتان بالفعل.."

غمغم تيمار وهو يعود ببصره للسقف "ما الذي تقولينه؟ أنتما شخص واحد.."

أخفت ريم الصورة في ملابسها، ثم أمسكت يد تيمار وشدّت عليها وهي تقول "آسفة لأنك أصبت بسبب محاولتي الوصول لذلك الجهاز.. سأبقى في القصر حتى تعود لك عافيتك.. فهل تسمح لي بمناداتك يا أخي؟"

غمغم تيمار "افعلي ما يحلو لك.."

تلألأ وجه ريم بشكل ظاهر، فقالت وهي تتراجع خطوة "رائع.. سأتركك ترتاح قليلاً.. وسأعود للاطمئنان عليك فيما بعد.."

وغادرت الغرفة وهي تغمغم بسعادة "سيكون سليم سعيداً جداً بمثل هذا الخبر..."

نظر لها تيمار وهي تغادر وابتسامة صغيرة تتسلل إلى شفتيه، قبل أن يتدارك نفسه ويعود لتهجمه وهدوئه المعتاد مغمغماً لنفسه "يا للملل.. كم أنا بحاجة لكتاب يسلّيني الآن.....!"

****

بعد مغادرتها جناح تيمار، وقفت ريم مطولاً مترددة فيما عليها فعله.. كانت تودّ التحرك ولو قليلاً لأجل تيمار، لكنها لا تعلم إن كانت ستنجح في ذلك أم ستزيد الأمور سوءاً.. لكن في النهاية عقدت عزمها وتوجهت لجانب آخر من القصر، سائلة من تمر بهم من الخدم عن وجهتها، حتى وصلت أمام باب آخر أكثر فخامة من غيره.. طرقت الباب بعد تردد شديد، ولما حصلت على استجابة ممن يقطن ذلك الجناح، فتحت الباب وسارت عبر الجناح الذي لا ينيره إلا نافذة واحدة أزيحت ستائرها بحيث يبدو النور الداخل عبرها مركزاً في بقعة واحدة.. ووسط تلك البقعة، جلس تولاد على كرسي وثير دون أن يفتح عينيه..

وقفت ريم قربه تتأمل الشحوب الواضح في وجهه والذي بدا لها أسوأ مما سبق، والكآبة التي حامت كهالة حول رأسه، ثم غمغمت "لمَ تحبس نفسك في هذا المكان؟.."

فتح تولاد عينيه بحدة ونظر إليها، ثم قال "لم أتوقع رؤيتك هنا بتاتاً.. ما الذي تريدينه؟"

قالت ريم متعجبة "ألم تعد تريد رؤيتي بتاتاً؟"

قال تولاد دون أن يجيب تساؤلها "ألم ترحلي مع أولئك البدائيين؟"

ابتسمت ريم بجانب فمها قائلة "في البدء، هم ليسوا بدائيين.. ثم إنني أنتظر إصلاح الجهاز الناقل، لأتمكن من الرحيل حقاً.."

فغمغم تولاد مقطباً "إذن، أنت عازمة على الرحيل؟"

نظرت له بشيء من التعجب وتساءلت "ألن تثور وتحاول منعي من ذلك كالعادة؟"

أشاح تولاد قائلاً "لم يعد هذا مهماً بعد أن فقدت كل شيء.. فقدت ابنتي التي ترفض الاعتراف بي أباً.. ومنصبي الذي قضيت ما يقارب العقدين فيه.. ومكانتي التي بنيتها طوال سني عمري بصبر وأناة.. كما فقدت قبلاً زوجتي وحياتي المستقرة.. وفقدت المختبرات التي رعيتها سنوات طوال.. فما الذي تبقى لي؟"

جلست ريم جانباً متسائلة "الغريب أنك لا تذكر تيمار بتاتاً.. أليس ابنك؟ ألا يهمك أبداً؟"

لم يجب تولاد وهو ينظر من النافذة بصمت، فقالت ريم بإلحاح "إنه ابنك الأكبر.. وقد نشأ كما أردتَ له بالضبط، أليس كذلك؟.. كان عليك أن تفخر به، لا أن تعامله كشيء مهمل في قصرك.. كشيء يؤدي الغرض منه دون اهتمام بمشاعره وبإرادته بتاتاً.."

قال تولاد عاقداً حاجبيه "إذن لماذا خانني بكل ما فعله؟"

قالت ريم "ليست خيانة.. كان يريد إعادة الأمور لنصابها، ويريد ألا تستمر في الخطأ الذي ارتكبته منذ سبعة عشر عاماً.. لا يريدك أن تُكوى بنار الذنب بعد أن تدرك كم شخصاً ظلمت في سبيل الحصول على ما تريده.."

ظل تولاد صامتاً دون أن يُظهر انفعالاً على وجهه، فأضافت ريم برجاء "مهما كان ما فقدته، فلا تنسَ أن لك ابناً محباً ظل ملازماً لك طوال تلك السنوات رغم قسوتك معه.. حاول رؤيته كما هو حقاً، لا كما تحب له أن يكون.. عندها قد تجد التعويض في صحبته، وهي خيرٌ من كل ما فقدته.."

ظل تولاد مطرقاً زمناً طويلاً وأفكار عديدة تجول في عقله.. تذكر منظر تيمار المضرّج بدمائه.. تذكر نظراته الصامتة إليه قبل أن يفقد الوعي.. وتذكر الرعب الذي أصابه وهو يرى ابنه يُحمل حملاً وخيط من الدماء يتبعه بغزارة.. عندها زفر وهو يقول بضيق "فات الأوان على هذا.. لقد طردته، ولا يمكنني أن أتراجع عن هذا الآن.."

قطبت ريم وهي تقول بحدة "لم يكن لك الحق بطرده، ولك أن تفخر بتراجعك عن قرار مشين كهذا.. ألست أباً؟"

فاجأتها ضحكة قصيرة من تولاد قبل أن يقول "طوال السنوات الماضية سمعت الكثيرين ممن يتهمونني بأنني لا أستحق أن أكون أباً، والآن أجد من يطالبني بأن أكون كذلك للمرة الأولى.. ألم يفت الأوان على لعبي لهذا الدور؟"

تنهدت ريم قبل أن تقول "أنت أبٌ مهما استنكر الجميع ذلك.. ألم تقل لي إنك حاربت الدنيا كلها لأجلي؟.. ما الصعوبة في أن تحارب نفسك لأجل ابنك الوحيد؟.. لماذا تلاحق شيئاً وأنت تملك ما هو أفضل منه؟"

نظر لها تولاد بصمت وتعابير متباينة، ثم خفض وجهه وظل صامتاً بظهر محنيّ وريم صامتة بدورها بانتظار أي تعليق منه.. ثم وجدته ينظر لها محاولاً الاحتفاظ ببروده وهو يهمس "هل أستطيع مناداتك بسانا؟.."

غمغمت ريم بعد لحظة صمت "ما معنى هذا الاسم؟.. أنت تكرره بإلحاح منذ رأيتني.."

قال تولاد "سانا تعني الضياء.. أي السّنا باللغة العربية.."

رفعت ريم حاجبيها وهي تتأمل ملامح تولاد.. بدا لها الاسم جميلاً بشدة، بحيث شعرت أنه لا يليق بها.. ربما كان تولاد

يحبها حقاً، كما أوضح لها مراراً وتكراراً، وكما بيّن لها بكل ما فعله منذ ولادتها.. لكن، هل يغفر له هذا كل شيء؟..

تنهدت وهي تقف وتنظر من النافذة للحديقة التي استسلمت لضوء الشمس الغاربة وسكنت كما كل شيء في المدينة مع اقتراب الليل، ثم غمغمت "ربما أستجيب لهذا الاسم في يوم ما.. لكن ليس الآن، ليس قبل أن أنهي ما بدأتَه أنت مع والديّ.."

فغمغم تولاد "لكن على الأقل، ابقي في القصر حتى ذلك الوقت.."

ابتسمت ريم شيئاً ما ثم التفتت إليه مضيفة "لا بأس.. لكن عليك أن تقنع بما حصلت عليه حتى الآن.. وسليم سيبقى معي في القصر أيضاً.."

خفض تولاد بصره دون اعتراض ودون تذمر كعادته.. وهذا أدهش ريم أكثر من أي أمر آخر.. ربما تغيرّ تولاد حقاً، أو ربما هو يريد هذا التغيير بالفعل.. وتشعر وهي تراه محنيّ الظهر أمامها أنها لا تكرهه حقاً.. هو لم يسعَ للإضرار بها.. لكنه فعل دون أن يقصد ذلك..

بعد ذلك، وقبل أن يخلد تيمار للنوم تلك الليلة وهو يؤخر تلك الساعة بمطالعة بعض الكتب التي تكدست جواره، سمع طرقات على باب جناحه.. فسمح للطارق بالدخول ظناً منه أنه الخادم الذي أرسله لإحضار المزيد من الكتب من مكتبة القصر.. لكنه فوجئ بصوت تولاد يقول له بهدوء "مازلتُ حتى الآن لا أدرك سبب هوسك بهذه الكتب.. أتظن أن مطالعة كل تلك الكتب ستعجّل من شفائك؟"

دهش تيمار لرؤية أبيه في جناحه، وهو فعلٌ لم يقم به تولاد منذ تجاوز تيمار العاشرة من عمره.. لكن لم يعلق وهو يعتدل في فراشه وينظر لأبيه بصمت وشيء من التوجس.. هل جاء ليطرده من جديد؟.. عند استيقاظه، دهش تيمار لدى رؤية معالم جناحه من حوله.. ظن أن تولاد سيرفض عودته لهذا القصر حتى لو كان جريحاً.. لكن ربما كانت هذه العودة مؤقته وها قد جاء تولاد ليؤكد على قراره السابق بطرده من القصر ومن عائلته بشكل تام..

بعد أن طال الصمت، ابتسم تولاد شيئاً ما وهو يعلق "لا داعي لكل هذا التوجس الظاهر في عينيك.. إنما هو سؤال لا معنى له.. لكن حقاً.. ما سبب هوسك بكل تلك الكتب؟"

صمت تيمار وهو متردد بالإجابة دون أن يفهم مغزى السؤال، ثم قال وهو يقلب الكتاب بين يديه "ألا تذكر ذلك اليوم الذي اقتدتني فيه للمكتبة لتقرأ لي مذكرات جدي الأكبر بيناد؟.. ربما كانت تلك اللحظة هي التي اكتشفت فيها أنني أريد أن أقرأ.. أن تلك الكتب تحوي عالماً شاسعاً أريد سبر أغواره.."

ثم أضاف وهو ينظر لتولاد "والغريب أنك أنت لم تعد تذكر شيئاً من ذلك"

تنهد تولاد وهو يخفض رأسه لوقت رآه تيمار طويلاً.. ثم نهض فجأة ونظر من النافذة مديراً ظهره لتيمار، رغم أن الظلام بالخارج يجعل من العسير رؤية أي شيء.. احترم تيمار صمته وهو يصمت بدوره متشاغلاً بالكتب القريبة منه، حتى سمع

تولاد يقول "بني.. أعلم أنني لم أقم يوماً بدور الأب بشكل كافٍ بالنسبة لك.. وأعلم أنني تصرفت معك بوحشية في ذلك اليوم.. وأنا نادم لكل ذلك الآن.. نادم لأنني فكرت بطردك.. ونادم لأنني لم أولك الاهتمام الكافي طوال سني عمرك.."

نظر تيمار لظهر أبيه بدهشة مذهولة وقد عجز لسانه عن التعليق على هذا القول، فاستدار تولاد إليه قائلاً بحزم "لكني لم أتعمد إهمالك كما قد تظن.. كنت أثق بك.. وثقت بك أكثر من أي شخص آخر، ووثقت أنك لن تخيّب ظني في أي يوم من الأيام.. وأنت كنت شاباً قوياً.. لذلك شعرت أنني لست بحاجة لأن أحيطك برعايتي واهتمامي.."

خفض تيمار عينيه متجاوزاً انفعاله وتولاد يضيف "أعلم أنك قد أصبحت رجلاً يمكنني الاعتماد عليه، ولم تعد هذه الأشياء تهمك.. لكنني أشعر أنني مدين لك بالاعتذار، سواء قبلت هذا الاعتذار أم لا.."

فقال تيمار "لا يمكنني ألا أقبل اعتذارك هذا يا سيدي.. فهذا أمر قد لا أسمعه إلا مرة واحدة طوال حياتي، لذلك وجب عليّ قبوله بالتأكيد.."

ابتسم تولاد لتعليق تيمار قبل أن يقول "لا أفهم لمَ قد ينادي الابن أباه بلقب سيدي.. هل طلبت منك هذا في يوم من الأيام؟"

قال تيمار بسرعة "لا.. إنما هو تعبير عن احترامي لك ولمكانتك.."

فغمغم تولاد "هذا يسعدني قطعاً، لكني أفضل لقب أبي بالطبع.. لماذا يصر الجميع على أنني لا أستحق هذا اللقب؟.. أنت وسانا.. كلاكما ترفضان مناداتي به.."

أسرع تيمار يقول "ليس الحال هكذا بتاتاً.."

علق تولاد بلهجة مريرة "لقد فقدت كل هدف لي في هذه الحياة، على الأقل لا تجعلني أشعر أنني خسرت أبوّتي لكما.."

نظر تيمار لوجه أبيه بصمت، ثم قال "لكن هذا لا يعني أن تستسلم لواقعك هذا"

نظر له تولاد بدهشة، فقال تيمار "يمكنك أن توجه جهودك لجهة أخرى أكثر استحقاقاً من مجرد مكسب شخصي لك.."

فقال تولاد "وما هو هذا الشيء؟"

اعتدل تيمار قائلاً "يمكنك أن تسعى لتغيير أنكاريا، وتغيير هذا العالم.. يمكن للعالم أن يستفيد من أنكاريا، كما استفاد شعب أنكاريا من هذا العالم.. ما الذي يمنع أن تنتهي العزلة التي فرضها أجدادنا علينا ونبدأ بالتعاون مع القرى؟.. ما الذي يجبرنا على الصمت ونحن نرى ما يعانيه هذا العالم البدائي؟.."

قال تولاد مقطباً "لقد فرض أجدادنا هذه العزلة لحماية شعبنا.. ما واجهناه سابقاً كان كافياً لتعليمنا درساً قاسياً.. ولا نريد تكرار ذلك.."

هز تيمار رأسه قائلاً "هذا العالم يختلف عن ذاك.. هذا العالم آوانا في قلبه، ومنحنا الأمان لمائة عام المنصرمة.. ما الذي يجعلنا نتشبث بنكران الجميل الذي تحلّى به أجدادنا؟.. علينا أن نبذل جهدنا لتحسين أحوال أهل القرى، وهم سكان هذا

العالم الأصليين.. وسنظل دوماً الأسبق، والأقدر على حماية أنفسنا من أي خطر.. لكن الانطواء على أنفسنا بهذه الصورة لم يلغِ الخطر الذي واجهه عالمنا هذه الأيام.."

فغمغم تولاد بغير اقتناع "هذا مستحيل.. الشعب كله سيرفض ذلك.."

ابتسم تيمار معلقاً "لا.. لا شيء مستحيل أبداً.. وبخاصة لشخص مثلك..... يا أبي.."

ظل تولاد يحدق في وجه تيمار للحظات طالت حتى شعر تيمار أنه أثار غضبه بهذا اللقب، لكن تولاد ابتسم فجأة ابتسامة متسعة وهو يقول "ربما كان ما تقوله يحمل شيئاً من الصحة.. لكن ما تتمناه لن يتحقق سريعاً.. وقد لا يتحقق في ما تبقى لنا من حياة على هذه الأرض.."

ابتسم تيمار بدوره قائلاً "لا بأس.. أنا راضٍ بأي نتيجة حتى لو كانت طفيفة.. وستجدني معك دائماً.."

****

في تلك الليلة، وقفت ريم في موقع منزوٍ من الحديقة تراقب ما بدا أمامها من أنكاريا.. كانت الأنوار المتفرقة للمدينة لا تكاد تبدو والضباب الخفيف يغلف كل شيء، بينما هبّت نسمة خفيفة بين وقت وآخر وهي تدفع الضباب أمواجاً أمامها والأشجار تصدر حفيفاً هادئاً مريحاً للأعصاب..

ظلت ريم واقفة تتأمل المدينة محاولة تجاوز قلقها على سهم الذي اختفى منذ أحداث اليوم السابق، رغم تأكيد سليم أنه سيعود لا محالة.. حاولت استغلال غيابه لمعرفة ما تريده حقاً دون إلحاح منه.. كانت تريد أن تعرف الجواب لتجيبه به عندما تراه، ولكي لا تظل على هذا التردد الذي يسبب لها وله الحيرة والضيق..

لا يمكنها الإنكار أنها نوعاً ما أحبت هذا المكان.. ما يربطها بذلك العالم هما أبواها.. أما ما يربطها بهذا العالم فهم أكثر مما يمكنها عدهم.. ورغم كل ما قاسته هنا، فإن المدينة بدت ساحرة في تلك اللحظة ولا تقاوم.. ومع ذلك، أتستطيع حقاً البقاء دون أن يثقل التفكير في أبويها ضميرها؟..

وقف سليم قربها في تلك اللحظة وهو ينظر لذات المنظر بصمت، فسألته بشيء من القلق "ألم يعد سهم بعد؟.. ألم تسمع منه شيئاً قبل رحيله؟"

قال سليم مبتسماً "لا تقلقي عليه، سيعود بدون شك.. لم يستطع أن يتخلى عنك قبل تسع سنوات، فلن يفعل ذلك الآن بالتأكيد.."

ثم قال وقد تذكر أمراً "لقد رحل يعقوب للقرية اليوم، لكنه أوصاني بأن أبلغك بأن القرية بأكملها تنتظر عودتك.. أنت فرد من أفراد القرية، وهو يرحب بوجودك فيها متى ما قررت العودة"

تساءلت ريم بهمس "ما الذي جرى للقرية منذ رحيلي؟"

أجاب سليم "بعد سقوطك في تلك الغيبوبة، رحلنا عن موقع القرية السابق والتجأنا لآخر أملاً أن يكون أفضل وأكثر أماناً، ولو أردتِ الحقيقة هرباً من غضبة تولاد.. لكن لم يكن ذلك الموقع مستساغاً لأغلب الأهالي.. لقد كانت السهول مأوىً للقرية منذ عقود، وقد أصرّ الجميع أن عودتهم إليها أفضل بلا ريب.."

خفضت ريم وجهها وهي تفكر في كل الذين تغيرت حياتهم بسببها، وحجم الذنب الذي يقع على عاتقها جراء كل ذلك.. هل هي مذنبة حقاً؟.. أم أن الذنب كله يقع على عاتق تولاد الذي كان كل همّه أن يسعدها؟.. سمعت سليم يقول بعد أن طال صمتها "أأنت واثقة من قرارك هذا؟"

نظرت له ريم بنظرة متباينة المشاعر، ثم تساءلت "ما رأيك أنت؟.. أتظنني قاسية حقاً لأنني أريد العودة؟.. هل يرضيك ما جرى لهما دون أن يدركا من كان السبب في الظلم الذي وقع عليهما؟.."

صمت سليم محاولاً التفكير في جوانب الأمر، بينما قالت ريم بصوت متهدج "مهما كانت حقيقة ما جرى، فهما أبواي.. ربياني سنوات طويلة، ولا أحمل لغيرهما هذه المشاعر.. لذلك يجب أن أعود.."

غمغم سليم "وكأنك قررت على نفسك النفي.."

خفضت ريم وجهها بصمت وانفعال، بينما أضاف سليم "هذا قاسٍ على سهم.. فلماذا يجب أن يمر بكل هذا؟.. كما أن هذا سيكون قاسياً على والديك كما أؤكد لك.. لقد عاشا سنوات ووطّنا نفسيهما على موت ابنتهما.. وها أنت ستعودين لتخبريهما أن ابنتهما ليست الطفلة التي ربياها.. وأنها ماتت بسبب تجارب رجل بلا ضمير.."

غمغمت ريم "أنا مقتنعة حقاً بكل ما تقوله.. لكني لن أستطيع أن أستمر بحياتي دون أن أنهي هذه المأساة التي كنت طرفاً فيها دون أن أقصد.. لولاي، ولولا العاهة التي ولدت بها، لما مرّ بكل هذا.."

عاد سليم يسألها "لكن.. لو أتيحت لك فرصة العودة، هل ستعودين؟"

رفعت ريم بصرها ونظرت لما حولها.. نظرت للمدينة الهادئة ذات الأنوار المتفرقة.. ونظرت للقمم البعيدة التي بدت شديدة السواد في هذا الليل.. ثم قالت "سأعود.. أرجو أن أعود.."

****

في موقع ما من أنكاريا، وفي أعلى بقعة من سورها، جلس سهم فوق برج من أبراج المدينة يطل على الهاوية التي تغطيها السحب باستمرار خارج الأسوار.. ظل صامتاً وهو يعقد ذراعيه على صدره مقطب الجبين تراوده تساؤلات عجز عن إجابتها.. ما الذي جاء به من قريته لهذه المدينة الغريبة؟.. ما الذي أبقاه سنوات وسنوات بانتظار فتاة ظن الجميع أنها

لن تستيقظ أبداً؟.. ما الذي دعاه للاستماتة للبقاء قربها طوال تلك السنوات رغم كل ما مرّ به من معاملة دونية لكونه من البدائيين؟.. رغم أنه يعلم الجواب تمام العلم، لكن هل أدركته ريم يوماً؟..

هل صدقته عندما باح لها بحبه؟..

هل صدقته عندما أخبرها أنه يريدها بقربه دائماً؟..

كيف لتلك الحمقاء أن تقرر الرحيل بتلك البساطة؟..

إنها ترمي بتلك السنوات التسع التي استنفذها في الانتظار من النافذة..

وكأن تلك السنوات ضاعت هباءً دون أن يجني منها سوى هذا الوشم الذي يحرق عنقه بمهانة..

كيف لك أن تفعلي ذلك يا ريم؟..

لكن..

ما الذي دعاه وهو فتى صغير للاهتمام بتلك الطفلة المذعورة التي تكرر في كل مناسبة رغبتها بالرحيل؟..

ما الذي دعاه ليفعل كل ما فعله رغم أنه لا يعرف ما الذي سيجنيه من هذا العمل؟..

أهذا بسبب الضعف الذي بدا عليها؟..

أهذا بسبب ذعرها الدائم؟..

أهي استثارت مشاعر الرجولة الأولى فيه وهو يَعِدها في تلك الليلة أن يبقى معها دائماً ويحميها أبداً؟..

رغم أنه كان وعداً طفولياً، لكنه سعى طوال حياته أن يفي به..

آمن أنه ملزم بذلك الوعد، وسعى لئلا يكسر كلمته ويهين ذلك الرجل الصغير الذي وقف قربها هامساً بكل براءة أنه سيحميها طوال العمر..

خفض سهم رأسه وتقطيبته تزداد وهو يكوّر قبضتيه بقوة.. لقد مرت عدة أيام منذ تلك الحادثة أمضاها سهم منزوياً عن الجميع، ورغم أنه لم يعُد لعمله كجندي، إلا أنه تمكن من متابعة ما يجري لريم وللجهاز من بعيد.. وها هو إصلاح الجهاز جارٍ على قدم وساق.. وإن هي إلا أيام معدودة ويصبح رحيل ريم واقعاً لا يمكن تغييره.. لكن ألا يملك تغييره حقاً؟..

نهض سهم بحزم وقد شدّ عزمه على ما سيفعله..

إنه لم يسعَ خلفها طوال تلك السنوات ليتخلى عنها الآن..

ولم يفُت الوقت بعد لإقناعها بعدم الرحيل.. حتى لو اضطر لتحطيم الجهاز من جديد بنفسه..

****

استغرق إصلاح الجهاز ما يقارب الأسبوع، قضتهم ريم في العناية بتيمار الذي تحمل نحوه شعوراً بالامتنان لكل ما قدمه لها من مساعدة.. ورغم أنه كان يردد في إصرار كرهه لشفقتها تلك، لكنها تقول له في كل مرة بهدوء "ليس للشفقة دخل في الأمر.. أنتَ لست بائساً لأشفق عليك، لكني أشعر أن العناية بك من واجبي"

فكان يقول مديراً وجهه للجهة البعيدة "هناك العشرات ممن يمكنهم خدمتي في هذا القصر.."

علقت بابتسامة جانبية "لكنني الأحق بذلك منهم جميعاً.. أليس كذلك يا أخي؟"

بدت تقطيبة ظاهرة على جبينه، وهي تعلم أن سببها ذلك اللقب الذي لا يعرف تيمار كيف يتصرف حياله .. كانت مشاعرها الصادقة تربكه بوضوح فيلجأ لإظهار الحنق بشكل تراه ريم طفولياً ولا تستطيع كتمان ضحكتها إزاءه وهي تقول "يبدو أنك نادم الآن للسماح لي بمناداتك أخي.."

لم يعلق تيمار أو ينظر إليها كعادته في التعامل مع الآخرين ببرود ظاهري ما استطاع.. وقبل أن تستمر ريم في إغاظته، سمعا صوت طرق الباب.. وبعد أن سمحا للطارق بالدخول، رأيا سليم يدلف وعلى وجهه ابتسامة عريضة.. ولما رأى ريم قال بتعليق لم يستطع كبحه "من الجميل رؤية الأخوين بهذا الوفاق.. إن هذا منظرٌ يبهج النفس حقاً.."

ازدادت تقطيبة تيمار بينما قالت ريم بابتسامة "لا تبدأ أرجوك.. سيطردني إن أضفتَ كلمة أخرى.."

جلس سليم جانباً وهو يتساءل "أأنت بخير اليوم يا تيمار؟"

أجاب تيمار أخيراً "بخير حال والحمدلله.. لم تعد جراحي بهذا السوء.. يلزمني عدة أيام للنقاهة فقط.."

فقال سليم مبتسماً "لقد أفزعت الفتاة المسكينة.. لقد كانت تبكي دون انقطاع وترجو الجميع مساعدتك عندما سقطت أرضاً مضرجاً بدمائك.."

فصاحت ريم "سليم.. لا تقل له هذا.."

كان دور تيمار ليبتسم وهو يرى الحرج واضحاً على وجهها.. بينما أضاف سليم بلهجة جادة "لديّ أخبار لكِ يا ريم.."

نظرت له باهتمام، فقال "لقد أصلحوا الجهاز أخيراً.."

سرت رعشة في جسد ريم وهي تنظر له بصدمة، قبل أن تقول بلهفة "حقاً؟.. متى كان ذلك؟"

أجاب سليم "أخبرني رئيس المختبرات بذلك للتو.. ويعدنا أنك تستطيعين استخدام الجهاز خلال يوم أو يومين.. وقد حصلنا على موافقة مجلس الحكماء لاستخدامه أيضاً إن وافقنا شروطهم.."

نهضت ريم وأخذت تدور في الجناح بتوتر وهي لا تستطيع معرفة ذلك الشعور الذي يخالجها.. هي سعيدة لهذا الخبر الذي انتظرته طويلاً.. لكنها قلقة في الآن ذاته.. ورغم أنها حاولت تجاهل هذه المشاعر زمناً طويلاً، لكن الآن مع إصلاح الجهاز، عليها مواجهة مشاعرها واتخاذ قرار للمرة الأخيرة..

عادت ريم تجلس في موقعها بصمت، وهي تسمع سليم يقول "لقد سبق وخضتِ هذه التجربة من قبل.. لذلك أنتِ

تعرفين أعراضها الجانبية على جسدك.. ورغم ذلك، فاختلاف عمرك بين تلك المرة وهذه المرة سيكون له فضل في تخفيف التأثيرات تلك.."

لم تعلق ريم وهي تهز رأسها موافقة بشيء من الشرود، وثبتت بصرها على يديها المتوترتين بشكل واضح وهي تنهى نفسها عن التفكير في سهم الذي طال غيابه أياماً..

قطع تفكيرها صوت تولاد المبحوح الذي اقترب دون أن تنتبه له وهو يقول "إذن.. هل عزمت حقاً على الرحيل؟"

رفعت بصرها له متفاجئة، لكنها لم ترَ في ملامحه أي غضب أو حنق، إنما غمرها بنظرة حزينة حاول تغليفها ببرود كالعادة.. عندها نهضت ريم واقتربت منه قائلة "أعلم أنني خيّبت آمالك، وأنا لم أغفر لك ما فعلته بتلك الفتاة بعد، وقد لا أغفر لك ذلك بتاتاً.. لكن، رغم ذلك أود أن أشكرك.. لأنك بذلت كل ما لديك لأجلي، ولأنك فعلت المستحيل كي أتخلص من عاهتي وأعيش عمراً أطول مما قدّره الأطباء لي.."

وأمسكت يده بقوة بين يديها وهي تضيف "شكراً لك على كل شيء.."

ظل تولاد ينظر لها بانفعال واضح، ثم تقدم خطوة وضمّها إلى صدره بقوة.. وللمرة الأولى، لم تعترض ريم وهي متعجبة من صمته التام.. ولم يلبث بعدها تولاد أن أطلقها وربت على رأسها مغمغماً "أتمنى أن تكون عودتك لذلك العالم سالمة.."

ابتسمت ريم بصمت، بينما استدار تولاد وغادر دون أن يضيف كلمة أخرى.. وما إن اختفى من الجناح، حتى غمغم سليم "أراهن أنه سينزوي في جناحه باكياً.."

علق تيمار "أشك بذلك.."

سمعوا في تلك اللحظة صوت اعتراض وتذمر قادمين من الممر القريب، ولم يلبثوا أن رأوا سهم قادماً نحوهم.. ورغم أن رؤيته قد أسعدت ريم بعد غيابه ذلك، إلا أن الدهشة تغلبت عليها وهي تراه يجرجر رجلاً خلفه وهو يقترب منهم عاقد الحاجبين.. وقبل أن يعلق أي شخص بكلمة، ساق سهم الرجل نحوهم قائلاً "يبدو أنني أتيت في اللحظة المناسبة.."

تساءل سليم وهو يرى الرجل، الذي لم يكن إلا رئيس المختبرات، يعدل ثيابه بتوتر "ما بالك يا سهم؟.."

قال سهم بحزم "اسمعوا ما لدى الرجل قبل أن ترموا بريم للعالم الآخر بلا عودة.."

نظر الجميع لرئيس المختبرات الذي تنحنح وهو يقول "إن كنتَ تعني ما سألتني عنه قبل قليل، فالجواب هو أجل.. هناك طريقة لاستعادة ريم.."

نظر الجميع بمزيج الدهشة والتعجب لرئيس المختبرات وسهم يقول "إذن أخبرهم بالطريقة.."

علق سليم قائلاً "كما علمت من ريم، فإن شبيهتها قد ماتت بعد أن أنهكتها النقلة الأخيرة لذلك العالم.. وبدون الشبيهة، فلا يمكن التوصل لريم وإعادتها لهذا العالم بتاتاً.."

ثم نظر للرئيس قائلاً "أليس هذا ما أخبرتني به سابقاً؟"

أجاب الرئيس "بلى.. هكذا كان الحال منذ سنوات.. لكن العلماء لم يكونوا عاطلين عن العمل طوال السنوات التسع الماضية.. لقد عملنا على تطوير العديد من جوانب تلك التجربة، أملاً في الحصول على تجارب أفضل وتطوير خبراتنا بما يخص ذلك الموضوع.. وقد نجحنا في السنة الأخيرة بتطوير وسيلة جديدة، لكي لا نضطر لفقد الاتصال مع أي شخص نرسله لأي من تلك العوالم.."

تساءل سليم بفضول "عوالم؟"

أجاب الرئيس بابتسامة "أجل.. هناك عدد كبير من العوالم الموازية لعالمنا.. ونحن ننوي استكشاف أكبر عدد منها ومعرفة الفرق بينها وبيننا.."

ثم أضاف بحماس "تخيّل كم عالماً سنستكشف، وكم تاريخاً سنعرف لأراضٍ كان يمكن أن تكون مثلنا.. هذا....."

قاطعه سهم بحدة "اترك تخاريفك هذه وتحدث في المهم.. ما هي هذه الطريقة؟"

نظر الرئيس لسهم بضيق، ثم تنحنح وقال "باستخدام عينة من دمائها.."

انتابت دهشة عارمة الجميع وسليم يتساءل "كيف؟.. أتعني..."

قال الرئيس وقد عادت له الحماسة "أجل.. باستخدام حمضها النووي، يمكننا أن نعيد التجربة ونعيد جسدها من جديد لهذا العالم.."

تساءل سهم مقطباً "أأنت متأكد من نجاح هذه التجربة؟.. لا أريد أن نقوم بها بعد رحيل ريم بالفعل لنكتشف أنها كانت تجربة فاشلة.."

قال الرئيس محتداً "طبعاً ليست فاشلة.. لقد قمنا بها بالفعل قبل الآن.. وأؤكد لك أن السبب الوحيد الذي قد يؤدي لفشل التجربة هو موت الفتاة بالفعل.."

تساءل سليم "هل جربتم هذه الطريقة من قبل؟"

أجاب الرئيس بفخر "بلى.. جربناها على عدد من القطط والقردة التي نحتفظ بها في مختبراتنا.."

نظر له سهم باستنكار مدمدماً بغيظ "قطط وقردة؟"

فقال الرئيس بعد لحظة صمت "لكنها تجربة ناجحة بشكل تام.. هذا ما أستطيع تأكيده.."

نظر سهم لريم قائلاً "إذن.. ها هي وسيلتك للعودة قد تأمّنت.. فما أنت فاعله؟"

نظرت ريم لقدميها بصمت لفترة طالت، فقال سليم وهو ينهض "ربما علينا أن نمنحها فرصة للتفكير بالأمر.. مازلت أعتقد أن هذه الطريقة غير مأمونة بشكل تام.."

لم يعلق أحدهم بكلمة وهم يخرجون من جناح تيمار ليتسنى له أخذ قسط من الراحة، بينما لحق الرئيس بسليم وهو يقول بانفعال "ماذا تعني بأنها غير مأمونة؟.. أنت تعلم أننا لا نؤكد أي معلومة ما لم تكن مقترنة بتجارب واختبارات

عديدة.. هذه إهانة بكل تأكيد.."

لم تسمع ريم بقية قوله وهي تسير في الممرات مثبتة بصرها على قدميها بصمت، ثم وجدت سهم يجذبها لتقف وهو يقف بطوله الفارع عند رأسها ملتزماً الصمت بدوره.. ولما رفعت بصرها إليه، لاحظت على الفور أن عنقه قد تخلص من ذلك الوشم الذي يميّز مواطني الدرجة الثانية، فغمغمت "ألم يعارضوا إزالتك للوشم؟"

أجاب مقطباً "وهل هذا ما يهم الآن؟"

خفضت بصرها دون أن تجيب، وبعد لحظة صمت سمعته يقول بشيء من الضيق "لماذا أشعر أنك لا تعتزمين العودة بتاتاً؟.. لا أجدك سعيدة بعثورهم على طريقة لاستعادتك.."

تنهدت ريم دون أن ترفع بصرها، فاقترب سهم وأمسك كتفيها وهو يقول "ألم يخبرك ذلك المجنون تولاد أنك من هذا العالم حقاً؟.. أعلم أنك بلهفة لرؤية والديك، فاذهبي لرؤيتهما وابقي هناك كما يحلو لك.. لكن بعدها عودي.."

لم تعلق على قوله وسهم يهمس "أرجوك يا ريم.. عودي إليّ.."

همست ريم "لا أستطيع أن أعطيك وعوداً قد لا أتمكن من الوفاء بها.."

نظر لها سهم بصدمة، ثم قال "لا تتمكنين؟.. أم لا ترغبين؟!.."

التزمت بالصمت، فقال سهم بإلحاح "لماذا؟.. ما الذي يجعلك كارهة للبقاء هنا؟.. أنتِ لم تعودي تلك الطفلة التي لا تستطيع مفارقة والديها.."

لكن ريم لم تجب وهي حائرة.. ما الذي تعرفه هي عن مشاعرها ذاتها؟.. ما الذي ستشعر به عندما تعود لذلك العالم بعد انتظارٍ طال كثيراً؟.. هل ستتمنى البقاء؟ هل ستتمنى العودة؟.. كيف يمكنها أن تعده بما لا تعرفه هي نفسها؟..

سمعته يقول بعد صمتها الطويل بصوت حمل شيئاً من الألم "أتكرهينني يا ريم؟.. لو كان الأمر كذلك، أخبريني بهذا منذ الآن كيلا أنتظرك.. لا أريد انتظار أملٍ قد لا يأتي أبداً.."

شعرت برجفة تعتريها للحظة.. أتريد أن يتخلى عنها سهم؟.. أهي تحاول دفعه لليأس والتخلي عنها؟.. أهي حقاً لا تريد أن يكون بجانبها؟.. لا.. هذا محال.. ليس هذا ما أرادته.. ليس هذا ما تتمناه بتاتاً..

حسمت ترددها أخيراً فرفعت بصرها إليه بتصميم ظاهر، ثم أمسكت يده بيديها وهي تقول بحزم "سأعود لك يا سهم.. لابد أنني سأعود.."

****

الفصل التاسع عشر « لابد لكل حكاية من نهاية.. »

في ذلك اليوم، بعد زمن طويل جداً قضته ريم في لهفة الانتظار، وقفت في تلك القاعة التي كانت تحمل في جوانباً تخريباً واضحاً من آثار ذلك الانفجار.. ورغم أن أياماً طويلة قد مرّت منذ تلك المحاولة التي قام بها بالدو، إلا أن آثاره ظلت باقية في بعض جوانب القاعة..

ظلت ريم تراقب القاعة من موقعها على تلك المنصة، وآثار تلك الحقنة لا تزال في ذراعها تنبض بألم.. دارت ببصرها فيما حولها بينما قال رئيس المختبرات بشيء من الحماس "كل الترتيبات قد تمّت.. لم يبقَ إلا تنفيذ هذه التجربة.."

تساءل سليم الذي وقف قريباً "أأنت واثق من مسألة الحمض النووي هذه؟"

قال الرئيس بشيء من الكبرياء "أتشكك في اختباراتنا؟"

عاد سليم يسأله "وهل تأكدتم من تأمين العينة التي تملكونها من دمائها؟.."

قال الرئيس بثقة "طبعاً.. لا تقلق يا رجل.. كل الأمور تحت السيطرة.."

عاد سليم ببصره لريم التي لم تبرح موقعها، فابتسمت له وهي تقول "لا تقلق.. موعدنا بعد عشرة أيام بإذن الله تعالى.."

فقال سليم وهو يبتسم بدوره "لا يمكن لأحد التذمر ما دام هذا قرارك.."

دارت ريم ببصرها في القاعة حيث انشغل بعض العلماء بمراقبة التجربة والإعداد لها، ثم قالت لسليم "بلغ تيمار تحياتي.. وقل له (شكراً على كل شيء)"

هز سليم رأسه موافقاً، فأضافت "وقل لسهم (لن أسامحك على التغيب عن وداعي)"

ابتسم سليم معلقاً "يحسن بكِ أن تخبريه ذلك بنفسك.."

فقالت ريم "لست أدري إن كنت سأتمكن من ذلك.."

فقال سليم بإصرار "ستعودين يا ريم بإذن الله.. وأتمنى ألا تندمي على ذلك.."

همست "أتمنى ذلك.."

وأشارت برأسها لرئيس المختبرات، عندها قال لأحد العلماء قربه "ابدؤوا النقل الآن.."

هبطت القبة الزجاجية لتحيط بريم، وبدأ الجهاز هديره المعتاد.. بدأت التجربة التي لا تعلم ريم إن كانت ستندم عليها بعد ذلك أم لا، لكنها تأمل أن يكون قرارها صائباً.. ثم بعد ذلك بدأت الأضواء والأصوات والهواء الحار يلفّها، وبدأ جسدها يكتسب شفافية اعتادتها من التجربتين السابقتين.. رفعت بصرها نحو سليم، وابتسمت ابتسامة متوترة أخيرة قبل أن يعشي ضوء مبهر عينيها ويغيّب كل ما حولها بشكل تام..

وعندما سقطت ريم أرضاً، شعرت بأن سقوطها كان أخف من السابق، رغم أن رحلتها السابقة كانت منذ زمن طويل جداً.. شعرت بسجادة غليظة تحتها، واشتمّت رائحة غبار خفيفة، والمكان مظلم إلا من نور خفيف.. في هذه المرة، خلافاً للمرة السابقة أيضاً، لم تفقد الوعي.. فتحت عينيها متطلعة حولها وهي تحاول الاعتدال جالسة، عندها خفق قلبها بقوة وهي تتأمل الغرفة من حولها.. كانت الجدران الوردية تحيط بها من كل جانب، وفي زاوية المكان سرير خشبي صغير الحجم ذو غطاء وردي كما كان في آخر مرة رأته فيها، وصندوق الألعاب يقبع قريباً من السرير مليئاً بمختلف الألعاب والدببة، بينما قبع الأرنب الوردي الذي كان يماثلها طولاً في صغرها فوق السرير منتظراً بصمت .. لم يتغيرّ أي شيء في الغرفة، وكأنها، مثل ريم، كانت تنتظر بصبر طوال تلك السنوات..

اعتدلت ريم جالسة وهي تحاول تمالك انفعالاتها بصعوبة بالغة، ثم نهضت وسارت بشيء من التعب نحو سريرها.. مدت يدها بشيء من الشك وتلمست الأرنب الوردي الأحب إلى قلبها وهي طفلة، قبل أن تحمله تتأمل ملامحه بصمت.. إنها هنا حقاً.. ليست مجسدة كشبح، كما جرى في المحاولات الفاشلة التي أجراها لها سليم.. وهذا بالتأكيد ليس حلماً.. لقد عادت حقاً.. عادت بعد سنوات طويلة طارت من عمرها وهي في غيبوبتها..

سمعت صوت خطوات راكضة، مما دلّها أن انتقالها لم يكن بالهدوء الذي توقعته.. ولم يلبث الباب خلفها أن فتح بقوة تلتها شهقة خافتة.. فاستدارت ريم وهي تحتضن الأرنب الوردي، ونظرت بعينين دامعتين إلى أمها التي وقفت قرب الباب مذهولة لمرأى ريم.. ثم همست ريم بصوت متهدج "لقد عدت أخيراً يا أمي....."

****

بعد عودة سليم من مبنى الحكماء، وقد اطمأن لنجاح تجربة نقل ريم، عاد لقصر تولاد الذي بدا لعينيه، رغم كثرة الخدم فيه، مهجوراً.. مع رحيل ريم، انزوى تولاد أغلب الوقت في جناحه، ولم يكن تيمار أفضل حالاً مع جراحه التي لم تبرأ بعد.. اتجه سليم من فوره إلى تيمار الملازم جناحه، وبعد أن طرقه وحصل على الإذن بالدخول، دخل الجناح ملاحظاً الكتب التي بدأت تتكدس قريباً من سرير تيمار.. فابتسم سليم معلقاً "أرى هذه الكتب تزداد تكدساً كل يوم!.. أتنوي نقل المكتبة لجناحك؟.."

لم يعلق تيمار على ذلك وهو يتساءل "هل رحلت؟"

أجاب سليم "بلى.. ألم ترها قبل رحيلها؟"

غمغم تيمار "جاءت لوداعي قبل رحيلها لمبنى المجلس.."

جلس سليم جانباً وهو يعلق "يبدو أنها بدأت تهتم لأمرك كثيراً.. أتمنى أن تحاول معاملتها بشكل أكثر لطفاً في المرات

القادمة"

قال تيمار مبتسماً "هذا لو عادت.."

فقال سليم "لكنها ستعود.."

ساد الصمت بينهما للحظات، قبل أن يتساءل تيمار "وأنت.. ما الذي ستفعله منذ الآن؟"

أجاب سليم "أنا راحل للقرية اليوم.. لم يعد هناك حاجة لوجودي في أنكاريا.. وأهل القرية أكثر حاجة لي بالطبع.."

لم يعلق تيمار، بينما تساءل سليم "لكني أكره الرحيل وهناك تساؤل يدور في ذهني منذ سنوات عديدة ترفض أنت الإجابة عنه.."

نظر له تيمار بدهشة وتساؤل، فقال سليم "أنكاريا..... هذه المدينة ليست من هذا العالم، أليس كذلك؟"

ابتسم تيمار معلقاً "أهذا هو السؤال المهم؟"

قال سليم بإصرار "أجل.. أسمع بتكرار حديثكم عن أعداء يتربصون بكم، وخشيتكم من آثار النقل عبر العوالم الموازية، وقد أكد لي هذا أنكم من عالم آخر.. هذا سبب واضح للفجوة الحضارية بينكم وبين بقية سكان القرى، وسبب انعزالكم عن الجميع.. فما هي هوية أنكاريا حقاً؟.."

أجاب تيمار "هذه قصة طويلة جداً.. لكن باختصار، أجل.. أنكاريا من عالم موازٍ حقاً.."

فهتف سليم "كنت واثقاً من ذلك، لكن كيف حدث ذلك؟.. الجهاز الذي يستخدمه تولاد كما فهمت حديث جداً، ولا يعود لوقت أقدم من سبعة عشر عاماً، عندما فكر تولاد باستخدامه على ريم أول مرة.. فكيف حدث ذلك؟"

قال تيمار "هذا تخمين خاطئ.. الجهاز يبلغ عمره أكثر من مائة عام، وهو اختراع يعود لجدي الأكبر بيناد.. بينما قام علماء أبي بتطويره فقط.."

نظر له سليم بدهشة وتساءل "هل كان عالمكم أكثر تطوراً من هذا العالم قبل مائة عام؟.. ألن تخبرني الحكاية منذ البدء؟ ما سبب انتقالكم لهذا العالم؟.. ومن هم أولئك الأعداء؟.. ما....."

فقال تيمار ضاحكاً "مهلاً.. خذ نفَساً يا رجل ولا داعي لهذه الأسئلة المتلاحقة.. سأخبرك الحكاية منذ البدء.."

ظل سليم يستمع له باهتمام، بينما قال تيمار "كل ما نعرفه عما جرى في ذلك العالم قبل مائة عام، يعود لمذكرات جدي الأكبر بيناد الذي سجلها بكل دقة بعد وصولهم لهذا العالم.. ويحتفظ أبي بهذه المذكرات بكل حرص في مكتبته الخاصة في هذا القصر.. الحكاية كما رواها جدي تعود لوقت قصير بعد إعلانه عن اختراعه جهاز للنقل بين العوالم الموازية.. كان جدي عالماً مرموقاً والعديد من الاكتشافات تحمل بصمته المعروفة والموثوقة.. وفي تلك السنوات، ركز اهتمامه على العوالم الموازية، وعلى كيفية التنقل بينها.. هو أول من صمم الجهاز الخاص بالانتقال بين العوالم، وهو من اخترع المادة الوسيطة التي تتيح للشخص الانتقال بكل حرية بين تلك العوالم.. وأول عالم حاول الاتصال به هو هذا العالم الذي نحن فيه الآن..

لكنه لم يكن يعرف كيفية استعادة من أرسلهم، ولا يعلم بأن الشبيه ينتقل لعالمنا هذا نتيجة تجربته.. أو بالأحرى لم تتح له الفرصة ليعرف بعد.."

كان سليم يستمع إليه بصمت واهتمام كبير، بينما أضاف تيمار "في ذلك الوقت، كانت الأحوال السياسية سيئة في العالم العربي.. رغم أن المنطقة العربية في ذلك المكان كانت موحدة في مملكة واحدة وتحت ملك واحد، إلا أن التوتر كان نابعاً من خارج المنطقة.. كان أعداؤنا كثر، وقد تعالت تهديداتهم لنا سنين طوال دون أن تتحول تلك التهديدات لواقع.. حتى كانت تلك الليلة التي تم فيها القيام بعمل إرهابي في مدينة أجنبية على نطاق واسع، وتسبب مثل هذا العمل بمقتل المئات من البشر.. رغم أن مرتكبوا ذلك الجرم مجهولون، إلا أن ذلك العمل قد نُسب إلى العرب بشكل تلقائي وعادت التهديدات تحيط المنطقة العربية.."

وزفر تيمار مضيفاً "وعندما سقطت أول قنبلة هيدروجينية على إحدى أكبر المدن العربية كانتقام لما جرى سابقاً، قوبل هذا الحدث بترحاب وتهليل من العالم الغربي كله.. أبيد الملايين في لحظة واحدة، ولم يستنكر أحد ذلك أو يرفع صوته بتذمر ولو بسيط.. وكأن تلك القنبلة كانت إشارة البدء، إذ تسارعت الدول للهجوم على المنطقة ومحاولة نيل حصتها بالتدمير والسيطرة على المواقع الهامة التي استأثر بها العرب قروناً طويلة.. سقط قناع الحضارة الذي كان يهذّب معاملة البشر لبعضهم البعض، وبدأ القتل والقتل ومزيد من القتل يرتكب في كل مدينة وناحية من أنحاء المنطقة العربية.. ورغم محاولة العرب للدفاع عن أنفسهم، ورغم تضرعهم للمجلس الأعلى للأمن، وهو أعلى هيئة أمنية عالمية، إلا أن كل ذلك كان مجهوداً عبثياً.. التزم المجلس الأعلى للأمن الصمت لأسابيع وشهور بانتظار أن ينتهي الغرب من انتقامه العبثي، ثم أصدر بياناً محدوداً يعلن استنكاره لما يجري، ويطالب الجميع بضبط النفس.. هذا فقط كل ما قيل اعتراضاً على ما يقارب المليار نفسٍ الذين قتلوا في أشهر معدودة.."

ونظر تيمار لسليم المذهول قائلاً "وكان جدي الأكبر بيناد يملك الحل الوحيد المتاح في تلك الأوقات العصيبة.. بموافقة من الملك، وبمساعدة من بقي من الجيش ممن لم ينشغل بخوض حرب مع الأعداء، قام جدي بإعداد مئات ومئات من العرب لنقلهم لعالم آخر.. عالم كان يرجو أن يكون أكثر رحمة ورأفة بهم من ذلك العالم المتداعي.. ورغم صعوبة الأمر، إلا أن جدي كان مقتنعاً بما يفعله بعد أن أقنع الملك أنه مهما كانت نتائج مثل هذه التجربة، فهي خير مما يمرون به بالفعل.. وهكذا، بدأت وفود متتالية من أجدادنا يفدون لهذا العالم، بينما بقي جدي الأكبر ضمن الدفعة الأخيرة التي استطاع نقلها لهذا العالم قبل أن يهجم الجيش المعادي على مختبره ويدمر كل شيء.. وقد حرص جدي قبل انتقاله على وضع بضع قنابل قوية قرب الجهاز الناقل لتدميره وتدمير آثاره بشكل تام قبل أن يستولي عليه الأعداء ويحاولوا الوصول لأجدادنا في العالم الجديد.. هذا العالم الذي سمّوه أنكاريا.. وهي تعني بإحدى لغات عالمنا القديمة (العالم الجديد)"

نظر تيمار لسليم ليراه مذهولاً بصدمة ظاهرة على وجهه.. فابتسم تيمار معلقاً "هل صدمك هذا التاريخ القديم؟"

غمغم سليم "بل صدمتني فكرة ما جرى للمئات من سكان هذا العالم الذين وجدوا أنفسهم ينتقلون لعالم مدمر كعالمكم السابق.."

فقال تيمار بأسف "أجل.. هذا هو الشيء الذي لم يحسب له جدي حساباً.. وقد اكتشفه بعد وصوله لهذا العالم بوقت متأخر.. لقد قضى جدي سنواته الأخيرة نادماً أشد الندم لأنه أنقذ شعبه على حساب شعب آخر، دون أن يدرك ذلك.."

زفر سليم معلقاً "يا للمأساة.."

فقال تيمار "هذا ماضٍ قديم كما قلت لك.. ولقد مر قرن كامل منذ ذلك الوقت وتناسى أهل أنكاريا كل ما جرى في ذلك العالم.. حتى حدث ما حدث مع بالدو.."

ثم نظر لسليم مضيفاً "الغريب أن مجلس الحكماء قد وافق علي إصلاح الجهاز واستخدامه بعد كل ما جرى.."

فابتسم سليم شيئاً ما وهو يقول "هذا من حسن حظ ريم ولا شك.."

****

لا تدري ريم كم مضى عليهما والهواء متجمد في الغرفة في تلك اللحظة التي رأت فيها أمها للمرة الأولى منذ رحيلها.. كانت صدمة الأم كبيرة وهي تنظر لتلك الفتاة التي نبتت من الفراغ في الغرفة التي لم تُفتح منذ أعوام طوال.. بينما كانت مشاعر ريم متمثلة في إحساسها بأنها لا تزال تحلم..

وعندما تحدثت الأم، ابتسمت ريم وهي تسمعها تسأل بشيء من الاستنكار "من أنتِ؟"

قالت ريم وهي تتقدم خطوة "أنا ابنتك.. ألم تعرفيني يا أمي؟"

قطبت الأم وهي تتراجع خطوة قائلة "لست أملك أي بنات، وبالتأكيد ليس في عمرك هذا.."

سمعت ريم صياح صبيين يتراكضان في صالة المنزل، ولم تلبث أن رأت صبياً في السابعة يلاحق آخر لم يكد يبلغ الخامسة وهما يصدران ضجيجاً مزعجاً.. نقلت ريم بصرها بينهما وبين الأم، قبل أن تقول بصوت متهدج "أهما ابناك؟"

نظرت الأم للصبيين بتوتر بالغ وهي متوترة لأسئلة تلك الفتاة المجهولة.. بينما تراكض الصبيان نحو الغرفة ناظرين لريم بدهشة.. وأخيراً سأل أحدهما "من أنت؟"

أسرع الأصغر يقترب منها فيجذب الأرنب بقوة صائحاً "لا تلمسي هذه.. إنها ملك ريم.."

أعاد الأكبر تساؤله وهو يقترب قرب أخيه "من أنت؟"

انخفضت ريم وهي تجذبهما فتضمهما إليها بقوة وتقول بصوت متهدج "أنا أختكما.."

ورفعت بصرها نحو الأم مضيفة بهمسٍ باكٍ "أنا ريم.."

ارتدّت الأم مصعوقة، ثم سرعان ما هتفت بغضب "أنت كاذبة.. ريم قد ماتت منذ تسع سنين.. من أنت؟ وكيف تمكنت من الدخول دون إذن؟"

قالت ريم بإصرار من بين دموعها "أنا ريم يا أماه.. لقد اختفيتُ من هذه الغرفة منذ تسع سنوات، أليس كذلك؟.. ألم أطلب رؤية أبي قبل اختفائي؟.. ألم أقبلك على وجنتيك قبل اختفائي؟.. أنا ريم.."

ظلت الأم تستمع لها بدهشة وهي تتأمل ملامحها.. ثم قالت بارتباك شديد "كيف عرفتِ كل ذلك؟.. من أنت حقاً؟"

خفضت ريم رأسها وهي تقول باكية "أنا ريم.. لقد عدت أخيراً يا أماه.."

ظل الصبيان ينظران لبكائها بحيرة وتعجب، بينما اقتربت الأم لتجثو قرب ريم وترفع وجهه بيدها وهي تقول بحزم "لستُ أدري من أنتِ، ولا كيف عرفتِ هذا التفاصيل الصغيرة.. لكن ريم ماتت بعد وقت قصير من تلك الليلة.. ماتت في حضني.."

ثم أضافت بصوت متهدج "لا أعرف إلام تهدفين من كل هذا، لكن لا يحق لك استخدام اسم ريم بتاتاً.. طفلتي ريم قد ماتت ولن تعود بكذبة تحيكينها أمامنا.."

نظرت لها ريم بصمت وهي تمسح دموعها.. لم يكن هذا متعجباً، فموت الشبيهة لابد أن يثير ارتباكهما وحيرتهما إزاء ما تقوله.. لكن، كل ما عليها فعله أن تحكي الحكاية منذ البدء، وتترك لهما قرار تصديقها بعد ذلك..

أمسكت ريم بيد أمها وهي تقول بلهفة "أين أبي؟.. سأحكي لكما كل ما حدث، وستعرفان الحقيقة كاملة.. لكن أريده أن يكون موجوداً أثناء ذلك.. أريده أن يعرف الحقيقة أيضاً.."

قالت الأم مقطبة وهي تنهض "موعد عودته من عمله قد اقترب، لكن يحسن بك ألا تكذبي علينا.. سأحيلك للشرطة بتهمة اقتحام منزلنا لو حاولتِ ذلك.."

خفضت ريم رأسها موافقة وهي تنهض بدورها، ثم رأت الصبي الأصغر يسألها ببراءة "أأنت ريم حقاً؟.. أين كنت طوال تلك السنين؟"

غضب الأخ الأكبر وهو يصيح به بشدة "أيها الأحمق، ريم ماتت.. ألا تفهم ذلك؟.. هذه مجرد مخادعة"

ابتسمت ريم شيئاً ما وهي تعلق "لا يصحّ بك أن تطلق ألقاباً على الآخرين في وجوههم.. على الأقل احرص ألا أسمعك تقولها.."

ومسحت على شعر الصبي الأصغر وهي تبتسم ابتسامة عذبة، قبل أن تخرج من الغرفة تابعة الأم بانتظار عودة أبيها، وبانتظار لحظة الحقيقة..

قضت الريم الساعة التالية في صالة الشقة تتأمل أركانها، وتراقب شجار الصبيين الذي لا يكاد ينقطع إلا لحظات معدودة، لينقلب بعدها لعباً ومزاحاً.. أما أمها فقد جلست في جانب المكان بصمت وهي تتأمل ملامح ريم بتدقيق.. كان الشك

والحيرة واضحين على وجهها، لكنها كانت ترفض تصديق كل ذلك بعناد شديد..

بعد تلك الساعة، وصل الأب وتبدّت في عينيه على الفور نظرات التساؤل حيالها.. كان قد نحل بعض الشيء وغزا سواد شعره بعض البياض، وبدا أكثر تعباً وإرهاقاً مما كان يبدو في السابق.. ظلت ريم تتأمل ملامح والديها بابتسامة.. لطالما تمنت أن تعيش هذه اللحظة، أن ترتمي في حضن والديها وتخبرهما كم اشتاقت إليهما.. لكن الآن، بعد تلك السنوات وبعد أن تغيرّت هي ذاتها وما عادت تلك الطفلة، شعرت بقيود تقيدها في موقعها وتجعلها تكتفي بالابتسام..

وبعد أن ألقت الأم قنبلتها، وبعد ثورة الأب المتوقعة واتهاماته، وقفت ريم وهي تقول له "أرجوك.. أنا لم آت هنا لأدّعي ادعاءات كاذبة.. ما مصلحتي من ادعاء ذلك؟"

قطب الأب وهو يقول "ما مصلحتك من هذا حقاً؟"

قالت ريم بحزم "أريدكما أن تعرفا الحقيقة.. ما جرى منذ تسع سنوات لم يكن بداية كل شيء.. البداية كانت منذ زمن طويل جداً.. منذ ولادتي، ولم ينتهِ الأمر إلا الآن.."

ثم قالت للأم "ما حدث تلك الليلة منذ تسع سنوات لم يكن المرة الأولى، أليس كذلك؟.. لقد تكرر قبلها منذ ستة عشر عاماً.. عندما كنت على وشك إكمال السنة الأولى.."

التمعت نظرة تعرفها في عين أمها، قبل أن تلتفت نحو الأب وهي تهتف "أرأيت؟.. هناك أمر غريب حدث تلك الليلة.. كنتُ واثقة من هذا.."

قال الأب بشيء من العصبية "لا تبدأي يا سلمى.. تلك أمور مضت عليها دهور طويلة.. لماذا تنكؤون الجراح الآن؟"

تساءلت ريم "ما الذي حدث تلك الليلة؟"

ورغم اعتراض الأب، قالت الأم بانفعال "لقد أرضعت طفلتي ووضعتها في سريرها الصغير القريب من سريري .. كان ابراهيم في رحلة عمل، وكنت وحيدة ومتعبة بعد يوم شاق.. لذلك كان نومي ثقيلاً نوعاً ما، ولم أدرك ما حدث إلا مع صوت مثل الفرقعة أيقظني فجأة.. نهضت بسرعة نحو الطفلة لأطمئن عليها، لكني لم أرها في سريرها.. وعوضاً عن ذلك، رأيتها مستلقية في زاوية الغرفة تبكي بفزع شديد.."

صمتت ريم والأم تقول بحيرة شديدة "أفزعني ما رأيته، فكيف تمكنت الطفلة من تجاوز حواجز سريرها أثناء نومي، ثم إنها لم تكن ترتدي ذات الرداء الذي ألبستها إياه قبل نومها.. شككت أن أمراً غريباً حدث، لكن إبراهيم كان يرفض قولي بإصرار.."

فقالت ريم وهي تنظر لأبيها "هل ستستمع لحكايتي؟.. هذا طلبي الوحيد والأخير.."

ساد الصمت لحظات وهما يتبادلان النظرات، ثم جلس الأب وهو يقول "يحْسن بك أن تكوني مقنعة.. ليس لي مزاج للاستماع لتفاهات.."

خفضت ريم بصرها قائلة "سأخبركما بكل ما جرى.. لكن لي رجاء واحد بعد هذا.."

ونظرت لوجهيهما بنظرات منفعلة قائلة "أن تغفرا لي كل ما جرى.. أن تسامحاني على ما سأخبركم به.. فليس لي ذنب في أي شيء.."

ابتسم الأب بجانب فمه وهو يقول "ما الذي تقولينه؟.. ألستِ تدّعين أنك ابنتنا؟ فعلام تطلبين مسامحتنا؟.."

فغمغمت ريم "لكنني لست ابنتكما حقاً.."

نظرا لها بتعجب، ثم قالت الأم بشيء من العصبية "كنت متأكدة من هذا.. أجئتِ تهزئين بنا؟"

فسحبت ريم نفساً عميقاً، قبل أن تبدأ حكايتها الطويلة، التي بدأت وانتهت في هذا المنزل بالذات.. لا تدري كم ساعة مرت عليها وهي تحكي دون توقف.. ولم تشعر أنها قضت وقتاً طويلاً في الحديث إلا عندما أنهت حكايتها ولاحظت جفاف حلقها الشديد.. لكنها صمتت وهي تنظر لذهول والديها اللذيْن لم يتفوها بحرف طوال الوقت.. وسرعان ما انقلب الصمت بكاءً من أمها وشتائم من أبيها.. لم يكذّبها أحدهما، فقد شعرا منذ زمن طويل أن أمراً ما حدث تلك الليلة.. أن تلك الطفلة التي ماتت بين ذراعيهما ليست هي الطفلة التي نامت في السرير تلك الليلة.. لكنهما وأدا الشكوك لكيلا يتهمهما أحد بالجنون..

ظلت ريم تتأمل دموع أمها وتسمع الحرقة في صوت أبيها وهو يشتم ويطلق لعناته ووخز شديد في صدرها يؤلمها.. لم يحمّلها أيهما ذنب ما جرى، ولم يصبّ أحدهما لعناته على رأسها، لكن هذا لم يجعلها أكثر سعادة وهي ترى تعاستهما.. رغماً عنها، غلبتها رجفة في شفتيها وهي تراهما بهذا الحزن والأسى.. وتلقائياً، دفعت بالصورة التي تمسكها في يدها عميقاً في جيب ثوبها وهي تشدّ قبضتها عليها.. لم يكن الاثنان بحاجة لمزيد من الأسى، ولم تكن تلك الصورة لتجلب لهما إلا الحزن وذكريات لن تمحى من عقليهما..

في تلك الليلة، بعد أن أوت ريم لغرفتها القديمة، فتحت النافذة الوحيدة في المكان وتطلعت للمدينة الغافية بصمت.. ثم أمسكت صورة شبيهتها بيد وهي تتأملها لفترة طالت.. قبل أن تشعل طرفها بعود ثقاب وتراقبها وهي تتآكل بسرعة كبيرة حتى ذابت معالم ذلك الوجه الكئيب وتلك التعاسة بفعل النيران النهمة.. ولم يبق من تلك الصورة إلا رماد تطاير مع النسمات الهادئة التي هبّت تلك الليلة.. ذلك فصل قد انتهى تماماً ولم يعد له أي أثر إلا في بقايا صورة تحولت لرماد وتناثرت في عالم بعيد وغريب.. عالم آخر كانت ريم تعدّه موطناً وملاذاً.. والآن تشعر بغربة غريبة فيه.. غربة جعلتها تشتاق لوجوه لم تعرف معها إلا الخوف والذعر الدائم.. لكن الآن، رغماً عنها، تشعر بأنها تنتمي لذاك العالم حقاً.. ذلك العالم الذي تمنت الرحيل عنه آلاف المرات.. يا لعجبها مما يدور بخلدها..

****

قضت ريم الأيام العشرة وسط والديها، وأخويها الجديدين، وهي تشعر بغربة تامة.. كانت تشعر بسعادة بالغة كلما سمعت ضحكات الصبيين ، وتزداد سعادتها لرؤية ابتسامة أبيها أو ضحكة من أمها.. لكنها نوعاً ما شعرت أن تلك الابتسامات وهذه الضحكات ليست بسببها هي.. وجودها لم يعُد يعني شيئاً لهذه الأسرة، رغم أن أبويها يعربان عن سعادتهما بوجودها في كل لحظة وحين.. والصلة التي كانت تصلها بهذا العالم قد انقطعت ولم تعد تعرف كيف تعيد وصلها من جديد..

ورغم كل ما حكته لهما، فإنهما أصرا دوماً أنها ابنتهما التي ربياها.. تلك التي نامت في أحضانهما، والتي استمعت لقصصهما التي لا تنتهي.. تلك التي عذبتهما ببكائها كلما عنّ لها أن تتدلل عليهما، والتي أسهرتهما بقلق كلما ارتفعت حرارتها أو سعلت قليلاً..

تساءلت ريم في أحد الأيام وهي جالسة قرب أمها "لماذا لازلتم تحتفظون بهذه الغرفة كما كانت؟.. أما كان من الأجدى استخدامها للصبيين؟"

قالت الأم "وكيف يمكنني ذلك؟.. لقد فقدتك في سن صغيرة جداً.. لكنني أبقيت تلك الغرفة لأشعر بوجودك معنا.. ولادتي لأخويك الصغيرين لم تمحُ ذكراك من قلوبنا بتاتاً.. ووجود الغرفة يذكرنا بك دائماً"

علقت ريم "ألم يكن من الأفضل نسيان مثل تلك الذكريات الحزينة؟"

ابتسمت الأم مجيبة "ومن قال إن ذكراك كانت حزينة؟.. رغم حزننا على فراقك، لكن الغرفة بهيئتها تلك تذكرنا بأيامنا السعيدة معك.. تذكرنا بتلك الطفلة التي أحببناها والتي لا نتمنى نسيانها بتاتاً.."

غالبت ريم رجفة شفتيها وهي تدير بصرها جانباً.. لم تكن تريد الاستسلام للبكاء، وهي التي اعتادته دائماً في الأيام التي فارقتهما فيها، إذا حسبنا أوقات يقظتها فقط.. كانت تريد أن يذكروها دائماً سعيدة مبتسمة.. لعلّ هذا يخفف من فراقها المحتوم لهم قليلاً..

وفي إحدى الليالي قرب منتصف الليل، عندما شعرت ريم ببدء الانتقال وبالرجفة تصيب جسدها، اعتدلت جالسة بتحفز وهي التي لم تكن قد ذاقت النوم بعد.. كانت تعلم أن هذا هو اليوم الموعود، لو كانت الأيام تسير بنفس السرعة في العالمين، وهذا جعلها متوترة بشكل لم تتصوره من قبل.. ألقت على والديها نظرة مطولة قبل نومهما محاولة الاحتفاظ بملامح تلك السعادة التي ذاقتها خلال سنواتها الأولى.. لم تجرؤ على توديعهما، لئلا تثير حزناً أكبر في نفسيهما، لكنها سمحت لنفسها باختلاس صورة من صور عائلتها الأحب لقلبها وأخفتها في ملابسها لكي لا تفقدها عند الانتقال للعالم الآخر..

وعندما شعرت بتلك التغيرات في جسدها، اعتدلت جالسة في سريرها وقلبها يخفق بشيء من القوة.. لأول مرة في حياتها

تشعر بسعادة ولهفة للعودة لذلك العالم.. ما الذي جرى لها؟.. أهذا لكونها من ذلك العالم في الأساس؟.. لا يمكن أن يكون هذا هو السبب بحال.. تراءت لها ملامح سليم ونظراته المتوترة على الدوام.. ثم تراءت لها ابتسامة سهم الواسعة وعيناه اللامعتان.. ورغماً عنها ابتسمت..

بدأت ترى جسدها يخفت ويصبح شفافاً بسرعة متلاحقة، فنظرت للغرفة من حولها نظرة أخيرة وهمست "أمي.. أبي.. سامحاني.. لقد أحببتكما حقاً، وأنا مدينة لكما لكل ما منحتماني إياه من سعادة.. سامحاني.."

ولم تكد تنهي قولها، حتى التمع ضوء مبهر في عينيها قبل أن تشعر بما يدفع جسدها بقوة قبل ترتطم أرضاً بشدة أفقدتها الوعي هذه المرة.. لا تدري كم طالت بها الغيبوبة، لكنها استيقظت وهي تشعر بدفء الشمس على بشرتها، وبنسمة هادئة تعبث بشعرها.. أدركت، قبل أن تفتح عينيها، أنها في تلك السهول ولا شك.. فنهضت مذعورة متذكرة ثورة الحيوانات التي ترافق عادة الانتقال عبر العوالم الموازية، لكنها عندما فتحت عينيها لم ترَ شيئاً غريباً حولها.. كانت في تلك السهول بالفعل، وقربها شجرة ظليلة تصدر أوراقها حفيفاً خفيفاً مع هبوب نسمة هادئة تتخللها.. بينما كان الصمت شبه تام من حولها..

تنهدت ريم وهي تتلمس رأسها حيث شعرت ببعض الألم، عندما سمعت صوت خطوات خافتة ولاحظت ظلاً يرتمي عليها، فرفعت بصرها لترى جسداً طويلاً يقف حائلاً بينها وبين الشمس.. ظلت تنظر لذلك الشخص بشيء من الدهشة وقد عجزت عن رؤية ملامحه بسبب وقوع الشمس خلفه، لكنها عندما سمعت الصوت المبتسم يقول "حمداً لله على عودتك يا فتاتي.."

أدركت هويته على الفور وهو يجثو قربها.. ولما ألقت الشمس أشعتها على وجهه تبينت ريم ملامحه أخيراً.. البشرة السمراء.. العينان البنيتان اللامعتان.. والابتسامة الواسعة التي تنعكس في عينيه بوضوح.. فهمست "سهم؟ ما الذي جاء بك إلى هذا الموقع؟"

مسح بعض التراب الذي عفّر وجهها وهو يجيب مبتسماً "جئت أنتظرك بالطبع.. ماذا ظننت؟.."

ظلت تنظر لملامحه دون أن تملك إجابة لذلك، فما يغمرها به من انفعالات ومشاعر أكبر من قدرتها على الاستيعاب.. وقد كان، منذ عرفته، انفعالياً بشدة..

وجدته فجأة يمسك وجهها بيديه بقوة وهو يتطلع في عينيها قائلاً بحزم "إياك أن تفكري بالرحيل مرة أخرى.. لن أسمح لك بذلك، أتفهمين؟"

ابتسمت ريم رغماً عنها، ثم بدأت دموعها تسيل على خديها بصمت.. ظل سهم ينظر لها مشدوهاً للحظة، ثم تجاوز صدمته وهو يمسح دموعها مغمغماً "أيتها الحمقاء.. لمَ تبكين؟"

همست خافضة وجهها "لأنني لم أبكِ عندما غادرت هذا العالم دون أن أراك.. لم أبكِ خوفاً من عدم عودتي إليك.. ادخرت

هذه الدموع بصبر، حتى عدت إليك أخيراً.."

ونظرت له مضيفة بصوت متهدج "أن أذرفها الآن وأنت قربي أهون عليّ من أن أذرفها وحيدة في عالم بعيد.."

لمس سهم خصلات شعرها وهو يتمتم "لا يحق لك ذلك.. أنا من يريد البكاء الآن.."

ابتسمت ريم رغم دموعها وهي تتساءل "وهل ستفعل؟"

أجاب سهم رافعاً حاجباً "ليس وأنت أمامي بالطبع.. ما زلت أحتفظ بكبريائي كرجل.."

ضحكت ريم وهي تعلق "ما زلت متشبثاً برجولتك هذه؟.. تبدو فخوراً وأنت تقولها الآن.."

غمغم سهم وهو يحك أنفه "ليس الأمر كما تتخيلين.."

ابتسمت ريم ابتسامة واسعة حتى بانت غمازتيها، ثم نهضت نافضة ملابسها وهي تتلفت في السهول من حولها.. لم تبدُ لها السهول موحشة كما بدا لها أول مرة.. بدت مألوفة جداً، بل وتجرؤ على القول إنها تراها منظراً بديعاً، بوجود سهم طبعاً فهو يمنحها الأمان لتستمتع بمنظر كهذا..

نظرت لسهم متسائلة "كم دام غيابي عن الوعي؟.. ألم تواجه أي ثورة من الحيوانات؟"

أجاب سهم وهو يمسك يدها "غبتِ عن الوعي ما يقارب الساعة في الواقع، حتى أصابني الملل.. لم يكن هناك ما يسليني إلا أسد وحيد حاول الهجوم علينا.. لكنه أصيب بطلقة من سلاحي ففضّل المغادرة على مواجهة خصم شرس مثلي.."

ابتسمت ريم وهي تلاحظ السلاح المعلق على كتفه، ثم شدّت على يده بيدها وقالت "يجب أن أذهب لأرى سليم.. لابد أنه ينتظرني.."

فقال سهم "إنه في القرية مع يعقوب والبقية.. فضّلنا العودة إليها على البقاء في أنكاريا.."

ثم أضاف مغمغماً "هذا الرجل قضى حياته كلها في هذا العالم ينتظرك.. وليس الأمر مجازاً.."

ابتسمت ريم دون تعليق.. ربما هي مدينة لسليم بذلك بالفعل..

وفي القرية، بعد أن عاد لها القرويون مع استقرار الأمور وزوال خلافهم مع الغرباء، اتجهت ريم من فورها نحو منزل سليم.. كانت القرية لا تزال بحاجة لترميم كبير.. لا تزال تبدو بائسة الحال كما كانت في السابق، لكن هذا لم يقلق ريم كما حدث في المرة الأولى..

وعندما دخلت ريم منزل سليم القديم، والذي بقي متهدماً في أجزاء عديدة منه وبقي بلا باب، ظلت تدور ببصرها فيه محاولة تذكر انفعالاتها عندما استيقظت فيه لأول مرة.. كم زمناً مر منذ ذلك الحين؟.. انتبهت لوجود سليم في جانب المكان منحنياً على طاولة جانبية منشغلاً بشيء ما باهتمام تام.. فابتسمت ريم وتقدمت لتقف قربه متأملة ما يفعله دون أن ينتبه لها، ولما طال صمته قالت "لقد عدت.."

قفز سليم جانباً للمفاجأة، ولما رأى ملامحها المبتسمة قال رافعاً حاجبيه "ريم؟.. متى عدت؟"

اتسعت ابتسامتها قائلة "قبل قليل.. وجئت لأراك على الفور، لكنك لم تلحظ وجودي بتاتاً.."

فابتسم وهو يضع يده على رأسها متمتماً "حمداً لله على عودتك سالمة يا ريم.."

رفعت ريم حاجبيها بشيء من التعجب وهي تقول "ريم....؟؟! ليس هذا ما اتفقنا عليه.."

تحولت ابتسامة سليم إلى ضحكة وهو يقول "مرحباً بك يا ابنتي.. أأنت راضية الآن؟"

ابتسمت ريم وهي تدير بصرها فيما حولها مغمغمة "وكيف لا أكون كذلك.."

ولما عادت ببصرها إليه، وجدته يتأملها بصمت.. ثم قال لها "ألستِ نادمة على العودة؟"

تساءلت بدورها "أتشعر بضيق لوجودي معكم؟"

قال بسرعة "بتاتاً.. وأنتِ تعلمين هذا.."

فقالت "إذن لماذا تسأل عن أمر وأنت تعلم إجابته ولاشك.."

ثم قالت "سأذهب لرؤية أم سهم.. لم أرها منذ غادرتُ القرية آخر مرة، وأنا مدينة لها بالكثير.."

ثم عادت ببصرها لسليم مضيفة "ففي تلك الأيام التي بدوتَ فيها أنت كشخص مجنون، كانت هي الوحيدة التي منحتني الطمأنينة وراحة البال.."

ضحك سليم معلقاً "أتمنى أن تكوني عذرتِ تصرفاتي الآن.."

ثم تساءل "وأين سهم؟ ألم يذهب لملاقاتك؟"

أجابت مشيرة للخارج "إنه يتلقى تقريعاً من يعقوب على قضائه الليلة الماضية وحيداً في السهول.. فمع انتقالي، تغدو ثورة الحيوانات أمراً متوقعاً وخطيراً على شخص وحيد.."

فقال سليم بابتسامة "لابد أنه خشي عودتك وحيدة في تلك السهول الخطرة، لذلك تعجّل الرحيل رغم اعتراض الجميع.."

قالت ريم بسعادة ظاهرة "وأنا شاكرة له ذلك.."

ثم غادرت دون إبطاء، بينما حك سليم رأسه مغمغماً "والآن ماذا؟.. من يصدق أن كل شيء قد انتهي؟.."

****

في اليوم التالي، ومع أول شعاع ضعيف أرسلته الشمس من الأفق المظلم، بانت تفاصيل الأشجار التي تنتشر بأحجام مختلفة في تلك السهول التي تغطي مساحات شاسعة لا يكاد البصر يحيط بها.. وبدأ الضباب المسيطر على المكان يرتفع وتخفت كثافته بسرعة بعد أن صرعته الأشعة الدافئة.. ومن موقع بعيد، صدحت زقزقات عصافير وهي تشق السماء بحثاً عن طعام في بدايات هذا النهار..

وقف سليم قرب السور الحجري في الموقع المحاذي للجبل الذي يشكل أحد زوايا القرية، واستنشق الهواء الطري الذي يعبق بروائح الطبيعة البكر التي لم يلوّثها البشر كما كان الحال في عالمه.. رغم الخوف والقلق الدائمين اللذان استعمراه طوال السنين الماضية، فإن سليم لا ينكر أنها كانت أجمل سنوات عاشها في حياته.. خالية من القيود.. خالية من الالتزامات.. خالية من القلق من المستقبل المجهول..

لم يعرف كم طال به الوقت وهو صامت، حتى سمع صوتاً خافتاً بجواره يقول "ابتسامة مريبة.."

استدار نحو الصوت وهو يقول بابتسامة متسعة "حقاً؟ لا ألومك على ذلك أبداً.."

وقفت ريم جواره تستنشق الهواء للحظات، ثم غمغمت "أتصدق أنني كنت سأشتاق لرؤية هذه السهول لو غادرت للعالم الآخر؟ رغم أنني قضيت أياماً وشهوراً أتمنى مغادرة هذا العالم، لكن الآن أشعر أنني لا أمانع لو قضيتُ ما تبقى من عمري في مثل هذا المكان.."

نظر سليم للمنظر الشاسع أمامه وهو يغمغم "هذا كان شعوري منذ وطأت قدماي هذه الأرض.."

لم تعلق ريم على قوله، فنظر لها سليم متفحصاً وتساءل "ما الذي ستفعلينه الآن؟..هل تنوين العودة لأنكاريا؟ قد يحاول تولاد استبقاءك ومنعك من العودة للقرية.."

ابتسمت ريم قائلة "لا تقلق.. لقد تعلّم تولاد أنه لا يستطيع إجباري على شيء.. ومهما فعل، فيمكنني التعايش معه دون خلافات.. أما تيمار، فهو شخص لطيف حقاً رغم أنه يحاول إقناعي بالعكس دائماً.."

لم يضحك سليم لدعابتها وهو يقول "لكن حقاً.. ما الذي دعاك للعودة لهذا العالم؟.. عندما شاهدت إصرارك على العودة لوالديك، ظننت أنك حقاً سترفضين العودة إلينا.. وستفضّلين العيش في ذلك العالم الذي ربيت فيه.."

هزت كتفيها مجيبة "أسباب كثيرة.. ربما كان أهمها أنني بدأت أشعر بالغربة هناك.. صدق أو لا تصدق، بعد مرور كل هذا الوقت هنا، وبعد كل ما جرى، أصبحت غريبة تماماً عن ذلك العالم وعن أبي وأمي وكل من أنتمي إليه.. أصبحتم أنتم أقرب إليّ منهم.. ويكفي أنني رأيت السعادة تحلق في ذلك المنزل، عندها استطعت الرحيل عنهم دون ندم.."

ربت سليم على كتفها قائلاً "ونحن كنا سنفتقد وجودك معنا كثيراً.. عسى ألا تندمي على قرارك هذا أبداً.."

ابتسمت ريم معلقة "قطعاً لن أندم على هذا.."

نظر سليم خلف كتفها مضيفاً "ها هو سبب آخر من أسبابك يقترب منا بشكل حثيث.."

التفتت ريم لترى سهم يقترب منهما بنشاط، ولما رآهما ينظران إليه توقف قائلاً "ما الأمر؟"

أطلقت ريم ضحكة صغيرة وهي تعود ببصرها للأفق.. بينما علق سليم "لا شيء.. كنت أتأمل طلعتك البهية وأحسد نفسي على ذلك.."

قطب سهم قائلاً "ما هذا؟ أنتما تسخران مني.."

لم يعلق سليم وهو يشارك ريم تأمل الأفق الذي اصطبغ بحمرة واضحة، بينما وقف سهم قربهما ونظر إليهما متسائلاً "ما الذي تراقبانه؟"

التفتت ريم إليه معلقة "ألا يمكنك الصمت قليلاً؟.. أنت تفسد جمال هذا الصباح"

نظر لها باستنكار صائحاً "أنا؟ لقد كنتما تتحدثان قبل قليل دون اعتراض.. فلماذا عليّ أنا أن أصمت؟"

مد سليم يده وعبث بشعر سهم قائلاً "لقد كبرت وأصبحت ضخم الجسد، لكن عقلك ما يزال صغيراً كعقل طفل.."

ابتعد سهم وهو يسرع ليعدل شعره ويقول باعتراض "ما الذي تظن نفسك فاعله أيها العجوز؟ ما فتئ الجميع يطلقون عليّ لقب طفل.. هذا مهين.."

ضحك سليم وهو يستدير ويغادر بصمت تاركاً سهم يسأل ريم بإلحاح "ما به؟ ما بكما اليوم؟"

ضحكت ريم بدورها مجيبة "لا شيء.. أنت منفعل أكثر من اللازم اليوم.."

فقال سهم مقطباً "إن لم تخبريني بما جري بينكما هذا الصباح فسأرميك من فوق السور"

رفعت ريم حاجبيها قائلة "حقاً؟ لست تجرؤ.."

تقدم سهم خطوتين نحوها وهو يقول بابتسامة جانبية "تذكري أنني قد فعلت ذلك سابقاً في أنكاريا.. أم أنك نسيت؟"

قفزت ريم متراجعة خطوات وهي تنظر له بتحفز.. لكن سهم توقف فجأة وهو ينحني ليلتقط شيئاً سقط منها أرضاً.. ولما دققت ريم البصر رأت في يده تلك الصورة التي استولت عليها من عالمها السابق.. كانت الصورة لها وهي تضحك بسعادة بحيث بدت غمازتيها وبدت حمرة خفيفة على خديها، تحيط أباها بذراعيها، بينما أحاطتها الأم بدورها بذراعيها وكلاهما يبتسمان بسعادة..

نظر سهم للصورة مطولاً فيما ريم تقترب منه قائلة "أعدها إليّ.."

تساءل سهم "هل سرقتها من منزلك السابق؟"

عقدت حاجبيها قائلة "ليست سرقة.. أردت الاحتفاظ بها لكيلا أنساهما بتاتاً.."

فعاد سهم ببصره إلى الصورة وهو يرفعها بعيداً عن مرمى يدي ريم قائلاً "لابد أنها ترجع لوقت قريب من بدء انتقالك لعالمنا.. فالصورة تشبه الفتاة التي رأيتها ذلك اليوم وسط السهول، وإن كنتِ في هذه الصورة لا تحملين نظرة الفزع الدائم التي كانت في عينيك أغلب الأوقات.."

حاولت ريم استعادة الصورة باستماتة وهي تقول بحنق "أعدها لي.."

فقال سهم "محال.. سأحتفظ بها معي، لأنها تذكرني بالطفلة التي كنتِها منذ أمد قريب.."

اتسعت عينا ريم باستنكار، ثم صاحت "لا يحق لك ذلك.."

تقدم منها سهم خطوة قائلاً وابتسامة تتسلل لشفتيه "يمكنك أن تحصلي عليها مجدداً عندما يضمّنا بيت واحد.. عندها،

يمكننا نحن الاثنان أن نحتفظ بها معاً.."

تراجعت ريم خطوتين وهي تهتف ووجهها يشتعل احمراراً "محال.."

فمط سهم شفتيه وهو يقول "لا بأس.. إذن سيطول انتظارك.."

وابتعد وهو يدسّ الصورة في جيبه، فصاحت وهي تتبعه بحنق "لا يحق لك ذلك.. أعدها.."

وركضت خلفه محاولة استعادة الصورة دون فائدة وصياحها يبدد سكون الصباح، دون أن ينتبه أيهما لذلك العصفور الرمادي الصغير ذو الصدر الأحمر والذي حلّ في موقعهما السابق متلفتاً حوله بحثاً عما يأكله.. وصدح بغناء مميز ردده الجبل القريب بشكل خافت، قبل أن يفرد جناحيه ويحلق والرياح تحمله عالياً وسط السماء التي شقتها أشعة الشمس وأكسبتها لوناً أزرق زاهياً..

ربما كان هذا صباحاً مختلفاً..

يحمل بدايات جديدة..

وآمال جديدة..

وأحلام بغدٍ أفضل للجميع..

****

« النـــهـــايـــة »